النّص المؤسّس ومجتمعه

THE FOUNDED TEXT AND ITS SOCIETY

www.muhammadanism.org
July 27, 2007
Arabic

خليل عبد الكريم

KHALĪL ‘ABD-UL- KARĪM

السفر الثاني

SECOND VOLUME

النص المؤسّس ومجتمعه

الكتاب: النص المؤسّس ومجتمعه
المؤلف: خليل عبد الكريم
الناشر: دار مصر المحروسة
الطبعة الثانية: ٢٠٠٢
المدير العام: خالد زغلول
المستشار الفني: عمر الفيومي
مدير النشر والتوزيع: يحيى إسماعيل
الغلاف: عمر الفيومي
رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٣٥/ ٢٠٠٢

خليل عبد الكريم

النّص المؤسّس ومجتمعه

السفر الثاني

الطبعة الثانية
٢٠٠٢

[Blank Page]

الباب الأوّل

آيـــات التّربيـــة

الفصل الأوّل

التّربيــة الخلقيــّة

[Blank Page]

١ ــ محاربة الشح:

عندما نزح تباع (سيد ولد آدم) من مكة إلى يثرب فإن غالبيتهم كما ذكرنا في السفر الأول تفتقر إلى المال وليست لديهم صنعة أو حرفة أو عمالة سوى التجارة التي لا قــوام لهــا إلاّ رأس المال وبينهم عدد ملحوظ من الحلفاء والعبدان (الأرقاء) والموالي ومن الذين ينتمــون إلــى قــاع المجتمع.. وصفور اليدين من النشب (المال) ينسحب أيضاً على الأعراب الآخرين، إذ إنهــم بعــد دخولهم الإسلام فمن المحتم عليهم. في بديّ الأمر. النزوح إلى القريــة ذات الحــرتين حيــث (لا إيمان لمن لا هجرة له). وبعد حين تغير الحكم (لا هجرة بعد فتح مكة). وبينهما ظهر مبدأ (هجرة البادي) أي اعتبار قاطني البوادي نازحين (مهاجرين). إن تبديل الأحكــام فــي مســألة النــزوح (الهجرة) مرده إلى حوجة دولة قريش التي أقيمت في بلدة بني قيلة ل الرجال. ففي المبتدأ افتقرت إلى عسكر ينخرطون في السرايا والغزوات وجماعات التصفية الجسدية. ومن ثم حتم لازم علــى من يعتنق الإسلام أن يهرع إلى قاعدة الدولة الوليد، ولما طفقت تتضلع مــن الأجنــاد وضــاقت جنبات يثرب بهم نسخ قيد النزوح ك إشارة على الإيمان وغدا البادي المسلم مهاجراً مثله كالــذي شد حاله إليها.

ثم بعد فتح الفتوح. (فتح مكة). والانتصار على أئمة الكفر في عقــر دارهــم وصــيرورة (المنصور بالرعب مسيرة شهر) حاكم الجزيرة العربية حرم النزوح (الهجرة).

ثم نعود إلى سياقة ال تنقير:

أولئك العربان بداهة فقراء محاويج لا يملك الواحد منهم شروى نقير.

إذن عجّت يثرب ب أعداد النازحين تفوق طاقة سكانها الأصليين = الأوس والخزرج.

وهؤلاء النازحون تلزم إعاشتهم من كل الأرجاء:

المسكن ــ الطعام بل والشراب (فلا لوجود ل أنهار هناك) والعمل والملبس الخ.

* * *

والحق أن بني قيلة لم يقصروا وأبدوا كرماً وشهامة وبذلوا الكثير، بيد أن العــبء فــادح والحمل ثقيل والنفوس جبلت على الشح وفطرت على حب المال خاصة إذا أدركــت أن العطــاء سيطول أمده والبذل سوف يستمر والمنح لا تلوح له نهاية.

طفق الأوس والخزرج وإذا تحرينا الدقة الموسرون منهم يغلون أيديهم حتى بعد صــدور فريضة الزكاة التي شرعت خصيصا لذلك[1] أخذوا يلتفون حولها ف لجأوا إلى حيلة معروفة هــي إخراج أردأ المال وأرذل الأشياء وأخس الأنواع.

إن هذا المسلك أزعج (الظفور) إذ سيفاقم العبء الملقى على عاتقه وهو رعاية المنــازيح وتحديدا ذوي الخلة منهم والسهر على تدبير ولو الحد الأدنى مما يصلح شئونهم.

وكما طالع القارئ الفطن اللبيب ــ في السفر الأول ــ فإن الذكر الحكيم لا يتــرك (ســعد الخلائق) يعاني الآلام النفسية الباهظة ف تهل ك أنوار الفجر الرائعة الآية السابعة والستون بعــد المائتين من سورة البقرة الزهراء، فهي من ناحية تأمر تبعه بضرورة إخــراج الطيــب ــ وهــو وصف جامع لكل خير. من كسبهم وتحذرهم من تقديم الخبيث.

ومن رجا آخر فيها تقويم لمنقصة الشح وقضاء على رذيلة البخل

---

(١) في السنة الثانية من النزوح (الهجرة)، واعتبرت ركناً من أركان الإسلام وفرض عين، أي أن تبع (الماجــد) ظلوا خمسة عشر عاماً لا يزكون بل ترك إخراج الصدقة ل شعورهم وأريحيتهم وسخاء نفوســهم، دون إلــزام، وذلك طبيعي بل بديهي إذ لا لزوم لها (الزكاة) في بكة.
ولعل إلقاء الضوء على هذه الحقيقة يؤكد صحة المبدأ أو القاعدة التي ننادي بها وهي إلزامية الحفر عــن الجــذر التاريخي لكل تكليف شرعي (ديني) لأنه يضيء حواف الفرض أو الركن ويساعد ــ في حالة الضرورة ــ علــى تطبيقه على الوجه الأمثل ومعرفة القيمة المبتغاة منه ومن ثم ف لا ضرورة للتمسك بحرفياته.ا.هـ.

وحرب على صفة الكزازة وطالما ردد عليهم: «المؤمن غرّ كريم».[١]

* * *

ولنوثق سبب هلّ هذه الآية المجيدة من مصنفات «أسباب النزول» ثـم نردفهـا ب كتـب التفسير (أسباب النزول):

(روى الحاكم والترمذي وابن ماجة وغيرهم عن البراء قال: نزلت هذه الآية «٦٧ البقرة» فينا معشر الأنصار: كنا أصحاب نخل وكان الرجل يأتي من نخلة على قدر كثرته وقلتـه وكـان الناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل ب القنو فيه الصيص والحشف وب القنو قـد انكسـر فيعلقه ف أنزل الله «يا أيها الذين آمنوا. الآية).[٢]

(وعن جابر قال أمر النبي ــ ص ــ بزكاة الفطر بصاع تمر ف جاء رجل بتمـر رديء فأنزل القرآن:

(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم... «الآية ٢٦٧ البقرة).[٣]

(وعن البراء قال: نزلت هذه الآية في الأنصار: كانت تخرج إذا كان جـذاذ النخـل مـن حيطانها أقناء من التمر والبسر، فيعلقونها على حبلين بين أسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ ف يأكل منه فقراء المهاجرين، وكان الرجل يعمد ف يخرج قنو الحشف وهو يظن أنه جائز عنه فـي كثرة ما يوضع في الأقناء، ف نزل فيمن فعل ذلك:

«ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون» الآية ٢٦٧ البقرة.

يعني القنو الذي فيه حشف ولو أهدى إليكم ما قبلتموه).[٤]

* * *

البراء بن عازب وجابر بن عبد الله اللذان نقلا هذه الأخبار من

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وهو حديث حسن.
(٢) (لباب النقول) ل السيوطي، ص ٣٥.
(٣) (أسباب النزول) ل الواحدي النيسابوري ص ٥٥/ ٥١.
(٤) (أسباب النزول) ل الواحدي ص ٥٦، سابق.
(المقبول في أسباب النزول) ل أبي عمر نادي الأزهري، ١٤٥/ ١٤٦ سابق.

بني قيلة ومن مشاهير الصحبة، وحملت دواوين السنة المحمدية المشرفة العديد من أحاديثها.

في حق الأول قاضي القضاة وشيخ الإسلام الحافظ بن حجر العسقلاني (أنـــه روى عـــن النبي ــ ص ــ جملة من الأحاديث وعن أبيه وعن أبي بكر وعمر وغيرهما وروى عنه عدد من الصحابة).[١]

أما الآخر نعني جابر بن عبد الله فهو «من المكثرين الحفاظ للسنن».[٢]

وترتيباً عليه فمن غير المعقول أن يلصقا بقومهما هذه المعايب وينسبا إليهم هذه النقـــائص ويلطّا بهم هذه المذام.

علاوة على أن مظنه الكذب في حقهما منتفية ب الكلية فهما من خيار بني قيلة بـــل مـــن فضلاء الصحاب عامة.

إذن أغنياء بني قيلة أو حتى المتوسطون منهم الذين تجب عليهم الزكاة عمدوا إلى التحلـــل من فرضيتها ب تقديم التافه وإعطاء الخسيس ومنح الرَذّل، وفـــي ذات الوقـــت ضـــنّوا بالطيـــب وحجنوا النفيس وبخلوا ب الحسن.

بل إن كزارة اليدين طالت القادرين من المنازيح (المهاجرين) ف حذوا حذو المليئين مـــن اليثاربة المسلمين ونافسوهم في هذا المضمار:

عن ابن عباس قال: كان أصحاب رســـول الله ــ ص ــ يشـــترون الطعـــام الـــرخيص ويتصدقون ف أنزل الله:

«يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم» الآية ٢٦٧ من سورة البقرة.[٣]

فهذا هو حبر الأمة وترجمان القرآن ذكر «كان أصحاب رسول

---

(١) (الإصابة في تمييز الصحابة) المجلد الأول ــ ص ٤١٦ ــ مصدر سابق.
(٢) (الاستيعاب في معرفة الصحاب) ل أبي عمر يوسف بن عبد البر ــ المجلد الأول ص ٢٢٠ ــ تحقيق علـــى محمد البجاوي ــ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م دار الجيل ــ بيروت.
(٣) (المقبول) لأبي عمر نادي الأزهري ــ ص ١٤٧ مرجع سابق.
(لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ٣٥ مصدر سابق.

الله ﷺ» وهذا اللقب: أصحاب أو صحبة أو صحاب يشمل الفرقتين: النازحين واليثاربة. ولو أن الأمر اقتصر على الأخيرين لما أعجز عبد الله بن عباس أن يذكرهم منفردين.

وليس ال «حبر» هو الذي يلقي الكلام على عواهنه ولا يفرّق بين الاثنين، ولا يدرك أن عبارة «أصحاب رسول الله ﷺ» تشمل الطائفتين، بل إن عدداً من أكابر علماء أمة لا إله إلا الله ذهب إلى أن كلمة أصحاب وصحابة أو صحبة تشمل أيضاً الجن الذي آمن ب «الأعظم» واجتمع به ومنهم من يرى أن عبد الله وابن أمته عيسى ابن الصديقة مريم منهم لأنه اجتمع به كما ورد في قصة الإسراء والمعراج، وأنه آخر الصحابة موتاً.

وهذا الحديث أخرجه ابن حاتم وابن مردويه والضياء في المختار مما يعلي من قيمته ويؤكد ثمانته ويوثق نفاسته.

والحبر لم يذكر التمر وما إليه بل قال إنهم يشترون الطعام الرخيص. والأقرب إلى المنطق أن الذين يفعلونه هم المنازيح.. وهي صورة بالغة الفحاشة، شديدة القبح، وسيعة الشناعة!!

إذ كيف قبل النازح (المهاجر) الذي أغناه الله من فضله أن يفعل ذلك ب أخيه المسلم الذي هاجر معه وبعد أن رأى بعينيه صنيع عدد لا بأس به من الأثاربة الأعراب، حتى إن بعضهم عرض على أخيه النازح (المهاجر) أن يطلق إحدى زوجاته ليبني بها كيما يجنبه أهوال العزوبة، خاصة وهم يعرفون عن بعضهم البعض عرامة طقس ملامسة النسون وأهميته لديهم[1]..

هذه الصورة العميقة الدلالة التي رسمها ترجمان القرآن ابن عباس تؤكد ما أوضحناه في كتابنا «شدو الربابة» أن أولئك الصحاب

---

(١) مسألة عرض عدد من بني قيلة على إخوانهم من النزحة واحدة من زوجاتهم عليهم تحتاج إلى حفرية أنثريولوجية لمعرفة جذرها التاريخي لأن بعض القبائل في الشعوب القديمة ــ وربما ما زال مستمراً حتى اليوم، يفعله تحت بند تبادل الزوجات أو كنوع من المبالغة في إكرام الضيف، وفي أحيان ثالثة اتقاء لشر الطارق الذي دأبوا على التوجس منه شراً. ا.هـ.

بشر من الناس، فيهم كل ما يعتور بني آدم من ضعف ونقص وخور[١] وأن الصـــورة المبرقشـــة المزركشة التي ترسمها لهم أجواق[٢]

الطبل والزمر صورة غير صحيحة بالمرة.

* * *

ب ــ (التفاسير):

نبدأ ب شيخ المفسرين أبي جعفر بن جرير المشهور بالطبري: (عن البراء بـــن عـــازب قال: كانوا يجيئون في الصدقة بأردأ تمرهم وأردأ طعامهم فنزلت: «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مـــن طيبات ما كسبتم» ٢٦٧ البقرة.[٣]

في هذا الحديث ميز البراء بن عازب بين من يأتون ب أردأ التمر وهم بنـــو قيلـــة قومـــه وبين من يطرحون أسوأ الطعام وقصد بهم النازحين من قبيلة سخينة (قريش) وغيرهم من أفنـــاء القبائل.

وهذا الأثر الذي حمله إلينا مقدم تفاسير القرآن العظيم ب لا مدافع يعاضد ما جـــاء علـــى لسان ابن عم (المصطفى) وحبر أمته، والذي سبق أن زبرناه (كتبناه)...

وفي خبر آخر نفحنا به الطبري أيضاً:

«عن الحسن: قال كان الرجل يتصدق برذالة مالـــه فنزلـــت «ولا تيممـــوا الخبيـــث...» الآية).[٤]

نجد أن كلمة (ماله) مطلقة فلم تخصص نوعه أهو تمر أم سواه.

أما القمي النيسابوري ف يورد كذلك خبراً عن الحبر عبد الله بن

---

(١) سوف نرى فيما يستجد أن عدداً من كبارهم فر في ميدان القتال وأطلق ساقيه للريح وترك (أول مـــن تنشـــق عنه الأرض) يواجه العدو بشجاعة نادرة. ا. هـ.

(٢) الجوق: الجماعة من الناس والجمع أجواق «المعجم الوجيز»

(٣) (تفسير الطبري ــ جامع البيان عن تأويل القرآن) ل أبي جعفر محمد بن جرير الطبري. الجزء الخـــامس ص ٥٦١ ــ تحقيق ومراجعة محمود وأحمد ولدي محمد محمد شاكر. الطبعة الثانية ١٩٧١م سلسلة تراث الإسلام ــ دار المعارف ب مصر..

(٤) (تفسير الطبري) الخامس ــ ص ٥٦٢ ــ مصدر سابق.

العباس يوثق ما ذهبنا إليه أن الخبر المروي عنه سابقا، إنما قصد به النازحين على وجه الخصوص، لأنه في الخبر كشف عن هوية المتصدق البخيل أو المزكى الشحيح وذلك ب إيضاح ما جاء به أي ما قدمه:

عن ابن عباس:

(جاء رجل ذات يوم بعذق حشف فوضعه في الصدقة ل أهل الصُفة على حبل بين أسطوانتين في مسجد رسول الله ــ ص ــ فقال النبي ــ ص ــ بئسما صنع صاحب هذا، فنزلت الآية ٢٦٧ من سورة البقرة) وفي الهامش أورد المحققون: ذكره القرطبي في تفسيره وقال رواه البراء وخرّجه الترمذي في صحيحه وصححه).[١]

فـَ صاحب هذا العذق الحشف من اليسير أن ننقه أنه أحد المنازيح.

وأن ما عقّب به (أول من يفيق من الصعقة) على هذا الشح الدنيء (بئسما صنع صاحب هذا) يدلنا على اتساع دائرة الألم النفسي الذي كابده من جراء مثل هذه الأفعال الذميمة.

* * *

أما «أهل الصُفّة» الذين ورد ذكرهم ب الأثر المرقوم ب عاليه فهم (من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوي إليه ــ أما الصُفّة فهي مكان في آخر مسجد النبي ــ ص ــ في شماليّ المسجد).[٢]

ودأب (الصادق) على رفدهم ب ما تصل إليه يداه الشريفتان وعلى تفقد أحوالهم وعلى حثّ الموسرين من تبعه على برهم وحرص على استضافة عدد منهم على غداء أو عشاء إذا ما واتته الفرصة،

---

(١) (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) ل القمي النيسابوري، الجزء الثاني ص ٥٩٩ تحقيق حمزة النشرتي وآخرين ــ د. ت. وغير مذكور اسم الناشر.
(٢) (الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية) د. فاطمة محجوب ــ المجلد السادس ــ ٢١٦ ــ د. ت. دار الغد العربي ب مصر.

ونظراً لأن مستقرهم ومقامهم ب المسجد فإن العادة قد جرت على تعليق حبل أو أكثـــر ينضـــوي على التمور ل يطعم منهم أولئك المعوزون. ومن هنا فعندما يهيمن على المتصـــدق أو المزكـــي طبعه الدنيء فإن ما يأتي به ويعلقه بين الأسطوانات (العواميد) يغلب عليه الشـــيص والجعـــدور والحبق والحشف.[1]

كما أن هذه الأفعال الحقيرة مضادة للخط الذي يرسمه وهو العناية الفائقـــة ب النـــازحين على وجه الخصوص لأنهم جنوده الأوفياء الذين ب دونهم لن يتيسر له إفشاء الديانة التي صـــدع بها والدولة التي يضع بصبر عجيب لبنة فوق لبنة في بنائها في قرية الأثاربة.

وهذا مشهد من عشرات غيره من التي حركت بواعث الأسى الدفين في صدره الكريم.

(أخرج الواحدي والحاكم عن جابر ــ رضى الله ــ قال:

أمر النبي ﷺ ب زكاة الفطر، بصاع من تمر، فجاء رجل بتمر رديء، فقال النبـــي ﷺ ل عبد الله بن رواحة: لا تخرص من هذا التمر، فنزل القرآن:

«يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيممـــوا الخبيث منه تنفقون»).[2]

واللوحة السابقة ليست هي الفاذة أو اليتمية في معرض اللؤم والخساسة والدناءة الذي أقامه بعض الصحاب وأغلبهم من الأثاربة بل إن (أبا القاسم) يفاجأ كل يوم ب أنداد لها أبشع أيأة (هيئة) وأقبح صورة وأشنع سحنة.

---

(١) هي أردأ التمور وأخسها وأحطها قيمة التي يعافها الإنسان ويقدمها علفاً لبُهمه وهذه السلوكيات المنحطة تثيـــر ثائرة (الصالح) فهو في ذاته مضرب المثل في الكرم والقدوة الحسنة في السخاء والأسوة الرفيعة في البذل.

(٢) (المقبول) ــ ل أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ١٤٢، وأورد مصنفه أن الحاكم النيســـابوري صـــححه فـــي المستدرك وأقره الذهبي ورواه الواحدي في الأسباب وعزاه السيوطي في ال (لباب). وقـــال عنـــه (المصـــنف لا السيوطي) إسناده صحيح.

(أخرج الحاكم من طريق الزهري عن أبي أمامة سهل عن أبيه قال:

أمر رسول الله ﷺ بصدقة، فجاء رجل من هذا النخل بكبائس، قال سفيان: يعني الشـيص، فقال رسول الله ﷺ من جاء بهذا؟ وكان لا يجيء أحد بشيء إلاّ نُسب إلى الذي جلبه.

فنزلت: «ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون».

قال: ونهى رسول الله ــ ص ــ عن الجعر، ولون الحبيق أن يؤخذا في الصدقة.

قال الزهري: لونان من تمر الصدقة).[1]

* * *

في دراسة سابقة ذكرنا أن اختيار موقع (الصفة) لم يجيء خبط عشواء وأن وجودهم فـي المسجد الشريف وبجوار حجرات (الطيب) ليس مصادفة بل أمر مدروس وخطة رسمت بليل وأن (أهل الصفة) ليسوا كما تصفهم الكتب التراثية مجموعة من المحاويج والمساكين والمعـوزين بـل هم في حقيقة الأمر بمثابة (الحرس الملكي) أو (الحرس الجمهوري) ل (سيد الخلق) فهـم بمثابـة الدرع الواقية التي تتلقى الطعنات لو فكر اليهود أو المنافقون أن يهاجموه في جنح الظلام أو فـي عماية الفجر (قبل بزوغه).

وهم في ذات الوقت الكتيبة الأولى التي يمكن صَفّها على عجل عند سماع أول هيعة.

إن صورة (صاحب الدرجة الرفيعة) وتُبّاعه من المهاجرين التي يصورهم بها المحـدثون من كتاب السيرة المحمدية المشرفة الشريفة ــ خاصة في الفترة الأولى التي انتهت بانـدحار (ولا أقول هزيمة) أعدائهم في وقعة (الخندق) ــ بأنهم نعموا بالأمان والطمأنينة

---

(١) المرجع السابق ــ ص ــ ١٤٣ وأضاف الأزهري المصنف أو المصنف الأزهـري أن الحـاكم أورده فـي مستدركه وصححه وأقره الذهبي وأن الطبراني رواه في كبيره وابن أبي حاتم في تفسيره.

والسلام، صورة مزورة؛ لأن لهم أعداء أشداء سواء في داخل أثرب أم خارجها يطوون صدورهم على ضغينة شديدة وكراهية بالغة وحقد دفين:

منهم أولاد الأفاعي اليهود وعدد من بني قيلة ممن لم يدخل الإسلام أو من اعتنقــه عــن غش وختلان وخديعة، وهناك صناديد بني سخينة (قريش) والقبائل المحيطة.

وقد عرف عن (جد الحسنين) أنه (يحذر الناس ويحترس منهم.. ولكل حال عنده عتاد فهو العُدّة والشيء الحاضر المعد).[١]

وما دام الأمر كذلك فما زبرناه عن العلة الكامنة وراء اختيار شطر من المســجد ليغــدو مقراً «ل كتيبة أو سرية أو مجموعة (جوق) أهل الصُفّة قريب الاحتمال ويتســق مــع الظــرف التاريخي الذي مر على (ذي النسب العالي) وصحبه آن ذاك، ومما يؤيده أن عدداً منهم تولى مهام قتالية على درجة من الخطورة سواء في العهد المحمدي أو زمن خلفائه مــنهم ســعد بــن أبــي وقاص[٢] وهو قائد مشهور، وزيد بن الخطاب أخو العدوي عمر ثاني الخلفاء حامل راية المسلمين يوم

(١) (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار) ل الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي ٥٦٠/ ٦٣٨هـ. الجزء الأول ص ٦٤ تحقيق محمد مرسي الخولي الطبعة الأولى ١٩٧٢. دار الكتاب الجديد، القاهرة.

(٢) هذا السعد تحول من فقير يعيش على الشيص والجعدور والحشف إلى صاحب قصر في العقيق وهو أحد أميز أحياء يثرب (مات سعد في قصره بالعقيق).

(صفة الصفوة) ل ابن الجوزى ٥٠٨ ــ ٥٩٧ ــ ص ١٤٦ ــ تحقيق طه عبد الرءوف سعد ــ الطبعــة الأولــى ٢٠٠١م ــ دار الغد العربي ــ القاهرة.

وذلك بعد الغزو النهبوي الاستيطاني الاستنزافي الثقافي اللغوي الذي باشره أولئــك العربــان ضــد دول الجــوار الأرقى منهم حضارة.

وممن تحول من أهل الصفة إلى ثرى أمثل خبّاب بن الأرت بن جندلة، فقد بدأ حياته عبــداً ل أم أنمــار مقطعــة البظور واشتغل قيناً (حداداً) في مكة ثم عضوا في سرية أهل الصفة، يأكل التمر الحبيق، لكن بعد أن تدفقت عليــه الغنائم والأموال من عرق وجهد الفلاحين (يسمونهم: العلوج) في الشام والعراق ومصر وفارس، وشمال إفريقيــة غدا ابن الأرت يمتلك ثروة طائلة تعد بعشرات الألوف.

(عن وائل شقيق بن سلمة قال:

دخلنا على خباب بن الأرت في مرضه فقال: إن في هذا التابوت ثمانين ألف درهم...)

(صفوة الصفوة) المرجع السابق ص ١٧٠، ف سبحان مغير الأحوال!!!.

اليمامة، وهي من أخطار المعارك التي دارت بين جيوش التيمي عتيق ابن أبي قحافة أول خليفة وبين بني حنيفة بقيادة مسيلمة، ومنهم سالم مولى أبي حذيفة وهو أيضاً من حملة راية المسلمين في ذات الواقعة، ونكتفي بهؤلاء الثلاثة لأننا لسنا بصدد عمل إحصائية عن من تحول إلى قائد أو عسكري مرموق من جوق (أهل الصفة).

إذن أهل الصفة لهم وجهان:

ــ من فقراء النازحين (المهاجرين).

ــ سرية الحراسة والطوارئ ومفرخة القواد والأجناد المبرزين.

* * *

تكررت من الموسرين والمساتير وقائع غلّ اليد عن رفدهم ومدهم ب ما يصلح شأنهم ويقيم أودهم ويصلب عودهم، مما أدى (الرحمة المهداة ل الناس) وآذاه وأقلقه. وعهدنا ب الذكر الحكيم ألا يذره وحيداً يعاني الآلام النفسية، ومن رجا آخر من المستحيل ترك الأتباع الذين دخلوا حظيرة الإيمان على هذه الشاكلة الذميمة.

ف البخل نقيصة في حق الرجل مثل الجبانة والكذب وجماعها أخلاق رديئة يتعين استئصالها من شأفتها من نفوسهم ف أقبلت الآية ٢٦٧ من البقرة، مضيئة، متلألئة.

وإذ إننا ما زلنا نحايث كتب التفسير ف إننا نرقم الخبر الآتي:

(عن البراء قال: نزلت فينا، كنا أصحاب نخل وكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته فيأتي ب القنو فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصُفّة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع ضربه ب عصاه ف يسقط منه البسر والتمر فيأكل، وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي ب القنو فيه الحشف والشيص، ويأتي ب القنو قد انكسر ف يعلقه ف نزلت «ولا تيمموا... إلى آخر الآية».[1]

---

(١) (تفسير القرآن العظيم) ل ابن كثير ــ الأول ص ٤٧٤ المجلد الأول ــ تحقيق عبد العزيز غنيم وآخرين، د. ت. كتاب الشعب ــ ب مصر.

والذي نقدره أنه بعد هلّ هذه الآية المجيدة كف الصحاب عن بخلهم وأقلعوا عـن شـحهم واستقالوا من كزازتهم فرفدوا إخوانهم المحاويج وأعطوا أصـحابهم الفقـراء ومنحـوا جيـرانهم المساكين، وبذا ارتفعت عنهم الصفة الذميمة والخلة القبيحة، والسمة الكريهة.

فاطمأن (اللبيب) على فقراء المنازيح عامة وأهل الصفة (كتيبـة الحراسـة والطـوارئ) خاصة وبذا أثبت (الفرقان المبين) وقوفه السرمدي معه، كما أن عينيه لا تغفلان عـن المجتمـع: يداوي أمراضه ويعالج أدواءه ويصلح عيوبه ويقبل عثراته فهل يتاح له ذلك لو أنه ظهـر دفعـة واحدة كَ إسطير عبدة الطاغوت وإخوان الخنازير؟

٢ ـ أساليب متنوعة ل كف الصحب عن الجبانة

من البديهي أن نزبر أن صفة الشجاعة وخلة الإقدام وميسم الجسارة أمور من الحتم اللازم توافرها في أتباع «الظفور» لضرورة قهر القبائل على اعتناق الديانة التي بشر بها.

وسبق أكثر من مرة أن رقمنا أن هناك نصوصاً تأسيسية مقدسة صـريحة فـي حروفهـا ومعانيها على إلزامية أكراه العربان بالسيف كيما يتحولوا من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلـى الإيمان ومن الوثنية إلى الإسلام وهذا لا سوم فيه.

والبديهية الأخرى التي نخطها كارهين لزيادة التوضيح هي أن حمل شارة الديانة سواء ب اللسان أو حتى على الجباه (سيماهم في وجوههم) هو علامة الانضواء تحت راية دولة بني سخينة التي شرع (صاحب المحجة البيضاء) في إقامتها في قرية بني قيلة، حتى إنه مـن المسـتحيل أن نفصم بين دخول حظيرة الإسلام وإحناء القامة لِ الدولة القرشية، أي هناك تفاضل وتكامـل بـين الأمرين.

ذاك واقع تاريخي من العبث إنكاره أو المحاجة فيه.

ولعل حروب الصدقة (وهي غير حروب الردة) تضع في حجورنا

الدليل الدامغ عليه.

ف قد اعتبر التيمي عتيق بن أبي قحافة امتناع عدد من القبائل عن رفده أو مده ب أموال الصدقة خروجاً على الدين ومروقاً من الإيمان وطلاقاً ل الإسلام.

وصاح ب قالته المشهورة (والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة) والأولى، كما هـو معلـوم للعامة وللحامة أو للكافة قبل الخاصة، عماد الدين من تركها فقد هدمه، نعوذ ب الله منه.

أما الأخرى فقد رأى فيها أول خلفاء (خطيب الأمم) برهان الانقياد ل دولة قـريش التـي تربع على دست رئاستها ب كيفية غير متوقعة كما صرح خلفه العدوي (لقد كانت خلافة أبي بكر فلتة).

ومن ثم حارب مانعي الصدقة أو الزكاة بقسوة وشراسة، ومن أراد أن يطلع على الفظـائع التي ارتكبها قائده المخزومي ابن الوليد بن المغيرة ب أوامر صريحة منـه ف عليـه ب الجـزء الثالث من (تاريخ الطبري) وغيره من الكتب التراثية.

أما المؤرخون المحدثون ف يغرطشون (يتعامون أو يتعالون على الحـق) ويطوشـون[(١)] ويتجاوزون ولا ندري كيف تطاوعهم ضمائرهم العلمية؟

من المؤسف أن من بينهم جامعيين (= أساتذة/ أكاديميين).

إن من المفارقات الطريفة أنه بعد أقل من عقدين من الزمن وغِبّ تدفق الغنائم الأسطورية على حاضرة دولة بني سخينة التي نهبت من البلاد التي وطئوها ب سـنابك خيـولهم المبـرورة، أشار الخليفة الثالث الأموي عثمان بن عفان على القبائل ب توزيع الصـدقات (الزكـوات) علـى فقرائها ولا موجب ل نقلها إلى أثرب (= المدينة) هذا أمر بالغ الأهمية ولا يصـح العبـور عليـه بخفة وسطحية لأنه ينفح عدداً من

---

(١) العامة في مصر يقولون: يطنش.

الدوالْ منها:

(أ) أن رفع شعار الدين ل تبرير العنف السياسي للوصول إلى الحكم. أو السياسة العنيفة ل البقاء في الحكم، بدأ مبكراً = بعد أشهر قليلة من انتقال محمد إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً، وأن أول من سنه خليفته الأول:

التيمي عتيق، فقد برر حربه الشرسة ضد القبائل التي عارضت خلافته (تمثلت معارضتها في رفضها دفع الزكاة له) ب أنها فاصلت بين الركنين الأولين من العبادة: الصلاة والزكاة.

وبالمناسبة نحن نذهب إلى أن التحليلات الهشة المجانية التي طفحت بها عشرات الكتب والمقالات والأبحاث بأن الجذور التاريخية للإرهاب الذي مارسته منذ عقد ونصف عقد الجماعات التي نسبت نفسها للإسلام ترجع إلى الخوارج، قد جانبها (= التحليلات) الصواب، والنظرة التاريخية المعمقة تثبت أن أول من مارسه هو التيمي عتيق أو عتيق التيمي.

(ب) أن اثنين من كبار الصحابة ومن العشرة المبشرين ب الجنة ومن أعضاء مجلس الشورى ومن النجباء والأبدال... الخ. اختلفا في أمر الزكاة. وهي من الأركان الخمسة للإسلام. فأولهم رأى ضرورة توريدها أي نقلها ل مقر حاضرة الخلافة وأن الجزاء على المخالفة هو شن قتال ضروس تستباح فيه كل الحرمات بل المحرمات (ب ليّ رقاب النصوص التأسيسية المقدسة).

مثل الإلقاء من شواهق قمم الأجبل والتحريق ب النار والتعليق منكساً (= الرأس تحت والأرجل فوق) في البيار... الخ.

وثانيهم ذهب إلى العكس أي عدم توريد الزكوات/ الصدقات إلى يثرب ولا بأس من توزيعها في مضارب القبائل على المعوزين والمحاويج من أبنائها.

(ج) إن التجريد عند إصدار الفتاوي والأحكام خطأ مركب، إذ يتعين عدم إغفال الظـرف التاريخي الذي انبثق فيه النص (أصل أو مصدر) الفتوى أو الحكم وإلقـاء نظـرة شـاملة علـى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي واكبته، ف دولة بنى سخينة في بـديّ الأمـر أي في مفتتح خلافة التيمي: ماليتها مهزولة ومواردها نحيفة وخزانتها ضامرة خمصانة، فأفتى رأسها ب ضرورة دفع الزكاة/ الصدقة إلى حاضرتها (يثرب) بنقلها إليها.

وبعد أقل من عقدين من الزمان عندما تضلعت (الدولـة) مـن الأمـوال المنهوبـة مـن المستعمرات (مصر/ الشام/ العراق/ فارس/ شمال إفريقية) (حتى كادت معـدتها أن تتفـزر مـن كثرتها)، رأى إمامها (خليفتها) أنه لا مسوغ لحملها إلى عاصمتها (قرية ذات الحـرتين/ أثـرب) وأن على أشياخ القبائل تفريقها على المستحقين لها منهم.

إذن الظرف التاريخي هو الذي غاير بين الفتويين وفاصل بين النظرتين وباين الأولى عن الأخيرة، ومن ثم نخلص إلى أنه من الحتم اللازم ضرورة الإحاطة المستقصـية بكافـة ظـروف الفتوى أو الرأي أو الحكم.

* * *

ثم نرجع إلى سياقة التنقير:

إن ترسيخ الشجاعة والإقدام والجرأة والاقتحام في ذوات التبع لا محيص عنه وب القـدر نفسه رفع الجبانة وإزالة الخور والقضاء على الخوف ومحو الرعدة وكنس الرعشة من صدورهم وقلوبهم كلها حتم خالص وقضاء مبرم وحكم نافذ ب لا معوقات وبـدون منبطـات وإلا لا يتـاح للديانة أن تهيمن ولا ل الإسلام أن يسيطر ولا ل الإيمان أن تعلو راياته.

وفي الكفة المقابلة لا تتأسس قواعد الدولة ولا يرتفع بنيانها ولا ترفرف أعلامها.

في الضفة المواجهة:

حب الحياة أقوى الغرائز طراً والمحافظة عليها طبع مركوز في الأعماق، والحرص عليها وعدم التفريط فيها يولد مع الإنسان لا يفارقه.

وبين هذين الأمرين وجد (صاحب البراهين) نفسه الكريمة في منتصف المسافة.

بيد أن نصوص التأسيس بكل قداستها تراقب عن كثب وتعاين عن قرب وتلاحظ من أدنى مكان «وإذ سألك عبادي عني فإني قريب»، ١٨٦ البقرة، خاصة أن لذائذ الجنة مثل:

الحور العين/ الكواعب الأتراب/ المقصورات في الخيام/ اللاتي لم يطمثهن إنس ولا جان... الخ/ وأنهار الماء العذب والخمر/ واللبن السائغ والعسل المصفى/ والولدان المخلدون كأنهم اللؤلؤ المنثور.[١]

هذه اللذائذ لم تؤثر إلاّ على عدد محدود من الصحاب من ذوي الشحنات الإيمانية العالية، أو من الذين يشتعل في قلوبهم القلق الميتافيزقي من الموت، أو أولئك الذين تروعهم النهاية المحتومة وما يعقبها من مصير غامض مجهول لم يكشف عنه واحد من الذاهبين.

كلهم يرغبون أن يعثروا على الخلاص وعلى الفوز بالمكافآت بعده.

ورقمنا أن هؤلاء قلة من بيع التبع لأن أغلب التبع عاشوا أكثر أعمارهم وهم يعتنقون العقائد السابقة على الإسلام (يسمونها الجاهلية وهي تسمية أيديولوجية وسياسية ا.هـ) وعلم الاجتماع الديني يخبرنا أن من السذاجة تصور اختفاء العقائد السوابق سواء على مستوى الفرد أو المجتمع فور اعتناق عقيدة جديدة خاصة إذ لم يمض عليه سوى بضع سنين.

---

(١) كاتب معاصر أورد في أحد كتبه أن اللواط مباح في الجنة للرجال من أهلها، وقد التزمت مؤسسة شئون التقديس في مصر الصمت المطبق!!!

ومن أهم عقائد ذياك الإبان هو أن هذه الحياة الدنيا هي الحيوان وما عداها تخييل وتــوهم يفسره إقبالهم على الشهوات والمتع والأطايب والعبّ منها ل درجة الإسراف.

إذن جِماع الموقف استنفر معالجة دقيقة ومرنة وذكية.

ف الشدة أو القساوة مدعاة ل النفور ومجلبة ل الكره وباعثة على الإعراض.

والرخاوة أو اللين مظنة الضعف وشارة التهاون وعلامة التســاهل. كمــا أن المحاســبة العسيرة تدفع ل الهروب، والمجازاة الوعرة تمنع من الانخراط، والمجابهة الخشنة تحــض علــى المفارقة، والمساءلة المفرطة تحول دون الانضواء... الخ.

ل هذا كله رأينا (أحسن القصص) يغفر للصحب زلاتهم وفرارهم من ميــدان المعركــة، ويسامح آخرين عند التقاعس عن الالتحاق بالسرايا والتباطؤ تحت راية الغزوات ويتجــاوز لهــم عندما لا يحققون الرقم الذي حدد لهم عند لقاء العدو.

وكل ما يخاطبهم بشأنه هو علمه ب ضــعفهم (الآن خفــف الله عــنكم وعلــم أن فــيكم ضعفا).[١]

وفي تفسيرها يقول الإمام ناصر الدين أبو الخير القاضي البيضاوي: «لما أوجــب علــى الواحد مقاومة العشرة والثبات لهم وثقل ذلك عليهم خفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين».[٢]

وعند السيوطي «أخرج ابن راهويه في مسنده عن ابن عباس قال: لما افترض علــيهم أن يقاتل الواحد منهم عشرة ثقل ذلك عليهم وشــق ف وضــع الله عــنهم إلــى أن يقاتــل الواحــد الرجلين».[٣]

---

(١) سورة الأنفال الآية السادسة والستون.

(٢) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) المسمى: (تفسير البيضاوي).
مصدر سابق.

(٣) (لباب النقول) ص ٩١/ مصدر سابق.

(وأخرج البخاري وأبو داود وابن أبي شيبة وابن إسحق عن ابن عباس: لمـــا نزلـــت «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين» شق ذلـــك علـــى المســـلمين ف نـــزل «الآن خفـــف عنكم»).[1]

وهذا الخبر نفحنا به البخاري مقدم الصحاح الستة وأبو داود أحدها وراويه الحبر عبـــد الله بن عباس، ووصفه الأزهري المصنف أو المصنف الأزهري بصحة الإسناد وأن رجاله ثقات.

ويفسر القمّي النيسابوري الضعف بقوله:

«المراد ب الضعف في البدن، قيل في البصيرة والاستقامة في الدين وكانوا متفاوتين فـــي ذلك.

والظاهر أن المراد: الضعف الإنساني المذكور في قوله «وخلق الإنسان ضعيفاً» النســـاء. ٢٨».[2]

إذن هو عتاب خفيف ولفت نظر رفيق، وتنبيه لطيف، لأن التعنيف الثقيل واللوم القـــارس، والتوبيخ القارص والمحاسبة المفرطة والعذل الشاق تنفر من جماعه النفـــوس وتلفظـــه الطبـــائع وتمجه الفطر (ج، فطرة) وترفضه الجبِلّ (بكسر الجيم وفتح الباء، ج، جِبلـــة) وتبغضـــه القلـــوب وتنتج عن كله المفارقة وتترتب عليه المفاصلة وتتسبب عنه المصاعدة وهي أمـــور ليســـت فـــي صالح الديانة الجديدة وتفت في عضد الدولة الوليد.

أ ــ كيف قابل القرآن الكريم فرارهم من الزحف؟:

الفرار أو الهروب أو إطلاق الساقين للريح إبان القتال وفي عـــز المعمعـــة وفـــي حمـــو الوطيس ووقت اشتداد العركة وضعه القرآن الكريم ثم (الأعظم) في مصف كبرى الكبائر وساوياه بالشرك والعياذ بالله جل جلاله، في الجزء الرهيب والمصير البائس إلى جهنم.[3]

---

(١) (المقبول في أسباب النزول) ل أبي عمر الأزهري ٣٥٤ ــ مرجع سابق.
(٢) (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) ص ٣٧٣ ــ المجلد الخامس، تحقيق حمزة النشـــرتي وآخـــرين، مصـــدر سابق.
(٣) الآيتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة من سورة الأنفال.

(حذرت آيات القرآن وأحاديث النبي ــ ص ــ من التولي يوم الزحــف أي الفــرار يــوم القتال).[1]

ومعلوم أن أحاديثه منذ أن صنف الشافعي المطلبي القرشي رسالته المشهورة ارتفعت إلى مرتبة النص التأسيسي المقدس الأول ونعني به القرآن العظيم.

ولا حاجة بنا إلى توضيح علة تشريعه ب موجب النصوص التأسيسية المقدسة، ولم وســم الفرار من الزحف ب هذا الميسم الشديد الذي يلقي ب الفارّ أو الهارب إلى قاع سقر وما أدراك ما سقر؟

فنحن نترك الإجابة ل فاطنة القارئ وذكائه.

كل ما نضيفه ف حسب أن الباعث لا صلة له ب الذرى (ج. ذروة) الإيمانية أو الروحية، بل هو سياسي صرف.

ولا أدل عليه أن (ذؤابة قريش) وعظ تبعه أن المؤمن من الجائز أن يغدو جباناً رعديداً[2] إنما أبداً لا يتصف ب البخول لأن الأول يحافظ على روحه وهي تستحق أما الآخــر نعنــي بــه الباخل ف هو حريص على لعاعة لا تستأهل، ونرجع إلى السياقة:

رغم هذه القاعدة المستقرة = اعتبار الفرار من الزحف كبيــرة بــل مــن أكبــر الكبــائر وأوعرها وأقساها جزاء ومعرفة الصحابة بها بل وحفظهم إياها، فإن عدداً كبيــراً مــنهم وفــيهم صناديد، كسرها بل وداس عليها برجليه المرتعشتين وأطلق ساقيه لتسابق الريح.

كله حدث في أحد وحنين ومؤتة.

أما في الأخيرة ف ربما يلتمس لهم العذر إذ بلغت عدة جيش

---

(١) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله شحاتة الجزء الرابع ص ٧٠٥. د. ت/ دار قباء القاهرة.

(٢) ممن ينطبق عليه هذا الوصف تماماً: حسان بن ثابت الشاعر إذ لم يشترك في أية غــزوة أو ســرية ويــوم الخندق وضعوا الأطفال والنسون في أحد الأطم (الحصون) ومعهم ذلك الحسان بن ثابت. أ. هـ.

الروم وحلفائهم من أوشاب أو أوباش القبائل أكثر من خمسين ضعفاً مــن عســكر (الصــادع ب الحق).

(فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم وانضم إلــيهم من لخم وجذام والقين وبهراء مئة ألف عليهم رجل من بلى).[١]

إن عيونه (جواسيسه) لم يخبروه بحقيقة قوة عدوه من الروم ومن المحال أن تكلف شخصاً منازلة خمسين مهما بلغت صلابته أو شجاعته وثبات فؤاده.

بعكس ما حدث في غزاة حنين ف أجناد المسلمين بلغوا من الكثافة العددية أو العُديّة (من العدة أي الكراع أو السلاح) أضعاف أبناء قبيلة هوازن.

ولقد صاح واحد من كبار التباع مفتخراً أو افتخر صائحاً: «لن نغلب اليوم عن قلة».

ولقد أثبت الذكر الحكيم هذا الموقف اللامسئول بل إذا شئت الدقة: المستهتر بقوله «ويــوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم».[٢]

ورغم ذلك فما إن شد عليهم هؤلاء حتى منحتهم غالبية الصحبة الأماثل ظهورهم المباركة وأمعنوا في الهرب وأفرطوا في الفرار وبالغوا في الزوغان (= كلمة عربية فصــيحة ا.هـ) حتــى سخر منهم الطليق أبو سفيان بن حرب سخرية مريرة فقهقه شامتاً وأردف قائلاً: لن تقف هزيمتهم إلا عند سيف البحر!!.

أما في غزاة أُحد وهي التي شهدت أوعر نكسة مني بها أصحاب (المؤمَّل) بفــتح المــيم، فشغلتهم الغنائم والأسلاب عن العراك، إذ في بديّ القتال انحاز النصر إلى صفهم ولكن بمجرد أن التفتوا إليها

---

(١) (السيرة النبوية) ل ابن إسحق، المجلد الثاني ــ ص ١٨٠ ــ طبعة أخبار اليوم، مصدر سابق. وأيضاً (كتــاب المغازي) ل الواقدي، الجزء الثاني ــ ص ٧٦٠ ــ مصدر سابق.
(٢) الآية ٢٥ من سورة التوبة.

وطفقوا يجمعونها ويتهالكون عليها (ليس الرماة وحدهم فقط بل جِمــاعهم ا.هـ). ونســوا الحــرب وموجباتها والقتال وأشراطه والنزال والتزاماته.

عندها خنس عنهم (= الانتصار) وخاصمهم الفوز وباينهم الظفر بينونة كبرى وأســرعت إليهم الخيبة وأرقل إليهم الخذلان وعجِل إليهم الخَور.

في كل هذه المواقع وقف (الظفور) مثلاً للشجاعة الفائقة ونموذجاً ل الثبات المتين وقــدوة في الصبر الجميل وأسوة في الاحتمال البالغ، ومعه نفر من المخلصين يأتي في مقدمتهم رهطه آل هاشم، وعلى قُلتهم (ذروتهم) أبو الحسنين كرم الله وجهه.

في حين أن العدوي عمر بن الخطاب يتربع على رأس قائمة الفارين الهاربين الذين ولــوا الأدبار وركبهم الذعر الشديد وسيطر عليهم الهلع المريع وهيمن عليهم الخوف البــالغ واســتولت عليهم ال لَشْلَشَة المفرطة[١] في وقعة أُحد، فما إن وقف ل ملاقاة الأعداء، ولم يلبث إلاّ قليلاً حتى منحهم ظهره ونفحهم دبره وأعطاهم قفاه وظل يعدو حتى وجد ملجأ في إحدى مغارات الجبــل ف اختبأ فيها.[٢]

والعدويّ ذاته هو الذي اعترف ب التولي يوم الزحف والفرار من وجه الأعداء والهــرب من الجهاد والتخلي عن الكفاح والاستقالة من الطعان، بل إنه وصف نفسه بقوله (فــررت حتــى صعدت الجبل، فلقد رأيتني أنزو كَ أنني أروى). ا.هـ.[٣]

أخرج ابن جرير كليب قال:

خطبنا عمر يوم الجمعة، فقرأ آل عمران، فلما انتهى إلى قوله:

---

(١) ال لشلشة = كثرة التردد عند الفزع، من «القاموس المحيط» للفيروز آبادي.
(٢) هنا نتذكر قالة مخادنه (= صديقه) التيمي عتيق بن أبي قحافة له:
أجبارٌ في الجاهلية خوار في الإسلام!!
(٣) الأروى هو الوعل ويطلق على الذكر والأنثى، «المعجم الوجيز» ونزا = وثب أو ركب على أنثــاه، وتطلــق على الحيوان لا على الإنسان إلاّ في معرض التهكم والسخرية. ا.هـ.

«إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان»

قال: لما كان يوم أحد، هزمنا، ففررت حتى صعدت الجبل، فلقد رأيتني أنزوي كأنني أروى والناس يقولون:

قتل محمد ﷺ

فقلت: لا أجد أحدا يقول: قتل محمد ﷺ إلاّ قتلته، حتى اجتمعنا على الجبل، فنزلت.

«إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استنزلهم الشيطان».[١]

وإذ إن الذي أورد هذا الخبر هو أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسيره مقدم التفاسير وعمدتهم فـَ يغدو عرياً عن المطاعن، مليطاً من المعايب، عديماً من المآخذ، ويؤيد القمي النيسابوري حقيقة فرار العدويّ ابن الخطاب من الميدان في عركة أحد ولكن بطريقة ضمنية أو غير صريحة (ولم يبق معه ــ ص ــ إلاّ أبو بكر وعلي والعباس وطلحة وعد).[٢]

يصف لنا القاضي البيضاوي حالة عمر ومن شاركه في الفرار عند تفسيره ل الآية الثالثة والخمسين بعد المائة من سورة آل عمران ب الآتي (الإصعاد: الذهاب والإبعاد في الأرض، يقال صعدنا من مكة إلى المدينة. ولا تلوون على أحد: ولا يقف أحد ولا ينتظره).[٣]

ومن الذين أدبروا في غزاة أحد: الأموي عثمان بن عفان وقد عيره عبد الرحمن بن عوف به.[٤]

---

(١) (تفسير الطبري) ــ الجزء السابع ــ الأثر رقم ٨٠٩٨ صفحة ــ ٣٢٧ ــ مصدر سابق.
(٢) (غرائب القرآن) المجلد الثالث، ص ٣٠٧ مصدر سابق.
(٣) «أ» (تفسير البيضاوي) سابق.
«ب» الطبالون والزمارون من أجواق التمجيديين والتعظيميين من الكتبة قدامى ومحدثين الذين تناولوا سيرة العدويّ عمر يتعامون عن هذه الواقعة ويغطرشون عليها ويلقون بها في الظل وذلك لأسطرة هذه الشخصية وغيرها من شخصيات حقبة فجر الإسلام لتغدو أقوالها وسلوكياتها (الأخرى) منهاجاً للمسلم العادي ليظل حبيس المفاهيم الدينية الدوجماطيقية المسكرة «المسدودة» منذ قرون ولا يفكر مجرد تفكير في الانعتاق من إسارها (قيدها) بل ولا حتى نقدها. ا.هـ.
(٤) (الاثنان من العشرة المبشرين بالجنة).

(عن شقيق قال: لقيعبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة، فقال لـــه الوليـــد: مـــالي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان؟:

فقال عبد الرحمن إني لم أفر يوم أحد ولم أتخلف عن بدر...).(١)

(أخرج البخاري في الأدب المفرد قال: حدثنا موسى يعني ابن إسماعيل المنقري، حـــدثنا أبو عوانة عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن ابن عمر قال:

كنا في غزوة فحاص الناس حيصة، قلنا: فكيف نلقى النبي ﷺ وقد فررنـــا فنزلـــت: «إلاّ متحرفاً لقتال».

فقلنا: لا نقدم المدينة فلا يرانا أحد، فقلنا لو قدمنا فخرج النبي ﷺ من صلاة الفجر، قلنـــا: نحن الفرارون، قال أنتم العكارون فقبلنا يده قال: أنا فئتكم).(٢)

يقول المصنف الأزهري في الهامش:

هذا الفرار حدث عن الصحابة (= هكذا ب ال (ألف لام)

---

(١) «أ» تفسير ابن كثير، الجزء الثامن، ص ١٢٦ مصدر سابق ذكره.
«ب» من المعلوم أن عبد الرحمن بن عوف لعب دوراً خطيراً في إقصاء صاحب الحق الشرعي في تولي الخلافة وهو الإمام علي رضي الله عنه ونور ضريحه ووضعها لقمة سائغة في فم نديده في الثروة والغنى عثمان وبعد أن اعتلى الأخير عرش الخلافة.
إذ هو الذي بدأ في تحويلها إلى ملك عضوص وسار على دربه أبناء أرومته السفيانيون والمروانيون.
نقول بعد أن اعتلى... لم يجد عبد الرحمن بن عوف ما أمّله منه ولا نقول فيه... هنا طفق يشنع عليـــه ويظهـــر معايبه ويعيره بزلاته السوابق!!!
من حقنا أن نتساءل = عندما فضل ابن عوف الأموي عثمان على أبي الحسين، نضر الله مثواه، لم تغاضى عـــن هذه الأخطاء وطوش (العامة في مصر تقول: طنش) عنها = وكيف طاوعه ضميره أن يفضّل من هرب على من ثبت ومن قاتل على من نفح العدو كتفيه ومن أصعد على من صبر وجاهد؟!.
والذي لا نشك فيه أن (البشير) بعبقريته الفاذة وبصيرته الثاقبة وذكائه الشديد ولماحيته البالغة أدرك هذه الصفة في عبد الرحمن بن عوف ومن ثم فما إن يلقاه حتى يقول له:
لن تدخل الجنة إلاّ زحفاً يا ابن عوف.
وفي رواية: إلاّ حبواً.
ولقد صدق ظنه وتحقق حدسه وفلجت فراسته كيف لا وهو «الصادق المصدق» ا.هـ.
(٢) (نهاية السول فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول) ل الشيخ أبي عمر نـــادي الأزهـــري ١٢٤ ـــ مرجع سابق.

الاستغراق ا.هـ) في غزوة مؤتة كما جاء في التصريح به في رواية ابن إسحق وأوردها ابن كثير في تاريخه وأخرجها البيهقي في الدلائل.

ويورد القاضي البيضاوي الواقعة عن ابن عمر أيضاً:

(عن ابن عمر ــ رض ــ أنه كان في سرية بعثهم رسول الله ﷺ ف فروا إلى المدينة فقلت يا رسول الله نحن الفرارون فقال: بل أنتم العكارون وأنا فتئكم).[١]

في الفقرة السابقة الذي فر وهرب هو العدوي عمر ب اعترافه.

وفي هذا الخبر الذي فعلها هو أكبر أبنائه عبد الله مما يجعلنا نؤكد أن الشجاعة في القتال والصبر على مواجهة العدو والثبات على حرارة الوطيس صفات افتقر إليها ابن الخطاب وأبناؤه الميامين وواقعة لَشْلَشَة هذا ال عبد الله (الابن) تذكرنا ب المثل القائل «من شابه أباه فما ظلم».

ووكّد القميّ النيسابوري خبر تولي ابن الخطاب من الزحف على النحو التالي: «عن ابن عمر: خرجت سرية وأنا فيهم ففروا فلما رجعوا إلى المدينة استَحْيوا ف دخلوا البيوت فقلت: يا رسول الله نحن الفرارون، فقال: أنتم العكارون وأنا فئتكم»[٢].

والفقيه المفسر الحنفي الجصاص يزيدها وثاقة: «قال ابن عمر: كنت في جيش فحاص الناس حيصة واحدة ورجعنا إلى المدينة فقلنا نحن الفرارون فقال النبي ــ ص ــ أنا فئتكم».[٣]

وهكذا غدا هروب عبد الله بن عمر من ميدان المعركة وارتكابه

---

(١) (تفسير البيضاوي) ص ٢٣٦ سابق.

(٢) «غرائب القرآن»، الجزء الثامن ــ ٣٨٨ ــ مصدر سابق، وفسر القمي المصنف أو المصنف القميّ كلمة (العكارون) ب قوله: والعكرة: الكرة ا.هـ.

(٣) (أحكام القرآن) ل الإمام أبي بكر أحمد الرازي الجصاص ت ٣٧٠هـ، المجلد الثالث، ص ٤٧ دون تاريخ نشر، دار الفكر، بغير ذكر المدينة أو الدولة، هل هي مصر أم دمشق أم لبنان...؟

كبيرة التولي يوم الزحف موثقاً، إذ وضعه في حجرنا شيخ المفسرين: الطبري ومن بعـــده نظـــام الدين الحسن القميّ النيسابوري وكتابه يعتبر أحد المؤلفات المتميزة في التفسير ويحظـــى بـــوافر التقدير ثم الجصاص المفسر الحنفي.

كم من الكتبة سواء من السلف الصالح أو الخلف الفالح ممن صنّف عن حياة عبد الله بـــن عمر رصد اقترافه إياها؟

الإجابة: لا أحد.

إن أولئك الكرام الكاتبين لا يقدمون إلاّ صورة مزيّفة ومبرقشة عن الفاعلين الاجتمـــاعيين في ذيّاك الزمن المعجب، نعني الصحابة، ويحررون مصنفاتهم بأسلوب تمجيدي من أجل أن تبرز أيآتهم (هيئاتهم) مؤسطرة (حولت إلى أسطورة) تحفّ بها هالة من القدسانية ومن ثم تغدو أفعـــالهم وأحاديثهم معصومة أو شبه معصومة متعالية مســـتحيلة علـــى النقـــد أو حتـــى علـــى العـــرض الموضوعي المتوازن الذي يقدم الشمائل ولكن لا يغفل عن النواقص.

تلك الصورة أو الصور المؤسطرة التي تزداد وتتراكم أسطرتها على مر القرون هي التي تتحكم منذ ذاك الماضي السحيق في المسلم العادي وترسم له خطاه وتحدد له طرقه، دون أن يفكر ولو للحظة خاطفة في التحديق أو حتى مجرد النظر فيها ل ينقه حقيقتها الموضوعية وما أضـــيف إليها من تمويه وبرقشة وتزويق كما يقضي ب نفسه على ما صدر منها من أفعال أو نسب إليهـــا من أقوال، هل هو: صحيح أم فسيد، صواب أم خطأ، سديد أم غلط؟

ثم نؤوب إلى سياق الحفر والتنقير.

* * *

لم يقتصر الجري من وجه العدو على عمر بن الخطاب وبكره عبد الله والأموي عثمـــان بن عفان بل طال الكثيرين، منهم ذوو الأسماء

اللوامع: «حدثني داود بن سنان: سمعت ثعلبة بن أبي مالك يقول: انكشف خالد بن الوليد، يومئـذ حتى عيروا ب الفرار وتشاءم الناس به».[1]

ومنهم أبو هريرة الصحابي الذي اشتهر بكثرة التحديث (رواية الحديث المحمـدي) عـن (البارع صاحب البيان).

ومنهم سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة، وهو ابن أم سلمة إحدى الزوجات الوضيئات الأثيرات ل (الأزج/ الأزهر):

(أم سلمة زوج النبي ــ ص ــ قالت له امرأة (أي بعلة) سلمة: مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ــ ص ــ ومع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخـرج، كلمـا خـرج صاح به الناس يا فرّار، فررتم في سبيل الله.. حتى قعد في بيته فما يخرج).[2]

هذا الخبر الذي أورده ابن إسحق مقدم كتاب السيرة المحمدية (التي تنفح أطيب الـدروس في المثل العليا) (السيرة) والواقدي في (المغازي) والاثنان من أميز المصنفات في هذا المضـمار يهدي إلينا عدة معطيات:

(١) أن الفرار من الزحف شمل حتى الفتيان أو الناشئة أي الشببة من الصحاب لأن سلمة بطل الواقعة هو صاحب ولاية عقدة نكاح أمه هند لـ (الراضي) ويقول الإخباريون إنه وقـت ذاك صبي لم يراهق.

إذن هو يوم مؤتة لم يناهز الخامسة أو السادسة عشرة.

(٢) أن اليثاربة ظلوا يعيرونه كلما خرج حتى ألزموهُ عقر داره ولم

---

(١) (كتاب المغازي) ل الواقدي ــ الجزء الثاني ــ تحقيق مارسـدن جـونز ــ ص ٧٦٤ طبعـة أولـى ١٩٦٥ منشورات مؤسسة الأعلمي ــ بيروت ــ لبنان، سبق أن رقمنا أن هذا ال خالد بن الوليد نافس العباس بـن عبـد المطلب بن هاشم في الإقراض ب الربا.

(٢) (السيرة النبوية) ل ابن إسحق ــ المجلد الثاني ــ ص ١٨٧ طبعة أخبار اليوم ــ مصدر سابق.
(المغازى) ل الواقدي ــ ذات الجزء ص ٧٦٥ سابق، وأضاف الواقدي «... ف ذكرت ذلك أم سلمة ل رسول الله ﷺ فقال رسول ــ ص ــ بل هم الكرار في سبيل الله، ف ليخرج ف خرج».
المصدر ذاته وكذا الصفحة.

يبالوا أنه ابن بنت زاد الراكب إحدى أجمل زوجات (العُدّة/ العدل) ومن أحبهن إلى فؤاده.

ونخرج منه أن تقديس الأشخاص له صلتهم ب محمد لم يعرفه المسلمون إبّان ذاك إنما نشأ فيما بعد ل أسباب دينية وسياسية.

(٣) وجود رأي عام له دور فعال، يقوم ب الإفصاح عن وجهة نظره ب كل جرأة وب منتهى الشجاعة وب غاية الإقدام.

إنما للأسف تقلص أو بمعنى أصح اختفى تماماً ب قيام الدولة المسماة الخلافة الأموية ومن بعدها الخلافة العباسية بعد أن تحالفت السلطة السياسية العليا والقُلّة (بضم القاف وتشديد اللام أي الذروة) الدينية (الفقهاء) واحتكرت المؤسستان كل الفضاءات: الحكم والدين والمال، وتركت القاعدة الشعبية مهمشة مهدورة الحقوق حتى الحق في إظهار رأيها، واستمر هذا الوضع المأساوي لدى الشعوب الإسلامية (عربية وأعجمية) حتى يومنا هذا.

(٤) أن (البليغ/ البهاء) لم يقمع الأثاربة (منازيح ومستوطنين) عندما انتقدوا فرار مؤتة بل حتى لم يمنعهم ب طريقة رفيقة رقيقة من إعلان سخطهم لأنه لم يرَ فيه بأساً، ولم يلف سنداً يخوّله ردهم.

وكل ما أقدم عليه أنه طيّب خاطر الهاربين، وهذا ما سنتناوله فيما بعد.

(٥) أن أم سلمة بعل[1] (الحجازي) انزعجت ل عدم حضور ولدها صلاة الجماعة (وب حسب تعبيرها: مع المسلمين).

هل لوازع ديني؟ نعم بلا شك، بيد أنه ليس هو التحضيض اليتيم أو المفرد هناك ب جانبه دافع سياسي هو: إن شهود المسلم إياها دليل على خضوعه ل دولة بني سخينة (قريش) وانضوائه تحت

---

(١) البعل يُقال للزوجة وللزوج أي يطلق على الأنثى والذكر (الأنثى بعل وبعلة قاله المجد).
من (المعجم المبتكر في بيان ما يتعلق بالمؤنث والمذكر). صنفه أبو الحسن ذو الفقار أحمد التقوى ــ ص ٨٤ ــ الطبعة الأولى ١٩٩٨م مؤسسة الانتشار العربي ــ بيروت ــ لبنان.

بيرقها ووقوفه تحت لوائها والعكس صحيح، ومن ثم خشيت هند بنت زاد الركب أن بكرها ل مروره بالمحنة التي لاقاها في وقعة مؤتة قد حاك في صدره شيء وطفق يفكر في التمرد والعصيان، وأول مخايله الإضراب عن التوجه إلى المسجد المحمدي الذي يعتبر بمثابة مقر الحكم ومركز السلطة، وهذا يرسخ ما كتبناه مراراً، في ما سلف من أن قراءة سيرة (الحامد/ المحمود) التي هي أحلى من تفاح الشام ب طريقة مستأنية وبعين مفتوحة وبصيرة نافذة تنفح معطيات بالغة الثمانة شديدة النفاسة عالية القيمة تساعد بدورها على إدراك بل وتفسير العديد من الأحداث المعاصرة وكيف أن لها جذوراً غوائر في التاريخ.

* * *

وكيما ندرك كثافة الصحبة الذين تفضلوا مشكورين وتصدقوا ب أكتافهم على الروم ومن حالفهم من أوشاب القبائل، وب المثل لكي ننقه مدى قوة الرأي العام في أثرب إبان حياة (خير من مشى على أديم الأرض) والذي اضمحل ثم تلاشى على أيدي من انتسب إلى قبيلته قريش (بني أمية من بني سفيان وبني مروان) أو من أرُومته. بفتح الألف، (بني العباس) وغِبّ أن تحول الإسلام، شأنه شأن سائر الأديان، من ثورة إلى مؤسسة:

«عن أبي بكر بن عبد الله بن عتبة يقول ما لقي جيش بعثوا معنا ما لقي أصحاب مؤتة من أهل المدينة، لقيهم أهل المدينة ب الشر حتى إن الرجل لينصرف إلى بيته وأهله، فيدق عليهم الباب أن يفتحوا له، يقولون ألا تقدمت مع أصحابك؟

فأما إن كان كبيراً من أصحاب رسول الله ــ ص ــ جلس في بيته استحياءً، حتى جعل النبي ــ ص ــ يرسل إليهم رجلاً يقول أنتم الكرار في سبيل الله».[١]

---

(١) (كتاب المغازى) ل الواقدي ــ الجزء الثاني ــ ص ٧٦٥ ــ مصدر سابق.

هذا الخبر يدل على أن الرأي العام الأثربي غدا في عُرام (ضم العين أي شدة) الهيجان على الفارين حتى حولوهم إلى عقائل في أدبار دورهم لا يجرءون على مبارحتها ولا يقدرون على المروق منها ولا يستطيعون مغادرتها.

ويقطع بأن صحابة أكابر من بين الهرّابين بلغ بهم الاستحياء ووصل بهم الخجل وشملهم العي لدرجة أنهم خنسوا عن لقاء (الضارع/ المتبتل) إنما ل أخلاقه الرفيعة ومناقبه المنيفة ومحامده الوفيرة بادر من جانبه بإرسال من يطيب خاطرهم ويجبر كسرهم ويداوي جرحهم ويخبرهم أن ما فعلوه كر لا فر وتحرّف (= انحراف) لا هروب، وميل لا زوغان وانعطاف لا دُحُور.

* * *

مقدم كتاب السيرة المحمدية التي هي أزكى السير.

ينسخ ما يلي:

(وجعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون: فررتم في سبيل الله!!! فيقول رسول الله ــ ص ــ ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى).[١]

هذا الاستقبال الحافل الذي أعده بنو قيلة والمنازيح ل الصحاب الذين أطلقوا سوقهم (ج ساق) الرعديدة يسابقون بها الدبُور.[٢]

استبقيناه وأتينا به في مؤخرة الفاصلة لأنه أجدر ب ختامها:

لقد بلغت قوة الرأي العام أقصى مدى ف هم التقوا فرار مؤتة ب التراب يرمونه في وجوههم ثم يجابهونهم ب أقسى العبارات وأشدها

---

(١) (ال سيرة النبوية) ابن إسحق، المجلد الثاني ــ ص ١٨٧ ــ طبعة أخبار اليوم ــ ب مصر، مصدر سابق.
(٢) وهي ريح تهدم البنيان وتقلع الشجر وهي القاصف والصرصر (المعجم المبتكر) للتقوى ــ ١٨٨ ــ سابق. ونضيف: إن هذه الريح، لولا سرعتها وهوجها لما فعلت هذه الأفاعيل ولما استحقت هذه الأوصاف ا.هـ.

إيلاماً وأبلغها جرحاً للمشاعر وشقاً للأحاسيس وجذماً (قطعا) ل العواطف.

والأبلغ دلالة أن جماعه حدث في حضرة (الصادق/ المصدق).

ولم ينههم، وفي علم الحديث أن هذه سنة إقرارية وتعني وقوع فعل أمام ذاتـــه الشـــريفة المشرفة ولا يعترض عليه.

إذن نخرج منه أن حق القاعدة الشعبية العريضة في الإفصاح عـــن رأيهـــا وإعلانـــه ب الصورة المناسبة شرع تأكد بسنة محمدية إقرارية.

بيد أن هذا الحق الطبيعي رحل إلى الظل ونقل إلى العتمة وغُيّب في الظلام وتعاون على التعتيم عليه وتعاضد على إخفائه وشارك في التضبيب عليـــه مؤسســـتان: الســـلطة السياســـية أو الحاكمة والقلة (بضم القاف) أو الذروة الدينية فهما الاثنتان مـــن مصـــلحتيهما أن تظـــل القاعـــدة الشعبية العريضة مخدرة وتبقى مبنجة (عربية صحيحة محدثة) وتظل فاقدة لوعيها.

ف السلطة السياسية/ الحاكمة يهمها أن تغدو الطبقة الشعبية معدومة الصـــوت، مقطوعـــة اللهاة، مبتورة اللسان حتى لا تزعجها ب المطالبة ب حقوقها.

والذروة الدينية تفضّل الشعب الأبكم والمحكومين الخرس والرعية (هم يطلقون عليهم هذا الاسم تشبيها لهم ب البُهم والمواشي ا.هـ) الصامتة التي لا تحتج على انحيازها ل الحكام وممالأتها ل السلاطين وتعاونها مع الطغاة.

ثم بعد هذه التفريعة نعود إلى سياق البحث.

* * *

هذا موقف على قدر من الحروجة ف من ناحية (الصالح/ الصبور) هناك قاعدة أصـــولية هي أن الفرار من الزحف إحدى الكبائر الوعرة والجزاء هو القرار في قاع الجحيم، وبـــديهي أن الدافع

على النص عليها أو تشريعها هو التحريم على أجناده الهروب من ميدان القتال وإلاّ ما تمكن من نشر الديانة التي جاء بها ولما استطاع دحر القبائل التي ترفضها (= الديانة) والانضواء تحت لوائه وهو يؤسس الدولة الحلم التي داعبت خيال جدوده قصي وهاشم وعبد المطلب.

(إن الانهزام محرّم إلاّ في حالتين فقال «إلاّ متحرفاً لقتال» هو الكر بعد الفر يخيل إلى عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه وهو من خدع الحرب «أو متحيزاً إلى فئة» إلى الجماعة. من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها... وعن ابن عباس أن الفرار من الزحف في غير هاتين الصورتين من أكبر الكبائر).[1]

ويذهب الفقيه الحنفي الشهير أبو بكر الجصّاص أن الثبات في القتال وعدم الفرار من وجه العدو... الخ (كان ذلك فرضاً عليهم قلّ أعداؤهم أو كثروا).[2]

بل إن من يترك موقعة لينتقل إلى آخر فيه جمع من المسلمين دون مبرر فإنه أعتبر في حكم الفار أو الهارب وليس متحرفاً أو متحيزاً إلى فئة وأنه قارف الكبيرة.

(فأما إذا أراد الفرار ليلحق بقوم من المسلمين لا نصرة معهم (= لهم) فهو من أهل الوعيد المذكور في قوله تعالى: «... فقد باء بغضب من الله»).[3]

هذه القاعدة التشريعية في مضمار القتال والتي هي كما السيف الباتر خالفها عن عمد عدد من كبار الصحابة وأعداد وفيرة منهم وبعضهم اعترف ل (الخالص) فما المخرج؟

لو طبق الحكم ب حذافيره طال أولئك جميعهم وفيهم كما توضح

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمي النيسابوري ــ المجلد الخامس ــ ص ٣٢٢ ــ مصدر سابق.
(٢) (أحكام القرآن) ــ المجلد الثاني ــ ص ٤٧٦ ــ مصدر سابق.
(٣) المصدر السابق ص ٤٨.

أصحاب أسماء لوامع ب الإضافة إلى الجم الغفير (وأقبلوا منهزمين فذاك: إذ يدعوهم الرسول في أخراهم ولم يبق مع النبي ــ ص ــ غير اثني عشر رجلاً).(١)

هنا تتهادى آية كريمة:

«إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم».(٢)

وهي خاصة ب الذين فروا في غزاة أحد:

(خطبنا عمر فكان يقرأ على المنبر آل عمرن ويقول: إنها أُحُديّة.

ثم قال: تفرقنا عن رسول الله ــ ص ــ يوم أحد... الخ).(٣)

وأكده في ذات الصفحة عند تفسيره ل «يوم التقى الجمعان» يوم التقى جمع المشركين والمسلمين في أحد، ثم أضاف «اختلف أهل التأويل الذين عنوا بهذه الآية فقال بعضهم: عنى بها كل من ولي الدبر عن المشركين بأحد».(٤)

أما ابن كثير فقد سبق أن ذكرنا له تعبير عبد الرحمن بن عوف ل الأموي عثمان بن عفان عن فراره يوم أُحد ورد الأخير عليه.

فقال: كيف يعيرني بذنب قد عفا الله عنه فقال: إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان... الخ(٥).

يؤكد القرطبي أنها بشأن الهاربين يوم أحد:

والمراد من تولى عن المشركين يوم أحد، عن عمر ــ رض ــ وغيره (عن) السدي يعني من هرب إلى المدينة... وقيل هي في قوم بأعيانهم تخلفوا عن النبي ــ ص ــ وقت هزيمتهم.(٦)

---

(١) (صحيح البخاري) الجزء السادس ــ كتاب التفسير ــ ص ٤٨ ــ طبعة ١٣٧٨هـ، كتاب الشعب، ب مصر.
(٢) الآية الخامسة والخمسون بعد المائة من سورة آل عمران.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٧/ ٣٢٧ رقم ٣٢٧، مصدر سابق.
(٤) ذات المصدر والصفحة نفسها.
(٥) (تفسير ابن كثير)، المجلد الثاني ــ ص ١٢٦ مصدر سابق.
(٦) (الجامع ل أحكام القرآن، المشهور بتفسير القرطبي) ل أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثالث، ص ١٤٨٥، كتاب الشعب، دار الريان، د.ت.

ثلاثة من كتب التفسير الشوامخ: الطبري/ ابن كثير/ القرطبي، أطبقت على أن الآية الشريفة المذكورة بزغت لمناسبة الفرار في أحد.

ذكرت الآية أن الشيطان استزل الفارين، ويفسر القاضي البيضاوي الاستزلال بأنه «ذكر ذنوب سلفت منهم فكرهوا القتل قبل استخلاص التوبة والخروج من المظلمة».[١]

وليس البيضاوي الذي انفرد بهذا التفسير المعجب بل نسخه أيضا القرطبي.[٢]

ومن الطبيعي بل من البديهي أن ينسخ على نولهم ويقتفي خطاهم ويسير في دربهم المفسرون المحدثون ف يتبنون هذا التفسير الفطير:

(ولقد علم الله دخيلة الذين هزموا وفروا يوم التقى الجمعان في الغزوة أنهم ضعفوا وتولوا بسبب معصية ارتكبوها فظلت نفوسهم مزعزعة ب سببها، فدخل عليهم الشيطان من ذلك المنفذ وسقطوا).[٣]

وهو ذات المنحى الذي ذهب إليه صاحب (الرحاب):

«... تولوا فارين إنما أوقعهم الشيطان في هذا الخطأ بسبب بعض أفعالهم السابقة فإن الذنب الذي يفعله الإنسان يترك نقطة سوداء في القلب منها إلى الإنسان ويوحيإليه بالسوء».[٤]

* * *

وصفنا هذا التفسير مرة أنه معجب والأخرى فطير (غير ناضج)

---

(١) (تفسير البيضاوي) ص ٩٣ سابق.
(٢) (تفسير القرطبي) ذات المجلد والصفحة.
(٣) (في ظلال القرآن) سيد قطب، المجلد الأول، الجزء الرابع، ص ٤٩٧، الطبعة الشرعية الحادية عشرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، دار الشروق/ القاهرة.
(٤) (في رحاب التفسير) ل عبد الحميد كشك، الجزء الرابع، ص ٧٢٠، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

لأنه غير مقنع ولا منطقي، فلو أن الشيطان ذكرهم بذنوبهم السوابق ف فروا حتـــى تـــتم تـــوبتهم ويخرجوا من مظالمهم، فإن الأقرب إلى البديهي أن يكفروا عنهم ب نوالهم الأجر الجزيل والثواب الوفير ب الثبات والمضي في القتال ونصرة الدين الذي آمنوا به وشد أزر **(قائدهم محمـــد)** الـــذي بشرهم به، والاستشهاد في سبيله ومعلوم لهم المنزلة التي يحظى بها الشهيد.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى:

هل الذين استمروا في القتال ولم يولوا الأدبار خلاء من الذنوب والمظالم؟

ومن ثالثة وأخيرة:

من بين الذين أعطوا ظهورهم للمشركين وأصعدوا ولم يلووا: العـــدوي عمـــر ولأمـــوي عثمان وغيرهما من الأماثل.

فهل ينطبق عليهم هذا الادعاء الفسيد؟

وإذا جاءت الإجابة ب نعم، فما هو حال عامة الصحاب الذين لم يدخلوا الإسلام إلاّ منـــذ عهد قريب؟

إذ من المعلوم أن عركة أحد وقعت بعد النزوح من بكة إلى أثرب بِ ثلاثة أعـــوام علـــى الأكثر. أي أن غالبية من ثبت مع (أبي القاسم) في العركة وهم من بني قيلـــة لـــم يمـــض علـــى إسلامهم سوى فترة يسيرة، في حين أن العدويّ عمر والأموي عثمان عريقان في اعتناق الديانـــة وانقضى على كل منهما أكثر من خمسة عشر عاماً.

أليس من الأسهل والأوفق لتوجيهات الإسلام وأبسطها الجهر ب الحق مهما بلغت مرارته أن يسطر أولئك المفسرون أن الجبانة والحرص على الحياة هما الدافعان اللذان وزا الفارين علـــى الهروب؟.

ويفسرون استزلال الشيطان لهم بدخوله إليهم من هذه الموالج.

وهنا يتقدم سؤال على قدر من الأهمية:

لماذا يسلك المفسرون قدامى ومحدثون هذا النهج المعوجّ؟

في رأينا أن باعثهم الحثيث عليه هو ما سبق أن رقمناه:

عملية الأسطرة وإضفاء القداسات الزيوف والهالات المصطنعة على شخوص حقبة الفجر فهم لا يصح أن يظهروا في أيأة (هيئة) الجبن ولا في صورة الخوف ولا في زي الرعدة ولا ب منظر الرعشة.

بل هي شخصيات كاملة مثالية نموذجية لا يقرب منها شين ولا يمازجها عيب ولا يخالطها عوار.

والحق أن المفسرين وأضرابهم من الإخباريين والفقهاء وأصحاب السير بعد أن غربت فترة الوهج والتألق والطزاجة نجحوا نجاحاً منقطع النظير في أسطرة تلك الشخصيات، حتى إنها ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا لدرجة أن كاتباً معاصراً صدّر مؤلفه عن العدوي عمر بن الخطاب ب الاستئذان في الدخول!!.

أرأيت ل هذا الحد وصل التقديس وبلغت الأسطرة؟

مع أن الاستئذان في القرآن العظيم باستثناء المماليك على أسيادهم والمحتلمين من الأطفال على ذويهم لم يرد إلاّ في حق (الأعظم) وحده دون غيره.[١]

والكاتب المذكور ينقهه أو من المفروض لأنه شيخ أزهري أو أزهري شيخ وأنداده يردفون أسماءهم بعبارة (من العلماء).[٢]

بيد أن الأسطرة التي استمرت ما يزيد على اثني عشر قرناً غسلت مع المؤلّف (ب كسر اللام) وأنسته توجيهات الذكر الحكيم في نطاق الاستئذان.

إن الذي يثير الاستغراب ويستنفر الذهن ويحض على التعجب أنه

---

(١) الآيتان ٥٨، ٥٩ من سورة النور.

(٢) الإمام الأعظم أبو حنيفة شيخ أكبر المذاهب الفقهية تبعاً لم يفعله بل كثيراً ما ردد على مسامع ما لا يقل عن عشرين ألف شخص من تلاميذه وشهود درسه أن جهله يفوق علمه!!! وهذه سمة العلماء بحق. ا.هـ.

«= الكاتب» انطلق من أرضية تبشر باستنارة واعدة ولكنه نكص على عقبيه بل تبرأ من فاتحته!!

نفحنا القارئ هذا المثال لنبرهن له على مدى تأثير الأسطرة، لأنها على المسلم العادي أشد وقعاً وأعمق فعالية وأوعر غوراً وأمر حصاداً.

ومن البديهي أن نؤكد أن زحزحتها سواء ب النسبة إلى النصوص «الثواني» أو الأشخاص مهمة ثقيلة بيد أنها ليست مستحيلة كما نقدر وغيري من البحاث المفكرين ممن يسيرون معي أو أسير معهم في ذات الاتجاه.

* * *

هذه النقطة وهبتنا فرصة ل نجري مقارنة عجلى بين منحى البشرى ونعني به القرآن المجيد ومنهج النصوص الثواني وفي مقدمتها مصنفات التفسير والفقه. فالأول جاء نصه صريحاً مباشراً مفتوحاً:

فرار واستزلال من الشيطان ثم عفو من الله جل جلاله لأنه غفور رحيم، غفر للهرابين ضعفهم البشرى وتغلب غريزة حب الحياة عليهم... الخ.

أما الآخر «منهج النصوص الثواني» ونعني تفسير المفسرين فاتسم وما زال ب اللف والدوران والتعمية والتغطية والتغبيش والتضبيب والأدلجة.

ونذكر القارئ هنا بما زبرناه في المقدام في «السفر الأول» عن الفرق بين القرآن الذي حفظه الصحب في صدورهم والقرآن الذي دُوّن وعرف فيما بعد ب «مصحف عثمان» ونكرر أنه لا خلاف في السور والآيات إنما في التلقي والاستقبال والتعامل.

الأول شفوي والآخر مسطور وليرجع القارئ إلى ما حررناه آنفاً

في هذه الخصوصية لأن المراجعة سوف تزيده فهماً لما نؤم وإدراكاً لما نقصد ونقهاً لمـــا نبغـــي ووعياً بما نريد.

الخلاف بين الاثنين يتمثل في الغاية التي استهدفها كل منهما.

ف الذكر الحكيم رمى إلى معالجة لحظات الخذلان وساعات الخور وأوقـــات التضعضـــع التي تضرب نفوس البشر عندما يمرون ب امتحان عسير واختبار وعر وفتنة عمياء، أما خربقات المفسرين التراثيين والمعاصرين ف تنزع إلى التبرير الفج والتســـويغ البـــائخ والتجـــويز (جعلـــه جائزاً) المسيخ (ب الخاء وهو الذي لا طعم له ا.هـ) لماذا؟

لأن عدداً من أولئك الهاربين في نظرهم لا يتعرضون ل الوهن ولا يعتـــريهم الغلـــط ولا يجوز عليهم الخطأ.

مع أن (سيد ولد آدم) قال: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».[١]

بعد هذه التفريعة التي نشعر بأنها طالت ولكنها ضرورية نرجع إلى سياق الدراسة.

* * *

في غزاة حنين التي وقعت في السنة الثامنة وليّ الصحاب البررة مدبرين ولم يبـــقَ مـــع «المزمل» إلاَّ نفر قليل في مقدمهم أهل بيته وعلى رأسهم «أبو تراب» كـــرم الله وجهـــه وأيضـــاً أسامة بن زيد «الحب ابن الحب» وأيمن ابن أم أيمن (ظل صامداً حتى استشهد) ب الإضافة إلـــى التيميّ عتيق والعدوي ابن الخطاب (لعله أراد أن يكفر عن خطيئته يوم أحد). هناك العديـــد مـــن كتب التراث التي يضعها المسلمون في أعلى محل تؤكد أن الذي بقي مع (صفوة الكائنات) اثنـــان فحسب عمه العباس وابن عمه أو سفيان بن الحارث.[٢]

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أنس بن مالك.

(٢) (تفسير البيضاوي) و(تفسير الجلالين) و(الكشاف) على سبيل المثال.

وعدد الصحاب الميامين الذين خرجوا ل لقاء هوازن عشرة آلاف ودعك من الألفين مـــن الطلقاء من أهل قرية التقديس الذين أسلموا بعد فتح الفتوح: (ثم أخرج رسول الله ﷺ ومعه ألفـــان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة، فكانوا اثني عشـــر ألفا).[١]

قال البراء بن عازب: كانت هوازن رماة فلما حملنا عليهم انكشفوا وكببنا علـــى الغنـــائم فاستقبلونا بالسهام وانكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ واختلفوا في عدد عسكر رســـول الله ﷺ فقال عطاء عن ابن عباس كانوا ستة عشر ألفاً، وقال قتادة: كانوا اثني عشر ألفـــاً: عشـــرة آلاف الذين حضروا مكة وألفين من الطلقاء. وقال الكلبي: عشرة آلاف. وكان هـــوازن وثقيـــف أربعـــة آلاف.[٢]

ويؤكد أبو البركات النسفي هذه الأعداد إن في جانب تباع (أول من تنشق عنه الأرض) أو ب النسبة لعدوه: (حنين واد بين الطائف ومكة كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفـــاً بين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف...).[٣]

وملأ الزهو نفس ابن أبي قحافة لما نظر إلى ذلك الجيش العرمرم «فقـــال أبـــو بكـــر: لا نغلب اليوم من قلة».[٤]

نلحظ أن ابن سعد كاتب الواقدي وصاحب الطبقات وله مقام مشهود بين كتـــاب الســـيرة المحمدية التي يؤكد كل سطر فيها عبقرية

---

(١) (السيرة النبوية) ل ابن إسحق، الثاني، ٢٧٧، طبعة أخبار اليوم، مصدر سابق و(الفصول في اختيـــار ســـيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم) تأليف الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير ٧٠١ ـــ ٧٧٤هـ تحقيق وتعليق محمـــد العبد الخطراوي وآخر، الطبعة الأولى ١٩٩٩ ـــ ١٤٠٠هـ، ص ١٨٢ من منشورات: مؤسســـة علـــوم القـــرآن، دمشق، بيروت ودار القلم، دمشق، بيروت.

(٢) (مفاتيح الغيب، التفسير الكبير) ل فخر الدين الرازي، المجلد السابع ص ٦١٤ طبعة دار الغد العربي، سابق.

(٣) تفسير النسفي لأبي البركات عبد الله النسفي، المجلد الثاني ص ١٢٢ د.ت/ دار إحيـــاء الكتـــاب العربـــي ب مصر.

(٤) (الطبقات الكبرى) ل ابن سعد، الجزء الثاني، ص ٢٠٠ طبعة ١٣٥٨هـ. سلسلة التاريخ الإسلامي، لجنة نشـــر الثقافة الإسلامية، مصر.

صاحبها و(طبقاته) من أميز الكتب في هذا المجال، ذكر قالة التيمي أبي بكر بصيغة التأكيد، بيد أن أحد الكتبة المحدثين عندما نقلها أوردها بصيغة التمريض والتوهين والتهزيل «قيل»: «قيل إن أبا بكر الصديق.. قال:... الخ».[1]

لماذا فعلها الغزالي؟ ل يفرخ في روع قارئه أن التيمي من المستحيل عليه أن يداخله الزهو أو يخالطه الغرور أو يمازجه الافتخار وأن هذه العبارة دست عليه ولم يقلها، متجاهلاً أن ابن سعد وهو من هو أوردها مؤكدة دون تشكيك.

وكيما ينزع عن أبي بكر حقيقته التاريخية وصفته البشرية وطبيعته الآدمية فهو ليس كغيره من الناس فلا يزهو ولا يغتر ولا يتفاخر.

إنه منهج أسطرة الأشخاص وإضفاء الهالات عليهم ونفحهم القداسات الذي استمر قروناً ممدودة حتى غدوا فوق الزمان والمكان... الخ.

وما زال المسلم ينظر إليهم هذه النظرة التجريدية اللاتاريخية.. ثم عود إلى سياق الدراسة.

* * *

أولئك الصحابة الألوف أو الألوف من الصحابة ما إن هجم عليهم فرسان هوازن حتى أخذوا يسابقون الدبور (= ريح فائقة السرعة).

(فكان أنس بن مالك يحدث يقول: «فلما تحدرنا في الوادي فبينما نحن في غلس الصبح، أن شعرنا إلاّ بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادي وشعبه فحملوا حملةً واحدة فانكشف أول الخيل، خيل سليم، مولية فولوا وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء).

---

(١) (فقه السيرة) ل محمد الغزالي ص ٤٠٩، الطبعة الثامنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢، دار الكتب الإسلامية ب مصر.

(قال أنس: فسمعت رسول الله ــ ص ــ والتفت عن يمينه ويساره والناس منهزمون وهو يقول: «يا أنصار الله.. يا أنصار رسوله.. أنا عبد الله ورسوله).[١]

ولم يثبت مع (صاحب القدر الرفيع) إلاّ أولئك النفر الذين ذكرناهم وسجل القرآن العظيم هذا الهروب الكبير أو الفرار الجماعي الذي حققه هذا العدد الهائل من المرات القليلة في التاريخ ولكن بقوله «ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين».[٢]

وليس هناك ما هو أشد توثيقاً من أي الذكر الحكيم.

«وضاقت عليكم الأرض بما رحبت».. والمعنى أنكم لشدة ما لحقكم من الرعب لم تجدوا في الأرض ذات الطول والعرض موضعاً يصلح لهزيمتكم وكأنها ضاقت عليكم «ثم وليتم مدبرين» أي انهزمتم انهزاماً.[٣]

وهو ما زبره الزمخشري في (كشافه): (فانهزموا حتى بلغ فلّهم مكة.. «بما رحبت» أي مع رحبها.. والمعنى: لا تجدون موضعاً تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط الرعب فكأنها ضاقت عليكم، «ثم وليتم مدبرين» ثم انهزمتهم، «سكينته» رحمته التي سكنوا بها، «وعلى المؤمنين» الذين انهزموا).[٤]

ولقد سجلت الآية الشريفة موقف التباهي الذي اعترى التيمي عتيق بن أبي قحافة «إذ أعجبتكم كثرتكم» ولا يقدح في وجهة النظر هذه ان اسم أبي بكر لم يرد فيها ف القرآن المجيد درج على محو أسماء الأشخاص والأماكن والأزمان عندما يتناول سرد أي حادثة[٥]

---

(١) (كتاب المغازى) ل الواقدي، الجزء الثالث، ص ٨٩٧ ــ ٨٩٨، مصدر سابق.
(٢) الآية الخامسة والعشرون من سورة براءة/ التوبة.
(٣) (غرائب القرآن) ل القمي النيسابوري ــ المجلد الخامس ــ ص ٤٢٢.
(٤) (الكشاف) ل الزمخشري ٤٦٧ ــ ٥٣٨هـ، المجلد الثاني، ص ١٨٢.د.ت.ن. دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(٥) الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة هو ذكره ل اسم زيد بن حارثة ورقمنا فيما سبق علته ا.هـ.

كيما تتسم آياته بالتعالي والتسامي والتجريد، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: ولو أنها أقل أهمية وأخفض قيمة وأضعف قدراً من الأولى أن إثبات أسامي الأشخاص قد يجرح إحساس المذكور لو جاء في معرض الحرج أو الوهن أو الضعف. أما لو أتى في مجال الإشادة والثناء الجميل والذكر الحسن فمن ورد اسمه قد يداخله الإعجاب بذاته، وغيره ينفسه عليه ويغار منه والـــذكر المحكــم (السور والآيات) حريص على أن تظل نفوس الصحابة راضـــية وقلـــوبهم مطمئنـــة وصـــدورهم منشرحة.

كيف لا؟ وهم العدة في نشر الديانة والسلاح ل توسيع رقعة الدولة.

وقبل أن نغادر هذه النقطة ل غيرها نقارن بين منحى القرآن الكريم الذي وقـــت ذاك مـــا زال شفوياً أو مكنوناً في الصدور ولم يسوّر عليه بين دفتي مصحف عثمان الأموي وبين تلاعبات المفسرين الذين عاشوا على هامشه.

فقد رقم أحسن الحديث حالة العنجهية والخنزوانة والتشامخ التي ضربت الصحابة والتـــي عبر عنها كبيرهم عتيق بن أبي قحافة التيمي حينما رأوا كثرة العدد وأكدوا نصرهم على عدوهم.

أما الكاتب الذي نسخنا اسمه فيما سلف فقد نقلها بصيغة توحي ب عدم الوقوع وتشـــي ب استحالة الحدوث وتشف عن استبعاد التشيؤ، وهو مثل لما فعله ســـلفه الصـــالح ويفعلـــه أنـــداده المعاصرون وهذا هو الصادع الذي يفصل بين الصدق والتفتح والطهارة، وبين اللـــف والـــدوران واللولبة والالتواء، وإذ أردفت أو أضيفت (النصوص الثواني) على حواشي أو هوامش النصـــوص المقدسة الأصلية وانتسبت إليها نالها قدر من التقديس آناً كبير وحيناً صـــغير وبالتقـــادم الطويـــل يترسخ ذلك.

وليس مصادفة أو خبط عشواء أن عدداً وفيراً من التفاسير خاصة «التراثية» تدون وتطبع على جوانب المصحف الكريم، بل إن

هذا العمل ما زال مستمرا حتى الآن.[١]

وهي «النصوص الثواني» غدت ــ ل عدة عوامل ــ لا مجال هنـا لِ ذكرهـا، واسـعة الانتشار قريبة المثال بل في راحة اليد.

ومن هنا يصبح تأثيرها على القارئ العادي أو حتى المثقف أشد غوراً وأعمق شقاً وأنفـذ مفعولاً وهذا أحد الروافد المهمة في تكليس[٢] العقول وتحجيرها وتنفيرها إلاّ من الثقافة الضيقة أي التقليدية المغلقة على نفسها.

* * *

ب فرار عشرة آلاف صحابي وتوليهم وجريهم لا يلوون على شيء تخلقـت أزمـة مـن الوزن الثقيل إذ كيف يُوسم هذا الحجم الغفير وفيهم مرازبة جحاجح وسادة غطاريف ونُجُب أسياد: منازيح وأبناء قيلة بهذه الكبيرة الباهظة والإثم الفظيع والخطيئة الغليظة؟.

أولاهما: معنوية وهي الحكم على هؤلاء جميعهم ب أن غضب الله تعالى نزل علـيهم وأن مأواهم جهنم وبئس المصير.

وأخراهما: مادية وهي لا سبيل إلى الاستعانة بهم وحتى معاملتهم، إذ كيـف تسـتعين بـُ هرّاب فرار تولوا يوم الزحف وينتظرهم المآل المحتوم إلى الهاوية؟.

فإذا تم فكيف متى وأنّى يمكن تعويض العشرة آلاف؟

هنا يأتي دور (الحبل/ القرآن) ف يتفضل ب تقديم الحل ف تهلّ الآيات الكريمـة: «لقـد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئاً وضـاقت علـيكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى

---

(١) انظر على سبيل المثال السريع «التفسير الميسر» لرئيس مؤسسة شئون التقديس الشيخ محمد سيد طنطـاوي، والأمر الذي لا يخفى على الفطن معناه أنه مطبوع بـ «مطبعة المصحف الشريف/ الأزهر».ا.هـ.

(٢) في «المعجم الوسيط» التكلس ترسيب أملاح الكالسيوم غير القابلة ل الذوبان.

المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم».[١]

ف هنا نزلت السكينة من السماء على الذين منحوا أكتافهم العريضة ل عدوهم الذي لم يصل إلى ثلث عدتهم أي الذين أمعنوا في الفرار والجري حتى وصلوا إلى مشارف مكة مع أنهم في بديّ الأمر انتصروا فما إن لمحوا الغنائم الجزيلة، حتى ألقوا أسلحتهم وطفقوا يجمعونها فعاد إليهم فرسان هوازن وهجموا عليهم ثانيةً، فما إن شعر الصحاب البسيلون بعودة الهوازنيين إلى الطعان حتى منحوا سيقانهم للريح وحدّس الطليق أبو الطلقاء الأموي سفيان بن حرب ألا شيء سيوقفهم من الإدبار إلاّ ساحل البحر، أي على أولئك الشجعان المغاوير الذين تركوا قائدهم وسيدهم مع نفر قليل من الثابتين.

السكينة هي ــ الطمأنينة:

(واذكر «يوم حنين» واد بين مكة والطائف «إذ أعجبتكم كثرتكم» فقلتم لن نُغلب اليوم من قلة وكانوا اثنى عشر ألفاً والكفار أربعة آلاف «فلم تغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت» أي مع رحبها أي سعتها فلم تجدوا مكاناً تطمئنون إليه ل شدة ما لحقكم من الخوف «ثم وليتم مدبرين» منهزمين «ثم أنزل الله سكينته» طمأنينته).[٢]

بيد أنه من الجائز أن يعترض قارئ قائلاً إن السكينة التي نصت عليها الآية الشريفة المذكورة حددت من نزلت عليه «على رسوله وعلى المؤمنين»، والذين ولوا مدبرين من المستحيل أو حتى من الصعب وصفهم ب الإيمان ومن ثم فهي لا تعمهم؟.

---

(١) الآيات ٢٥، ٢٦، ٢٧ من سورة التوبة.

(٢) (تفسير الجلالين). تصحيح ومراجعة: محمد صادق قمحاوي، ص ١٥٦ د.ت.ن مكتبة الجمهورية العربية، مصر.

بيد أن المفسرين أو ل الدقة التي نحاول أن نتحراها في كل بحث أو دراسة: عدداً مـــنهم أكدوا أن السكينة ضمت الذين ثبتوا والفُرّار.

«ثم أنزل سكينته» رحمته التي سكنوا وأمنوا.

«على رسوله وعلى المؤمنين» الذين كانوا انهزموا وعلى الذين ثبتوا مع رسول الله حـــين وقع الهرب.[١]

والقاضي البيضاوي يعاضد القمّي النيسابوري في هذا المذهب:

(«وضاقت عليكم الأرض بما رحبت» برحبها أي سعتها لا تجدون فيها مقراً تطمئن إليـــه نفوسكم من شدة الرعب أو لا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه. «ثـــم وليـــتم» الكفـــار ظهـــوركم. «مدبرين» منهزمين والإدبار الذهاب إلى خلف، خلاف الإقبال.. «ثم أنزل سكينته» رحمته التـــي سكنوا بها وآمنوا. «على رسوله وعلى المؤمنين» الذين انهزموا).[٢]

أما القرطبي فيذكرها بطريقة ضمنية:

(قوله تعالى: «ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المـــؤمنين» أي أنـــزل علـــيهم مـــا يسكنهم ويذهب خوفهم حتى اجترءوا على قتال المشركين).[٣]

فإذهابه الخوف وإعادة الجرأة على القتال التي فسر بها السكينة كلها لا تنال إلاّ الهـــرابين الذين ركبهم الفزع وعمهم الهلع وامتطتهم ال لشلشة.

وب مفهوم الموافقة فإن إنزالها من السماء يعني العفو والمغفرة والصفح عن كبيرة الكبائر والاكتفاء بعتاب رقيق هادئ ولفت نظر بسيط بعدم الاغترار بكثرة العدد.

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمي النيسابوري، المجلد الخامس، ص ٤٢٢، مصدر سابق.
(٢) (تفسير البيضاوي) ص ٢٥١/ مصدر سابق.
(٣) (تفسير القرطبي) المجلد الخامس ــ ص ٢٩٤ ــ سابق.

وهكذا انحلت عقدة هزيمة الصحب في مفتتح غزاة حنين وهربهم من وجه عدوهم وعاد الهدوء إلى (الأعز/ الأعظم) واعترى صحبه سرور عارم لا ب التجاوز عن الكبيرة التي ارتكبوها ف حسب بل لِ نوالهم غنائم جزيلة لم يحصلوا عليها في أي غزاة «انتصروا» فيها.

ولا شك أن تقسيم الغنائم على الجميع دون تفرقة بين من ثبت مع (الغوث) ومن ولّي الأدبار يدلّ على صحة تفسير أن السكينة التي وردت في الآية جاءت عامة ولم تخص أولئك الأبطال المغاوير الذين ظلوا يقاتلون ولم يهربوا.

* * *

يبين من جماع ما تقدم أن الأساليب تنوعت والوسائل تباينت والطرق تعددت في كف الصحب عن الجبانة ونهيهم عن الرعشة أو الارتعاش وتنفيرهم من الخور، وبالمقابل حضهم على الشجاعة وترغيبهم في الثبات ودفعهم إلى البسالة.

ف مرة: يقال لهم إنها زلة شيطانية وقد عفا الله عنها إذ هو الغفور الرحيم.

وأخرى: أنهم عكّارون لا فرّارون وإن ما بدر منهم مجرد تحرّف في القتال وتحيّز إلى فئة وذكر لهم «ال أمين» وهو الذي لا ينطق عن الهوى «أنا فئتكم» أي أن هروبهم حتى يثرب هو انحياز إلى قومهم وهو على رأسهم، وسبق أن رقمنا أن لهم عذرهم لأن جيش العدو خمسون ضعفاً.

وثالثة: ينزل السكينة عليهم ف ينعطفون على المشركين ويهزمونهم.

هذه الأساليب المتنوعة، كما نلاحظ، الهدف منها التربية، إذ راعت كل حالة وقدرت كل ظرف ووزنت كل نازلة.

وهكذا يثبت الذكر الحكيم أنه دائماً مع «الموقر» وجماعة المؤمنين

لا يغفل عنهم خاصة في المحن والشدائد والأزمات.

ولعل فيه أبلغ رد على اعتراض مشركي مكة «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القــرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً».[١]

ولا شك أن تثبيت فؤاد (المقفى) هو بالضرورة تثبيت لقلوب أتباعه، ولقد تيقن صدق هــذه الآية الكريمة بعد سنوات ب صورة جلية، إذ إن سورة الفرقان التي ضمتها مكية والوقــائع التــي سطرناها فيما سلف حدثت بعد النزوح إلى قرية الحرتين.

* * *

٣ ــ إلجام التبّاع عن الاندفاع نحو المتع الحسية:

تناولنا ب الدراسة الموضوعية، فيما سبق، اشتعال غريزة الجنس في ذاك المجتمع لــدى الذكور والإناث دون تفرقة وسردنا أسبابه ولا نرى داعياً لتكراره.

انظر كتابنا (مجتمع يثرب، العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمــدي والخليفــي) دار سيناء ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت. وقد طبع مرتين.

وقد عانى (أذُن خير) الأمرين وهو يقوّم اعوجاج التبع في هذا المجــال وتــربيتهم علــى السيطرة على نوازع الحس وتعليمهم التسامى ب تلك الغريزة.

وكما تعودنا لم يذره «أحسن الحديث» يحارب في هذه العركة الشرسة منفرداً بــل وقــف إلى جنبه يؤازره ويعاضده ويشد من أزره.

السلوكيات الفَلَوت والتصرفات الطائشة والأفعال المنحرفة التي صدرت من عدد من التبع جاءت متنوعة، بيد أنها تشي ب غلبة دوافع الجسد وسيطرة الغريزة وقوة الشهوة التي تصل فــي أحيان

---

(١) سورة الفرقان، الآية الثانية والثلاثون.

كثيرة إلى درجة الشبق، لأن الذي يُقدم على اغتصاب مرة أخيه وهو يعلم علم اليقين أنـــه خـــرج مجاهداً في سبيل ذات الديانة التي يعتنقها هو بل وربطته بالزوج الغائب آصرة قوية، نقول إن هذا الشخص هيمنت عليه الغريزة وحولته من إنسان إلى حيوان أبجر.[1]

(أخرج الترمذي والنسائي والبخاري في تاريخه والواحدي عن أبي اليسر قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً، فقلت إن في البيت تمراً أطيب منه، فدخلت معي البيت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال: استر على نفسك وتب، فأتيت عمر فذكرت ذلك له، فقال اســـتر علـــى نفسك وتب ولا تخبر أحداً فلم أصبر فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: أخلفت غازياً فـــي سبيل الله في أهله ب مثل هذا، حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلاّ تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهـــل النار.

قال وأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» ١١٤ ــ هود.[2]

أما الواحدي النيسابوري فقد أكد علم أبي اليسر أن المَرَة زوجـــة أحـــد أجنـــاد البعـــوث «السرايا» وأنه لما قص حكاية فعله المخزي على (البشير) قال له على الفور خُنت رجلاً غازيـــاً في سبيل الله ب هذا).[3]

إن هذا الأبا اليسر ليس هو الفارس الوحيد في هذا المضمار ف ثمة تمار «بيـــاع تمـــر» آخر يرتكب الفُحش ذاته:

أخرج الثعلبي من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في

---

(١) الأبجر: هو من امتلأ بطنه ولم يشبع ــ ورجل أبجر ومَرَة بجراء «المعجم الوجيز» أي بلغـــت بـــه النهامـــة «إفراط الشهوة» أقصى مداها.ا.هـ.

(٢) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري، ص ٤٠٨، وأضاف المصنف: أورده الخطيـــب فـــي تـــاريخ بغـــداد والطبراني في الكبير والواحدي في أسباب النزول ووصف إسناده بأنه حسن وكذلك (لباب النقـــول) ل الســـيوطي ص ١٠٢ وأضاف:

وورد نحوه من حديث أبي إمامة ومعاذ بن جبل وابن عباس وبريدة وغيرهم.

(٣) (أسباب النزول) ص ١٨٠ ــ ١٨١ مصدر سابق.

قوله: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم» آل عمران: ١٣٥، قال: هو نبهان التمار، أتته امرأة حسناء جميلة تبتاع منه تمراً، فضرب عجيزتها، فقالت: والله ما حفظت غيبة أخيك، ولا نلت حاجتك، فسقط في يده فذهب إلى النبي ﷺ فاعلمه، فقال له: إياك أن تكون امرأة غازٍ؟ فذهب يبكي ثلاثة أيام يصوم النهار ويقوم الليل فأنزل الله عز وجل في اليوم الرابع هذه الآية. فأرسل إليه فأخبره، فحمد الله وأثنى عليه وشكره وقال: يا رسول الله هذه توبتي فكيف لي بأن يقبل شكري؟ فأنزل الله عز وجل: «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات».

عندما نؤكد أن هذا المنزع يتجاوز التصرف الذاتي ويكاد يتحول إلى ظاهرة اجتماعية، فليس في هذا أقل مبالغة، فهذا أحد الصحبة الميامين يقارف نفس الخطيئة ولا يكفى بالتقبيل ك أبي اليسر أو ب والتحسيس[1] باليد على العجيزة المكتنزة للمَرَة المشترية مثل ما أقدم عليه نبهان التمار، إنما مضى لأوعر منه لولا أن همته لم تسعفه ومذاكيره خذلته ورجولته خَنَسَت عنه.

(أخرج الإمام أحمد والبيهقي والبزار وغيرهم أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان يهوى امرأة فاستأذن من النبي ﷺ في حاجة فأذن له فانطلق في يوم مطير فإذا بالمرأة على غدير فلما جلس منها مجلس الرجل من المرأة ذهب يحرك ذكره، فإذا هو هُدْبَة، فقام فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال له النبي ﷺ صل أربع ركعات، فأنزل الله تبارك وتعالى: «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات» ١١٤ هود).[2]

وذكر المصنف أن الهيثمي قال عنه في الزوائد: رجاله رجال

(١) الحس: الإدراك بأحد الحواس والمحسوس المدرك ب إحدى الحواس من «المعجم الوجيز»
(٢) «المقبول» ل أبي عمر نادي الأزهري ص ٤٠٧، سابق.

الصحيح وأن الخطيب رواه في تاريخ بغداد والعراقي أورده في تخريج الإحياء (يعنـــي تخـــريج أحاديث إحياء علوم الدين ل الغزالي) وعزاه له ابن مردويه ب إسناد جيـــد ووصـــفه المصـــنف الأزهري أو الأزهري المصنف بأنه صحيح.

* * *

في كتابنا «مجتمع يثرب» نسخنا أن «المغيبات» أي زوجات الذين يجندون في الغـــزوات والسرايا والبعوث شكلن معضلة اجتماعية لأنهم صيد سهل للرجال الباقين في أثرب وهم (وهـــن) حديثو عهد بالإسلام وغرائزهم ملتهبة ذكوراً وإناثاً وجماعه دعا (المدثر) إلى إصـــدار أحاديـــث تشدد على نهي التماس بهن، بيد أن طغيان الغريزة التي هي بطبيعتها مشتعلة عنـــدهم والملابـــس التي يرتدونها والأخبية (جمع خباء)[١] والخيام وحتى مبانيهم الساذجة البدائية كلها ساعدت علـــى سهولة الالتقاء.

ولذا ألفينا في غالبية الحوادث التي هي على هذه الشاكلة أن النِسْوَن اللائي تـــم التحـــرش بهن أو اغتصابهن هن بعلات عساكر الغزو.

وإذا اتضح من الأخبار المتقدمة أن ضمير الرجل أو المرأة قد استيقظ، ف الأدنـــى إلـــى المنطق والأقرب إلى طبائع الأمور أن هناك العشرات من اللقاءات تمت سراً ولـــم يبلـــغ عنهـــا أطرافها: رَجَلَة (= جمع رجل) أو نسوة بل لقيت من الجميع الرحابة والانبساط.

(... عن ابن عباس أن رجلاً لقي عمر فقال إن المرأة جاءتني تبايعني فأدخلتهـــا المـــولج فأصبت منها كل شيء إلاّ الجماع، فقال ويحك لعلها مُغيب (أي زوجها) في سبيل الله قلت أجـــل، قال ائت أبا بكر.. فقال ما قال لعمر ورد عليه مثل ذلك وقال: ائت رسول الله ﷺ

---

(١) إنّ الرجل كان إذا تزوج بنى للعروس خباءً جديداً وعمّره بما يحتاج إليه.
من «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي» تأليف أحمد المقري الفيـــومي تحقيـــق د. عبـــد العظـــيم الشناوي، الطبعة الثانية ١٩٩٤ دار المعارف ب مصر.

فسله فأتى رسول الله ﷺ فقال مثل ما قال ل أبي بكر وعمر، فقال رسول الله ﷺ لعلها مُغيب في سبيل الله فقال نعم. فسكت عنه ونزل القرآن: «أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات». فقال الرجل: إلى خاصة يا رسول الله أم للناس عامة؟ فضرب عمر صدره وقال: لا ولا نعمة عين ولكن للناس عامة، فضحك رسول الله ﷺ وقال: صدق عمر»).[١]

إن تكرار سؤال (الأزهر) والتيميّ والعدويّ/ الرجل: لعلها مُغيب في سبيل الله أي لعل زوجها غائب عنها في غزاة أو سرية أو بعث؟ يشي ب إدراكهم العميق لأبعاد هذه المشكلة الاجتماعية، وأنها لم تعد حالات فردية بل ظاهرة عامة.

عندما قرأت الخبر تعجبت ل جرأة عمر، فالرجل يتوجه ب سؤاله إلى (سيد الكائنات) هل الآية تخصه أم تعم سائر التباع؟ فإذا به أي العدويّ لا يلزم غرزه ولا يقف عند حده، ولا ينتهي عند موقعه... فيسرع بالإجابة: إنها لكل الناس ولم نعهد في غيره من التبع من يقدم على مثل هذا الصنيع.

بعدها نأتي إلى التفاسير:

(إن الحسنات يذهبن السيئات) قال المفسرون نزلت في أبي اليسر عمر بن غزية الأنصاري كان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها إن في البيت أجود من هذا فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبضها وأصاب منها كل ما يُصيب الرجل من زوجته سوى الجماع ثم ندم، فأتى رسول الله ﷺ ف أخبره بما فعل فقال انتظر أمر ربي، فلما صلى صلاة العصر نزلت، فقال نعم اذهب فإنها كفارة لما عملت، فقيل له هذا له خاصة أم للناس عامة فقال: بل للناس عامة).[٢]

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي النيسابوري ص ١٨١، سابق.
(٢) (غرائب القرآن) ل القميّ الجزء السادس ص ٢٥، ٢٦، مصدر سابق.

وفي تنوير المقباس:

(نزلت في شأن رجل تمار يقال له أبو اليسر بن عمر).[١]

ويؤكد صاحبا تفسير الجلالين أن الحديث رواه الشيخان:

(نزلت فيمن قبل أجنبية فأخبره ﷺ فقال إليّ هذا فقال: لجميع أمتي، رواه الشيخان).[٢]

وسبق أن أوضحنا ما تعنيه كلمة «الشيخين» في دائرة علم الحديث، أي البخاري ومسلم وإذ إنهما يتربعان على قُلة (ذروة) الصحاح الستة فإن الحديث الذي يتفقان عليه يغدو الطعن فيه من الصغار الذي لا يليق.

الخبر الذي وضعه في حجورنا القميّ النيسابوري ينبغي لنا قراءته بحرص شديد، فبعدما سمع (خير قرابين الله) القصة من التمار الشبق الذي لم يراع أي حرمة، رد عليه ب قوله (انتظر أمر ربي) أي أنه على يقين كامل أن السماء لن تدعه يواجه هذا الموقف بمفرده خاصة أن الممارسات الجانحة تكررت وتحولت إلى ظاهرة.

وإن المرء ليعجب أشد الإعجاب ب حلم (خير من وطئ الأرض) وصبره، فهو عندما سمع تلك الحكاية المخجلة خاصة أنها مورست مع مغيبات ورغم نهيه الباتر كما السيف الصارم عن الاتصال بهن بأي صورة ولأي ظرف لم ينفعل ولم يعنف مرتكبيها ولم يوجه لهم كلمة عتاب ولا نزبر (نسطّر) كلمة لوم. لماذا؟

لأنه من ناحية: يدركه عرامة غريزة الاتصال ب الآخر لديهم ذكوراً وإناثاً وأنهم لم يعتنقوا الديانة التي بشر بها سوى قبل قليل وأنهم (مرتكبي التصرفات الفلوت) الاحتياطي أو الرديف الذي من أقرب الاحتمالات تجنيده في الغزوات والسرايا والبعوث، فلو قسا

---

(١) (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) ص ١٢٥، ١٤٦، مصدر سابق.

(٢) (تفسير الجلالين) ص ١٩٢، مصدر سابق.

عليهم فسوف يترك ندوباً في قلوبهم أو صدورهم تدفعهم إلى التباطؤ وتحثهم على التراخي وتحضهم على التكاسل.

ومن رجا آخر: ليس من الحصافة التهويل ب شأنها لأنه سوف يوزّ عساكره في السرايا والبعوث.. الخ على الانسحاب ويشجعهم على التخلي ويغريهم على الاستقالة لأنه مهما بلغت مغريات الجهاد من مغانم وأسلاب وأنفال في الدنيا، وحور عين وولدان مخلدين وأنهار خمور وعسل ولبن في الآخرة، فإنها لا تعوض الواحد منهم، نزولاً على موجبات مجتمعهم البديّ، عن ثلم العرض والتعدي على الحمى وانتهاك الحرمات. كلها يتحاشى وقوعها (المدثر) إذ تباعد بينه وبين نشر الديانة وتحول دونه وتحقيق حلم الجدود: إقامة دولة قريش.

* * *

نفحنا «البلاغ = القرآن» هذه الآيات المجيدة الأدلة المؤكدة أنه على صلة وثقى بالمجتمع المدهش الذي حظى أفراده ب رؤية (أبى إبراهيم) والملتبك به، ف تناولت الموضوع بيد أنها مسته مساً رقيقاً به عفو وسماح ورحمة مع تكليف بسيط للغاية لو أداه الصاحب الجانح ل ذهبت سيئاته وامّحت ذنوبه وزايلته خطاياه.

برهان ساطع على تاريخية السور والآيات وارتباطها ب إكراهات المجتمع الذي انبثقت في حناياه وب سلوكيات الفاعلين في جنباته..

لا كما يذهب إليه التقليديون أنها مجردة ومتباعدة ومتغربة عمن خوطب بها وتحلق في فضاءات مثالية لا وشيجة لها مع واقع الناس.

* * *

٤ ـ تمقيت زواج الأم (الاعتبارية) وتبشيعه:

في بديّ الأمر نعني ب الأم الاعتبارية: زوجة الأب.

وقد درج العربان على نكاح امرأة الأب بعد وفاته لا فرق فيه بين بني سخينة «قريش» وبني قيلة «الأوس والخزرج» ولا بين علية القوم

وأغمارهم «سفلتهم». وممن فعله «حصن بن أبي قيس» تزوج امرأة أبيه كبيشة بنت معن، والأسود بن خلف تزوج امرأة أبيه، وصفوان بن أمية بن خلف تزوج امرأة أبيه فاختة بنت الأسود بن المطلب ومنصور بن مازن تزوج امرأة أبيه مليكة بنت خارجة»[1] مرجعه إلى: غلظ حسهم وكثافة شعورهم وفساد ذويهم وأن الواحد منهم يعدد بعلاته ويظل يكرره طوال حياته ولا مانع لديه أن ينكح من هي في سن أولاده أو أحفاده ف يتوفى عنها وهي (أو هنّ) في ريعان شبابها، فيرضيها ويحظى لديها أن يتزوجها ابنه الشاب المفتول العضل المليء بالفحالة الفائض القوة ل تعوض ما فاتها من متعة ولذة أيام أبيه الشيخ.

من ناحية الابن ف إن هذا النكاح سيوفر عليه المهر وسائر التكاليف التي تبهظ كاهله لو أنه نكح أخرى خاصة أنه في كثير من الأحيان مليط من المال، خالي الوفاض، عارياً من النشب.

بيد أن العلة الكبرى التي تكمن وراء هذه العادة الذميمة هي تخلف المجتمع وبداوة البيئة وحوشية الوسط.

* * *

نؤكد أنه (= العرف الفاحش) وقع في نفس (الأعظم) موقع النفور ونزل في صدره منزل الكراهية وتموضع في قلبه بمكان البغض، وارتأى أنه من الحتم إلغاؤه ومن الضروري رفعه ومن اللازم القضاء عليه.

وسنحت الفرصة.

إذ (توفى أبو قيس وكان من صالحي الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته فقالت أنا أعدك ولداً وأنت من صالحي قومك، ولكن آتي

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي النيسابوري ص ٩٨، مصدر سابق.
وكذلك (تفسير الطبري)، الجزء الثامن ١٣٣، مصدر سابق.
ولو أنه ذكره مع بعض الاختلاف مثلاً منظور بن زيان بدلاً من ابن مازن كما عند الواحدي.
و(تفسير القرطبي) المجلد الثالث، ص ١٦٧٣ مصدر سابق، وأضاف «وكانت في قريش مباحة مع الترضي».
و(تفسير القرآن العظيم) ل ابن كثير، المجلد الثاني، ص ٢١٤، سابق.

رسول الله ﷺ واستأمره، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أبا قيس توفى، فقال لهـا رسـول الله ﷺ خيراً، قالت: وإن ابنه قيس خطبني وهو من صالحي قومه وإنما كنت أعده ولداً، فقال لها رسـول الله ﷺ ارجعي إلى بيتك فنزلت هذه الآية:

«ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلاّ ما قد سلف، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً» الآية الثانية بعد العشرين من سورة النساء، أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني في الكبير.[١]

بورود الحديث في اثنين من أميز كتب (الأسباب) التراثية (المصادر) وثالث من المراجـع الحديثة ووصفه إياه ب الحسن، غدا موثقاً.

* * *

من التفاسير: تفسير القرطبي أورد الحديث بأكمله.[٢]

ونسخه ابن كثير في تفسيره بنصه.[٣]

أما شيخ المفسرين أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبري فقد سطره بصيغة مغايرة «قـال عكرمة: نزلت في كبشة بنت معن بن عاصم من الأوس توفي عنها أبو قيس بن الأسـلت فجـنح عليها ابنه فجاءت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله لا أنا ورثت زوجي ولا تركت فأنكح، فنزلت هـذه الآية».[٤]

وفي موضع لاحق ذكر الطبري: «نزلت في أبي قيس بن الأسلت خلـف علـى أم عبيـد صخر كانت تحت الأسلت أبيه».[٥]

---

(١) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري، وقال عنه: حديث حسن، مرجع سابق.
و(أسباب النزول) ل الواحدي النيسابوري، ص ــ ٨ مصدر سابق.
و«لباب النقول» ل السيوطي، ص ٥٠ وأضاف ل ابن أبي حاتم والطبراني: الفرياني.. عن عدي بن ثابت.
(٢) (تفسير القرطبي) المجلد الثالث ص ١٦٧٣/ ١٦٧٤، مصدر سابق.
(٣) (تفسير القرآن العظيم) المجلد الثاني ص ٢١٤، مصدر سابق.
(٤) (تفسير الطبري)، الجزء الثامن، بند ٨٨٧٣ ص ١٠٦، مصدر سابق.
(٥) (تفسير الطبري)، المجلد الثامن، بند ٨٩٤٠ ص ١٣٣، سابق.

ل اختلاف اسم الزوجة علق المحقق الشيخ محمود محمد شاكر ب الآتي: «ف أخشى أن يكون الخبر السالف وهذا الخبر مجتمعين على أنه جنح على امرأتين من نساء أبيه: كبيشة بنت معن وأم عبيد بنت صخر».[١]

وأضاف أن الثعلبي ذكر في تفسيره: أن الابن جنح على كبيشة. لمعايشتنا الطويلة في الكتب لمجتمعهم المعجب وبيئتهم المدهشة ووسطهم الفريد نؤيد الشيخ محمود محمد شاكر في خشيته بل نرجح أن الأب ترك زوجتين وأن الولد جنح على كليهما.

إذ من البديهي ألا يفوّت الفرصة النادرة التي فتحت أمامه الباب على مصراعيه ليمتع مذاكريه بمَرَتين لا واحدة دون أن يدفع درهماً.

ومن مصنفات التفسير المحدثة. تفسير القرآن الكريم ل عبد الله شحاتة فقد زبر الحديث بنصه وقصه.[٢]

* * *

نوع ثالث من كتب التراث: تراجم الصحابة

أورد الحافظ ابن حجر العسقلاني الخبر ب تمامه عن الفرياني وابن أبي حاتم عن عدي بن ثابت عند ترجمته ل قيس بن صيفي بن الأسلت.[٣]

وفي ترجمته لكبشة بنت معن رقم ما يلي «كانت زوجة أبي قيس بن الأسلت ويقال لها كبيشة قال ابن جريج عن عكرمة: نزلت فيها...».[٤]

وترجم للزوجة الأخرى: «أم عبيد بنت صخر بن مالك... كانت

---

(١) نفس المصدر والجزء، هامش ص ١٣٤.
(٢) الجزء الرابع، ص ٨٠٥، مرجع.
(٣) (الإصابة في تمييز الصحابة)، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، المجلد الخامس، ص ص ٦٨٨ ــ ٦٨٩. د.ت. دار الغد العربي ب مصر.
(٤) ذات المصدر، المجلد الرابع، ص ٧١٢، سابق.

تحت الأسلت فخلف عليها أبو قيس بن الأسلت ففرق الإسلام بينه وبينها لكونها امرأة أبيه، ذكـره أبو موسى من طريق محمد بن ثور، عن ابن جريج».[١]

والأثر الأخير يدل على أن الابن نزا (وثب) أو نط[٢] على امرأة أبيه بالفعل ومن الطبيعي أنه تم برضا الطرفين بدليل ما جاء فيه: «ففرق الإسلام بينـه وبينهـا» أي بعـدما هلـت الآيـة المذكورة إذ لا يتصور قبله.

ما سطّره قاضي القضاة وشيخ الإسلام ابن حجر في التراجم الثلاثة يؤيد خشـية الشـيخ شاكر من جنوح الابن على البعلتين ويؤكد ترجيحنا له.

* * *

وسواء نط الابن على واحدة أو على اثنتين فقد ثبت صحة الحديث غبّ أن قدمته المصادر العوالي من أمهات ذخائر التراث في الدوائر الثلاث:

(أسباب النزول) و(التفسير) و(تراجم الصحاب).

ونلخص الموقف في الآتي:

عرف اجتماعي ممعن في الفحاشة بالغ الدناءة، شديد الحقارة تمنى (الأمي/ المكي) زواله وتطهير تباعة منه فلبى (الحبل/ المبارك = «القرآن») طلبته وحقق رغبته واسـتجاب ل أمنيتـه فأقبلت الآية الكريمة تتهادى كالقمر المجلو تحرم هذا النوع البغيض من النكاح وتصـفه بأقسـى النعوت: الفاحشة أي العلاقة المحرمة مثل الزنا، والمقت وهو أقصى درجات الكراهيـة وأعلـى مراتب البغض وأبعد مراحل الشنآن.

وساهمت في تهذيب أخلاقهم وتقويم إعوجاجهم وتعديل

---

(١) ذات المصدر والمجلد نفسه، ص ٨٢١.
(٢) العامة في مصر تستعمل هذه الكلمة في ذات المعنى ف هي إذن من العربية الفصحى ا.هـ.

انحرافهم، ووقفت في صف الآيات المجيدة التي تعني ب شئون الأمة المسلمة وتهــتم ب أمورهـــا ولا تنفضل عن أحوالها. إنها العلاقة الجدلية بين النصوص والواقع وعدم انفصـــامها عنـــه، بـــل والالتحام به بصورة شديدة الحميمية تصك الذين يصفونها ب النقيض: المفاصـــلة والتحليـــق فـــي الفضاء.

* * *

٥ ــ كف الصحابة عن الحصول على الدخول الريعية المشبوهة:

اعتاد العرب العيش على الدخول الريعية، إذ لا طاقة لهم قديماً وحـــديثاً ب بـــذل الجهـــد وسفح العرق ومعاناة التعب في سبيل الحصول على الرزق ومن ثم ف لـــم تقـــم فـــي جزيـــرتهم المباركة صناعة رغم توافر المواد الخام فيها.

العمل الوحيد الذي يمكن إدخاله في دائرتها هو صنع السيوف. تولاه بنو سليم وممـــا لـــه دلالة عميقة أنهم أطلقوا عليهم (القيون/ جميع قين أي عبد) ف هم في نظرهم عبدان.

والزراعة، لديهم محصورة في بضع واحات منها:

١ ــ **اليمامة:** محصولها الرئيسي القمح أو الحنطة وبلغت مستوى من الجودة أن ضـــرب بها المثل، وفيما بعد درجوا على إرسالها ل قصور الخلفاء الأمويين والعباسيين.

ولم ينج بنو حنيفة من سخرية الأعاريب فتندروا عليهم وعيروهم ب أن مساحيهم (= جمع مِسْحَاة: آلة زراعية) هي سيوفهم، أي ليس لهم في القتال.

ثبت فيما بعد أن هذا الهزو غير صحيح لأن بني حنيفة أهل اليمامة حاربوا ب شراسة في (حروب الردة) هكذا سماها المؤرخون والإخباريون في حين أنها حرب أهلية بكل المقـــاييس؛ لأن القبائل الكبيرة مثل بني حنيفة وتميم أنفت من حكم بني سخينة بعد وفاة

(سيد ولد آدم) الذي له جانبه التيولوجي وكبدوا دولة بني سخينة في عهد التيمي ابن أبـــي قحافـــة خسائر فوادح. في وقعة (حديقة الموت) لقي مئات من الصحابة حتفهم وللأسف من بينهم قراء أي حفاظ القرآن العظيم وهو الأمر الذي وز العدوي ابن الخطاب على أن يشير علـــى الخليفـــة الأول بجمعه.

والله سبحانه وتعالى وحده يعلم مدى النكبة النكباء (عن ابن الأنباري عـــن ابـــن شـــهاب (الزهري) أنه قال: بلغنا أنه قد نزل قرآن كثير، فقتل علماؤه يوم اليمامة الذين كانوا قـــد أودعـــوه ولم يعلم بعدهم ولم يُكتب).[١]

الزهري هو «أبو بكر محمد بن مسلم الزهري من أهل المدينة ونزيل الشام وكـــان مـــن المحدثين المعروفين ويقدر عدد الأحاديث التي رواها بألفي حديث وقيل إنه أول من دون في علـــم الحديث توفى السنة ١٢٤هـ».[٢]

أما ابن الأنباري فهو «أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري احفظ أهل الكوفة، فكان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن وكان ديناً صدوقاً توفى ب بغداد السنة ٣٢٧هـ».[٣]

الزهري وابن الانباري من المستحيل أن يرويها خبراً معلولاً.[٤]

ويدعمه ما نقله الخوئى عن السيوطي أن «عمر ــ رض الله عنه ــ قال: لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله؟ قد ذهب منه قرآن كثير ولكـــن ل يقـــل قـــد أخـــذت مـــا ظهر».[٥]

---

(١) (البيان في تفسير القرآن) ل الإمام أبو القاسم الموسوى الخوئي ص ٢٠٢، ٢٠٣، ١٩٧٤م. مؤسسة الأعلمـــي للمطبوعات، بيروت نقلاً عن (جدل التنزيل) لـ د. رشيد الخيون، ص ٢٢ الطبعة الأولى ٢٠٠٠ منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا.

(٢) (سيرة أعلام النبلاء) ل شمس الدين محمد أحمد الذهبي، الخـــامس، ص ٣٢٦، ١٩٨٢ مؤسســـة الرســـالة، بيروت نقلاً عن (جدل التنزيل) ص ٢٧، سابق.

(٣) (طبقات النحويين واللغويين) ل محمد بن الحسن الزبيدي، تحقيق أبو الفضل إبـــراهيم ص ١٥٣، د. ت. دار المعارف ب مصر نقلاً عن (جدل التنزيل) نفس الصفحة سابق.

(٤) العامة في مصر تقول «مضروب» ل التعبير عن الشيء (مادياً أو معنوياً) المغشوش.

(٥) (البيان) ص ٢٠٣ نقلاً عن (جدل التنزيل) ص ٢٢.

السيوطي علم في فناء الفكر الإسلامي وكتابه «الإتقان في علوم القرآن» من أميز كتب التراث في هذا المضمار فكيف يسمح له ضميره العلمي أن يختلق على العدوي ما لم يقله؟.

* * *

ثم نرجع إلى السياق:

لولا أن العبد وحشيا اغتال مسيلمة قائد بني حنيفة وبنى تميم بطريقة غادرة كما فعل مع حمزة بن عبد المطلب في غزاة أحد لما تمكنت جيوش التيمي عتيق بن أبي قحافة من هزيمتهم.

نخلص منه جميعه أن بني حنيفة أصحاب واحة اليمامة لم يقض امتهانهم ل الزراعة على قدرتهم على القتال أو على بسالتهم كما زعم العربان تحقيرا وزراية.

٢ ــ **الطائف:** بلدة بني ثقيف ولعدد من صناديد قريش فيها مزارع وبساتين وهؤلاء وأولئك استخدموا العبدان في الزراعة وسبق أن رقمنا قصة عداس عبد (غلام) عتبة بن ربيعة.[١]

وهذا على سبيل المثال.

ولما ذهب (المنصور بالرعب مسيرة شهر) إليها ل يُبَشّر ب دين الإسلام سلط عليه كبراؤها عبيدهم وسفهاءهم فقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان.

من هذين الخبرين: نستدل على وجود الأعبُد بكثافة فيها وهم الذين ينوءون بالزراعة لحساب ساداتهم الذي ينعمون ب حصيلة كدهم وشقائهم.

٣ ــ **يثرب:** الواحة الثالثة، زرع أراضيها، بخلاف اليهود، بنو قيلة وهم الأوس والخزرج الذين لم يستنكفوا منها لأن جرثوميتهم من

---

(١) (فترة التكوين في حياة الصادق الأمين) لخليل عبد الكريم ص ٣٣٦، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، دار ميرت، مصر.

اليمن حيث لا تعدّ الزراعة عملاً يزري ب الكرامة أو يحط من الاعتبار أو يقلل من القيمة شـــأنها شأن الشعوب المتحضرة.

بلغ استكبار العربان في نظرتهم إلى الزراعة حداً جعلهم يطلقون على الفلاحين في البلاد التي دعسوها بسنابك أحصنتهم ــ دون أي مســوغ ــ ونهبــوا خيراتهــا واســتنزفوا ثرواتهــا واستوطنوا أراضيها وفرضوا عليها لغتهم (الجميلة) وثقافتهم: «العلوج» وهي مقلوب «العجول».

مُنيت مصر المحروسة ب العديد من الغزو والاحتلال ولكــن لــم يقــم أي مــن الغــزاة والمحتلين ب مثل ما قام به العربان، نهبوا خيراتها واستوطنوا أراضيها وشمخوا بأنوفهم الســامية المحدودبة على شعبها أعرق شعوب الأرض قاطبةً وصاحب أقــدم وأزهــى حضــارة عرفتهــا البشرية، ولم يكتفوا.. بل أقدموا على ما هو أوعر: أجبروهم على التخلي عن لغــتهم وأكرهــوهم على تعلم لسانهم الفصيح وأجبروهم على الأخذ ب ثقافتهم.

يطلقون على الفلاحين (العُلوج) (مقلوب العجول جمع عجل).

في معاجم اللغة العلجْ = الرجل الضخم من كفار العجم.[١]

بعضهم يطلق العلج على الكافر المطلق.[٢]

أيْ أن مجرد رفض إنسان/ ابن آدم ــ كرمه الله تعالى الدخول في ديــنهم يحولــه إلــى حيوان: عِجل.

* * *

إذن ما هي أهم مصادر دخول العَرَبة؟

تتقدمها غزوات النهب والسلب والخطف.

لأن الخساسة متأصلة في طباعهم والدناءة متجذرة في أعماقهم

---

(١) (المصباح المنير) ل الفيومي.
(٢) ذات المصدر..

والجَبَانة أهم صفاتهم فهم لا يشنون الغارات إلاّ عند حالتين:

الأولى: في عماية الصباح، قبيل الشروق، حيث يغطّ عدوهم في نوم عميق فيفاجـــأون ب هذه الكبسة ولا يجدون ذرة من وقت للدفاع عن أنفسهم.

= يسمون هذا الفعل الذي لا يمت إلى الأخلاق ب أدنى صلة (يوم الصباح).(١)

الأخرى: عندما تخبرهم عيونهم (جواسيسهم) أن قبيلة خرجت ل شن غـــارة فيهتبلونهـــا نُهزة سانحة ويقومون ب دورهم ب الإغارة عليهم إذْ لا يوجد سوى الشيوخ والعجـــائز والنســـون والأطفال الذين لا طاقة لهم ب الوقوف في وجوههم وصدهم.

صورة أخرى للحقارة وانعدام المروءة والانحطاط الخُلقي.

في كلتا الحالتين يعمدون ب منتهى السرعة إلى خطف كل ما تنالـــه أيـــاديهم الرعديـــدة: السبايا الأطفال، النوق، الجمال، الملابس، الكراع... الخ ويرقلون عائدين.

دافع العجلة مردّه:

في يوم الصباح يخشون استعداد المهاجمين (بفتح الجيم) لملاقاتهم.

وفي الحالة الأخرى: كي لا يعود فرسان القبيلة ف يلقنونهم درساً قاسياً.

* * *

تأتي التجارة مُصلية (ثانية) للغارات.

فيها يعتمدون على العبدان والأجراء والوكلاء التجاريين الذين يقع على كـــواهلهم الكليلـــة العبء الأكبر، وما على السادة الغطاريف سوى تحصيل الأرباح الطائلة.

ويتفرع عنها أو يتضايف عليها تسليف المال ب الربا الفاحش عند

---

(١) في (القاموس المحيط) ل الفيروز آبادي/ يوم الصباح = يوم الغارة.

عجز المدين يغدو رقيقاً للدائن.

مورد آخر هو عَرَق الأعبد:

إذا أتقن العبد حرفة مثل النجارة أو الحدادة أو صقل السيوف أو البناء أو دبــغ الجلــود... الخ ف يعمل فيها منذ انبلاج الفجر حتى الليل وما يُدفع له من أجر يصب في جيب سيده.

تكالباً على الدخول الريعية التي تأتي ب لا تعب لم يرَ الواحد منهم عاراً فــي أن يصــير ديوثاً، فيفشل جواريه في العهورة ولا يشعر ب أدنى غضاضة من الاستحواذ على عرق أفخاذهن البوائس.

لا يستنفر العجب ولا يدعو ل الاندهاش ولا يبعث على الاستغراب أن من بين من فعلهــا عدداً من كبار صناديد بني سحينة بل ومن فروعها الشامخة. في مكة/ قرية القداسة وجدت (تســع صواحب رايات) لهن رايات كرايات البيطار يعرفونها:

أم مهدون جارية السائب بن أبي السائب المخزومي، وأم غليظ جارية صفوان بــن أميــة، وحبّة القبطية جارية العاص بن وائل.[1]

---

(١) أليس من مهازل التاريخ أن هذا الديوث الذي عاش على دخل الاماء القحاب هو والد (عمــرو) الــذي غــزا مصر وفعل هو وجنوده فيها الأفاعيل؟.

كم باحثاً وكاتباً ومؤلفاً... الخ سواء من القدامى أو المحدثين كتب في سيرة هذا ال (عمرو) مؤلفاً (بفتح الـــلام) أو بحثاً أو دراسةً وذكر أن والده رباه من عرق فخذ أمة قطبية؟.

هل يمكن أن نرجع أعمال ابن الديوث التي ارتكبها في المحروسة إلى نتيجة لعقدة نفسية ترسبت في أعماقه منــذ الصغر وهو يرى ويحس أنه نشأ وترعرع مما تتكسبه الجارية القبطية التي دفعها أبــوه ل احتــراف الــدعارة أو العهورة؟.

لم يكتفِ العاص بن وائل والد قاهر مصر المحروسة ب احتراف الدياثة بل يُعد في مقدمة من نأوا (أبا القاسم) من المشركين في قرية القداسة مكة وهو يدعو إلى دين الإسلام ومجابهته بكل فظاظة وخشونة بما يكره:

«ورجح بعض المفسرين أن الآية ٧٨ من سورة ياسين (يس) (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه...) نزلت فــي حــق العاص بن وائل أتى إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم. بعظم حائل، فَفَتّه بين يديه ثم ذراه في الريح فقال: يا محمد من يحيي هذا وهو رميم؟ فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الله يحييه ثم يميتك ثم يدخلك النار».

(المختصر في تفسير القرآن ــ مختصر الإمام الطبري) ل ابن صمادح التجيبي ــ تحقيق عدنان زرزور ــ عنــد تفسيره ل سورة يس ــ ص ٣٥٦ ــ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان.

وماذا يُنتظر من ذاك الديوث؟

ومن ناحية أخرى ف جماعه يفسر لنا أعمال ابنه في (أم الدنيا) أو في واقعة التحكيم بين الطليق ابن الطليق وبــين الإمام علي كرم الله وجهه ورضى عنه وأرضاه وعطر مرقده الطاهر صاحب الحق الشرعي في الإمامة العظمى ا.هـ.

ومرية جارية ابن مالك بن عمثلة بن السباق، وجلالة جارية سهيل ابن الأسود وقرينة جارية هشام بن ربيعة، وفرتنا جارية هلال بن أنس وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية (المواخير).[١]

ينضم ل هؤلاء الأماجد: عبد الله بن جدعان التيمي من بني تيم رهط عتيق بن أبي قحافة وعبد الله بن أُبي بن سلول له جاريتان: مسيكة وأميمة يشغلهما في الفجور فأسلمتا ورفضتا فشرع في إكراههما وفي شأنهما انبثقت الآية الثالثة والثلاثون من سورة النور (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء).

ورد هذا الخبر في العديد من كتب (أسباب النزول) و(التفاسير).

عبد الله بن أبيّ ترأس المنافقين في قرية الحرتين وقرب وصول (الحبيب المصطفى) أوشك بنو قيلة (الأوس والخزرج) أن ينصبوه ملكاً عليهم ثم عدلوا ل تغير الظروف ب الكلية.

ألا تعجب معي ل أولئك العربة؟

كيف تسمح لهم نفوسهم أن يملكوا عليهم ديوثاً صاحب ماخور؟

ألا يقف الحق معنا بكل قوته عندما نقرر ــ من خلال الوقائع الموثقة ــ أن ذياك المجتمع يختلف عن مجتمعنا المعاصر ب صورة جذرية؟.

ومن ثم يتعين علينا دراسته من كل أقطاره دراسة متأنية كيما ننقه (النصوص التأسيسية المقدسة) على وجهها الصحيح.

ولنوضح التباين بين المجتمعين:

هل يقبل أهل أي قرية مصرية في الصعيد أو الدلتا أن يعين ديوث عمدة لقريتهم؟

الإجابة لا تحتاج إلى تسطير أو رقم.

إذن يوجد تباين رئيسي بين الفاعلين في ذاك المجتمع والفاعلين

---

(١) (أسباب النزول) ل لواحدي ــ ص ٢١١ ــ سابق.

في مجتمعاتنا: من نواحي البناء النفسي ل الفرد، والتقاليد، والقيم والأخلاقيات، والسلوكيات، وهــو يحتم ما ندعو إليه:

النصوص تخلقت في رحم مُجتمع مباين تماماً، وفي ظروف تاريخية مغايرة، وفــي بيئــة مفاصلة وغير مؤتلفة ولا متوافقة.

ف كيف يتم تطبيقها بحذافيرها وحذوك القِذة بالقِذّة؟.

وهل من الصواب التمسك بحروفها وشكلياتها؟.

ومرة أخرى: نؤوب إلى سياق التنقير.

* * *

رقمنا أن التقاليد والأنساق الاجتماعية تؤثر في الشخص الذي نشأ وشب في أحضانها وأن ما تنتجه من قيم وتوجيهات ومحددات سلوكية تظل متجذرة في أعماقه خاصة إذا سلخ من عمــره شوطاً.

فإذا تلقى الشخص ثقافة جديرة تنافر ما رُبي عليه فإن هذا لا يزول أو يمّحى ل يختفي أو يغيب أو يتوارى حتى تواتي الفرصة ل يستعلن مرة أخرى، خاصة إذا حســبنا عهــده ب القــيم الحديثة أو الطارئة ف وجدناه قصيراً بالنسبة إلى الأعوام التي عاشها.

هذا لا يغض من مقام الثقافة الجديدة ولا ينال من مكانة القيم الحديثة ولا يزعــزع رتبــة المبادئ المستضافة. إنما عامل الزمن هو الذي يساعد على الترسيخ ويعاضد على التثبيت ويؤازر على التعميق.

بمعنى أن الثقافة الوافدة ب كل شموخها محتاجة ب طريق الحتم واللزوم إلى مدى طويــل كيما يتاح لها الهيمنة وتتهيأ لها السيطرة وتتمكن من الاستعلاء.

وحتى إذا أفلحت، ف ليس معناه نفي القديم أو تغريبه أو استبعاده.

إذ يلجأ إلى المناورة ويعمد إلى المداورة ويضطر إلى المراوغة.

يظل يتربص حتى تلوح له في الأفق البعيد بوادر رأي نُهزة ف يرقل «= يهــرع» إلــى الظهور واحتلال موقعه السابق الذي تنازل عنه مؤقتاً ول وقت معلوم ل القادم الجديد.

فرشة قصيرة وضرورية لتوضيح العلل والكوامن وراء هرولة بعــض الصــحاب إلــى اكتساب دخول ريعية حتى ولو على حساب المبادئ السامية التي لقــنهم إياهــا (المعصــوم مــن الناس).

* * *

(أخرج النسائي عن عبد الله بن عمرو قال:

كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح ف أراد رجل من أصــحاب النبــي ﷺ أن يتزوجها فأنزل الله «والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين» الآية الثالثــة من سورة النور).(١)

أخرج الحديث النسائي أحد أصحاب الستة الصحاح.

وورد به أن يطل القصة «رجل من أصحاب النبي ﷺ».

تعبير دقيق له مغزى عميق، إذ سوف نرى في الأخبار المصلية (التالية) جملاً مثل: رجل من المسلمين أو رجال من المسلمين أو الناس.

هي صيغة تقطع ب أنه من أصحاب (أول من تنشق عنه الأرض) تمييزاً له عــن غيــره ولو أن الجميع يطلق عليهم لقب صحابي.(٢)

أورد الحديث ذاته أبو عمر نادي الأزهري وزاد عليه:

(أخرجه النسائي في الكبرى وفي تفسيره ورواه الإمام أحمد في مســنده والطبرانــي فــي الأوسط والحاكم في المستدرك وصححه وأقره الذهبي والبيهقي في سننه وجهم عن عبــد الله بــن عمرو).

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ١٢٢.
(٢) انظر في هذه الخصوصية السفر الأول من كتابنا «شدو الربابة» ــ دار سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربي ــ بيروت.

ووصف إسناده ب الصحة.[١]

رقمه أيضاً الواحدي النيسابوري.[٢]

تأكد الحديث إذن وتوثقت صحته بعدما نسخناه بشأنه.

الصحابي لم يشعر أدنى ذرة من حرج أو مُسكة من حياء أو بقية من خجل في أن يتزوج العاهرة أم مهزول وتنفق عليه من كسبها الخبيث من التقحب.

إنه لا يرى أي عار في أن يتحول إلى ديوث يرحب ب أي زبون (عربية فصيحة) يـأتي إلى منزله ل يسافح زوجته بل يدله على حجرتها.. ما دام سيدفع الجُعْل.

ولولا أن المجتمع لا يستنكر هذا الضرب من النكاح (= الزواج) لما أبـدى الصـحابي رغبته فيه.

ف من المعلوم أن الفرد لا طاقة له ب الوقوف في وجه أفراد المجتمع ب الخروج علـى تقاليدهم، لا يستطيع أن يتحداهم ب هذه الصورة السافرة بل الوقحة لو أن العرف يحظره.

إذن هذا التصرف لا غبار عليه أيانه، ف هو مباح ومتعارف عليه بل ربما عد نوعاً مـن الشطارة.

في «المعجم الوجيز» الشاطر: الفهم المتصرف.

وضرباً من الفتاكة (= الفتاك الشديد).

وجه من وجوه البينونة الكبرى بين مجتمعهم والمجتمع المعاصر:

اليوم أفقر مواطن مصري يفضل الموت جوعاً ولا يتاجر بعرضه.

قد ينبري فلحاس[٣] العامة في المحروسة «مصر» تقول: فلحوص (بالواو والصاد) أ.هـ.

---

(١) (المقبول) ص ص ٤٧٥ ــ ٤٧٦، مع هامش الأولى.
(٢) (أسباب النزول) ص ٢١٢.
(٣) في «القاموس المحيط» ل لفيروز آبادي/ الفلحاس السمع.

فيصيح معترضاً أنها حادثة ردية، فلا يصح تعميمها.

ونرد عليه:

لولا أنها ظاهرة اجتماعية ل ما بزغت بشأنها آية من القرآن العجب.

ف لا يعقل أن تتهادى بطلعتها المضيئة لعلاج داء أصاب فرداً واحداً. لا نتعكز على المحاجات المنطقية رغم عرامتها، نلجأ إلى المنقول إذ نعلم أنه أبلغ أثراً خاصة في بيئة تغلب عليها الثقافة التقليدية.

(نزل ذلك لما هَمّ فقراء المهاجرين أن يتزوجوا بغايا المشركين وهن موسرات لينفقن عليهم).[1]

سبق أن أوضحنا ب البرهان أن من بين فقراء المهاجرين أصحاب أسماء لوامع ومنهم من غدا في مقدم الشموس الساطعة، لأن المشركين المكاكوة لم يسمحوا لهم بأخذ شيء معهم عند نزوحهم لقرية الحرتين.

ول نتفرس في الخبر. فقد ذكر الجلالان (فقراء المهاجرين) بصيغة الجمع والشمولية.

فلم يزبرا (بعض فقراء المهاجرين) أو (عدداً من فقراء المهاجرين) أو (شطراً من فقراء المهاجرين).

القاضي البيضاوي الإمام ناصر الدين أبو الخير عبد الله ثبت الخبر

(الآية نزلت في ضعفة المهاجرين لما هموا أن يتزوجوا بغايا يكرين أنفسهن ل ينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية).[2]

بداية: الضعيف تطلق على الفقير والمملوك والمرأة، والضعفان بالمعنى ذاته وهي جمع.

إذن ضعفة المهاجرين: فقراء النازحين ومحاويجهم ومعوزوهم.

---

(١) (تفسير الجلالين) ص ٢٩٢ ــ مصدر سابق.
(٢) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ص ٤٦٣ سابق.

المفسر البيضاوي ذكرها ب إطلاق دون تبعيض أو تجزئ.

وأثره أوسع تبييناً إذ كشف عن العلة: لينفقن عليهم، ومعلومة أخرى وهبها لنا مشكوراً: (على عادة الجاهلية).

أي هو أمر معروف لديهم وليس منكراً أو مستنكراً أو مستهجناً وهذا يؤيد ما ذكرناه عن استحالة إقدام الواحد منهم عليه والهم به والشروع فيه لو أن مجتمعه ينفر منه أو يزدريه ويحتقر من يمارسه.

* * *

(قال مجاهد وعطاء بن أبي رباح وقتادة: قدم المهاجرون وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة، ولكل واحدة منهن علامة كعلامة البيطار، أنها زانية، وكان لا يدخل عليها إلاّ زان مشرك، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المسلمين، قالوا نتزوج بهن إلى أن يغنينا الله عنهن فاستأذنوا رسول الله ﷺ ف نزلت هذه الآية.[1]

الخبر المرقوم رواه مجاهد وعطاء بن أبي رباح وقتادة وهم من سادة التابعين الكبار ومثلهم لا يتصور أن ينقل أثراً ضعيفاً أو مجروحاً ولا نقول ملفقاً.

حمله كتاب (مفاتيح الغيب) وهو من أجل التفاسير وصاحبه هو الإمام فخر الدين الرازي من الأئمة الأعلام.

إذن هو صحيح لا شائبة فيه ولا مطعن عليه ولا قدح يلحقه.

وعباراته تقطع بأن الحضيض (الدافع) عليه هو الرغبة في كسب العواهر ف حسب ونفحنا بمعلومة طريفة هي أن القحاب وابن على اتخاذ علامة مثل علامة البيطار ل يعرفن ول إرشاد الزانين إلى بيوتهن.

---

(١) (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير) ل الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي ٥٤٤ ــ ٦٠٦هـ ــ المجلد الحادي عشر ــ ص ٤٥٣ ــ ٤٥٤ ــ مصدر سابق.

هذه المعلومة تساعد علماء الاجتماع على تحليل ذياك المجتمع تحليلاً موضوعياً وتقييمه تقييماً صحيحاً يعاضد المفسر على تفسير النصوص التأسيسية المقدسة، وعلى فهمها على الأوجه الأمثل.

بلغت الجراءة ب أولئك (الناس) أن يتوجهوا ل (متمم مكارم الأخلاق) كيما يأذن لهم بنكاح هاته البغايا، ولا أدري كيف دار ب خلدهم أو طاف ب بالهم واعتمل في قلوبهم وحاك في صدورهم أنه سيوافق، ألا يدل هذا على أنهم يجهلونه؟.

* * *

الأزمة التي طقطقت (= فرقعت أو سمع لما صوت ذو دوي) بين صفوف النزحة أو بين الفقراء والضعفانين منهم لها دوافع اقتصادية وبيولوجية وعاطفية.

إذ ليس لهم موارد رزق يقتاتون منها ولا مساكن يأوون إليها. وبين جوانحهم غريزة ملتهبة تمسك مخانقهم كيما يرووا ظمأهم المتأجج.. ويبغون مثل إخوانهم تأسيس أسرة: زوجة يلقون لديها المودة وأولاد يلاعبونهم، ف هداهم حسهم الغليظ، إن صح أنه يهدي، وأفقهم الضيق وعقلهم العبيط «الساذج» إلى فكرة الزواج بالزواني إذ سيوفر لهم كل هذه الرغائب.

وفقراء النزحة ـــ كما رفعنا الستار عن حقيقة توصيفهم ـــ هم الأجناد الأوفياء وأعضاء كتيبة الحراسة وأفراد سرية الطوارئ والملبون لأول هيعة والمستجيبون لأول صيحة والمسارعون لأي استغفار.

فمثلهم لا يرد بعنف ولا يصد بقساوة ولا يصك بغلظة ولا يصت بشراسة وكما هو متبع: لا يدع (أحسن الحديث/ القرآن المجيد).. (سيد الناس وذؤابة العرب) يواجه الموقف الحساس دون مؤازرة:

فإما أن يُغضب شطراً مفرشحاً من عسكره عندما يسفه

مراغبهم، وإما أن يلبي طِلابهم ويوافق على النزوة الحمقاء الرعناء التي ارتفعت كالنبت الشيطاني في أدمغتهم الصعلاء[١] والتي تنافى المبادئ السامية وتناقض القيم الرفيعة وتعارض الأخلاق العالية التي نادى بها. وكثيراً ما علمهم أنه ما جاء إلاّ ليتمم مكارم الأخلاق.

إذن لا مشاحة في ضرورة أن تتلألأ منه (الحبل المتين/ القرآن) آية كريمة توضح للصحاب عموماً ول كل ضعفان من النازحين أن نكاح الزواني وزواج العواهر ومباعلة القحاب عمل فسيد وسلوك طَفِس وتصرف ممجوج لا يليق ب المؤمن.

قد يفعله المشرك ويقدم عليه الكافر ويقبله الزاني ويرتكبه الفاسق إنما هو على المؤمنين والتبع المخلصين حرام قطعاً. ارتدع فقراء النزحة وخنسوا وتنازلوا عن طلبتهم الدنسة إذ علموا أن التحريم أو النهي أو الحظر لم يأتِ به (الظفور) إنما سفرت به آية من (الفرقان/ القرآن) الذي تعنو له جباههم.

بذا أتحفتنا الآية الثالثة من سورة النور ب برهان إضافي على أنه في علاقة جدلية متجددة الحيوية بالغة النشاط، شديد الآده.[٢]

وأنه متين الآصرة ب المخاطبين (بفتح الطاء) به لا يغفل وحاشاه أن يفعل عن جميع شئونهم لا يتباعد عنها أو ينفصل بل هو حميم القرب منهم.

* * *

نوع آخر من ضروب الحصول على الدخول الريعية التي تأتي دون بذل نقطة عرق: الاستيلاء على مهر البنت.

«وآتوا النساء صدقاتهن» أي مهورهن.. قيل الخطاب ل الأولياء لأن

---

(١) الصَعْلاء أي الصغيرة وفي حديث أم معبد صاحبة الخيمة وهي تصف (ولد يعرب بن يشجب): ولم تزر به صعلة «بضم الصاد وسكون العين» ا.هـ.

(٢) الآده، هي القوة، من «القاموس المحيط» ل الفيروز آبادي.

العرب كانت في الجاهلية لا تعطي البنات من مهورهن شيئاً ولذلك كانوا يقولون لمن ولـــدت لـــه ابنة: (هنيئاً لك النافجة يعنون أنك تأخذ مهرها إبلاً فتضمها إلى إبلك فتنفج مالك أي تعظم).[١]

من المعلومة ــ الاجتماعية ــ التي نفحنا بها القمي النيسابوري اعتبر أولئك العربـــان أن نهب صداق الابنة عمل طيب يستحق التهنئة والمهر عبارة عن إبل. وهو الأصل في تســـميته ب ال (سياق) لأن الإبل تساق إلى بيت (خباء) خيمة العروس.

(ساق إلى المرأة مهرها سياقاً أي أرسله، والسياق ك كتاب: المهر).[٢]

وعند الزمخشري: (ومن المجاز: ساق إليه خبراً وساق إليها المهر، وأردت هـــذه الـــدار بثمن، فساقها الله بلا ثمن).[٣]

المعنى من منظور المجاز: أن المهر وصل إلى ولي من عُقد عليها كأنه رزق هبط عليـــه من السماء كما أن سوق الإبل (المهر) هو المنظور المادي أو العيني.

ويؤكد المقري الفيومي إطلاق كلمة السياق على الصداق (ساق الصداق إلـــى امرأتـــه أي حمله إليها).[٤]

وعند مجمع اللغة العربية:

(ساق المهر إلى المرأة: أرسله وحمله إليها.. وساق فلاناً ماشية = ملكه إياها).[٥]

لعل القارئ لاحظ أن (فلاناً) في الجملة (مفعول به) أي ساق الماشية إلى فلان، كذا ربـــط التعريف بين سوق (المهر) وسوق

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمي النيسابوري، المجلد الثالث ص ٤٨٣، سابق.
(٢) (القاموس المحيط) ل الفيروز آبادي.
(٣) (أساس البلاغة) الأول.
(٤) (المصباح المنير).
(٥) (المعجم الوسيط) الجزء الأول.

(الماشية)، أو على الأقل أوردهما في مجال واحد، لأن السياق في الأصل التاريخي هو الماشية ثم تطور إلى نقود وسمّي ب صداق ومهر.

نخرج من هذه الفرشة اللغوية أن العربي وقت ذاك يعتبر الماشية التي سيقت إليه مهراً ل ابنته: خيراً ساقه الله إليه، وغنيمة من حقه الاستحواذ عليها.

* * *

من البديهي أن نرقم أن العرف الاجتماعي الذميم استمر بعد الإسلام وهو يؤكد ما ذكرناه أن الأنساق الاجتماعية من المحال أن تتغير ب مجرد المواعظ والخطب وأنها تظل كامنة في أعماق الفرد حتى غبّ اكتسابه ثقافة جديدة مهما بلغت من السمو والرقي والامتياز.

(أخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج ابنته أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك فأنزل: «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مرئياً». الآية الرابعة من سورة النساء).[١]

يقول القاضي البيضاوي (والخطاب للأزواج والأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور مولياتهم)[٢] عند تفسيره ل سورة النساء.

ويبين لنا شيخ المفسرين ما درجوا عليه:

(عن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج أيمه أخذ صداقها دونها فنهاهم الله تبارك وتعالى عن ذلك ونزلت «وآتوا النساء» إلى آخر الآية).[٣]

وفي هامش الصفحة شرح المحقق كلمة (أيمه) التي وردت في

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ٢٨ ــ سابق.
(٢) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).
(٣) (تفسير الطبري) الجزء السابع ــ ص ٥٥٣ ــ سابق.

المتن:

(امرأة أيّم ورجل أيّم، وهي من النساء لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً.ا.هـ).

ويؤكد أبو جعفر ابن جرير الطبري في موضع آخر العرف الخبيث ورسوخه في مجتمعهم: «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة» أولياء النساء وذلك أنهم كانوا يأخذون صدقاتهن.(١)

بيد أنه أطلعنا على صورة أخرى متفرعة عن الأصل وهي أنه: (كان ذلك من أولياء الناس بأن يعطى الرجل أخته لرجل على أن يعطيه الآخر أخته على ألا كثير مهر بينهما، فنُهوا عن ذلك).(٢)

أي أن الأمر لم يقتصر على اغتيال مهر الوليد أو البنت بل تعداه إلى هبش.(٣)

ثم أردفه ب أثر آخر يدعّمه في الصفحة التالية برواية مشاكلة (مماثلة):

(حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال حدثنا المعتمد بن سليمان، عن أبيه قال: زعم حضرمي أن أناسا كانوا يعطي هذا الرجل أخته ويأخذ أخت الرجل ولا يأخذون كثير مهر فقال الله تبارك وتعالى «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة»).(٤)

صحيح أنه انضوى على عبارة (زعم حضرمي) ما يضّعفه، لأن (زعم) تعني ظن. وتزاعما(٥) = تحادثاً بما لا يوثق به من الحديث).

كما أن (حضرمي) مجهول.

---

(١) ذات المصدر والجزء والصفحة.
(٢) ذات المصدر والجزء والصفحة.
(٣) الهبش = الجمع وهبشته = أصبته منه عطاء = أصابه.
(٤) من «القاموس المحيط» ل الفيروز أبادي، مهر الأخت.
(٥) ذات المصدر والجزء، ٥٥٤.
(المعجم الوسيط)

وعند الزمخشري: «زعم فلان أن الأمر كيت وكيت زعماً إذا شككت أنه حق أو باطل، وأكثر يستعمل في الباطل».[١]

(وقال المرزوقي «زعم» أكثر ما يستعمل فيما كان باطلاً، وقال ابن الفوطية، زعم زعماً، قال خبراً لا يدري أحق هو أو باطل.. وقال بعضهم هو كناية عن الكذب وقال الخطابي ولهذا قيل زعم مطية الكذب).[٢]

والمرزوقي وابن الفوطية والخطابي من أهل اللغة.

بيد أن تبادل زواج الأخوات أو البنات بدون مهر نوع من النكاح عرفه العُربان قبل الإسلام ويطلق عليه «الشغار» واسمه كما يدل عليه أي الخلاء (من المهر/ الصداق) لأن شغر تعني: خوى وصفر وفرغ من...

ثم حظره (أول من يفيق من الصعقة).

في هامش الصفحة ٥٥٣ كتب محقق تفسير الطبري وهو الشيخ محمود محمد شاكر: «وذلك هو الشغار/ شغار المتناكحين بغير مهر، ألا يضع وليته أو أيمه.

وكان ذلك من نكاح الجاهلية فنهى رسول الله ــ ص ــ عنه».[٣]

ونضيف أنه: ورد في ثلاثة من الصحاح الستة.. أبى داود والترمذي والنسائي.[٤]

ووصفه المصنف بأنه: حديث صحيح.

وعرف (الشغار) بأنه: وهو أنه يزوجه ابنته أو أخته على أن يزوجه

---

(١) (أساس البلاغة) الأول.
(٢) (المصباح المنير) ل المقري الفيومي.
(٣) (تفسير الطبري) هامش ص ٥٥٣.
(٤) (جوامع الكلم من أحاديث سيد العرب والعجم) تجميع، صلاح الدين سيد التجاني، ص ٣٥١ طبعة مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابنته أو أخته[١] إذن غدا الخبر الذي ساقه الطبري موثقاً.

وبالتالي إذ إن هذا الضرب من حرمان الأيم حقها في المهر واغتصابه ب معرفــة وليهــا سواء الأب أو العم أو الأخ أو غيرهم، من أشكال الظلم البين، الذي حرص (المزمل) على رفعــه وتطهير المجتمع منه، فقد أشرقت الآية الرابعة من سورة النساء تأمر الأوليــاء بإيتــاء الأيــامى (النساء) مهورهن نحلة أي عن طيب نفس ورضا فهدأ بال (الذي جعلــت لـــه الأرض مســجداً) وانشرح صدره ومن رجا آخر سرت وانبسطت النسون بعودة حقهن إليهن.

وعلى طول المدى يؤكد (المهيمن/ القرآن) قربه القريب ممن يوجه إليهم الخطاب وعــدم انفصامه عنهم. أو غربته عن واقعهم.

* * *

٦ ــ أخيراً أصبح نكاح المتعة.. حريمة[٢]

هاجس معافسة (امتطاء) المرة لا يفارق الواحد من أولئك الأعاريب لا في ظعنه أو عدنه ولا في سفره أو إقامته ولا ترحاله أو حله ولا في البادية أو الحاضرة.

لدرجة أن تقول، دون مبالغة، إنه شغله الشاغل وهمه المقيم وعزمه المستديم وعقد قلبــه الذي لا يريم، إذ ارتحل وغادر خباءه ومضرب قبيلته إلى بلدة أخرى فــأول مــا يفعلــه هــو أن يُنبّش[٢] عن امرأة عزب يطفى فيها شهوته الملتهبة وإذ إنها تماثله في العرامة وتشاكله في التأجج وتماثله في الاشتداد وفي الرغبة في التموضع تحته فإنها تقبل أي أجر يقدمه: نعل، مــال، إزار.. الخ.

لا تهمها القيمة بل التماسّ به فحسب.

ويتفقان على مدة معينة غالباً فترة إقامته في مضرب قبيلتها.

---

(١) السابق، ص ٣٥٩.
(٢) الحريمة: ما فات من كل مطموع فيه، من (المعجم الوسيط).
(٣) (كلمة عربية صحيحة أي يفتش أو يبحث).

بعدها يتركها دون أي التزام عليها ولا أي حق لها قبله.

أطلقوا على هذا الضرب من التلاقي زواج أو نكاح المتعة:

(كان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أن يقيم فتحفظ لـــه متاعه وتصلح له شأنه).[١]

استمر هذا النسق الاجتماعي حتى بعد أن أشرق الإسلام وسطع نـــوره وإذ إن الصـــحبة الميمونة تعودوا عليه فعند خروجهم في الغزوات والسرايا والمهام الخاصة يفعلونـــه ف يعقـــدون على أيامى عقود نكاح متعة. يستمتعن بهن والبائسات يجدن فيه عوضاً عن أيام الشَرَق والتحاريق التي اكتوين ب لظاها إبان العزوبة. ومن سيرة (العين) العطرة علمنا أن يحوز ب جـــدارة علـــى الشمائل الممتازة الفريدة ومنها الحنكة البالغة والحصافة الفادّة والحكمة العميقة.

رأى ب ثاقب نظره ونافذ بصيرته وسعة أفقه وسداد رأيه أنه لو حظـــر (نكـــاح المتعـــة) لضاقت نفوس تُبّاعه وحَصِرت صدورهم وزمجروا.

وترتيباً على جماعه يتقاعسون عن الخروج ويخنسون عن الانخراط في صفوف الجـــيش ويتباطأون عن القتال. وهذا لا يدخل في باب الفطانة ولا يلج نهج الزكانة ولا يُعَدّ من الفقاهة. ف دولة بني سخينة وليد ما زالت تحبو والديانة في بديّ أمرها وأول طورها ومفتتح شأنها.

وهناك الكثير مما يتعين القيام عليه ويلزم الإتيان به ويتوجب إنجازه ولا يتم شيء بغيرهم ف تركوا وشأنهم:

(أخرج الترمذي عن ابن عباس قال: إنما كانت المتعة في أول الإسلام).[٢]

---

(١) (نهاية السؤال فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول) ل الشيخ ابن عمر نادي الأزهـــري، ص ١٦٣، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، دار الصحابة ل التراث طنطا، مصر.
(٢) (ذات المرجع والصفحة).

والترمذي صاحب واحد من الصحاح الستة التي تعتبر مقـدم كتـب السـنة أو الحـديث المحمدي الشريف.

(... عن قيس عن عبد الله، رضى الله عنه، قال: كنا نغزو مع النبي ﷺ وليس معنا نساء فقلنا ألا نختصي فنهانا عن ذلك فرخص لنا بعد ذلك أن نتزوج المرأة ب الثوب ثم قرأ: «يا أيهـا الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم» (المائدة ٨٧).[١]

يؤيد القرطبي تحليل زواج المتعة في مبدأ الإسلام:

(وقد كان للمتعة في التحليل والتحريم أحوال، فمن ذلك أنها كانت مباحة ثم حرمها رسول الله ﷺ زمن خيبر ثم حللها في غزاة الفتح ثم حرمها بعد قالة ابن جريـر منـداد مـن أصـحابنا وغيره، وإليه أشار ابن العربي).[٢]

ولسنا ب صدد بحث عن (نكاح المتعة) إنما الثابت مما أورده القرطبي أن التحريم النهائي جاء بعد (غزاة الفتح).

أي فتح مكة المسمى بـ (فتح الفتوح) إذ أصبحت دولة قريش الحاكمة المطلقة علـى شـبه الجزيرة وغدا قائدها (سيد الناس).

كما هيمن الإسلام على ربوعها إلاّ بعض الجيوب القبلية تم القضاء عليها ودخلـت فيـه وأنوفها راغمة.

في ذياك الظرف ب الضرورة خَفَتَ صوت العسكر ولم تعد لهم طاقة على الزمجـرة ولا نرقم المعارضة.

هنا أضاءت ب نورها الباهر الآية السادسة من سورة (المؤمنون):

(إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم).

وفيها كما قال عبد الله بن عباس:

(فكل فرج سواهما حرام).[٣]

---

(١) (صحيح البخاري) ــ الجزء الخامس ــ ص ٦٦، طبعة ١٣٧٨هـ طبعة دار الشعب ب القاهرة.
(٢) (تفسير القرطبي) المجلد السابع ص ٤٤٩٨، مصدر سبق أن ذكرناه.
(٣) (نهاية السول) لـ أبي عمر نادي الأزهري، ص ١٦٣، سابق.

ويعني ب سواهما: الأزواج وملك اليمين.

ومما له دلالة في هذه الخصوصية أن الآية هلّت مفتوحة. بيد أن النزعة الذكورية كما هي العادة هيمنت على المفسرين وحجّروا النص بدون مسوغ حتى ولو أفتى به العدوي ابن الخطاب بأن قصروا الحق على الزوج الذكر في ملك اليمين أي أن له ينكح الجوارى والإماء كما يحلو له.

أما الزوجة ف لا.

ليس لها أن تنكح مملوكها أو تتسرر به طبعاً إلاّ إذا أعتقته فصار حراً. وإنْ فعلت عدّوها زانية تستحق الرجم عند إحصانها من قبل (سبق زواجها) أو جلدها إذا علموها بكراً.

تفرقة لا مبرر لها إلاّ سيطرة المنحى الذكوري، إذ إن نص الآية لا يبيحها، ومن رجا آخر: توثّق مذهبنا: أن انفتاح النصوص التأسيسية المقدسة سكّره.[١]

الذين تولوا تفسيره وتحكمت فيهم رغبات واتجاهات شتى.

لو أبيح ل المرة أن تتسرى ب عبدها كالرجل بأمته ألا دلّ على سماحة الإسلام وإصراره على مساواتها ب الذكر والعكس صحيح؟ هكذا أساء أولئك المتشددون إليه.

* * *

ثم نؤوب إلى مساق التنقير والتنقيب.

نأتي بما خطّه كبار المفسرين التراثيين حسب سبقهم في التاريخ لا في المكانة إذ لكل منهم مقام محمود:

١ ــ الإمام أبو بكر الجصاص، الفقيه الحنفي (ت ٣٧٠هـ).

(عن ابن شهاب (أي الزهري).. عن ابن عمر أنه سئل عن المتعة

---

(١) سكره تسكيراً: خنقه (القاموس المحيط).

فقال: ذلك السفاح. وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان نكاح المتعة بمنزلة الزنا.

فإن قيل: لا يجوز أن تكون المتعة زناً لأنه لم يختلف أن المتعة قد كانت مباحة في بعض الأوقات أباحها رسول الله ﷺ ولم يبح الله تعالى زنا قط، قيل له: لم تكن زنـــا فكمـــا حرمهـــا الله تعالى جاز إطلاق الزنا عليها.[1]

وعند تفسيره، استنباط الأحكام، ل سورة المؤمنون زبر حجة الإسلام الجصاص ما يلي:

«فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون» يقتضي تحريم نكاح المتعة إذ ليست ب زوجة ولا مملوكة).[2]

٢ ــ الإمام الفقيه، عماد الدين محمد الطبري، المعروف ب الكيا الهراسى، (ت ٥٠٤هـ):

في تناوله ل الآيتين الخامسة والسادسة من سورة المؤمنون رقم (يقتضي تحريم المتعـــة إذ ليست ب زوجة ولا مملوكة).[3]

٣ ــ القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله، المعروف ب ابن العربي (٤٦٨ ــ ٥٤٣هـ):

(... وإن قلنا بالحق الذي أجمعت عليها (صحتها عليه) الأمة من تحريم نكاح المتعة لمـــا كانت زوجة فلم تدخل في الآية وبقيت على أصل حفظ الفرج وتحريمه (من) بسببها[4]).

٤ ــ الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي (٥٤٤ ــ ٦٠٦هـ):

(السؤال الثالث: هذه الآية تدل على تحريم المتعة على ما يروى

---

(١) (أحكام القرآن)، باب المتعة، المجلد الثاني، د.ت.ن دار الفكر، دون ذكر المدينة.
(٢) المصدر السابق، المجلد الثالث، ص ٢٥٣.
(٣) (أحكام القرآن)، المجلد الثاني ٣/ ٤، ص ٢٨٥ د.ت.ن دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٤) (أحكام القرآن)، سورة المؤمنون، المجلد الثالث، ص ١٣١١، تحقيق على محمد البجاوي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار المعرفة، دار الجبل، بيروت، لبنان.

عن القاسم بن محمد؟

الجواب: نعم وتقريره أنها ليست زوجة ف وجب ألا تحل له.

وإنما قلنا إنها ليست زوجة لأنهما لا يتوارثان ب إجماع ولو كانت زوجة لحصل التوارث.[١]

* * *

كوكبة لامعة من القُلل العوالي من السلف من أعلام المفسرين والفقهاء أطبقوا على أن الآية السادسة من سورة المؤمنون أجهزت تماماً على حلية (نكاح المتعة).

ومشى في ركبهم الشيخ عبد الحميد كشك وهو من المفسرين المحدثين فأورد:

(... فأولئك هم المعتدون المتجاوزون وعلى ذلك حرم نكاح المتعة).[٢]

إن تحليله وتحريمه وتحليله.. الخ من قبل (الصادق المصدوق) يقطع بأنه دأب على أن ينظر إليه شزراً ويمجّه ولا ترتاح نفسه الشريفة إليه.

ف أقبلت الآية الكريمة ك الشمس المشرقة في رابعة النهار من (البصائر/ القرآن) ترفع عن صدره الهم وتزيل من نفسه الضيق وتزيح عن قلبه الغم وتحرم نكاح المتعة إلى الأبد.

ويرضخ التبع لما أمرت به وبعدها لم يفكروا فيه ولم يخطر لهم على بال ولم يرد لهم في حلم.

لعل ما ساعدهم كثرة السبايا نتاج الغزوات والسرايا.

---

(١) (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير)، المجلد الحادي عشر، عند تفسيره ل سورة المؤمنون. ص ٣٤٨ د.ت.ن. دار الغد العربي، القاهرة.

(٢) (في رحاب التفسير)، الجزء الثامن عشر، سورة المؤمنون، ص ٢٧١٠ ــ ١٩٨٩ ــ ١٤١٠هـ. المكتب المصري الحديث ــ القاهرة.

ثم تضاعفت أعدادهن إلى العشرات بل المئات وربما الألوف.

نتيجة ل الغزو الاستيطاني النهبوي الاستعماري والاستنزافي الذي قاموا به، دون سند من (البلاغ/ القرآن الكريم) أو السنة المحمدية المطهرة.

لم يقف أثر الآية السادسة عند هذه النتيجة الرائعة.

فلها أخرى:

إثبات أن (المبين/ القرآن) له آصرة شديدة الأسر ب الواقع ووشيجة متينة ب مجريات الحياة وعلاقة وطيدة ب الفاعلين الاجتماعيين.

وبذا صنتت المتحذلقين الذين ينادون ب انفصام آياته الكريمات وتحليقها في فضاء التجريد.

* * *

٧ ــ كتمان الشهادة جزاؤه الآثام

مقدم الآباء المؤسسين لعلم تفسير القرآن الكريم: ابن جرير الطبري:

(أخرج: قال حدثت عن عمارة حدثنا ابن جعفر عن أبيه عن الربيع: في قوله «ولا يأبى الشهداء إذا ما دعوا» قال: كان الرجل يطوف في القوم الكثير يدعوهم ليشهدوا فلا يتبعه أحد منهم، فأنزل الله عز وجل «ولا يأبى الشهداء إذا ما دعوا» وهي الآية الثانية والثمانون بعد المائتين من سورة البقرة[١]).

أيد الألوسي هذه الحقيقة التاريخية ورواها بنصها (عن الربيع)[٢] إذ وجد بعض التبع إذا ما طلب منه أداء الشهادة نكل وخَنَس، على

---

(١) (تفسير الطبري) ٣ ــ ٨٤، سابق.

(٢) (تفسير الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) ل العلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي ١٢١٧هـ ــ ١٢٧٠هـ تحقيق محمود الشرقاوي، الجزء الثالث، ص ٩٨، الطبعة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥ كتاب الشعب الديني، القاهرة.

الرغم من أن (مقدم عترة الله) ما فتئ يعلمهم أن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

(وقد رُوي عن ابن عباس والحسن البصري: أنهـا نعـم الحـالين: التحمـل والأداء)[1] والتحمل هو قبول حمل الشهادة. ا.هـ.

بل إن (الهادي البشير) حث صحابته على التطوع بالشهادة: تحملاً وأداءً.

(في صحيح مسلم والسنن.. أن رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يـأتي بشهادته قبل أن يسألها»).[2]

إن ما ورد لدى الطبري ثم الألوسي خاصة جملة (كان الرجل يطوف في القوم الكثير، ف لا يتابعه أحد) يشعر بأن هذا المرض الاجتماعي متجذر ومنتشر.

والظاهر أنه استمر في مسيله رغم أحاديث الترغيب والترهيب التي وعظهـم بهـا(ابـن العواتك من سليم) هنا أدرك ب نافذ بصيرته وثاقب نظره وواسع أفقه أن هذا الداء الوبيل سـوف يفرز نتائج وخيمة وعواقب فسيدة وآثارا سيئة.

إذ إن كلمة الحق إذا لم ينطق بها في مضمار الشهادة ولم تطرح في مجلس التقاضي ولـم تواجه بها السلطة ف إنها ستؤدي بطريق الحتم واللزوم إلى تحلل المجتمع وترديه وتفسخه.

أهمّ ذلك (من لا تحل ل آله الصدقة) وعبأ صدره الشريف ب القلق وشحن نفسه الكريمـة ب الغم وملأ قلبه الرقيق ب الكدر.

وكيف يذر (العجب = القرآن) (أعرب العرب) في تلك الحالة فريداً.

لا بد أن تتلألأ آيتان مجيدتان فيهما المخرج من الزناق والفرج من

---

(١) (تفسير القرآن العظيم) ل ابن كثير عند تفسيره ل الآية ٢٨٢/ البقرة، المجلد الأول، ص ٤٩٨ مصدر سابق.
(٢) ذات المصدر والصفحة.

الشدة والفتح في هذه العتمة، أرسلت الآية الثانية والثمانون بعد المائتين من سـورة البقـرة، هـي أطول آية في (أحسن الحديث/ القرآن) وتسمى آية المداينة أو الدين، أشـعتها الثاقبـة البـاهرة ف تجهز على الظلمة وتبدد قوامها تأمر الأتباع بتحمل الشهادة والكف عن الزوغان.(١)

والآية المصلية ٢٨٣ تشدد على النكول عن أداء الشهادة وتصف من يفعله ب القلب الآثم والفؤاد المذنب واللب الخاطئ.

وعلى الفور لا على الريث أدرك النفر المتقاعسون عن تحمل الشـهادة والكـاتمون لهـا والرافضون ل تقديمها غلطهم ف عدلوا عن موقفهم الوبيء وعزموا على ألا يعودوا له ف انزاح عن (صاحب الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب) ما اكتنفه من مشاعر خشنة وأحاسيس ساخنة سببتها لديه مسلكيات أولئك الصحاب.

قامت إذن الآيتان (٢٨٢) و(٢٨٣) من سورة البقرة بدور فعال في تصفية أخلاقهـم مـن الأوشاب التي علقت بها والكدورات التي اختلطت بها والشوائب التي مازجتهـا، وشـكلتا قطعـة عزيزة من نسيج العلاقة الجدلية التي بين (الحق = القرآن) والمجتمع الذي وجه خطابـه المحكـم إليه.

والتي (= العلاقة) التي تبين علة تنجيمه، ب خلاف الكتابين اللذين سبقاه زمانـاً لا رتبـة وتاريخاً لا درجة والذي هو (= التنجيم) في ذات الوقت نوط الامتياز وعلامـة السـمو وشـارة التفوق عليهما معاً.

* * *

ونختم هذه الفقرة بملحظ على قدر بالغ من الأهمية:

قد يعترض أحدهم أن الآية ٢٨٣ من سورة البقرة على وجه

---

(١) (كلمة عربية صحيحة).

الخصوص قد وردت ب شأن المداينة فحسب.

ونرد عليه ب الآتي:

١ ــ إنكم تقولون ب قاعدة (العبرة ب عموم اللفظ لا ب خصوص السبب) ولــو أننــا لا نوافق عليها، إنما نسطرها ل نحاجكم بها.

ف إذا انسحبت على هذه الآية المجيدة ف لا يحــق لكــم الاعتــراض ل أنكــم ب ذلــك تناقضون أنفسكم.

٢ ــ الأثر الذي رقمه شيخ المفسرين ثم تبعه فيه الألوسي يدل على العمومية.

٣ ــ الآية ٢٨٣ جاءت لاحقة ل آية الدين أو آية المداينة ٢٨٢ ولو أنها مكملة لها. بيد أن هذا لا ينفي استقلالها.

و(الشفاء/ القرآن) لو أرادهما آية واحدة ما أعجزه ذلك.

إذن فصلهما عن بعضهما وجعلهما آيتين جاء لحكمة عميقة هي شمولية وعمومية النهــي الصارم والوعيد الشديد عن كتمان الشهادة على أي حال وفي أي وقت.

هذا هو الباعث الدافع على هلّ الآية بعد أن استشرى مرض النكول عن الشهادة والامتناع عن أدائها في أي ظرف ولدى أية نازلة عند الشهود على واقعة.

٤ ــ أيد كبير الآباء المؤسسين ل علم التفسير عمومية النص:

(عن الربيع في قوله «ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه».. فلا يحل ل أحــد أن يكتم شهادة هي عنده وإن كانت على نفسه والوالدين ومن يكتمها فقد ركب إثماً عظيماً».[١]

و(عن ابن عباس قال: أكبر الكبائر الإشراك بالله لأن الله يقول: «إنه من يشرك بالله فقــد حرم عليه الجنة ومأواه النار» سورة المائدة ٧٢، وشهادة الزور وكتمــان الشــهادة، لأن الله عــز وجل يقول: «ومن

(١) (تفسير الطبري)، تفسير سورة البقرة ١٨٣، الجزء السادس ص ٩٩ مصدر سابق.

يكتمها فإنه آثم قلبه.[١]

* * *

التعنيف الشديد للصحبة الذين قتلوا مسلمين مثلهم للحصول على غنيماتهم أو متاعهم القليل أو الكثير:

بلغت معاناة (دار الحكمة/ محمد) الذروة ووصلت إلى القِلة وانتهت إلى ختام الشوط عندما طفق بعض صحابته يقدم على اغتيال نفر من تبعه إخوتهم في العقيدة حتى بعد أن يُعلِموهم بذلك بطرائق تنم عن إصرار وبأعصاب باردة من أجل غنيمة[٢] أو متاع قليل أو جمل أحمر.. الخ.

تكررت الحوادث وتعددت وتراكمت ل درجة الخشية أن تنقلب إلى ظاهرة، حقيقة أن (المحمود) ينقه تماماً أن الصحاب عاشوا في مجتمع يشكل فيه النهب والسلب والاحتياز على الغنائم بأي صورة مورداً رئيسياً لدخولهم.

ف الرجال في ذياك الوسط يأنفون من الزراعة ويحتقرون الصناعة وأصحاب رءوس المال فيهم نادرون، ف ما أسهل أن تجتمع فرقة منهم ضاقت أمامها سبل العيش فتقرر مهاجمة القبيلة المجاورة، وفي غبش الصبح وهم نائمون حتى تنعدم فرصتهم في المقاومة ويتعذر عليهم التصدي لهم ويصعب عليهم الوقوف في وجههم، ينهب المهاجمون مما تصل إليه أيديهم الخطّافة ثم يسرعون عائدين إلى مضاربهم، ويقتاتون من حصيلة ما سلبوه حتى ينفذ ويبدأ الجوع يعضهم فيرجعون إلى الإغارة مرة أخرى وهكذا دواليك.

* * *

بمرور السنين غدا هذا العمل نسقاً اجتماعياً/ اقتصادياً/ نفسياً/ يسم سلوكيات أولئك الأعاريب المتبدين بطابع الديمومة.

---

(١) المصدر السابق ص ٩٩ ــ ١٠٠.

(٢) بضع غنمات وتقول العامة في مصر وصفاً لها (شوية معيز).

فلما اعتنقوا ديانة الإسلام واستمعوا إلى المبادئ السامية والقيم العالية والأخلاق الحميدة التي هي جميعها كما المسك الأذفر والتي طفق منذ اللحظة الأولى يبثها فيهم (الأمي/ الألمعي) حين التقاهم فاقتنعوا بها في الظاهر وربما مصمصوا[١] شفاههم ولكنها لم تؤثر فيهم ب ما فيه الكفاية ولم تستطع أن تزحزح العادات الراسخة أو تخلخل الأعراف المتجذرة أو تفكك التقاليد الغائرة في الأعماق ويأتي في مقدمتها إزهاق روح ابن آدم ب غاية السهولة في مقابل عرض تافه.

تكرار النوازل على الشاكلة التي سنرقمها هو السبب الوحيد في ضيق (سيد الناس) بل الذي فاقم سخطه هو أن من بين من فعلها أصحاباً من ذوي الأسماء اللوامع وبعضهم تربطه بهم علاقة حميمة وآصرة وشيجة وصلة وثيقة.

* * *

الصورة النموذجية هو أن تخرج جوقة من الصحاب، وهو نفس ما تعودوا عليه فيما سلف، وفي عماية الصبح في معظم الأحوال وهو ذات الوقت المختار المفضل للهجوم لأن العدو يغط في نوم عميق. فيصحو أحد أفراد القبيلة المغدورة ويقابلهم ويسلم عليهم ب تحيتهم المعهودة ثم يعلن إسلامه بل ويتلو عليهم الشهادتين وهما شعار دينهم.

ولكن ل الأسف جماعه لا يشفع له ولا يجديه فتيلاً فيصرعونه ويهبشون سائر ما معه حتى وإن خسّت قيمته ثم يعودون ب أوداج منتفخة يملؤها الزهو ب الانتصار على أخيهم في العقيدة واحتيازهم ماله الهزيل!!

يصل خبر الواقعة الدنيئة إلى (الرءوف الرحيم) إما مباشرةً من المغوار الذي ارتكبها وإما عن طريق واحد أو أكثر من رفقائه.

---

(١) كلمة عربية فصيحة.

فيضيق صدره الشريف ويمتلأ قلبه الرقيق ب الغم وتشحن نفسه الكريمة ب الأسى، ويتأكد أن تعاليمه السامية ومواعظه البليغة ودروسه القيمة لم تأتِ ب الثمرة المرجوة، وأن النشأة التي ربي عليها أولئك التبع والوسط الذي ترعرعوا فيه وموجبات البيئة التي حاطت بهم ما زالت مرسومة في أعماقهم ومخبوءة في حناياهم ومتغلغلة في جوانبهم.

اتباعاً ل المنهج الذي التزمناه نستفتح ب:

أ ــ كتب: (أسباب النزول):

(حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء بن ابن عباس قال: لحق المسلمون رجلاً في غنم له فقال: السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت: «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا» (= تلك الغنيمة) رواه البخاري عن علي بن عبد الله ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة كلاهما عن سفيان».[(١)]

توافق البخاري ومسلم على تخريج الحديث وعن حديث مماثل خرجاه يقول شيخ من (علماء الأزهر):

(.. هذا الحديث رواه الإمامان الجليلان البخاري ومسلم في صحيحيهما وهما من هما في علو كعبهما في التصحيح ومعرفتهما التامة ب الرجال والعلل ونظرهما الثاقب في الكشف عن خفايا الأحاديث وعللها (ا.هـ.).[(٢)]

إذن الحديث المرقوم عاليه والذي أخرجه الشيخان، كل في صحيحه، ينأى عن المطاعن، الرجل في غنيمة له ف لحقوا به فأقرأهم أو بادأهم ب السلام ومع ذلك عمدوا إلى اغتياله طمعاً في غنيمته.[(٣)]

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي ص ١١٥، مصدر سابق.
(٢) (دفاع عن السنة) ل محمد محمد أبو شهبة، ص ٩٢، الكتاب الثاني ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م من سلسلة البحوث الإسلامية، السنة الثلاثون، مجمع البحوث الإسلامية الأزهر، القاهرة.
(٣) أي بضع غنيمات، مصغر غنمة.

وقد وصفها القرآن المجيد عرض الحياة الدنيا وهذا ينفحنا توصيفة واضحة عن بؤس أفراد ذيّاك المجتمع الذين اعتبروا (الغنيمة) من عرض الدنيا وتستحق قتل نفس مسلمة وحتى بعد إعلان صاحبها إسلامه.

ومع هذا ما زال ذلك المجتمع (التحفة) يجثم بثقافته وقيمه وطروحاته على عقول وقلوب المسلمين منذ ١٤ قرناً.

(روى البخاري والترمذي والحاكم وغيره عن ابن عباس قال:

مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ـ ص ـ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلاّ ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبي ﷺ فنزلت «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم...» الآية..[1]

الرجل المقتول مر على أولئك النفر الذين لم يتضح من النص أنهم في سرية أو يؤدون أي عمل حربي ومع ذلك أجهزوا عليه حتى بعد أن حياهم ب تحية دينهم وعللوا فعلتهم النكراء ب أنه ما سلم إلاّ تعوذا كيما يبرروا سطوهم على غنمه.

(.. حدثني بكر بن حارثة الجهني قال: كنت في سرية بعثها رسول الله فاقتتلنا نحن والمشركون، حملت على رجل من المشركين، فتعوذ منى بالإسلام فقتلته، فبلغ ذلك النبي ـ ص ـ فغضب وأقصاني فأوحى الله إليه (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً) قال فرضى عني وأدناني).[2]

رغم أن (المتن) لم يذكر أن الرجل معه مال أو غنم أو جمل إنما يفهم من السياق.

إذ ما الدافع على قتله بعد أن تعوذ ب الإسلام؟

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ص ٥٩، مصدر سابق، كما هو واضح: خرج الحديث البخاري والترمذي من أصحاب الصحاح الستة والحاكم في المستدرك وهو من أميز كتب الحديث رواية عن ابن عباس.

(٢) (نهاية السول) ل أبي عمر نادي الأزهري ـ ص ١٠٦ ـ أخرجه أبو نعيم والدولابي وابن منده.

يوضح النص حالة (سيد ولد آدم) إثر إبلاغه ب الأمر (فغضب وأقصاني). وبعد أن انبجست الآية الكريمة كما النبع الصافي رضى عن القاتل وأدناه.

* * *

ب ــ التفاسير العوالي:

(عن عطاء عن ابن عباس قال: لحق أناس من المسلمين رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم: فقتلوه وأخذوا تلك الغنيمة فنزلت هذه الآية: «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا» = تلك الغنيمة).[1]

المسطور ب النص ان المعتدى عليه معه غنيمة وسبق لنا شرحها. والعلة الكامنة وراء نحره هي سرط (بلع) مواعزه وقد أوضحته الآية المجيدة (تبتغون عرض الحياة الدنيا).

(عن أبي الضحى عن مسروق: أن قوماً من المسلمين لقوا رجلاً من المشركين في غنيمة له فقال (السلام عليكم إني مؤمن) فظنوا أنه يتعوذ بذلك، فقتلوه وأخذوا غنيمته، قال: فأنزل الله جل وعز: «ولا تقولوا لمن ألقى...» أي تلك الغنيمة).

هنا صرح الرجل المذبوح ذبح الشاة لهم أنه مؤمن بعد التسليم عليهم إنما لم ينجه من المصير المحتوم لأن الأمعز (المعيز) التي معه خلبت لبهم وأعمت بصيرتهم وسوغوا ل أنفسهم المتبدية والتي لم تغيرها التربية السامية التي لقنهم إياها (أول من يفيق من الصعقة) أنها حيلة منه أراد خداعهم بها ل ينفذ ب جلده ويهرب ب معيزه.

(قال الحسن: إن أصحاب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ خرجوا يتطرقون (= يبتغون طريقاً يلقون فيه المشركين) فلقوا المشركين فهزموهم فشد منهم رجل من المسلمين وأراد متاعه، فلما غشيه بالسنان قال إني مسلم فكذبه ثم أوجره بالسنان (طعنه بالسنان

---

(١) (تفسير الطبري) الجزء التاسع ــ ص ٧٥ ــ مصدر سابق.

وأدخله في صدره) فقتله وأخذ متاعه، وكان قليلاً، فرفع ذلك إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلام ـ فقال قتلته بعد ما زعم أنه مسلم، قال: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً قال فهلا شققت عن قلبه؟ قال: لتنظر أصادق هو أم كاذب، قال: وكنت أعلم ذلك يا رسول الله، قال: ويلك أنك لم تكن تعلم ذلك إنما يبين عنه لسانه).(١)

متاع المسلم الذي أوقعه سوء بخته في طريقهم قليل وقبلها أعلن لهم إسلامه أي أنه واحد منهم بيد أن جِماعه لم يحجز عنه السنان الذي نفذ في صدره حتى مات، هذه عينة من الفاعلين الاجتماعيين في المجتمع الذي ما زال البعض ينادي ب مثاليته!! وأن تاريخ البشرية لم يرَ أعظم منه ويعمل (= البعض المذكور) على إعادته!! والخبر يرفع لنا الستار عن الحروجة النفسية التي غشيت (الظفور) بعد علمه ب العمل الفاحش ويبين ذلك من المناقشة الحادة التي دارت بينه وبين أبي الفوارس الذي زج برمحه أو سيفه في صدر ضحيته والمستلب ل متاعه القليل ورده العنيف عليه (ويلك أنك لم تكن تعلم ذلك) أي دعا عليه ب العذاب والثبور ونفى ذريعة (التعوذ) وأرسى قاعدة رائعة مضيئة هي أن النطق اللساني يكفى ل قبول الإسلام.

إلى أي مدى كابد (أبو القاسم) من آلام معنوية ألحقتها به سلوكيات هؤلاء!!

* * *

أسماء بعض الصحاب الذين لامهم (عين العز) على فعلها:

ـ أسامة بن زيد بن حارثة:

أ ـ من كتب أسباب النزول:

أولاً: (أخرج الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن اسم المقتول مرداس ابن نهيك من أهل فدك وأن اسم القاتل أسامة بن زيد، وأن اسم أمير السرية غالب بن فضالة الليثي، وأن قوم مرداس لما انهزموا بقي هو وحده، وكأن الجأ غنمه بجبل،

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمّي النيسابوري، المجلد الرابع ص ٧٦، مصدر سابق.

فلما لحقوه قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم، فقتله أسامة بن زيد، فلما رجعوا نزلت الآية).[١]

ترجع الرواية إلى عبد الله بن عباس وجاء بها اسم القتيل وأنه من أهل فدك وأن أسامة في مهمة قتالية وأن المجنى عليه هو مرداس وأنه حياهم ب تحية الإسلام ونطق ب الشهادتين ومع ذلك كان أسامة وحده من بين من تتبعوه هو الذي أجهز عليه ولا شك بسبب غنمه التي ألجأها إلى شعب في الجبل وبسببها انبثقت الآية.

ثانياً: (أخبرنا حصين قال: حدثنا أبو طبيان قال: سمعت أسامة بن زيد بن حارثة يحدث قال: بعثنا النبي ﷺ إلى حرقة بن جهينة، فصبحنا القوم فهزمناهم، قال ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكف عنه الأنصاري فطعنته برمحي فقتلته، فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ فقال: يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذاً، قال: أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قال: فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم).[٢]

في هذا الأثر: أسامة هو الذي روى.

من ضمن سرية إلى حرقة بن جهينة وأنها صبحت القوم (فصبحنا القوم فهزمناهم) وهذا أمر طبيعي وأننا شرحناه ف لا مدعاة ل تكراره.

تعاضد هو وآخر من بني قيلة على اللحوق ب الرجل الذي أعلن إسلامه مما دعا اليثربي إلى تركه والانصراف عنه أما أسامة ف لم يؤثر فيه وأنفذ فيه رمحه حتى فاضت روحه.

عندما أحيط (الرحمة المهداة) ب النازلة أفزعته وعنف ابن حارثة بشدة ولم يقبل تعلة التعوذ وأفهمه أنها لا تجوز وأن النطق بالشهادة

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ٦٠ ــ مصدر سابق.
(٢) (أسباب النزول) ل الواحدي ــ ص ١١٧ ــ مصدر سابق.

يدحضها ومن بالغ ألمه النفسي ظل يعيدها على مسامع أسامة حتى تمنى أنــه لــم يتابعــه علــى الإسلام قبلها.

ثالثاً: (قال السدي: بعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على سرية، فلقي مرداس بن نهيــك الضمري فقتله، وكان من أهل فدك ولم يسلم من قومه غيره، وكان يقــول لا إلــه إلا الله محمــد رسول الله ويسلم عليهم، قال أسامة: ف قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته فقال: قتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله، فقلت يا رسول الله إنما تعوّذ من القتل، فقال: كيف أنت إذا خاصمك يوم القيامــة ب لا إله إلا الله؟ قال: فما زال يرددها عليّ: أقتلت رجلاً يقول لا إله إلا الله؟ حتــى تمنيــت لــو أن إسلامي كان يومئذ، فنزلت (إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا، الآية).[١]

رواية أخرى نقلها إلينا الواحدي النيسابوري عن السدي. مفادها أن أسامة في سرية.

وتؤكد أن المغدور هو مرداس من أهل فدك وأنه المسلم الوحيد بين قومه وأنه سلم علــى أفراد السرية وتلا الشهادتين وأن ابن حارثة هو الذي نقل خبرها إلى (المدثر المزمل) والموقــف الشعوري له هو ذاته الذي حمله الخبر السابق وعقبها هلت الآية الكريمة.

ب ــ مصنفات (تفسير القرآن):

أولا: (عن السدي: بعث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سرية عليها أسامة بن زيــد إلى بني ضمرة فلقوا رجلاً منهم يدعى مرداس بن نهيك، معه غنيمة له وجمل أحمر، فلما رآهــم أوى إلى كهف جبل وأتبعه أسامة، فلما بلغ مرداس الكهف وضع فيه غنمه ثم أقبل إلــيهم فقــال: (السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله) فشد عليه أسامة ف قتله مــن أجــل جمله وغنيمته.

وكان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا بعث أسامة أحب أن يثني

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي ــ ص ص ١١٦ و١١٧ ــ سابق.

عليه خيراً، ويسأل عنه أصحابه.

فلما رجعوا لم يسألهم عنه، فجعل القوم يحدثون النبي ﷺ ويقولون يا رسول الله، لو رأيت أسامة ولقيه رجل، فقال الرجل (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فشد عليه فقتله:

وهو معرض عنهم، فلما أكثروا عليه، رفع رأسه إلى أسامة فقال: كيف أنـت ولا إلـه إلاّ الله؟ قال يا رسول الله، إنما قالها متعوذاً، تعوذ بها: فقال له رسول الله ﷺ: هلا شققت عـن قلبـه فنظرت إليه؟

قال: يا رسول الله، إنما قلبه بضعة من جسده: فأنزل الله عز وجل خبر هذا وأخبره أنمـا قتله من أجل جمله وغنمه، فذلك حين يقول: (تبتغون عرض الحياة الدنيا) فلمـا بلـغ (فمـن الله عليكم) يقول: فتاب عليكم، فحلف أسامة ألاّ يقاتل رجلاً يقول: (لا إله إلا الله) بعد ذلك الرجل ومـا لقي من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيه).(١)

الخبر تأكيد ل قتل أسامة مرداس بن نهيك وينضوي على إضافات مهمة تتكـرم وترسـل حزمة من أشعة الضوء تنير لنا حواف موضوع البحث وأوساطه منها:

وأن مرداساً ب الإضافة إلى أمعزه معه جمل أحمر وهو أفخر وأثمن أنواعهـا حتـى إن أولئك العربان حين يتحدثون عن (كرائم الإبل وحمر النعم) فإنهم يعنون أنفسها وأغلالها وأعلاهـا قيمة ومن ثم ف لا شك أن الجمل الأحمر هو الذي أثار شهية ابن زيد ووزه على تمزيـق مالكـه (مرداس) إرباً ل يظفر به ويغدو عضواً في نادي أصحاب (حمر الـنعم) كمـا يفتخـر العربـان المعاصرون (= اليوم) في الجزيرة شديدة البركة ب تملكهم للسـيارات المرسـيدس والكـاديلاك والبونتياك.. الخ.

ولا يتركنا الحديث للحدس والتخمين بل يضع في حجرنا اليقين (فشد عليه ف قتلـه مـن أجل غنيمته).

---

(١) (تفسير الطبري)، الجزء التاسع، ص ص ٧٨/ ٧٩، مصدر سابق.

عندما تناهى الخبر إلى (المنصور ب الرعب مسيرة شهر) كرهه لأنه لم يصدق أن أسامة ينحدر إلى هذه الوهرة (ب الراء)[1] البشعة ويتدحرج إلى هذه المستوى الخفيض وينزل إلى هـــذا الدرك الوبيء، نظراً ل وشيجته القريبة منه ف هو الحب ابن الحب، ولد زيـــد ابنـــه الســـابق ب التبني، قبل إلغاء التبني الذي يشكل عائقاً دون (صاحب المقام المحمود) ونكاح الحســـينة القســـيمة زينب بنت جحش بعلة زيد ا.هـ. ومولاه (= زيد) في ما بعد.

لمّا تأكد عنده صدق الواقعة طفق يؤنب أسامة ب منتهى الحزم وغاية الصرامة ومنتهـــى الشدة.

ويوثق مقدم الأباء المؤسسين ل علم تفسير القرآن العظيم أن ما جاء ب الآيـــة المشـــرفة (تبتغون عرض الحياة الدنيا) أن ابن زيد قصد من وراء الفتك ب مرداس حيازة ما معـــه: جملـــة وغنمه.

وفي عُجُز الأثر أن أسامة من شدة ما لقيه من (الشمس = محمد) حلف ألاّ يقاتـــل مســـلماً يقول ب الشهادتين. إذن هناك حوار بين آى الذكر الحكيم وبين الفاعلين في المجتمع الذي نبعـــت منه ك الماء الزلال يتمثل هنا في صدور سلوك معوج وفعل أثيم وممارسة منكرة من أحدهم.

تتولى الآية المجيدة الكشف عنه جِماعه وتوصيفه بل وتبيان العلـــة المخبـــوءة وراءه ثـــم ترشد إلى محجة التطهير التي يتعين على التابع الجانح أن يسير في فجاجهـــا حتـــى يحظـــى ب التوبة. السور والآيات لم تتجرد عن الواقع ولم تتخلَ عن المعاشات ولم تترفع عن موجبات الحياة التي يخوض غمارها الفرد مرة ب السلب وأخرى ب الإيجاب وسائره يقدم لنا هدايا بالغة الثمانـــة في تعميق قاعدته التاريخية.

ثانياً: (إن مرداس بن نهيك رجل من أهل فدك أسلم ولم يسلم من قومه غيره فذهبت سرية الرسول ــ ص ــ إلى قومه وأميرهم غالب

---

(١) الوقعة فيما لا مخرج ل المرء منه (المعجم الوجيز).

ابن فضالة، فهرب القوم وبقي مرداس لثقته بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه فـــي عـــاقول (= الأرض لا يهتدي لها لكثرة معاطفها) من الجبل، فلما تلاحقوا وكبروا كبر ونزل وقال: لا إلـــه إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فقتله أسامة بن زيد وساق غنمه فأخبروا رسول الله ﷺ فوجد وجداً شديداً، وقال: قتلتموه إرادة ما معه، ثم قرأ الآية على أسامة، فقال أســـامة: يـــا رســـول الله استغفر لي، فقال: فكيف وقد تلا لا إله إلاّ الله: قال أسامة: فما زال يرددها حتى وددت أني لم أكن أسلمت إلاّ يومئذ واستغفر لي وقال: أعتق رقبة).[١]

تفسير الفخر الرازي بمثابة موسوعة في علم التفسير ويستحق عن جدارة عنوان (التفسير الكبير) ف هو كذلك حجماً وقيمةً.

والخبر أهدانا معلومات مهمة:

ــ أن مرداساً ثقة منه بإسلامه لم يهرب مثل قومه ولم يشك أنه ب مجرد إعلان إســـلامه ل عسكر السرية فلن يمسوه ب سوء.

ــ لذا خبأ غنيماته في مكان ب الجبل ونزل ليقرنهم السلام ويبلغهم إسلامه.

ــ بيد أن أسامة لمحها فراقت في عينيه وهو إذ ذاك حدث لم يجاوز الخامسة عشرة عاماً وأبوه عبد سابق ثم مولى وأمه جارية سابقة (سوف نرقم خطوط ســـيرته الميمونـــة فيمـــا بعـــد) وطبيعي أن يغدو شرقاً[٢] للمال نهماً ل النشب، متعطشاً للثروة إذ جمـــع بـــين وضـــاعة النســـب وخساسة الحسب.

ــ أن (صاحب الأزواج الطاهرات) صارحه ب أن هدفه من ذبح مـــرداس هـــو حيـــازة معيرة (وقال اقتلتموه إرادة ما معه) ولا شك أنه بحكم لسوق القاتل به يعرف دخيلة نفسه.

ــ أن (صاحب التاج) وجد أي حزن بشدة ل قتل مسلم دون عذر شرعي

---

(١) (مفاتيح الغيب، التفسير الكبير) ل الفخر الرازي، المجلد الخامس ــ ص ٣٩٤ ــ مصدر سابق.
(٢) شرقت الأرض جفت من عدم الري، ف هو شرق وهي شرقة، من (المعجم الوجيز).

ومن رجا (ناحية) آخر ف إن الفاتك من المقربين مما يسيء إليه، ومن جانب ثالث إذا لـم تـؤت موعظة وخطبة ودروسه وباقي وسائل تربيته أكلها في أسامة وهو يعتبر من البطانة، فكيف هـو الحال ب غيره؟!

(المرحمة) لم يستجب له عندما رجاه أن يستغفر له وأفهمه أن (لا إله إلا الله) تحول دونه.

ثالثاً: (ونزلت في سرية لقيت رجلاً فسلم عليهم وقال: لا إله إلا الله محمد رسول، فحمـل عليه أحدهم فقتله، فيشق ذلك على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكان القاتل محلـم بـن جثامة والمقتول عامر بن الأضبط وقيل القاتل أسامة بن زيد والمقتول مرداس بن نهيك).[1]

المصنف ابن جزي الكلبي لم يجزم أن القاتل هو أسامة ف كلمة (قيل) توحى ب التهزيـل بيد أنه إذا وضع هذا الخبر في قائمة أنداده المؤكدين ازداد قوة.

ورد فيه اسم محلم بن جثامة وقد أسقطناه من بين القتلة لأن دافعه هو الثأر.

رابعاً: (قال السدي: بعث رسول الله أسامة بن زيد على سرية فلقى مـرداس بـن نهيـك رجلاً من أهل فدك أسلم ولم يسلم من قومه غيره وكان يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ولـم يهرب ثقة بإسلامه فقتله أسامة واستاق غنماً كانت معه فلما قدم على رسول الله ﷺ أخبره، فقـال: قتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله، قال يا رسول الله إنما تعوّذ من القتل فقال كيف أنت إذا خاصـمك يوم القيامة ب لا إله إلا الله؟ قال فما زال يرددها عليّ، أقتلت رجلاً يقـول لا إلـه إلا الله، حتـى تمنيت لو أن إسلامي كان يومئذ فنزلت الآية).[2]

---

(١) (التسهيل ل علوم التنزيل) ل ابن جزيّ الكلبي ــ الجزء الأول ــ صفحة عشرين ــ الطبعة الثانيـة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ لبنان.

(٢) (غرائب القرآن) ل القمي النيسابوري ــ المجلد الرابع ــ ص ٧٦ ــ مصدر سابق.

هذا الخبر الذي طلع به علينا القميّ النيسابوري تتمثل أهميته في شأنين:

الأول: أنه زيادة في التوثيق على أن إزهاق روح مرداس تم بيد أسامة لأن الكثيرين قد يحاولون نفيها عن جانبه اتباعاً ل طريق التبجيل والتفخيم حتى ولو على حساب الوقائع التاريخية التي حملتها إليهم مصادر من الدرجة الأولى الممتازة.

لأنها تتعلق ب واحدة من الشخصيات التي نسجت لها أردية مؤسطرة.

الآخر: أن هلّ أو انبجاس أو انبثاق الآية المباركة حدث غبّ حصول الواقعة وإثر وصولها ل مسامع (اللبيب) الشريفة.

بيد أنه ما أهمية هذا الشق؟

لعل الرد لا يحتاج إلى ذكاء خارق ونختزله في أن أفراد الجوق المذكورين (في أولاً) يقومون بعمل لا تساعدهم عليه الحقائق الثوابت وهو نزع النصوص التأسيسية المقدسة من سياقها التاريخي ولزق أجنحة لها سُداها التخيل ولُحمتها التوهم ثم دفعها إلى التحليق في أجواءٍ أو فضاءات لا يجمل بها الطيران فيها!!.

ولم ينقهوا أن هذا الصنيع (وأضرابه) يسيء إلى النصوص ويفرّغها من ميزة بالغة الخطر وهو ارتباطها ب الواقع المعاش ل المخاطبين (ب فتح الطاء) بها وهو أحد أسرار تفوقها، على الكتابين المقدسين اللذين سبقاها في التاريخ لا في المقام أو الرتبة.

* * *

١ ــ ولكن من هو أسامة بن زيد؟

(هو أسامة بن زيد بن شراحيل... الحِبّ ابن الحِبّ يكنى أبا محمد وقيل أبو زيد وأمه أم أيمن حاضنة النبي ﷺ... ومات النبي ﷺ وله عشرون سنة، وقال ابن أبي حيثمة في ثماني عشرة، وكان أمرّه على

جيش عظيم، فمات النبي ــ ص ــ قبل أن يتوجه، فأنفذه أبو بكر وكان عمر يُجلّه ويُكرمه وفضّله في العطاء على ولده عبد الله واعتزل أسامة الفتن بعد قتل عثمان إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية).[١]

يبين من التعريف الذي رقمه قاضي القضاة الحافظ ابن حجر العسقلاني أن أسامة تمتع ب مكانة مرموقة لدى (الظفور) وهذا يفسّر لنا انزعاجه ل إقدام ابن زيد على قتل المسلمين الناطقين ب الشهادتين ولعل الحديث الآتي يرسخ مكانته عنده:

(روى أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: إن أسامة بن زيد لأحب الناس إليّ أو من أحب الناس إليّ وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم فاستوصوا به خيرا).[٢]

كما أنه يفسر لنا علة إجلال العدويّ ابن الخطاب وإكرامه له، لأنه اتبع النهج نفسه مع كل من يمت إلى (المؤتمن) بأدنى صلة ل امتصاص الغضب المكتوم في صدور بني هاشم خاصة والعوالي من أبطن قريش عامة لتوليه ومن قبله التيميّ عتيق بن أبي قحافة منصب الخلافة دونهم وهم أحق به منهما.

أما ما ورد في المختتم عن اجتناب الفتن فمآبه إلى مثُول التأنيب الذي لقيه من (القرشي) وعدم مبارحة ذاكرته وخشيته أن يكرر ما ارتكبه.

* * *

٢ ــ المقداد بن الأسود:

أ ــ من مدونات (أسباب النزول):

أولاً: (عن سعيد بن جبير قال: خرج المقداد بن الأسود في سرية فمروا ب رجل في غنيمة له ف أرادوا قتله، فقال: لا إله إلا الله فقتله المقداد، فقيل له أقتلته وقد قال: لا إله إلا الله وهو آمن في أهله؟ فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له فنزلت «يا أيها الذين

---

(١) (الإصابة في تمييز الصحابة) ل ابن حجر العسقلاني، المجلد الأول ــ ص ١١٠ ــ مصدر سابق.
(٢) (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ل عز الدين بن الأثير الجزرى، ٥٥٥ ــ ٦٣٠هـ، المجلد الأول ص ٧٩ ــ طبعة ١٩٧٠ كتاب الشعب، القاهرة.

آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتثبتوا»).[١]

المقداد خارج في مهمة حربية والمقتول آمن في أهله ومعه غنيمة ف ما إن رآهم حتى أسرع ب تلاوة الشهادة وأعلن إسلامه، إنما جِماعه لم يقنع المقداد لأن (الغنيمة) زغللت.[٢]

عينيه فأقدم على الإجهاز على أخيه في الدين من أجل السطو على مَعْزه.

ويخبرنا الأثر أن الآية المرقومة في ختامه هلت بطلعتها الباهرة غب العلم ب الواقعة المؤلمة.

ثانياً: (أخرج البزار ــ من وجه آخر ــ عن ابن عباس قال:

بعث رسول الله ﷺ سرية منها المقداد، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد فقال له النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كيف لك ب لا إله إلاّ الله غداً؟ وأنزل هذه الآية).[٣]

أضاف السيوطي في الخبر الذي سطره في (لبابه) أن الرجل المنحور بيد المقداد له مال كثير مما يدعم أن التحريض على القتل، هو الاستيلاء عليه (= المال) لا الجهاد في سبيل الله تعالى أو علاء كلمته عز وجل.

ثالثاً: (أخرج البخاري والبزار عن ابن عباس ــ رض ــ قال: بعث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سرية فيها المقداد بن الأسود، فلما وجدوا القوم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد ألا إله إلاّ الله!!! فأهوى إليه المقداد فقتله فقال رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً يشهد ألاّ إله إلا الله!! لأذكرن ذلك للنبي،

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي ــ ص ١١٦ ــ مصدر سابق.

(٢) في (المعجم الوجيز) الزغل: الغش، وعلى ذلك فتصبح الكلمة قريبة من الفصحى وهي أن الغنيمة غشت عينيه وأعمته عن حقيقة إسلام مَنْ نَحَرَه.ا.هـ.

(٣) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ص ٥٩ ــ ٦٠ مصدر سابق.

صلى الله عليه وسلم، فلما قدموا على النبي ﷺ قالوا يا رسول الله إن رجلاً شهد أن لا إلــه إلا الله فقتله المقداد، فقال: ادع لي المقداد، يا مقداد أقتلت رجلاً يقول لا إله إلا الله؟

كيف لك ب لا إله إلاّ الله غداً؟ فأنزل الله تبارك وتعالى الآية (النساء ٩٤) فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ للمقداد: كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فــأظهر إيمانــه، فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة من قبل).[١]

وصفه المصنف ب صحة الإسناد.[٢]

الحديث موثق بدرجة عالية كما أثبت المصنف الشيخ أبو عمر نادي الأزهري.

بيد أن لم يضف جديداً يعتد أو حتى يؤبه به سوى:

ــ أن الرجل له مال كثير أي هذا هو الدافع على قتله.

ــ أنه من بالغ ثقته ب إيمانه وأنه سوف يحميه من أي سوء لم يغادر موضعه فــي حــين تفرق أي هرب ذووه أو عشيرته الذين لم يؤمنوا.

ــ أن واحداً أو أكثر مانعوا في القتل بعد أن تيقنوا أن الرجل مســلم ولا يجــوز شــرعاً استئصال شأفته ف لاموا المقداد على عمله المنكر.

ــ فهمنا من الحوار الذي دار بين (الأزهر) وبين القاتل ان المقداد عنــدما دخــل ديانــة الإسلام في مكة أخفى إيمانه بخلاف بني قيلة الذين لم تضطرهم ظروفهم كيما يفعلوا ومن ثــم ف حرى به أن يقدر ما فعله الرجل ويثني عليه خيراً لا العكس.

---

(١) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ ــ مرجع سابق.

(٢) وأضاف إلى من سبق ذكرهم في التخريج: الطبراني في الكبير والبزّار في مسنده.
وقال الريشي في الزوائد إسناده جيد ورواه الحارث في مسنده وقال محققه: حديث صحيح ا.هـ. إذن هذا الحــديث ارتفع إلى مرتبة عالية تنأى به عن التشكيك وتبعده عن التوهم وتحميه من التهزيل (من الهزال).

ـــ المال الكثير الذي تملكه الرجل ل سوء حظه هو الذي وز المقداد على أن يتغاضى عن إسلامه وهنا يرتفع سؤال على قدر وفير من الأهمية:

لماذا لم يقم أسامة أو المقداد أو أبو الدرداء ب أسر الذين وقعوا في أيديهم عوضـــاً عـــن سفك دمائهم وفي ميسورهم أن يفعلوا؟

* * *

ب ــ من كتب التفسير:

(وعن سعيد بن جبير قال: خرج المقداد بن الأسود في سرية فإذا هم برجل في غنيمة لـــه فأرادوا قتله فقال: لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقيل له: أقتلته وقد قال لا إله إلا الله، فقال ودّ لو فرّ بأهله وماله، فلما قدموا على رسول الله ــ ص ــ ذكروا ذلك له فنزلت).[١]

أوردنا هذا الخبر نقلاً عن تفسير القمي النيسابوري لتأكيد قيام المقداد بن الأســـو ب قتـــل مسلم مثله من أجل الحصول على معيزه وأن الآية بزغـــت ك القمـــر المنيـــر عقـــب إبلاغهـــم (الملاحمي ــ الملاذ) ب الحادث.

* * *

ج ــ تعريف ب المقداد:

هو (المقداد بن عمر بن ثعلبة... المعروف ب المقداد بن الأسود وهو الأسود بـــن عبـــد يغوث الزهري وإنما نسب إليه لأن المقداد حالفه فتبناه فنسب إليه.

ويقال له أيضاً المقداد الكندي وإنما قيل له ذلك لأنه أصاب دماً في بهراء فهرب منهم إلى كِندة فحالفهم ثم أصاب فيهم دماً فهرب إلى مكة فحالف الأسود بن عبد يغوث).[٢]

ويوضح لنا قاضي القضاة العسقلاني أحدوثة[٣] الدم الذي أصابه هذا المقداد في كندة (فلما كبر المقداد وقع بينه وبين أبي شمر بن

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمي النيسابوري ــ المجلد الرابع ــ ص ٧٧ ــ مصدر سابق.
(٢) (أسد الغابة) ل ابن الأثير الجزري، الخامس ــ ص ٢٥١ ــ مصدر سابق.
(٣) العامة في مصر تقول: حدوتة

حِجْر الكِندي شجار فضرب رجله بالسيف وهرب).[١]

هذه صفحة المقداد الذي دأب على قتل المسلمين المقرين ب التوحيد الناطقين ب الشهادتين مقابل عرض من الدنيا قليل:

اعتاد القتل والتعدي على الآخرين والهرب دعيّ منسوب إلى غير أبيه، ملصق في غير قبيلته والذي على الشاكلة ولا وزن له ولا مَقام (بفتح الميم) ولا مكانة حتى إنه في إحدى المرات تعدى طوره ولم يلزم غرزه وتجاوز قدره فتجرأ وطلب يد إحدى بنات عبد الرحمن بن عوف فثرت ثائرته وشتمه وسبه إذ كيف ينسى المقداد أنه لصيق ودعى ومنسوب ل غير أبيه مع أن ابن عوف من بني زهرة ذات الرهط الذي التزق به المقداد:

(كان المقداد وعبد الرحمن بن عوف جالسين، فقال له: مالك لا تتزوج؟ فقال: زوجني ابنتك فغضب عبد الرحمن وأغلظ له).[٢]

هذه هي نفسية المقداد التي وزّته على = نحر الموحدين مقابل حفنة من أمعز يضاف إليها قوة في البدن ومتانة في الأسر وفتل في العضل وجماعها تُكمل البواعث الحثيثة على الاجتراء والتعدي والاستهانة ب كل القيم.

(قال السدي: جاء المقداد بن السود إلى رسول الله ــ ص ــ وكان عظيماً سميناً فشكا إليه وسأل أن يأذن له فنزلت فيه الآية الحادثة والأربعون من سورة براءة التوبة (انفروا خفافاً وثقالاً).[٣]

ولكن لم ضاق صدر (المأمون) ب تصرفات ابن الأسود؟

لأن المقداد قديم الإسلام وبدريّ (= شهد غزاة بدر الكبرى) وله فيها قالة حسينة ثم شهد أُحداً وسائر المشاهد وهو أحد الأربعة

---

(١) (الإصابة) ل ابن حجر العسقلاني ــ السادس ــ ص ٣٧٩ ــ ٣٨٠ مصدر سابق.
(٢) (الإصابة) ل ابن حجر العسقلاني ــ السادس ــ ص ٣٨٠ ــ سابق.
(٣) (أسباب النزول) ل الواحدي ــ ص ١٦٦ ــ مصدر سابق.

عشر نقيباً.[١]

إذن عز على (المخصوص ب العز) أن واحداً من أظهر تباعه ويحمل على كاهله تاريخاً مشرفاً وتُحلّى صدره شمائل زاهرة يرتكب أفاعيل خسيسة وصنائع فواحش:

بيد أن علم النفس يعرفنا أن الصفات التأسيسية والمكونات الأصيلة واللبنات الأوائل في تركيب النفس الإنسانية تظل كوامن وتبقى مستقرة وتستمر متوارية حتى تواتيها الفرصة فتخرج من أكنانها وتغادر كنستها وتبارح مخابئها وبتطبيق القاعدة على ابن الأسود.

ف ما إن يعاين المال مع المغدور سواء قل أم كثر بضع أماعز أو غنيمات معدودات حتى تنسحب الألقاب المنيفة المستحدثة ليبرز ما ظل محجوباً:

المقداد الذي يقتل أو يدمى ثم يضع طرف ثيابه بين أسنانه ويولّى هارباً من رهطه أو بطنه أو قبيلته إلى أخرى يكرر فيها ذات العملة النكراء.

وفي كل مرة يلتزق ب من يحميه ويلوذ ب من يؤازره ويعود ب من يؤمنه:

لو أن الألقاب التي علّقت في رقبة المقداد مثل قديم الإسلام، البدريّ، حاضر جميع المشاهد تغلغلت في أعماقه وشحنت حناياه ونفذت إلى بواطنه ل أحجم وتعفف ول سما عن المستوى الخفيض الذي لَدِم.[٢]

* * *

تلك النفوس المركبة التي أخفت طقوس الدين الجديد وشعائره

---

(١) (أسد الغابة) ل ابن الأثير الجزري ــ المجلد الخامس ــ ص ص ٢٥٢ ــ ٢٥٣، مصدر سابق.
(٢) اللدم صوت الحجر أو الشيء يقع ب الأرض، من (المعجم الوجيز)، إليه.

وترميزاته الطبقات الجوانية التي ترسبت فيها من النشأة الأولى، والمشاعر والأحاسيس ب الدونية والسُفُولة التي راكمتها فيها أوضاعها الاجتماعية مثل الرّق والتبني والولاء والالتحاق والالتـــزاق والتحالف.. الخ.

تلك النفوس يتعين ب طريق المنطق السديد ألا يدعها (الفصـــل ــ القــرآن الكــريم) دون تقويم وبلا علاج وبغير تصحيح ف تتلألأ واحدة أو عدة من آياته الشافية الكافية تــؤدي دورهــا الرائع البديع بكل اقتدار.

إنها العلاقة الجدلية بين ما ارتكبه عدد من كبار الصحبة وبين (البلاغ/ القرآن) خاصة أن ممارساتهم يضيق بها صدر (قدم صدق) وكيما لا يظل يعاني لمدة طويلة.

أدلة الثبوت تترى وحججه تتوالى وبراهينه تتتابع. المجلى (السابق) قبل المصلى (التـــالي) على أن دعاوي المفارقة ومزاعم المفاصلة وحكايات المباينة كلها زيوف لا تثبت للتمحـــيص ولا تقوى على التفنيد ولا طاقة لها على الصمود ل النقد الموضوعي.

* * *

٢ ــ أبو الدرداء:

(حدثني يونس، قال أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد: نزل ذلك فـــي رجـــل قتلــه أبـــو الدرداء).[(١)]

في المصادر التي عندي سواء من كتب (أسباب النزول) أو (التفاسير) انفرد ابـــن جريـــر الطبري ب هذا الخبر وهو أن أبا الدرداء انضم إلى قائمة قتلة الناطقين ب الشـــهادتين ولحـــق ب أسامة والمقداد بن الأسود.

ونظراً لأن جعفر ونعني الطبري هو مقدم الآباء المؤسسين ل

---

(١) (تفسير الطبري) الجزء التاسع ــ ص ٨٠ ــ مصدر سابق.

علم التفسير ورفعنا الستور عنه وعن موسوعته في التفسير فيما سلف خاصة في السفر الأول فقد أخذنا ب خبره وعددناه صحيحاً إذ لا نتصور أنه يضمن كتابه خبراً ضعيفاً أو مشكوكاً أو منــتحلاً أو موضوعاً.[١]

من هو أبو الدرداء؟

هو عويمر بن عامر ويقال عويمر بن قيس.. وهو من الخزرج من بني قيلــة، وللأمانــة العلمية لم أجد في سيرته ما يؤخذ عليه ف هو من صالحي الصحابة ولم يتغير أو يغيّر بعد (دعوة إبراهيم = محمد) ولم تغره الدنيا ك غيره.

وتوفى (الذكار = محمد) وهو عنه راض بل نفحه لقباً تنقطع دونه الرقاب (عويمر حكــيم أمتي).[٢]

وآخى بينه وبين سلمان الفارسي الذي حظي عنده ب مكانة باذخة حتى إنه قال فـــي حقــه (سلمان منا آل البيت).

وإذا أخذنا ب خبر الطبري المسطور أعلاه ف ربما جاءت فلتة من أبي الدرداء وكل بني آدم خطاء وعاش بقية عمره ناسكاً متعبداً، حتى إنه تفرغ لها (قال الأعمش عن خثمة عــن أبـــي الدرداء: كنت تاجراً قبل البعث ثم حاولت التجارة بعد الإسلام، فلما يجتمعا).[٣]

إذن حتى لو أن عويمراً فعلها من باب الهفوة أو الخطأ أو الضعف الإنساني الطارئ فإنــه قد كفر عنها أضعافاً مضاعفة.

إنما ضرورة الدراسة العلمية الموضوعية هي التي أكرهتنا على إدراج أبي الــدرداء فـــي لائحة من فعلوها.

---

(١) العامة في مصر تقول مضروباً أي مغشوشاً ويمكن استعمال هذا الوصف لأنه يفي ب المدلول.
(٢) (أسد الغابة) المجلد السادس ــ ص ٩٧ سابق و(الإصابة) المجلد الخامس ــ ص ١٩٧ ــ سابق.
(٣) (الإصابة) ذات المجلد والصفحة. وبداهة لا يعني ذلك أننا نؤيد هذا المسلك أي التفرغ للتعبد وتــرك الســعي على المعاش.

* * *

من موجبات البحث أن نختم بصورة عمومية لوقائع اغتيال بعض الصــحاب ل مســلمين موحدين ناطقين ب الشهادتين ورافعين ب الكلية شارة الإسلام وأن تجيء على قدر ملحــوظ مــن التوثيق.

لماذا؟

لتأكيد حدوثها في ذاته سواء ارتكبها أسامة أو المقداد أو غيرهما ممن لم يذكر عــدد مــن الآثار المشابهة أسامي أصحابها.

وتوكيد الوقائع أمر ضروري لما تحمله في طياتها من شذوذ وفُذوذ وفرادة.

إذ كيف يقتل صحابي من أقرب المقربين ل (خير هذه الأمة) مسلماً مثله وحتــى لــو أن الصاحب من غير اللصيقين به فإن هذا لا ينفي الغرابة ولا يزيل التعجب ولا يرفع الدهشة ف من ناحية الذين ارتكبوها هم خير القرون كما وصفهم الحديث المعروف الذي يدور على الألسنة.

ومن رجا آخر ف إن إزهاق روح إنسان خطيئة فادحة بل من أكبر الكبائر وعمــل مــن المحال الإقدام عليه ب بساطة.

من هنا قامت لزومية الإثبات وضرورة تقديم البرهان وحتمية طرح الحجة:

(أخرج البخاري والترمذي وأحمد عن ابن عباس ــ رض ــ قال:

مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب رسول الله ــ ص ــ وهو يسرق غنماً له، فســلم عليهم فقالوا:

ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه، وأتوا بغنمه النبي ــ ص

فنزلت هذه الآية: «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا» النساء الآية ٩٤).[١]

* * *

بعد رفع اللبس وإزالة الشك والقضاء على أي ذرة من ريب، وتقديم أدلة الثبوت على حصول الواقعة ب عمومها دون ضرورة ل تعليقها ب رقبة تابع معين، نوضح النقاط الآتية:

هناك احتمال لا تغادره الوجاهة ولا تفاصله المعقولية ولا تباينه المنطقية وهو: هل ثمة غموض في الخطاب الذي خاطب به المغدور السرية أو المجموعة أو القاتل أدى إلى سوء التأويل؟

بداهة لا نعني ب الخطاب مجرد العبارات التي وجهها إليهم أو إليه، إنما نؤم (نقصد) أنه يضم الأفعال التي قام بها، على سبيل المثال إخفاء الأعنز في شعب في الجبل أو لبثه وعدم هروبه مع قومه الرافضين لاعتناق الديانة والانضواء تحت بيرق دولة بني سخينة، وكذا الأيأة (الهيأة) التي ظهر أمامهم بها؟

ب معنى أن الخطاب بِ مجمله لفظاً وحالاً لم ينجح في توصيل الدلالة التي تغيّاها إلى من أرسل إليه: فضلاً عن أنه من المحتمل أن عبارات التوحيد وهي في المقام الأول الشهادة ويرتدفها السلام حتى

---

(١) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ص ص ٢٣٨ ــ ٢٣٩ مرجع سابق والبخاري أول الصحاح الستة والترمذي أحدها، مسند أحمد بن حنبل من كتب الأحاديث ذات الرتبة العالية.
وأضاف المصنف أن الحاكم رواه وصححه وأقره الذهبي.
وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه والبيهقي في سننه وزاد السيوطي نسبته في الدُّر للطبراني وعبد بن حميد وصححه، ووصفه (= المصنف الأزهري) ب صحة الإسناد.
والسيوطي الذي ورد ذكره في السطر السابق كان:
(يحفظ مائتي ألف حديث.. وهو والأمر كذلك شديد الاحتفال ب أحاديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم، كَلِفَ بجمعها واستقصائها والتأليف في علومها ومن ثم ألف عشرات من كتب الحديث الشريف).
(جلال الدين السيوطي: سيرته العلمية ومباحثه اللغوية) ل.د. مصطفى الشكعة ص ١٢٩ ــ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ــ الدار المصرية اللبنانية ــ القاهرة:
وأكد الشكعة أن السيوطي هو (عالم المائة التاسعة) الهجرية، ص ١١٧.
نخلص مما سبق أن الحديث المرقوم أعلاه، صفر من المطاعن.

ذياك الزمن المعجب لم يرَ أولئك الأصحاب في مجرد النطق بها حائلاً دون سفك دم مـــن يتفـــوه بها؟ إذ إن في الأخبار التي رقمناها وقرأناها أن (سيد الأولين والآخرين) في قمـــة ضـــيقه وذروة غضبه وقلة سخطه يسأل القاتل (كيف لك ب لا إله إلا الله)؟

إن هذا ينفح افتراضاً ولو أنه غير مفرسخ أو مفرطح أن اللوم الشديد أو التعنيف القوي أو التوبيخ البالغ أو العذل النافذ مرده أن الصحابي القاتل لم ينقه المدلول السديد والمفهـــوم الصـــحيح والمعنى العميق والمغزى الدقيق له تلاوة المذبوح الشهادة وإلقاء السلام.

أتستطيع هذه الوقائع المتكررة أن تنفحنا دليلاً أو حتى قرينة على أن العبارات التيولوجيـــة حتى ذياك الوقت المدهش لم تكتسب هذا القدر الوفير من الهالات التي أحيطت بها فيما بعد والتي ازدادت وما تزال تزداد تراكماً ب تعاقب القرون؟

سواء صح هذا أو ذاك ف الذي لا مشاحة فيه أن ضعف تقابل دالة الخطاب بين طرفيـــه وعدم تطابقها لدى كل واحد منها أمر يتوجب علينا ألا نسقطه من حسابنا، مع ضرورة الانتباه ب قوة أن هذا لا يعني التجاوز عن الحقيقة الثابتة وهي أن الوازع الرئيسي في نحر الضـــحية هـــو الاستيلاء على ما معها، بيد أنه بتعدد النوازل يغدو طرح هذه الفروض ضربة لازم ك ضرورة ل التحليل الموضوعي.

* * *

وهنا يمسي أن تناول مسألة التعددية هذه قد آن أوانه:

(قال القفال: ولا منافاة بين هذه الروايات، فلعلها نزلت عند وقوعها بأسرها، فكـــان كـــل فريق يظن أنها نزلت في واقعته).[1]

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمي النيسابوري ــ المجلد الرابع ــ ص ٧٧ ــ مصدر سابق.

من هذا النص يبين أن القفال يرى أن الآيات المباركات أشرقت غب كل حادثة أي كلما تقع واحدة منها تنبجس في إثرها آية مجيدة ويفهم من طرحه أنه لا مانع من تكرار هلّ الآية أكثر من مرة وهو رأي قال به العديدون وتناولته كتب علوم القرآن العظيم تحت عنوان (تكرار النزول) ولعل أشهر ما قيل فيه تكرار سورة الفاتحة.

وقد تحدثنا فيما سبق عنه إنما بشأن وقائع قتل الموحدين على أيدي بعض الصحاب نذهب إلى صعوبة القول به ودليلنا نستقطره أو نستنبطه من داخل الأخبار ذاتها أي من ألفاظ أو عبارات أو تراكيب النصوص، وقد تأتى لنا من القراءة بصبر وتأنٍ وبعين يقظة وبصيرة نافذة.. الخ، وهو ما ندينا إليه مرات عديدة، إذ نعثر في كم من الآثار أو الأخبار على عبارة مثل «ثم قرأ أي (سيد ولد قصي) الآية على أسامة» وفرق واضح بين هذا التعبير وآخر مثل «فنزلت: يا أيها الذين»... الخ الآية ف الأول يعني أن الآية الحميدة موجودة ومحفوظة في صدره الشريف وصدورهم وكل ما فعله أنه قرأها على الصحابي ليذكره بها.

وفي مواضع آخر يقتصر النص على الحوار العنيف الذي دار بين (أول من تنشق عنه الأرض) وبين الصحابي دون ذكر ل انبجاس الآية كما النبع الصافي.

وفي ثالث: يتركز الشأن على تعظيم (ذؤابة ولد آدم) ل حرمة لا إله إلاّ الله وتبشيع الاستهانة بمكانتها الرفيعة من قبل التابع الذابح حتى يتمنى أنه أسلم بعدها لا قبلها.

إذن لا لزوم ــ من وجهة نظرنا ــ للربط بين كل واقعة وآية كريمة يتعين أن تبزغ من أجلها ولا بين تكرار هلها رغم أن جماعه لا

يؤود جبريل لأنه ذو قوة متينة من الصعب أو المستحيل تصورها بدليل قول ابـــن عبـــاس (نـــزل جبريل على رسول الله ستين ألف مرة).[١]

* * *

بقيت ملاحظتان:

الأولى: الآية الرابعة والتسعون من سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في ســبيل الله فتبينوا) وردت في بعض الأخبار فتبينوا وفي البعض الآخر فتثبتوا...

(قال قرأ أبو جعفر: واختلفت القراء في قراءة قوله (فتبينوا).

فقرأ ذلك عامة قرأة المكيين والمدينيين وبعض الكوفيين والبصريين (فتبينوا) بالياء والنون من (التبين) بمعنى التأني والنظر والكشف عنه حتى يتضح.

وقرأ ذلك عُظم قرأة الكوفيين (فتثبتوا) بمعنى التثبت الذي هو خلاف العَجَلة).[٢]

ويؤيد القمّي النيسابوري اختلاف القراءتين:

(فتثبتوا) من التثبيت وكذلك في الحُجرات (هكذا قرها) حمزة وعلـــيّ وخلــف والبـــاقون قرأوها (فتبينوا) من التبيين).[٣]

---

(١) (بحار الأنوار الجامعة ل درر أخبار الأسمية الأطهار) ل محمد باقر المجلسي، ص ٢٦٣ ــ طبعة ١٩٨٣ ــ دار إحياء التراث العربي/ بيروت وهو مصدر غير مباشر.
وإذ إنه بحسب ما تذكره المصادر التراثية أن ملاك الرب جبرائيل التقى محمداً لمدة ثلاثة وعشرين عاماً يخصـــم منها أعوام ثلاثة انقطع فيها في البديّ سميت ب (فترة أو فتور الوحي) أي الباقي عشرون عاماً (عشر في القريـــة المقدسة وعشر أخرى في قرية بنى قيلة ذات الحرتين) ف يصبح المعدل السنوي ل الالتقاء بينهما هو ثلاثـــة آلاف مرة أي في اليوم الواحد أكثر من ثماني مرات!!.
علماً ب أن الذي طرح هذه المعلومة هو عبد الله بن عباس الملقب ب (حَبْر الأمة) وبغض النظـــر عـــن صـــحة إضفاء اللقب عليه من قبل (الحبيب) وهو ما شككنا فيه من قبل، فإنه مما لا يختلف فيه اثنان مـــن رجـــال الـــدين المعاصرين أنه (= ابن عباس) من علماء الأصحاب وضربت إليه أكباد الإبل من قبل أكابر التابعين ل تلقي العلـــم عنه.أ.هـ.

(٢) (تفسير الطبري) ــ التاسع ــ ص ٨ ــ مصدر سابق.

(٣) (غرائب القرآن) ل القمّي النيسابوري ــ المجلد الرابع ــ ص ٦٤ ــ مصدر ســـابق. وإليـــه أيضـــاً ذهـــب العكبري.

(قوله تعالى: «فتبينوا» (يقرأ ب الباء والياء والنون من التبيين، وبالثاء والباء والتاء من التثبت وهما متقاربان في المعنى.. والذي نزلت فيه الآية قال لمن ألقى إليه السلام لست مؤمناً وقتله والسلام ب الألف التحية... وهو الاستسلام والصلح).[١]

وهذا ينفحنا دليلاً على أن النص في بديّ أمره جاء منفتحاً.

بيد أنه فيما بعد أغلق وأحكم رتاجه ومن ثم فإن ما جاء ب مصحف عثمان (فتبينوا).

وكذلك (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) وهي بقية الآية الرابعة والتسعين من سورة النساء ورد في بعض القراءات (السلم) بغير ألف.

ثم ثبت لفظ (السلام) ب الألف.

(ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمناً) أراد الانقياد والاستسلام ل المسلمين.. ومن قرأها (السلام) ب الألف فله معنيان:

أحدهما: أن يكون المراد السلام الذي يكون تحية المسلمين أي لا تقولوا لمن حيّاكم بهذه التحية إنه إنما قالها تعوذاً فتقدموا عليه بالسيف لتأخذوا ما له ولكن كفوا وأقبلوا منه ما أظهره.

ثانيهما: أن يكون المعنى: لا تقولوا لمن اعتزلكم ولم يقاتلكم لست مؤمناً، وأصل هذا من السلامة لأن المعتزل طالب للسلامة).[٢]

الأخرى: أن الذي يشدّ الانتباه في هذا النص هو تفسير الفخر الرازي لكلمة السلم أن المراد بها هو الانقياد والاستسلام للمسلمين.

أي طاعتهم والدخول في دينهم وقبول الوقوف تحت راية دولة قريش.

---

(١) (التبيان في إعراب القرآن) ل أبي البقاء عبد الله العكبري ٥٣٨ ــ ٦١٦هـ ص ١٩١ ــ الجزء الأول الطبعة الأولى ١٩٨٠م ــ المكتبة التوفيقية ــ القاهرة.
(٢) (مفاتيح الغيب ــ التفسير الكبير) ل الفخر الرازي ــ المجلد الخامس ص ٣٩٤ ــ مصدر سابق.

وسبق أن زبرنا (كتبنا) أن أبا البقاء العكبري فسّر إلقاء السلام ب الاستسلام.

يؤيده ما سبق أن سطرناه وقدمنا الأدلة عليه وهو أن انتشار الدين الإسلامي في داخل الجزيرة العربية إنما تم ب حد السنان.

ومن بين البراهين التي طرحناها: آية السيف والحديث المحمدي:

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا (أو يشهدوا) أن لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) وقد ورد في صحيح مسلم وفي غيره من كتب السنة العوالى.

(وأن عليه القتال بعد البلاغ، والحرب بعد البيان والأكراه بالقتل على الدخول في الدين).[1]

ونصل من هذه الفرشة الوجيزة إلى أن تفسير كلمة (الإسلام) ب الاستسلام والخضوع والانقياد والامتثال والطاعة... الخ عبر اعتناق الديانة تفسير له سنده من النصوص التأسيسية المقدسة.

فضلاً عن أن الحفر عن جذور أمثال هذه الألفاظ والتنقيب عن أصول الوقائع المحايثة لها ومنها قتل المسلمين وطلوع آيات كريمة بسببها يؤيده (= التفسير).

فالمغدورون فيها نطقوا ب الشهادتيْن أي أعلنوا الخضوع والاستسلام والطاعة ب دخولهم الإسلام ومن ثم لا يصح شرعاً نحرهم، ولو لم يفعلوا ل جاز دون لوم أو تثريب أو تعنيف.

وب معادلة منطقية بسيطة: إلقاء السلام وتلاوة الشهادتين جماعها تعني الطاعة والانقياد والاستسلام للدين أي = اعتناق الإسلام، إذن الإسلام بدوره هو هذه الأمور على وجه التعيين والتحديد.

---

(١) (الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم) ل القاضي أبي بكر بن العربي تحقيق د. عبد الكريم العلوي ــ الجزء الثاني ــ ص ٣٤٥ ــ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ــ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ــ المملكة المغربية.

هذه هي دالّة الإسلام في جذره التاريخي كما وكّدته الآيات المجيدة ووثقه تعنيف (صاحب البرهان) ل الصحابي القاتل لأن المقتول وقد أسلم أعلن انقياده واستسلامه وخضوعه وطاعتــه ف لا موجب شرعاً لِ نحره. هذا المعنى الخالص الصافي الذي لا تشوبه شائبة ولا يكدره قــذى ولا تخالطه عكارة استحال على أيدي المحدثين إلى دالة مغايرة لا صلة لها به:

(الإسلام هنا معناه إخلاص الوجه لله تعالى فاليهودية إسلام في مدتها والمسيحية إسلام في فترتها والرسالة المحمدية إسلام بمعنى إخلاص الوجه لله تعالى والامتثال لطاعته).[١]

يمكن لنا أن نسأله = على أي بساط يسير من يبغي إخلاصه الوجه لله تعالى؟ وأي محجة يسلك؟ وعبر أي بوابة يدلف؟

ولو طلب منه أهل الكتابين السابقين أن يحضر لهم برهانه على أن اليهودية إســلام فــي مدتها والمسيحية إسلام في فترتها؟ ف كيف يجيء رده؟

ولماذا انتهت مدة إسلام اليهودية ثم فترة إسلام المسيحية؟

ولماذا خُص زمن إسلام الديانة الثالثة ب الأبدية والسرمدية؟

هذا ما سوف يقوله اليهود والنصارى (المسيحيون) في عقيدتهم.

ألا يعرف الدكتور المفسر أو المفسر الدكتور أن كل عقيدة من هذه العقائد الــثلاث تــوقن أنها تملك الحقيقة المطلقة السرمدية وما عداها ليس على شيء.

أليس المعنى الذي قالت به النصوص المقدسة أصح وأيسر فهماً وأبعد عــن الصــدام ب أصحاب الأديان السابقة؟

* * *

(١) (تفسير القرآن الكريم) أ.د. عبد الله محمود شحاتة، الجزء الثالث، ص ٥٤٠، الطبعة الأولــى، ٢٠٠٠م، دار غريب، ب مصر.

أما صاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت ف له تعريف آخر ل الإسلام.

(الإسلام هو الصراط المستقيم وأنه لذلك كان الشريعة الخالـدة الصـالحة لكـل زمـان ومكان).[١]

وبداية ف نحن نكن تقديراً خاصة لفضيلة الشيخ لأن آراءه فيها قـدر لا بـأس بـه مـن الاستنارة والعقلانية ولو أنه بحكم دراسته ينطلق من أرضية دوجماطيقية مغلقة.

كذا لجهوده المخلصة التي بذلها في التقريب بين المذاهب.

بيد أن هذا التقدير لا يمنعنا من تقييم تعريفه للإسلام تقييماً موضوعياً ووضعه على محـك النقد.

قال إن الإسلام هو الصراط المستقيم وهي عبارة وردت في القرآن العظـيم أكثـر مـن ثلاثين مرة وتدل على العديد من المعاني ومثلها رغم سموها لا تصلح أن تغدو تعريفـاً أو تمـنح منضبطاً بخلاف المعنى الذي جاءت به نصوص التأسيس وخلاصة الانقياد والطاعة والاستسـلام خلال اعتناق العقيدة المخصوصة والمحددة التي بشر بها (المنصور) وفي حال حياته: الاعتـراف ب الدولة التي أسسها في أثرب.

ثم يضيف إلى معنى الإسلام أو التعريف بدالته أنه الشريعة الخالدة لكل زمان ومكان.

إن الشيخ شلتوت تربع على كرسي مؤسسة شئون التقديس في مصر أي وصل إلى أعلـى منصب ديني في العالم الإسلامي.

وكما قال عمر بن الخطاب ل أبي عبيدة بن الجراح (لو غيرك قالهـا يـا أبـا عبيـدة)! وصارت مثلاً، ف نحن بدورنا نقول له (لو غيرك قالها يا شلتوتا)!.

---

(١) (تفسير القرآن الكريم) ل الشيخ محمود شلتوت، الأجزاء العشرة الأولى، ص ٣٩ د.ت.ن، دار القلم ب مصر.

ف الإسلام عقيدة خالدة صالحة لكل زمان حقيقة لا يماري فيها إلاّ لجوج ولا يعارضها إلاّ شكس ولا يشكك فيها إلا عنيد مخطئ.

أما الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان فإن صاحب الفضيلة أو فضيلة الصاحب لا يعدم من يحاجه ويسائله ما رأيك في:

= الرق وملك اليمين والإماء والعبدان.. إلخ هل تجرؤ دولة إسلامية الآن على تقنينها؟

= تقسيم الإسلاب والغنائم على المقاتلين ونصيب الراكب (= الذي معه فرس) ضعف نصيب الراجل أيمكن أن يتم في أي جيش إسلامي؟

= صلاة الخوف في ميدان المعركة بعد استعمال الصواريخ والطائرات.. أيصلح حالياً ل أدائها؟

= معرفة ما في الأرحام بعد اختراع السونار ما الرأي فيها؟

= صلاة الاستسقاء بعد ابتداع المطر الصناعي هل ما زال لها محل؟

= والظهار بعد إمكانية معرفة من هو أبو المولود بعد تحليل عينة من دمه ونسيج جسمه.

= ما هي ضرورة عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها والأجهزة الحديثة في دقائق معدودة من الميسور عليها الجزم ب براءة الرحم أو علقه من المطلق أو الزوج المتوفى؟

= هل من التلازم مرافقة ذي رحم محرم للمرأة في وسائل النقل الحديثة؟

= يمكن تخدير السارق تخديراً كليا ف لا يشعر ب ألم قطع يده!

= أوَلا يستطيع الطب الحديث إعادة اليد ب عملية جراحية بسيطة!!

= هل، في جريمة الزنا، من الحتم إقامة الدليل عليها وجود أربعة رجال يرون الميل في المكحلة أو يجوز شرعاً إثباتاً ب التسجيل = الصوت والصورة وأيهما أقوى؟

الذي يسرق ربع أو نصف دينار أي خمسة جنيهات على الأكثر تقطع يده والذي يشتري بضاعة ب ربع مليون جنيه (مثلاً) ويعطي صكاً (شيكاً) بدون رصيد لا يقطع له أصبع واحد وكذا من يختلس مئات الألوف من المال العام..!

ويستمر ذلك المتسائل في إبداء ملاحظاته:

ــ شهادة المرأة نصف شهادة الرجل هل هذه القاعدة تتفق مع وضع المرأة هذه الأيام بعد حصولها على أعلى الشهادات من أرقى الجامعات؟

ــ وكذا نصيبها في الميراث هل ينسجم حالياً بعد أن تغيرت الأوضاع الاجتماعية ب الكلية عن مثيلاتها وقت أن ظهرت النصوص التي شرعتها.

ألا يحتاج التأكيد، يا صاحب الفضيلة، على خلود الشريعة وصلاحيتها ل كل زمان ومكان إلى مراجعة مستأنية؟

إن من البديهي أن هذا المتسائل ينتظر ردوداً من الفعل لا من النقل.

لقد قدمنا هذين المثلين كبرهان على أن النصوص المقدسة التأسيسية أكثر صراحة وأوفى طبيعية وأنضر وجهاً فيما تقدمه من مكان ودوال وقيم مما طرحه ويطرحه المفسرون والأصوليون والفقهاء قدامى ومحدثون.

* * *

ثم نعود إلى سياقة القول:

تبين من الوقائع التي رقمناها أن (من تنام عيناه ولا ينام قلبه)

ضاق صدره الشريف وملأ فؤاده الرقيق الغم وشحن صدره الوسيع ب الأسى من جراء إقدام عدد من صحابته وبينهم مقربون إليه على قتل عدد من المسلمين الموحدين المستسلمين.

بيد أن (الذكر الحكيم) لا يذره على هذه الحالة الحرجة فتبزغ آيات حميــدة تجــيء كمــا البلسم الشافي للجراحات المعنوية التي أملت به.

وب ظهورها يرتفع عنه كل ما داخله من غموم.

ومن وجهة الصحاب سواء الذين فعلوها أو غيرهم عمّهم الســرور إذ انتهــى الأمــر ب عتاب رقيق ولوم رفيق وعقدوا الخناصر على ألا يعودوا لمثلها.

وتحققت ب بزوغها غايات سامية:

توجيه وتربية خُلُقية للصحاب وتقويم لما بدر منهم من اعوجاج.

وإزاحة ل هم وَصِب (وجيع) انتاب (رحمة العالمين).

وإهداء حجة أخرى تضاف ل سلفها على أن (صحفاً مكرمة= القرآن) دائماً علــى وثاقــة متينة ب الفاعلين في ذياك المجتمع وب سيدهم (سيد الثقلين).

وأنه ليس كما يدعي المعاندون: مفارقاً أو مبايناً أو مفاصلاً.

ونفحة مسك نختم بها هذه الفاصلة وهي أن هذه الآيات المجيدة وأخواتها تنفحنــا برهانــاً ساطعاً على أن الواقع هو الأساس الذي ينبني عليه الفكر والأرض الصلبة التي يقوم عليها التنظير والمدماك الشديد الذي يقف عليه الرأي وأن هذه كلها (الفكر/ التنظير/ الرأي) لا تهبط من عل.

إن الانتباه ل هذه الحقيقة الجوهرية هو الباب الملكي والوحيد ل الخروج من كل الأزمات والانعتاق من سائر المزانق والانفلات من كل القيود.

وأخيراً واحتراماً ل القداسة التي توليها الديانات الساميّة الإبراهيمية الثلاث للــرقم ســبعة والتي نتشتها من الديانات السامية القديمة، نجعل هذه الفاصلة السابعة خاتم الفصل الأول (التربيــة الخلقية).

الفصل الثاني

التّربيّة العسكريّة السّياسيّة

[Blank Page]

بناء دولة بني سخينة تطلب إعداد جيش قوي، وهو أيضاً ضروري ل نشر الديانـــة التـــي دعا إليها (البارع/ الباهر).

وهاتان المهمتان الملحتان استلزمتا إعداد تبع على درجة معقولة مـــن الحنكـــة السياســـية واضطلع بهما (الكافل/ الكريم) على خير وجه.

وبيد أنه لاقى في هاتين المحجتين (التربية العسكرية والإعداد السياســـي) الأمـــرّين، لأن غالبية من آمنوا بدعوته على قدر وفير من التبدي، ويتميزون بأخلاق جافيـــة وصـــفات حوشـــية ويفتقرون إلى الضبط والربط ويفتقدون النظام ويحتاجون إلى التشذيب والتهذيب.

إلا أن (البيان/ الذكر الحكيم) لم يتركه يعاني المشقات منفرداً بل وقف إلى جانبه كالعـــادة، كما سيتضح من الأمثلة التي سنوردها، وبداهة من العسير استقصاء كل الحالات أو إحصاء جميع الوقائع أو حصر كافة النوازل، ونأمل أن ما نطرحه فيه غنية.

أولاً: التربية العسكرية

١ ــ حظر التقاعس عن الخروج ل القتال:

(أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال:

أمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف.

فقال رجال: يا رسول الله، الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفر في الحر! فـــأنزل الله تعالى:

«قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون» الآية ٨١ التوبة.[١]

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ص ص ٨٧ ــ ٨٨ سابق.
كما رواه الطبراني في الكبير.
وابن جرير في تفسيره
وابن أبي حاتم في تفسيره وقال الهيثمي في الزوائد ٧ ــ ٢٣ رجاله ثقات.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال:

أمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف.

فقال رجال: يا رسول الله، الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا ننفر في الحر! فـأنزل الله تعالى:

«قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون».

هنا نجد أن المتكاسلين (رجال) تعللوا ب حمّارة القيظ.

أما في الخبر الآتي بعد فإن الاعتذار عن الخروج ل الحرب جاء بسبب الانهماك في الأعمال والانصراف إلى الأشغال والاهتمام ب الأموال بأنواعها.

قوله تعالى: «انفروا خفافاً وثقالاً» نزلت في الذين اعتذروا ب الضيعة والشغل وانتشار الأمر، فأبى الله تعالى أن يعذرهم دون أن ينفروا على ما كان منهم).[١]

* * *

لم يقتصر التباطؤ على أفراد بل ضرب حياً ب كامله:

(أخرج أبو داود والحاكم والبيهقي عن ابن عباس في قوله «إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً» قال:

أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ استنفر حياً من أحياء العرب فتثاقلوا عنه، فأنزل الله هذه الآية: فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم).

الحديث خرجه ثلاثة من كبار أصحاب دواوين السنة المحمدية المطهرة، أولهم أبو داود وهو من أصحاب الستة الصحاح.

وفي رواية أخرى ورد الحديث على النحو التالي:

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي ص ١٦٦ مصدر سابق.

(أخرج أبو داود والحاكم والبيهقي عن ابن عباس في قوله «إلاّ تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً» قال:

(إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ استنفر حياً من أحياء العرب فتثاقلوا عنه، فأنزل الله هذه الآية: «انفروا خفافاً وثقالاً» ٤١ التوبة فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم).

وقد أكده السيوطي وزبره على هذا الوجه:

و(أخرج ابن أبي حاتم عن نجدة بن نفيع قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية: «إلاّ تنفروا يعذبكم عذبا أليماً...» ٣٩ من سورة التوبة/ براءة فقال: استنفر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أحياء من العرب فتثاقلوا عنه فأنزل الله «إلاّ تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً» فأمسك عنهم المطر، فكان عذابهم).[١]

فيه أحاطنا السيوطي خبراً ب أن المتثاقلين «أحياء من العرب» ب الجمع.

مما يقطع بانتفاء فطانة أولئك العربة للأهداف التي تغياها (المصون/ المضخم) من وراء قتاله للمشركين: إفشاء الديانة وإقامة دولة قريش.

كما أن الأثر المروي عن طريق السيوطي وما سبقه نفحونا ب معلومة جد خطيرة وهي أنه ليس (المثاني/ القرآن) هو الذي عاضد (الضيغم وتعني الشجاع المقدام) فحسب بل إن عوامل الطبيعة أيضاً آزرته ب أن أمسكت مطرها عن الهطول وهذا من أشد أنواع العذاب الذي يصيب أولئك البدو ويكفي أن تعرف أن من بين أسمائه في معجمهم الطريف: الغيث والنجا والحيى والحيا والري والخصب والغيداق... الخ! وعلى المطر تتوقف «ب المعنى الحرفي المباشر» حياتهم وحياة دوابهم، فإن مُنعوه تحولت إلى جحيم أو موت

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ٩٤ ــ مصدر سابق.

وشيك الوقوع.

* * *

من «الأفراد» إلى «الحي» ف الأحياء تتسع مساحة دائرة المتباطئين كيما تشمل قبائل ب أسرها:

(تخلفت بعض القبائل عن الجهاد مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في غزوة تبوك ومنها قبائل: مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم كما تخلف بعض المسلمين من أهل المدينة فنزلت الآيات تعتب على المتخلفين).[1]

بل إن التراخي تعدى إلى نفر من اليثاربة العُربان أي من بني قيلة.

ب هذه الصورة تحول الأمر إلى معضلة ف قبائل البادية، ليس من المستغرب أن تتهاون، إذ إن هذا طبع مركوز في نفوسهم لأنهم جُبلوا على «التصبيح» والغارات الخاطفة التي تدر الأسلاب والأنفال والغنائم في أسرع وقت كما أن نسبة الخطورة فيها قليلة أو محسوبة.

أما الغارات فتحتاج إلى «نفس طويل» ووقت مديد وجهد مضاعف ومشقة أوعر.

ب الإضافة إلى أن الإسلام لم يستقر في قلوبهم ولم يعدن في صدورهم ولم يترسخ في وجدانهم فيهون عليهم جماع هذا.

أما ب النسبة إلى الذي آمنوا من أهل أثرب فَ الوضع مختلف، إذ المفروض فيهم وقد آووا ونصروا أنهم أصحاب إيمان قوي وإسلام مكين يبلغ حد اليقين فيعتقدون أن موعود الله الذي جاءهم على لسان (الصادق المصدوق) أكثر تعيناً وأبلغ تشيئاً وأقوى تحققاً مما هو بين أياديهم ولكن حدث العكس ووقع النقيض:

(قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا) الآية

---

(١) (المعجم الموضوعي للقرآن الكريم) ل حمزة النشرتي وآخرين ــ الجزء الخامس ــ ص ٤٦٩ ــ الطبعة الأولى ١٩٩٩م/ الناشر = حمزة النشرتي.

الثامنة والثلاثون من سورة براءة/ التوبة، نزلت في الحث على غزوة تبوك وذلك أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما رجع من الطائف وغزوة حنين أمر ب الجهاد ل غزو الروم وذلك في زمان عسرة من البأس وجدب من البلاد وشدة من الحر، حين أخرفت النخل وطابت الثمار فعظم على الناس غزو الروم وشق عليهم الخروج إلى القتال، فلما علم الله تثاقل الناس أنزل هذه الآية).[١]

ونشد الانتباه إلى العبارة التي وردت في الخبر «فعظم على الناس» فهي على قصرها تنفح دلالتين:

أولاهما: أن الخروج ل الحرب غدا من عظائم الأمور، أي موضع استرذال واستهجان وامتعاض واستثقال.

أخراهما: أن ذياك الشعور بسط مظلته السجوم (يقال عين سجوم أي غزيرة الدمع) على الناس لا على نفر معدود أو فئة محدوة أو حتى شراذم مبعثرة أو أشتات متفرقة أو أوزاع متناثرة هنا وهناك.

إزاء تلك الأيأة (الهيأة وزناً ومعنى ا.هـ) المأساوية والتي بدون شك أصابت قلب (الظفور) بالغم وشحنت صدره الكريم بالأسى وعبأت وجدانه ب الأسف ــ لا يذره (الحق/ الهادى أي الذكر الحكيم) مفرداً يعاني تلك الحالة الأليمة.

هذا من رجا.

ومن آخر فإن أولئك الصحاب برهنوا على أنهم في حَوْجَة شديدة إلى صياغة جديدة وصقل مكين وسبك متين حتى يدركوا أن عترستهم[٢] نمّت على نقص في الإيمان وافتقار إلى نقه الأمور الصحائح ــ وهكذا أصابت الآية أو الآيات الكريمة هدفين:

أ ــ إنهاض همم من خوطبوا بها لِ الإرقال إلى ميادين القتال.

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي ص ١٦٦ ــ مصدر سابق.

(٢) عترس في الأمر أخذ فيه بالجفاء والعنف ــ «المعجم الوجيز» والعامة في مصر تقول: فلان عترس أي عصى ولم يطاوع ا.هـ.

ب ـ تصحيح العقيدة التي من بين شاراتها الطاعة المطلقة ل (أبـي القاسـم) وإمضـاء أوامره وإنفاذ تعليماته وفي مقدمها الانبعاث إلى ملاقاة العدو.

* * *

ننتقل بعدها إلى كتب «تفسير القرآن» ل نطالع في صـحائفها كيـف واجـه «الشـفاء = القرآن» مسألة التراخى عن الخروج ل الغزوات والسرايا: («يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض...» الآية الثامنة والثلاثون من سورة براءة/ التوبة.

(... المروى عن ابن عباس أنها نزلت في غزوة تبوك وذلك لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رجع من الطائف أقام بالمدينة وأمر ب جهاد الروم وكان ذلك الوقت زمـان شـدة الحـر وطابت ثمار المدينة وأينعت فاستعظموا غزو الروم وهابوه، فنزلت هذه الآية).[1]

ولعله من نافل القول أن نرقم أن التربية العسكرية التي تعهدهم بها (المنصور) خاصة في هذه الغزوة «تبوك» أتت أكلها، إذ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضـياً مرضـياً شـمروا عـن سواعدهم وخرجوا من جزيرتهم القرعاء الجرداء الجديبة يحاربون ما جاورهم من البلدان بداهـة ب الإضافة ل أسباب أخرى لا مجال لـ سردها.

(«إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً...» الآية التاسعة والثلاثون من سورة التوبة/ براءة).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ استنفر رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ القـوم فتثاقلوا فأمسك الله عنهم المطر).[1]

(وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من

---

(١) (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير) ل الفخر الرازي ـ المجلد السابق ـ ص ٢٦٤ ـ مصدر سابق.

الطائف استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم).[٢]

ونحن نرى أن الزمخشري خالف الرازي في توصيف زمن الغزوة وأتى بعكس ما زبره الأخير ووصفه بالقحط وإن اتفقا أنه حر وقيظ.

وأنه وَهِمَ فيما ذهب إليه، إذ إن الغالب هو أنه وقت طيب الثمار.

(هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمّارة القيظ).[٣]

ويؤكد ابن كثير أن العذاب الذي ورد بِ الآية التاسعة والثلاثين هو حبس المطر عنهم («إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً» قال ابن عباس: استنفر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيّا من الرب فتثاقلوا فأمسك عنه القَطْر فكان عذابهم).[٤]

إذن ساهمت الطبيعة في تأييد (أول من يفيق من الصعقة) ومعاضدته بأن حجبت عنهم الغيث والحَيا.

واللفظة التي وردت ب الخبر «القَطْر» أبلغ تعبيراً عن شدة العذاب الذي وقع ب المتراخين لأن من معاني «القَطْر» جمع قطرة.[٥]

وهكذا أثبتت الطبيعة أنها من أشد الناصرين ل «صاحب العطايا»، إذ إنها ضنت على المتثاقلين حتى ببضع قطرات يبلون بها ريقهم

---

(١) ذات المصدر ــ نفس الجزء ــ ص ٦٦٧.
(٢) «الكشاف» ل الزمخشري ــ المجلد الثاني ــ ص ١٨٩.
(٣) (التيسير خلاصة تفسير ابن كثير) ل محمود محمد سالم ــ الجزء الأول ــ ص ٤٣٩ ــ مرجع سايق.
(٤) ذات المرجع والجزء ــ ص ٤٤٠.
(٥) (المختار من صحاح اللغة) لمحمد محيى الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف السبكي ــ الطبعة الثانية ــ ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد ب مصر.

النشف.[١]

كما أن هذا التعبير يفسر لنا وصف العذاب بأن «أليم» الذي ورد ب الآية.

ونحن نفضّل تفسير ابن عباس على التفسير الذي شطّ إليه هُواة الغيبيــات بأنــه «عــذاب الآخرة إذ الأليم لا يليق إلا به».[٢]

فاللغة العربية لا تضيق ذرعاً بِ نعت عذاب دينوي بأنه أليم.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تصف العذاب الدنيوي به منها «لئن لم تنتهــوا لنــرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم».[٣]

والرجم وقع عليهم في الدنيا هو والعذاب الأليم و«يغشى الناس هذا عذاب أليم».[٤]

وقد فسرها صاحب مقام رفيع في دائرة علوم القرآن ب الآتى:

(«يوم تأتي السماء بدخان مبين» الدخان الذي ذكر في هذا الموضع حين دعا رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على قريش أن يأخذهم بسنين كسني يوسف فأخذوا بالجــدب وإمســاك المطر، حتى كانوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلاّ الدخان، فأتاه أبو سفيان فقــال: يــا محمد إنك جئتنا تأمرنا بالطاعة وصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم.

«يغشى الناس» يشملهم ويحيط بهم.. كان الرجل لا يرى بينه وبين السماء إلاّ دخانا مــن شدة الجهد.

«ربنا اكشف عنا العذاب» دعا المشركون بذلك والمراد ب «العذاب» الجوع...).[١]

---

(١) العامة في مصر تقول: ريقه ناشف إذن هو لفظ صحيح ا.هـ.
(٢) (مفاتيح الغيب) ل الفخر الرازي ــ المجلد السابع ــ ص ٦٦٧ ــ سابق
(٣) سورة يس ــ الآية الثامنة عشرة.
(٤) سورة الدخان ــ الآية الحادية عشرة.

إذن القول إن «الأليم» لا يصح إطلاقه إلاّ على عذاب الآخرة فحسب ثبت فساده وبطلانه من واقع آيات كريمات من «أحسن الحديث ــ القرآن» نفسه.

ولم نفهم لماذا يستنكر أولئك النفر من المفسرين وقوف الطبيعة بتجلياتها المتنوعة في جانب (السرى) تنافح عنه وتظاهره مع أن هذا أمر متعارف عليه في الديانات السامية الإبراهيمية الثلاث، إذ حدث مع عدد كبير من البطاركة الأماثل..

بدأت مع كبيرهم الذي علمهم البلاغ إبراهيم فقد أبطلت النار مفعولها ولم تمسه بأدنى سوء.

وانشق البحر (الأحمر) ل موسى وتبيعه فـَ مروا بسلام بين لجحه وأمواجه العاتية وبعد سنوات وقفت الشمس إكراماً ل خادمه يشوع ابن نون في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل.[٢]

أما عبد الله وابن أمته عيسى ابن مريم فقد يبس البحر تحت قدميه المباركتين ل يعبره.

* * *

من جِماعه يثبت أن الطبيعة صديق صدوق ل «الكُمّل» تمد لهم يد العون بسائر طاقاتها.

بعد هذه التفريعة الذي اضطرنا إليها من ينكرون أن العذاب الأليم وقع فعلاً على المتكاسلين من النفر إلى قتال الأعادي. نؤوب إلى استكمال ما استطعنا أن نطّلع عليه من التفاسير بشأن التربية العسكرية ل الصحاب ب تحذيرهم من التراخي للبروز ل ملاقاة المناوئين ل إجبارهم بـِ حدّ السيف على اعتناق الإسلام ول فَرْسَخة رقعة دولة بني سخينة حتى تهيمن على جزيرة العرب ب أكملها وبعد

---

(١) (المختصر في التفسير) مختصر من تفسير الطبري ــ ل ابن صمادح التجيبي ــ ص ٣٩٦ ــ مصدر سابق.
(٢) الكتاب المقدس/ يشوع ــ ١٠/ ١٤ كيما ينتقم هو والشعب من أعدائه.

ما تم لها ذلك في حياة (المصطفى) طفقت تتمطط خارج حدودها وتغزو البلاد المجـاورة تحـت حكم التيمي ومن بعده العدوي ثم تفرشحت على أيدي (ملوك) بني أمية...

* * *

(ذلك أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رجع من الطائف أقام ب المدينة فـأمر ب جهـاد الروم، فاستثقله الناس لكون الزمان زمان صيف وقحط ولبعد المسـافة، ولمزيـد احتيـاج إلـى الاستعداد ولشدة الحر وللخوف من عسكر الروم ولوجود أسباب الرفاهية بالمدينة لكـون الوقـت وقت إدراك الثمار وحصول الغلات).[1]

هذا النص الذي وافانا به القمّي النيسابوري ثرٌ بِ المعطيات وفي الوقت ذاتـه يسـتدعي عدداً من الملاحظات:

أ ـ التثاقل أو التباطؤ أو التكاسل شمل «الناس» أي لم يقتصر على عدد محدود.

ب ـ إن «الصبور» لم يمكث ب القرية ذات الحرتين سوى بضعة أيام.

ج ـ الأمر الذي وزّ أصحاب التقاعس على أن يطرحوا سبباً له بعض الوجاهة وهـو أن الاستعداد لم يتم ب ما فيه الكفاية.

د ـ أن العربان درجوا على الرهب من الروم باعتبارهم «قوة عظمى» في ذيّاك الإبّـان المدهش مما يغدو معه القول صحيحاً تماماً إن الذي نزع من صدورهم ذلك الخوف وجرّأهم على الوقوف أمامهم هو «الصالح» وهي نقطة مضيئة تضاف إلى رصيد تاريخـه البـاهر والحـق أن تاريخه من أوله ل آخره باهر.

هـ ـ أن «أسباب الرفاهية» متمكنة بين صناديد أهل أثرب وهو ما

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمّي النيسابوري ـ المجلد الخامس ـ الجزء العاشر ـ ٤٥٥ ـ مصدر سابق.

أكدناه في دراسات لنا سوابق، ومعلوم أن البلهنية تصاحبها أدواء اجتماعية خاصـــة فـــي نطـــاق الرابطة الثنائية بين الذكران والنسون.[١]

وأثار توثيقنا ل هذه الحقيقة التاريخية حفيظة الإخوة الدوجماطيقيين ــ ســامحهم الله ــ ف هاجمونا ب قسوة وعنف بالغين لدرجة أن بعضهم سبنا سباً قبيحاً بل وصل الأدب الجم ب أحدهم أن تناول والديّ «أمي وأبي» رحمهما الله رحمة واسعة وجزاهما عني خيــر الجــزاء ــ مــع أن «متمم مكارم الأخلاق» الذي يدعون أنه زعيمهم نهى عن الفحش والفحش «... فإن الله لا يحــب الفحش والتفحش».[٢]

وأمرهم القرآن المجيد أن يخاطبوا الناس بكل أدب «وقولوا للناس حسناً».[٣]

و ــ تناقض القمّي فذكر أن الزمان زمان قحط وبعد سطر: «لكون الوقــت وقــت إدراك الثمار وحصول الغلات».

* * *

ورجع القميّ أن العذاب الذي ورد ب الآية هو عذاب وقع على المتقاعسين في الــدنيا لا في الآخرة («يعذبكم عذابا أليماً» قيل هو عذاب الدنيا) عن ابن عباس: اســتنفرهم رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فتثاقلوا، فأمسك اللهم عنهم المطر).[٤]

أي أن القميّ اختار التفسير العقلاني وهو عذاب الدنيا لا التفسير الأسطوري وهو العــذاب الأخرويّ.

لا شك أن القارئ سوف يعتريه الدهش ويتولاه العجب ويهيمن عليه الاستغراب ويصـــيح قائلاً أو يقول صائحاً: كيف تعد تفسير

---

(١) فضلاً وكرماً انظر كتابنا «مجتمع يثرب ــ العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخليفي» وقــد طبع مرتين.
(٢) خرجه أبو داود وهو من أصحاب الصحاح الستة وأحمد بن حنبل في مسنده.
(٣) البقرة ــ ٨٣.
(٤) ذات المصدر والمجلد ــ ص ٤٥٦.

العذاب بِ حبس المطر عقلانيا؟

وجوابنا: إن العقلانية تحتم علينا وعلى كل باحث موضوعي أن يموضع الأحــداث فــي زمانها ومكانها كيما يستخلص الحكم الصحيح عليها.

فهي وقعت خلال الثلث الأول من القرن السابع ل ميلاد عبد الله وابن أمته عيســى ابــن مريم.

وفي بقعة خاصمتها الحضارة وخوطب بها أميون أكثرهم لا يعقلون كما وصفهم القــرآن العظيم.

أما قياسها بِ مقاييس القرن الحادي والعشرين فهذا شطط عن أبسط القواعد وانحراف عن الموضوعية وتغريب لِ العقلانية.(١)

* * *

قد يرتفع استفسار على لسان قارئ ذكي:

لماذا هذه الوقعة المستأنية والتفرقة بين التفسير العقلاني والتفسير الغيبي لِ العذاب الألــيم الذي وقع على المتثاقلين؟ وما هي وشيجته بسياقة البحث؟

والحق أنه استبيان على قدر متميز من الاستساغة.

ونبدأ بالإجابة على دُبُره أو عَجُزه:

الآصرة التي تربطه ب صلب الموضوع متينة وإن لم يلمحها القارئ.

ترجيح تفسير العذاب الأليم ب العذاب الدينوي التي انصب على رؤوس المتكاسلين والذي تمثل في حبس المطر عنهم وهو ما أكده حبر الأمة الذي ضربت إليه أكباد الأبــل ل النهــل مــن علمه ونعني به عبد الله بن عباس يؤكد التحام النصوص بالبيئة.

---

(١) تناولنا هذا الموضوع بتفصيل في كتابنا «فترة التكوين في حياة الصادق الأمين» الذي صدرت طبعته الأولــى سنة ٢٠٠١ من دار ميريت لِ النشر ب مصر ــ ثم طبع مرة أخرى بعد أقل من ٦ أشهر ف ليرجع إليه من يريد المزيد من التفصيلات.

هي هنا الآيات المباركات واختلاطها ب الواقع المعاش واصطباغها ب صبغته وهو أمر طبيعي لا غرابة فيه لأنها انبجست من ينابيعه واستقت من معينه وحملت «جيناته».

والذي يماري نحيله إلى ما رسخه (التذكرة/ العروة الوثقى أي القرآن) ذاته في العديد من آياته: «وهذا لسان عربي مبين» ١٠٣/ النحل وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً» ١١٣/ طه و«إنا جعلناه قرآناً عربياً» ٤٣/ الزخرف و«قرآناً عربياً غير ذي عوج» ٢٨/ الزمر.(١)

ونكتفي بهذه الآيات المجيدات كأمثلة.

وبداهة فهو عربي لا في اللسان «الشفاهى» أو اللغة «الكتابة» ف حسب إنما تمتد عروبته إلى الأجواء والظروف المحيطة والأنساق السائدة والتقاليد المرعية بل حتى تأثره ب الأحوال المناخية والعوامل الجغرافية... الخ.

نضرب مثلاً سريعاً:

لو أن انبثاق هذه الآيات المباركات وقع في دلتا النيل «= الوجه البحري» أي في بيئة زراعية ل صار العقاب هو هلاك المحصولات بآفات طبيعية مثل الجراد أو الدودة... الخ.

ولم يتمثل في صورة منع القَطْر لأن في مياه النيل الدفاقة عوضاً!!!

* * *

إذن عربيته أو عروبته بكافة أنساقها ومن كافة أقطارها ومن سائر أنحائها ومن جميع أرجائها لا يذر منها شيئاً ولا يترك منها شاردة ولا يدع واردة، ومن ثم اعتقد الأعراب المتخلفون أن المطر خاصمهم جزاءً وفاقاً على سوء صنيعهم وهو الذي أيده ابن عباس في تفسيره.

---

(١) «القرآن العظيم» النحل/ طه/ الزخرف/ الزمر.

ومن البداهة أنه «= الحبر» عربي فتصوره للعذاب الأليم أنه انحباس القَطْر وهو تصـــور عربي مستمد من البيئة بكل مقوماتها وعلى رأسها البيئة الجغرافية.

نزيد الأمر إيضاحاً:

لو أن أولئك المتخلفين يعيشون في دلتا النيل «الوجه البحري من مصر» وأصابت آفـــات طبيعية زراعاتهم لبادر ابن عباس ب تفسيرها أنها العذاب الأليم المتوافق مع تقاعسهم عن القتال.

هذه هي الصلة التي تربط النصوص بوسطهما التي بُحّ صوتنا أو بمعنى أدق جَفّ مـــداد قلمنا في شرحها وتبيانها وتبسيطها وتوضيحها... الخ.

بخلاف التفسير الغيبي أو الأسطوري الذي أوّل العذاب ب أنه سوف ينـــالهم فـــي الحيـــاة الأخرى فـَ علاوة على الأدلة التي وضعناها في جيب القارئ والتـــي تقطـــع ب عطنـــه وتؤكـــد فُسُولته وتبرهن على خَطَله فإنه يباعد بين النصوص وبين الواقع المعاش التي تصاعدت منـــه، أي تفصم عنه الميزة الباهرة التي تُعلي مقامه وترفع شأنه وتسمو ب مكانته على التوراة «= الأســـفار الخمسة» التي نزل بها موسى من علي الجبل إلى تبيعه والتي ذكر ان ربه قد رقمها ب أصـــابعه القدسانية!!!

* * *

ولِ الأهمية القصوى التي نوليها ل هذه الفكرة الجوهرية نرى أنه لا بأس ولا يعد تطويلاً من جانبنا عندما نلقي مزيداً من الضوء على حفافيها «جوانبها»:

عندما ذهب الطليق «أبو الطلقاء» أبو سفيان إلى «سابق العرب» يطلب منه أن يدعو ربه أن يزيل عنهم الكرب الذي لحق بهم قحطاً وجدباً ومنع مطر حتى تخيل الواحد منهم أنه وإذ يرفع رأسه إلى

أعلى لا يرى شيئاً خلاف دخان كما شرحه لنا المفسرون.

(وسبب نزول الآية أن قريشاً لما استعصت على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأبى أكثرهم الإسلام دعا عليهم فقال: «اللهم أعنّي عليهم بسبعٍ كسبع يوسف، فأصابهم قحط شديد وبلاء حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام».

وكُنّى عنه بالدخان لما تقدم بيانه، كلما اشتد الجدب اشتد الدخان تكاثفاً فكان الرجل يحدّث الرجل فيسمعه ولا يراه وذلك قوله ــ سبحانه «يغشى الناس» أي يضمهم ويحيط بهم).[١]

جهلي أكثر من علمي ولو أن الخليفة أراد أن يعطيني راتباً على جهلي لما وسعني كل ما في بيت المال». ا.هـ.

نقول عندما ذهب «بعل هند آكلة المرار» إليه أفصح ب صدق عن مكنون نفسه ونفوس بني سخينة بل وجميع المكاكوة.

وسواء نبع هذا الاعتقاد من المخيلة أو من حقيقة الشعور الداخلي، غبّ إن ضاقت الصدور وملأها الضيق ف الذي لا مشاحة فيه أنه اتسم ب التلقائية والبعد عن الكذب أو الاختراع أو الاصطناع.

وأبو سفيان رغم عيوبه المتعددة وبالغ عدائه لـ «سيد الناس» ورهطه ودينه إنما في هذا المقام لم يزوّر[٢] قالته بل إن العكس هو الصحيح.

---

(١) (التفسير الوسيط ل القرآن الكريم) تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ب الأزهر ــ ص ٨٤٨ ــ المجلد الثالث ــ الحزب الخمسون ــ الطبعة الأولى ــ ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
وكنا نفضل لو أن الأزهر كتب على الغلاف «لجنة من الشيوخ أو الأساتذة».. الخ. بدلاً من «لجنة العلماء» تواضعاً وتأسياً ب السلف الصالح فالذي طالعناه في سيرة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ــ طيب الله ثراه ــ أنه كثيرا ما ردد:
(٢) العامة في مصر تقول: فبرك.ا.هـ.

ف هو زعيم مناوئيه إذن من الصعب عليه وعلى مكانته أن يتوجه إلى دار عدوه لِ يزيل الحجاب عن هلعهم ويرفع الستر عن ضعفهم ويكشف الغطاء عن خورهم أمامه بل يتــذلل إليــه ليدعو ربه لِ يزيح العذاب عنهم.

وسواء توافق اعتقاد أبي حنظلة «كنية أبي سفيان» مع الحقيقــة أو المنطــق أو الأســس العلمية الصحيحة أم لا، فالذي لا مشاحة فيه وبكل المقاييس التزم الصدق بمعنى أنه عبــر عــن حقيقة تيقنها.

هذه هي الوشيجة التي نعنيها ونرمي إليها: تناسب الثقافة مع موجبات البيئــة ومعتقــدات المجتمع وإكراهات الوسط بغض النظر عن أن الموجبات أو المعتقدات والإكراهات: صــحيحة أم فسيدة، متقدمة أم متخلفة، متحضرة أم متبدية، متمدينة أم متوحشة، فـَ لسنا هنا بصدد حكم قيمــة عليها فهذا له مكان آخر.

بيد أن الذي نؤمه (نقصده) هو صدق ما طرحه القائل (أبي حنظلة) ب النسبة إليه هــو لا إلينا.

ف هو ليس عالم طبيعة حتى نحاجه فيما ذهب إليه ونثبت خطأه من الناحية العلمية.

بل هو رجل نصف بدوي ونصف حضري عاش في الثلــث الأول مــن القــرن الســابع الميلادي أي في القرون الوسطى الأولى في بيئة متخلفة مليطة من الحضارة، عارية مــن العلــم مقلة من المدنية، وقد غدت الحادثة التي تفوه بكلماته إبان وقوعها.. تاريخيــة ومــن ثــم يتعــين وبطريق الحتم واللزوم النظر إليها كذلك.

أما علاقة هذا كله ب «النصوص» فإنها جزء من ذياك الواقع = المدهش ومن ثــم فقــد جاءت ملتبكة به، ملتحمة فيه: أفصحت عن أشواقه وأشواكه وآلامه وآماله.

هذا الجانب المبهر هو الذي نفحها مزيداً من التميز عن غيرها من الكتب المقدســة التــي حملها إلى تباعهم الكمل السوابق الذين

ملأوا الدنيا وشغلوا الناس وما زالوا يفعلون وأغلب الظن أنهم سيظلون هكذا حتى تتغير جذرياً الأنساق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمعرفية خاصة في منطقتنا التي شاء لها حظها البالغ السعادة أن تشهد ظهورهم المبرور على أرضها!!!

* * *

نعرج على كتب التفسير الحديثة:

(وتبوك موضع في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق فهي تبعد عن الأولى ستمائة وعشرة كيلو مترات وعن الثانية ٦٩٢ كم.

وكان السبب في هذه الغزوة ما بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة من أن الروم جمعت جموعاً معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب حتى وصلت طلائعها إلى البلقاء ب إمرة قائد عظيم منهم يدعى قباذ وعدد جنده أربعون ألفاً فندب النبي الناس ب الخروج لقتالهم وأعلمهم الجهة التي يغزونها...

روى ابن جرير عن مجاهد قال: أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد حنين وبعد الطائف أمروا ب النفير في الصيف حين اخترفت النخل (اجتنى ثمرها) وطابت الثمار واشتهوا الظلال وشقّ عليهم الخروج فقالوا: منا الثقيل وذو الحاجة والضيق والشغل والمنتشر به أمره في ذلك كله).[١]

هذا الخبر أو هذه الأخبار التي ساقها لنا الشيخ عبد الحميد كشك وضعت أيدينا على حقائق ساعدت على تسليط مزيد من الضوء:

أ ــ إن عدم الاستعداد الذي تعلل به المتقاعسون كما زبرنا فيما سلف مرده إلى أن الروم ومعهم أوباش من القبائل التي تنصرت

---

(١) (في رحاب التفسير) ل عبد الحميد كشك ــ الجزء العاشر/ ص ص ١٥٥٦/ ١٥٥٧ ــ مرجع سابق.

شرعوا في الزحف على أثرب ووصلوا إلى البلقاء ومن ثم ف غدا من الحتم الذي لا مهرب منــه سرعة الخروج ملاقاتهم وبذا بطلت تعلة عدم الاستعداد الكافي.

ب ــ الرواية هنا جاءت عن طريق مجاهد وهو من التابعين الأكابر وسواء رواهــا عــن الحَبْر أو غيره من الصحاب فإنها تزيد الخبر نفحة إضافية من الوثاقة.

ج ــ جمع المتكاسلون حزمة من المعاذير ضمت كل ما يمكن تقديمه: الثقــل، الحوجــة، الضائقة، الشغل.

د ــ إنه زمن صيف طابت فيه الثمار وأصبحت فيه الظلال مشتهى الأنفس.

وبداهة أنفس المترفين أصحاب الرفاغة والرغد والبلهنية الذين سبق ذكرهم، ونرجّح أنهم المقصودون، بدليل ما جاء في الآية الكريمة الرقيمة ٣٨: «أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فمــا متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل» ذلك أن المحاويج والمعوزين والمملقين والمفــاليس لــيس بأيديهم متاع الدنيا يحرصون عليه ولا يودون فراقه أو حتى البعد عنه ولو شبراً، وهنا نشد الانتباه إلى ما جاء في الآية الكريمة من ردع ثقيل ل أصحاب الرفاهيــة لرضــاهم ب المتــاع الــدنيوي وتقديمه على الأخروى.

وهذا يؤكد حوار (المهيمن/ المبارك أي القرآن) مع الواقع ب صــورة جليــة لا تخطئهــا العين ف لولا موقف المرفهين الذين يعضون بنواجذهم على لذائذ الحاضر لما تضــمنت ســطور الآية المجيدة هذا الوعيد الشديد «يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً» كــل هذا يقطع بأن مقاومة المنعمين صلبة وعنيدة ضاق بها وجدان (المجتبى ــ أبي القاسم).

ومما له مغزى في هذا النطاق أن ثلاثة من بني قيلة أصروا على موقفهم وآثروا التلذذ ب الثمار الناضجة والظلال الظليلة والمياه

البار دة والزوجات الشابات الحسينات والجوارى الجميلات، إذ هم أصحاب حيطان «كروم» وبساتين وحدائق.

وأحدهم هو هلال بني أمية الذي بزغت في شأنه وزوجته آيات اللعان، ذلك أنه عاد من كروم نخله وبساتينه مع الغروب فوجد رجلاً راكباً عليها وشهد بعينيه وسمع بأذنيه إلى آخر القصة التي ذكرناها في فاصلة سابقة.

إذن المتثاقلون والمصرون على التخلف هم من الأغنياء والمياسير وذوي النسب ف ألزم اللازم قصم ظهورهم النواعم ب آيات ذوات وقع شديد حتى يكفوا ولا يعودوا لمثله أبداً، خاصة أن الشوط ما زال بعيداً.

* * *

(سبب نزول هذه الآيات وما بعدها أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ استنفر أصحابه ل يخرجوا معه في غزوة تبوك وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح ب عام وكان الحر شديداً وبالناس عسر وقحط وقد نضجت ثمار المدينة وطابت ظلالها... فشق عليهم ذلك وتباطأوا في الاستجابة، فنزلت هذه الآية).[1]

مصنف هذا التفسير أستاذ جامعي ويحصل على رخصة لنشر كل جزء من مؤسسة شئون التقديس.

إذن فَ المعلومات التي يقدمها من المفترض أنها صحيحة ومن هذا المنطلق فإنا نزبر الآتي:

أ ــ بِ حسب ما تضمنه الخبر أن الذين استنفروا وشق عليهم الخروج تُبّاعَه أو «أصحابه» لا «ناسا» عاديين.

حقيقة أن كل من رأى (الفخر/ الفخم) وآمن به وجلس إليه ولو ساعة من النهار عُدّ من الصحابة حتى ولو من الجن، بيد أن كلمة

(١) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله شحاته ــ الجزء العاشر ص ١٨٦٩ ــ ١٨٧٠ ــ مرجع سابق.

«أصحابه» اصطلاحاً تعني الذين لازموه آماداً طويلة أو معقولة وخرجوا معه في غزوة... الخ.

وقد شرحنا ذيّاك جِماعه في كتابنا «شدو الربابة».

نخلص أن المتخلفين أو المتقاعسين كما أخبرنا المصنف شحاتة أو شحاتة المصنف هم من الصحابة وهو أمر ليس من اليسير أن يعدّى بسهولة، إذ إن دلالته البينة أن العَصلجة وصلت إلى الصحابة الثقال.

ب ــ الفارق الزمني بين الفتح وتبوك عام، هذا ما زبره المصنف وهو تعبير غير دقيق إذ إن هذه المدة تضم غزوة هوازن أو يوم حنين ثم حصار «غزوة» الطائف ثم عشر سرايا وثلاثة بعوث ثم الاستعداد ثم النفر ثم المكوث في أرض المعركة ثم العودة إلى قرية الحرتين.

وحرى به وهو أستاذ جامعي أن يراعي الدقة خاصة وهو بصدد تفسير (الهدى/ القرآن).

ف المصادر ذات المكانة السامقة أكدت أن هَيْعَة الحرب التي أطلقت ل لقاء الروم وإفناء القبائل المتحالفة معها صمّت الأسماع بعد أيام من وصوله والمسلمين أثرب غبّ أن أخبرهم التجار الأنباط بالشروع في الزحف عليهم.

وهذا ما أكده شيخ الإسلام القسطلاني في «المواهب»:

(وسببها أن بلغه ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل، فندب ــ صلى الله عليه وسلم ــ الناس إلى الخروج..).[1]

هذا هو الصحيح الذي يتعين على المصنف ان ينسخه.

هنا يتساءل القارئ:

---

(١) (المواهب اللدنية بِ المواهب المحمدية) لِ شيخ الإسلام أحمد بن محمد أبو العباس ــ شهاب الدين القسطلاني ٨٥١ ــ ٩٢٣هـ ــ المجلد الأول ص ص ٣٠٠ ــ ٣٠١ ــ الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١ ــ دار الغد العربي ــ ب مصر.

ما الأهمية ل هذا التحديد أو هذا التدقيق؟

الإجابة تكمن في أن عدم الاستعداد الذي تذرع به المترفون المتخلفون له ما يبرره وهـــو التعجيل بمداهمة طلائع الروم والأوباش قبل وصولهم إلى يثرب.

بخلاف ما لو أن الفاصل حول كامل، ف هذا يسم القيادة بالتراخى في اتخـــاذ الأهبـــة، إذ أمامها اثنا عشر قمراً (شهراً) لم تقم إبانها بواجبها ثم استعجلت عسكرها في أيام معـــدودات، إذن لهم العذر أو بعضه في التكاسل والتراخي والتثاقل.. الخ.

وهو ما لم يفطن إليه المصنف شحاتة أو شحاتة المصنف.

وسبق أن نصحنا الإخوة ألا يتسرعوا وهم يكتبون في مثل المواضيع الشـــديدة الحساســـية البالغة الدقة ال مُمعنة في الخطر.

ج ــ دون أن يفطن أو حتى يدرك وقع شحاته في تناقض واضح وهو أن بالناس قحطـــاً وقد نضجت الثمار وطابت الظلال.

ف هل توجد في زمن القحط ثمار؟

لو كلف نفسه ــ وهو أستاذ في كلية تهتم ب اللغة العربية ــ عناء (!) فتح أي قـــاموس أو معجم لَ علم أن:

(القحط: احتباس المطر ويبس الأرض)[١]

(القحط: الجدب)[٢]

و(القحط: احتباس المطر).[٣]

فهل لو ضرب قرية الحرتين قحط لأنتجت ثماراً ناضجة؟

وهل ينفح يبس الأرض والجدب واحتباس المطر الثمار الناضجة؟

ولكن ما الذي أوقع المصنف في هذا التناقض الظاهر؟

---

(١) (المعجم الوجيز).
(٢) (المختار من صحاح اللغة).
(٣) (القاموس المحيط).

ما نسخناه في المفتتح أن المحدثين لا يفسرون (التذكرة/ القرآن) إنما يلملمون ما ورد فـــي التفاسير التراثية حتى لو تنافر أوله مع آخره واختلف مُجلّيه مع مُصـــلّيه وتنـــاقض صـــدره مـــع عجزه، كيما يحصلوا على رخصة الموافقة على النشر من المؤسسة الدينية الرسمية.

* * *

ثم نعود إلى سياقة الدراسة:

تعدد الآيات الكريمة التي تحض على النفر لِ قتال العدو وهم ــ باستثناء غـــزوة تبـــوك وإلى حد ما سرية مؤتة ــ مشركو الجزيرة بقصد إجبارهم على اعتناق الـــدين الإســـلامي بحـــد السيف وبالتالي الانضواء تحت راية الدولة القرشية.

ومن العسير إحصاء الآيات التي حملت الوعيد الشديد ل المتقاعسين وقد ركزنا على مـــا تعلق منها ب غزوة تبوك لأنها تضمنت بين جوانبها النصوص الحاسمة على الحث والتحـــريض والاستنفار وعلى التهديد الصارم.

وهكذا يثبت دائماً (الحبل ــ القرآن) أنه يرعى (القانت) ولا يتخلى عنه طرفة عين.

ومن رجا آخر، ف إن هذه الآيات المجيدة تؤكد صلتها الحميمة ب ما يجري على صـــعيد من خوطبوا بها ولا تنأى عن أحوالهم.

وبالتالي تبدو فكرة الانفصام والتجاوز والتحليق في الفضاء فطيرة (= غير ناضجة) يبرر بها قائلوها اتجاههم الأيديولوجي الذي لا يخفى عن الفطن، فضلاً عن ترسيخها وما سبقها ل ميزة التنجيم التي انفرد بها (الرحمة = القرآن).

* * *

٢ ــ النهى عن الخيانة

الخيانة عمل بشع خاصة خيانة الجندي لِ قيادته في ميدان القتال عقابها في كافة الشـــرائع هو القتل نظراً لما يتولد عنها من آثار

وبيلة ونتائج مدمرة وعواقب وخيمة.

رغم ذلك أقدم عليها أحد الصحبة من بني قيلة[1] ولا يشفع له رباطه الوثيق ب من أفشى لهم السر.

وموجز القصة أن بني قريظة نقضوا عهدهم مع (سيد الخلق/ محمد) ووضعوا أيديهم النجسة في أيدي الأحزاب في وقعة الخندق وهي من أقصى ما لقيه المسلمون.

وبعد انصرافهم مخذولين والتيقن منه آن ل القائد وجنوده أن يعودوا إلى منازلهم للراحة والاستجمام بعد العناء الذي كابدوه:

(ولما دخل ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة يوم الأربعاء هو وأصحابه ووضعوا السلاح جاء جبريل ـ س ـ معتجراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج...

فقال له وضعت السلاح والله ما وضعناه فأخرج إليهم وأشار إلى بني قريظه... وبعث منادياً ينادي: يا خيل الله اركبي).[2]

وأطاع التبع الأوفياء وهرعوا إلى مقصدهم راجلين وراكبين.

وأمّر على يثرب عبد الله بن أم مكتوم الذي هلّت بشأنه سورة «عبس وتولى» في قرية القداسة بكة ولعل استعماله والياً على ذات الحرّتين قُصد به المزيد من الإرضاء له ولأمثاله من المستضعفين أو الأراذل كما يسميهم الملأ أو المستكبرون.

فضلاً عن أن تأمير واحد من بني قَيْلة ربما يؤوله البعض أنه إيحاء بأن لهم سؤراً من الإمارة أو الولاية أي الحكم ب المعنى المعاصر وهو ما حرص (الشمس/ الشكار) على تغريبهم عنه، إذ كثيراً ما صرح بأن الأئمة (= الحكام) من قريش وهذا بديهي لأنها دولتهم ولأن جده الأعلى (قصي) عندما وضع أساسها لم يفعله ليشركه فيها الأعراب

---

(١) سيدة النساء فاطمة بنت محمد خاطبت الأثاربة العربة ب: أيها بنى قيلة.

(٢) (المواهب اللدنية بِ المنح المحمدية) لِ القسطلاني ـ المجلد الأول ـ ص ٢١٢ ـ مصدر سابق.

الأثاربة ولا غيرهم من العربان أو الأعاجم.

تحاصر (النذير) وتباعه بني قريظة إحدى وعشرين ليلة وهو رقم يدل على العناد وصعوبة المراس لأن الحصار لم يقم به المسلمون وحدهم بل عاضدت فيه كتيبة من الملائكة يقودهم جبريل ذو القوة الجبارة الهائلة.

وتشاور أولاد الأفاعي فيما بينهم واستقر رأيهم على سلوك محجة المراودة والمفاوضة مع «سعد الله»:

(وأرسلوا إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن أبعث إلينا أبا لبابة ــ نستشيره في أمرنا فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فَرّق لهم، وقالوا يا أبا لُبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم وأشار بيده إلى خلقه أنه الذبح.

قال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله).[١]

وهكذا أقدم أبو لبابة على خيانة قطيعة ب أن كشف عما عقد قائده العزم عليه وهو نحرهم عقوبة لهم على نقض العهد معه وتحالفهم مع القبائل التي أقدمت للقضاء عليه وعلى دعوته لولا الحيلة العسكرية التي اقترحها سلمان الفارسي ثم الدور المروع للعوامل الطبيعية وعلى قُلتها الريح العاصفة والبرد القارس ثم دهاء نعيم بن مسعود وفوق جميعه رحمة الله بالمسلمين.

* * *

أبو لبابة ليس صحابياً عادياً إذ «كان نقيباً شهد العقبة وسار مع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى بدر فرده إلى المدينة فاستخلفه عليها وضرب لها بسهمه وأجره».[١]

---

(١) المصدر السابق ــ ص ٢١٣.

إذن هو يحمل على صدره وسامين رفيعين: شهوده بيعة العقبة وحضوره اعتبارياً غــزاة بدر الكبرى.

ف ما الذي دفعه إلى ارتكاب تلك الخطيئة الفاحشة؟

زبرنا أن اليثاربة الأعراب واليثاربة اليهود ربطتهم علاقات وطيدة ولعل القارئ لاحظ أن بني قريظة هم الذين طلبوه تحديداً ل ثقتهم البالغة فيه، لأنه «كان مناصحاً لهم».[٢]

وفيما بعد عندما تيب عليه أقسم ألاّ يطأ أرض بني قريظة أبداً مما يقطع بأنها أثيرة إليــه قريبة من نفسه إذ لديه فيها مصالح جمة متعددة (لأن عياله وماله كانت عندهم).[٣]

بل إنه غبّ العفو عنه قرر أن يتخلى عن ماله (= أرضه) الذي دفعه الحرص عليه إلــى المخانة الكريهة «فقال: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن انخلــع من مالي، فقال: ــ صلى الله عليه وسلم ــ يجزيك الثلث تتصدق به).[٤]

ولا يفوتنا أن نشد انتباه القارئ إلى قول ابن المنذر «دار قومي» أي أن بني قريظــة فــي ملء وجدانه هم قومه ودارهم داره!!!

وأنه اعتبر عملته السوداء مجرد ذنب «التي أصبت فيها الذنب» لا كبيرة ولا خطيئة ممــا يوثق بأن تقييمهم للأمور يتشح بِ الخفة ويأتزر ب العباطة ويتزمل بِ الهبل.[٥]

* * *

وبقية القصة أن أبا لبابة (انطلق على وجهه حتى ارتبط في

---

(١) (أسد الغابة) ل ابن الأثير الجزري ــ المجلد السادس ص ٢٦٥ ــ مصدر سابق.
و«الإصابة» ل ابن حجر العسقلاني ــ المجلد السابع ــ ص ٣٥٥ ــ مصدر سابق.
(٢) (أسباب النزول) ل الواحدي ــ ص ١٥٧ ــ مصدر سابق.
(٣) ذات المصدر والصفحة.
(٤) (غرائب القرآن) ل القمي النيسابوري ــ الخامس ــ ص ٣٣٣ ــ مصدر سابق.
(٥) في معاجم اللغة/ الهبل = ضعف التمييز.

المسجد إلى عمود من عمده وقال لا أبرح مكاني حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهـد الله ألاّ يطأ بني قريظة أبداً ولا أُرى في بلد خنت الله ورسوله أبدا).[١]

بِ هذا العمل أدرك «صاحب التاج» خيانة واحد من أعلام صحبه ولا مشاحة أنه حَزّ في نفسه وآلمه فور أن أضاءت بنورها الوهاج الآية السابعة والعشرون من سورة الأنفال «يـا أيهـا الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون»:

(روى سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن أبي قتادة قال: نزلت هذه الآية فـي أبـي لبابة بن عبد المنذر، سأله بنو قريظة يوم قريظة: ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه يقول الذبح الذبح، فنزلت، قال أبو لبابة: ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله).[٢]

وهنا ملمح عميق الدلالة أن (ذؤابة قريش) علم ب الخيانة بعد إهلال الآية وأن أبا لبابة لم يربط نفسه ب عمود في المسجد المحمدي الشريف إلاّ بعد أن كشفت الآية المجيدة فعلته الشنعاء.

إن ما أورده السيوطي أقرب إلى المنطق والمعقولية.

ونترك الحدس والتخمين الذي قد لا يلقى قبولاً من المناوئين ونـأتي بـنص صـريح لأن عقليتهم الدوجماطيقية لا يقنعها سوى النقل:

(.. فنزلت هذه الآية «يعني ٢٧ الأنفال» فلما نزلت شد نفسه على سارية مـن سـواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً أو شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي).[٣]

* * *

---

(١) (المواهب اللدنية بِ المنح المحمدية) لِ القسطلاني ــ الأول ص ٢١٣ ــ مصدر سابق.
(٢) (لباب النقول) ل السيوطي/ ص ٨٧ ــ مصدر سابق.
(٣) (أسباب النزول) ل الواحدي النيسابوري ــ ص ١٥٨ ــ مصدر سابق.

أما ما جاء بشأنها في كتب التفسير:

(نزلت هذه الآية في أبى لبابة حين بعثه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى قريظة لما حاصرهم وكان أهله وولده فيهم، فقالوا يا أبا لبابة ما ترى لنا، أننزل على حكم سعد بن معاذ فينا، فأشار أبو لبابة إلى حلقه أي أنه الذبح فلا تفعلوا فكان ذلك منه خيانة لله ورسوله).[١]

سعد بن معاذ هو الذي عرض على بني قريظة أن يحكم فيهم وَلَبَكته ورهطه بهم وشائج متينة وهو الذي حكم عليهم بعد قليل بذبح البالغين من رجالهم وهم ما بين سبعمائة إلى تسعمائة، وسبى النّسْوَن والذراري.

يستدل مما تضمنه الخبر أن حكمه معروف للجميع ويتمثل هذا في أن أبا لبابة كشفه لهم ونصحهم برفض تحكيمه وألاّ يعتقدوا أن حلفهم وصلاتهم معه ومع قومه ستحول دونه والقضاء بِ نَحْرهم.

(إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام فأبى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلاّ أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة.. وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا له ما ترى هل ننزل على حكم سعد؟

فأشار إلى حلقه، إن حكم سعد بن معاذ هو الذبح).[٢]

ولقد أورد الزمخشري الخبر بنصه وفصه.[٣]

أما القرطبي فقد (أورد «نزلت في أبي لبابة أشار إلى بني قريظة

---

(١) (مفاتيح الغيب) ل الفخر الرازي ــ المجلد السابع ــ ص ٤٧٨/ ٤٧٩ ــ مصدر سابق.
(٢) (الكشاف) ل الزمخشري/ المجلد الثاني ــ ص ١٥٣.
(٣) (غرائب القرآن) ل القمّي النيسابوري ــ المجلد الخامس ــ ص ٣٣٣ مصدر سابق.

حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، لا تفعلوا فإنه الذبح وأشار إلى حلقه).[١]

هذا الأثر يقطع بأن بنى قريظة هم الذين اختاروا سعداً حكماً (فقالوا لا ننزل على حكم محمد ولكن ننزل على حكم سعد بن معاذ).[٢]

والعلة أن المحكم «سعداً» من الأوس كذا مرتكب المَخَانة أوسيّ وله أرض «مال» عندهم. (قال عبد الرزاق عن أبي قتادة والزهري: أنزلت في أبى لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقه أي أنه الذبح).[٣]

نلاحظ أن ابن كثير نسخ ما يلي «لينزلوا على حكم رسول الله» وكذا القسطلاني في المواهب «أترى أن ننزل على حكم محمد» بينما الفخر الرازي زَبَر «ننزل على حكم سعد بن معاذ فينا» وكذا القرطبى في جامعه.

هذا التباين يؤكد ما نذهب إليه أن أحداث فجر الإسلام حفلت ب الكثير من الاختلافات في الأسامي والوقائع وترتيب حصولها وأبطالها، وأن مرجعه عدم تدوين التاريخ غبّ الحدوث لأن العَرَبة لم تسمح لهم درجتهم الحضارية به ولم يتم إلاّ في منتصف القرن الثاني الهجري وهذا الحكم الصحيح ينسحب على النصوص.

* * *

ثم نأتي إلى المفسرين المحدثين:

(رُوي أنها نزلت في أبي لبابة وكان حليفاً لبنى قريظة من اليهود،

---

(١) (الجامع ل أحكام القرآن ــ تفسير القرطبى) ل أبي عبد الله محمد القرطبى ــ المجلد الرابع ــ ص ٢٨٣١ ــ مرجع سابق.
(٢) المصدر السابق ذات الصفحة.
(٣) (التيسير/ خلاصة تفسير ابن كثير) الجزء الأول ــ ص ٤٣ ــ سابق.

فلما خرج إليهم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد إجلاء بني النضير وحاصرهم حصاراً شديداً دام إحدى وعشرين ليلة وقد طلبوا أن يرسل إليهم أبا لبابة كان مَناصِحاً لهم، لأن أمواله وعياله فيهم، فبعثه إليهم فقالوا له: ما ترى؟ هل ننزل على حكم سعد بن معاذ كما طلب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ؟ فأشار إلى حلقه أي أن حكم سعد الذبح).[١]

وَهِمَ الشيخ عبد الحميد عندما ذكر أن غزاة بنى قريظة جاءت بعد إجلاء بني النضير التي حدثت في ربيع أول في السنة الرابعة من النزوح، أما وقعة بنى النضير فهي باتفاق بعد الخندق (وقال ابن إسحق: كانت في شوال سنة خمس وبذلك جزم غيره من أهل المغازى).[٢]

ومحمد بن إسحق مقدم آباء علم السيرة وقيل في حقه «الناس عيال في المغازي على ابن إسحق).

وحتى نقطع محجة المعاندة خاصة من دراويش الشيخ كشك نزبر أنه بعد غزوة بني النضير حدثت الغزوات التاليات:

ذات الرقاع ــ بدر الموعد ــ دومة الجندل ــ بني المصطلق ــ الخندق ــ ثم غزاة بني قريظة!!!

فكيف يصح أنها حدثت بعد النضير؟

(حاصر النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بنى قريظه، إحدى وعشرين ليلة فسألوه صلحاً كصلح بني النضير وهو أن يتركهم يسيرون إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء من الشام فأبى إلاّ أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس وكان حليفهم وكان حكمه أن تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتُسبى الذرية وأبوا ذلك، ثم طلبوا أن

---

(١) (في رحاب التفسير) لعبد الحميد كشك. الجزء التاسع ــ ص ١٤٦٦ مرجع سابق ذكره.
(٢) (المواهب اللدنية) ل القسطلاني ص ٢١٣ ــ مصدر سابق.

يرسل إليهم أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم لأن ماله وعياله كانا في أيديهم فبعثوا إليه فقالوا ما ترى؟ هل ننزل على حكم سعد؟ فقال لا تفعلوا فإنه الذبح وأشار إلى حلقه).[1]

أخطأ المصنف خطأً فادحاً كنا نأمل ألاَّ يقع فيه والتفاسير التي يسر لنا الله الاطلاع عليها إن من التراث أو المحدث لم تحمله ولا ندرى مصدره فيه.

كيف يطلب بنو قريظة مشاورة حليفهم ومناصحهم أبي لبابة من حكم ابن معاذ وقد عرفوه وهو ما جاء بالنص؟ وما فائدة الشورى إذن؟

لو أن يهود بني قريظة على علم ب حكومة سعد بن معاذ فيهم فلماذا اعتبر أبو لبابة إشارته إلى حلقه كناية عن نحرهم مخانة لله وللقائد؟

نأمل إذا عزم شحاتة إعادة طبع تفسيره أن يراجع هذا النص ويرقمه على الوجه الصحيح الذي يتفق مع العقل والنقل ونأمل ألاّ يغضب لتنبيهنا إياه لهذا الغلط ونذكّره بقالتيّ العدويّ ابن الخطاب:

«أصابت امرأة وأخطأ عمر» و«رحم الله من أهدى إلى عيوبي».

ثم نأتي إلى نقطة على هامش هذه الواقعة:

لماذا قضى سعد بن معاذ بهذا الحكم الصارم وهو حليف بني قريظة وكذا سائر رهطه (= الأوس)؟

لأسباب عديدة نذكر منها:

أن غدر بني قريظة فاحش وخيانتهم بشعة ونقضهم للعهد بلغ غاية الفُجْر، إذ لولا المكيدة العسكرية التي اقترحها سلمان الفارسي، وهي حفر الخندق والعوامل الجوية، ودهاءة نعيم بن مسعود الأشجعي الذي أوقع بين أولاد القردة والخنازير وبين الأحزاب وصدع وحدتهم

---

(١) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله شحاتة ص ١٧١٥ ــ ١٧١٦ ــ مرجع سابق.

وفرق شملهم، ولطف الله بالمسلمين لَ حدث ما لا تحمد عواقبه ولَ أصابهم شر مستطير لا يعلم إلا الله وحده مداه.

هذا من رجا.

ومن جانب آخر.

فَ إنّ الحالة الصحية أثرت على نفسية ابن معاذ، إذ أصيب في ذات الوقعة بِ سهم رماه به حبان بن العرفة خلف جرحاً غائراً ولم يعش بعده سعد سوى شهر واحد[١] في إبّانه أصدر الحكم وهو يعاني أفدح الآلام من الجرح.

وقد استصوب (الصيّن) حكومته وقال «أصبت حكم الله فيهم».[٢]

تلقى ابن معاذ مكافآت جزيلة على قضائه:

(روى من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال: لقد نزل من الملائكة في جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفاً ما وطئوا الأرض قبل؟[٣]

ومن البديهي أن يفوز بدخول الجنة وأن يستعمل فيها مناديل أرق من الديباج فمن توابع غزوة تبوك أنبعث (ذو القوة) خالد بن الوليد إلى أكيدر صاحب دومة الجندل فقتل أخاه وأخذه أسيراً (وكان عليه قباء ديباج مخوّض بالذهب فاستلبه خالد وبعث به إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل قدومه عليه، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة

---

(١) (الاستيعاب) ل ابن عبد البر ــ المجلد الثالث ــ ص ٥٢ و«الإصابة» ل ابن حجر العسقلاني ــ المجلد الثالث ــ ص ١٧٨ ــ مصدران سابقان.

(٢) (الاستيعاب) ل ابن عبد البر ــ المجلد الثالث ــ ص ٥٤ ــ سابق.

(٣) المصدر السابق ص ٥٥٠

أحسن من هذا).[١]

(وعن الحسن البصري.. قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لقد استبشرت الملائكة بروح سعد واهتز له العرش).[٢]

وقال المحققان في هامش ص ٨٥:

حديث اهتزاز العراش ثابت من وجوه وفي بعض ألفاظه أن جبريل ــ س ــ نزل حين مات معتجراً بعمامة من إستبرق فقال: يا محمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتزّ له العرش. ا.هـ.

والمحققان أولهما «من علماء الأزهر الشريف والآخر محقق في التراث الإسلامي».

وحسب علمنا وهو ضئيل فإن السماء لم تهتز من قبل ل موت أي نبي ولا لاستشهاد أحد في الغزوات السوابق مثل بدر وأحد وثمة مشكل في الحديث لم أصل إلى حله:

كيف ينزل ملاك الرب جبريل من السماء إلى الأرض وهو لا يعلم من هو الميت الذي اهتز له عرش الله وهبطت إكراماً له ملائكة عدتهم سبعون ألفاً ولا يحاط خُبراً باسمه إلاّ من فم «الفاتح»؟!.

* * *

بعد هذه التفريعة نعود أدراجنا إلى سياقة البحث:

مخانة أبي لبابة لا شك أنها ملأت صدر (السراج المنير) ب الأسى لأن الخؤون ليس مسلماً عادياً بل من حامة «صفوة» الأصحاب وعلى الأقل حاز لقبين في منتهى الرفعة (عقبي = أي شهد العَقَبة) وبَدْري (شارك معنوياً في غزاة بدر الكبرى) ومن كبار الأوس، وهم الفرع

---

(١) (الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء) ل الكلاعى ٥٦٥ ــ ٦٣٤هـ ــ تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ــ الجزء الثاني ــ ص ٣٨٦ ــ الطبعة الأولى ــ ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م ــ مكتبة الخانجى ــ ب القاهرة.
(٢) (السيرة النبوية) لمحمد بن إسحق ــ المجلد الثاني ــ ص ٨٦ طبعة أخبار اليوم ــ مصدر سابق.

الآخر في بني قيلة الذين آووا ونصروا وبذلوا الكثير من الدماء والأموال في سبيل نصرة الإسلام ورفع ألوية دولة بني سخينة، فوسمْه ب الخيانة ووصفه ب الغدر ودمغه ب النقض أمــور يعــز على (المنصور) أن يقدم عليها بشأنه لما عرف عنه من الأدب الجم والحياء الفائق والخلق الرفيع وهنا يأتي دور «المكرم = القرآن» فتطلع كالشمس في رابعة النهار الآية السابعة والعشرون مــن سورة الأنفال وتشجب الخيانة والخائنين لله ول (الظفور) ف تصُت سمع أبا لبابة فيسقط في يديــه ويعلم أن ما قارفه ليس ذنباً عادياً إنما خطيئة وكبيرة، لا يجد أمامه من حل إلاّ أن يــربط نفســه بعمود من عمد المسجد الشريف ويقسم ألاّ يذوق طعاماً أو شراباً حتى يتوب الله عليه أو يموت.

وهكذا حلت الآية المجيد الأزمة التي عاناها (الخاتم) وغدا إضفاء لقب الخائن علــى ابــن المنذر ليس صادراً منه بل حملته الآية الشريفة.

في كل نازلة فردية أو جماعية فإن (البصائر/ القرآن) لا يغفل عنه ويعالج أخطاء الفاعلين المشاركين في المجتمع المعجب وتستمر العلاقة الجدلية وثيقة وتتراكم البراهين علــى مصــداقية التنجيم وحكمته الفريدة.

* * *

مسيرة الأزمة لم تتوقف لأن تقييد أبي لبابة نفسه في عمود في المســجد شــكّل صــورة تراجيدية (.. عن الزهري قال: ارتبط أبو لبابة سبعاً ما بين يوم وليلة عند الأسطوانة التــي عنــد باب أم سلمة في حر شديد لا يأكل فيهن ولا يشرب، قال لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتــوب الله عليّ، قال: فلم يزل كذلك حتى ما يسمع الصوت من الجهد، ورسول الله ــ صــلى الله عليــه وسلم ــ ينظر إليه بكرة وعشية.. يقال مكث خمس عشرة «ليلة» مربوطاً وكانــت ابنتــه تأتيــه بتمرات لفطره فيلوك منهن ويتركه ويقول والله ما أقدر على أن أسيغها فرقاً

ألاّ تنزل توبتي، وتطلقه عند كل صلاة فإن كانت له حاجة توضأ وإلاّ أعادت الرباط، ولقد كان الرباط جَزّ في ذراعيه وكان من شعر وكان يُداويه بعد ذلك دهراً وكان ذلك يبين في ذراعيه بعدما بريء).[1]

هذه الأيأة[2] المأساوية لا بدّ أنها ضغطت على شعور «الرحمة المهداة» خاصة أنه يروح ويغدو ويقع نظره الشريف عليه كلما توجه لأداء الصلوات.

الموقف شديد الحُروجة فلو أعلن هو توبته لحاك في صدور بعض الصحاب خاصة المنازيح بل وعامة المسلمين وتساءلوا: لِمَ التوبة وقد خان الله و«الصراط المستقيم» وكافة التبع لأن جرم بني قريظة مفرط في الفحاشة فلو أفلحوا هم والأحزاب في مخططهم الشرير لاستأصلوهم على بكرة أبيهم.

هذا من جانب.

ومن آخر فإن إنزال عقاب المخانة عليه سوف يثير رهطه «الأوس» فهو (= أبو لبابة) له المكانة التي كشفنا عنه، كما أن قومه سند قوى ل «العروة الوثقى» ولهم دور رائع لا يستهان به في نشر الديانة وترسيخ أسس الدولة التي حلم بها جدوده: قصيّ وهاشم وشيبة الحمد (عبد المطلب).

فضلاً عن أن سيدهم سعد بن معاذ يوشك أن يودع الدنيا من أثر جراحه وفقدهم اثنين من المتنفذين فيهم أي رءوسهم يغدو ضربة قاصمة لهم تبلبل نفوسهم وتزعج وجدانهم وتضيق صدورهم وتحرج أحاسيسهم وتكرب مشاعرهم، و(صاحب العلو والدرجات) حريص ألا تصيبهم ذرة منه ومن ثم فقد غدا يمر ب فترة يحتاج فيها إلى

---

(١) (كتاب المغازي) ل الواقدي ــ محمد بن عمر بن واقد المتوفى سنة ٢٠٧هـ ــ الجزء الثاني ــ ص ٥٠٨ ــ تحقيق الدكتور مارسدن جونز ــ د.ت.ن./ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ــ لبنان.
(٢) الهيأة وزنا ومعنى.

(الكتاب/ القرآن) كيما يأخذ بيده الكريمة ل يجتازها أو يتجاوزها بسلام ويعبرها ب أمان ويقطعها ب سكينة:

(أم سلمة قالت: إن توبة أبي لبابة نزلت في بيتي، فسمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يضحك في السَحَر، فقالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال تيب على أبي لبابة فقلت: أوذنه بذلك؟

فقال: ما شئت فقمت على باب الحجرة، وذلك قبل أن يُضرب الحجاب، فقلت: يا أبا لبابة: أبشر، فقد تاب الله عليك فثار الناس ليطلقوه فقال: حتى يأتي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيكون هو الذي يطلقني، فلما خرج إلى الصبح أطلقه، فنزلت «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» ١٠٢ من سورة التوبة).[١]

والواحدي نقل إلينا رواية أخرى لا تتنضوي على ذكر هند بنت زاد الركب أي أم سلمة وأنها التي بشّرت أبا لبابة ب التوبة عليه بل لم يورد اسم من نقل إليه إهلال آية شريفة بها بل رقم الفعل مبنياً ل المجهول «ف قيل له».

(فنزلت هذه الآية، فلما نزلت شدّ نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله على فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو الذي يحلني فجاءه فحله بيده، ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن انخلع من مالي، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يُجزيك الثلث

---

(١) (نساء النبي) ل بنت الشاطئ ص ص ١٢٥ ــ ١٢٦ ــ مرجع سابق.
وذكرت أن مصدرها «سيرة ابن هشام» الجزء الثالث ــ ٢٤٨.
و(أم سلمة) ل أمينة أمزيان الحسني ــ الأول ــ ص ١٣٠ مرجع سابق.
و(كتاب المغازى) ل الواقدى ــ الجزء الثاني ــ ص ٥٠٨ مصدر سابق.
و(المواهب اللدنية) ل القسطلاني ــ المجلد الأول ــ ص ٢١٤ ــ مصدر سابق.

أن تتصدق به).[١]

وبداهة فإن تعريفنا بالمبشّر لا يتبوأ المقام الأول في الأهمية.

إنما العناية تتمركز في الفعل ذاته أي بزوغ الآية وشروقها كَ الشمس.

هذا هو الذي يسترعي الانتباه ويستنفر الالتفات ويشد النظر ويوزّ البصيرة علـــى الـــتمعن والوعيّ على التيقظ والفكر على التأمل.

* * *

الآية هي الثانية بعد المائة منه سورة التوبة أو براءة (وآخرون اعترفوا بـــذنوبهم خلطـــوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم).

ويفسر الفراء «عسى» التي جاءت بها كالآتى:

(عسى من الله واجب إن شاء الله، وكان هؤلاء أوثقوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفـــوا ألا يفارقوا ذلك حتى تنزل توبتهم).[٢]

وفَاقا لِ هذا تغدو الآية حاملة ل بشرى التوبة على أبي لبابة.

وقد ورد ب الخبر الأول الخاص ب أم سلمة أن (صاحب المقام المحمود) طفق يضـــحك وتعليله أن الآية الكريمة المذكورة أزاحت عن صدره الشريف الأزمة التي عاناها والتـــي ألمعنـــا إليها قبل قليل، إذ لا يستطيع أحد لا من خاصة الصحبة ولا عامتهم ولا من المنـــافقين أن يتفـــوه بكلمة واحدة لأن التوبة على مخانة أبي لبابة لم تصدر من (صاحب الأزواج الطاهرات) بل هلـــت بها آية مجيدة وضعت حداً صارماً كالسيف الباتر لأى تقولات.

وهكذا يثبت (العلم/ الحق = القرآن) أنه مع «الصَفُوح» في كافة

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي ص ص ١٥٧/ ١٥٨ سابق.

(٢) (معاني القرآن) تأليف أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، المتوفي سنة ٢٠٧هـ ــ تحقيق أحمد يوســف نجـــاتي ومحمد على النجار ــ الجزء الأول ــ ص ٤٥١ ــ الطبعة الأولى ١٩٨٠ ــ الهيئة المصرية العامة ل الكتـــاب/ القاهرة.

أحواله: ظروف اليسر وأوقات الشدة، وأنه يعاونه في تربية الصحاب وتقويم أخطائهم وخطاياهم وأن بصره لا يفارق مجتمعهم بل على الدوام هو في حوار معه.

وأن التنجيم إنما تشيأ لهذه الحكمة السامية.

ومن رجا آخر فإن فكره التجريد والمفاصلة والمفارقة التي تبناها البعض من زاوية أيديولوجية ولِ أغراض سياسية ينصب الدليل وراء الآخر على بطلانها..

* * *

٢ ـ التغريب الداخلي عقاب التخلف ب لا عذر:

تبوك آخر غزاة قادها (بشرى عيسى) وتعد من أخطر غزواته، ويكفي أن يعلم القارئ أنه حشد لها أكثر من ثلاثين ألفاً وهو ما لم يحدث من قبل، وبهم استطاع أن يشل فاعلية جيش الروم وأوباش القبائل معه: لخم وجذام وغسان وغيرها وأن يحبط مسعاهم ويفسد خططهم.

ولعل مما يكشف عن مدى أهميتها عند (صاحب التاج) أن الدعوة ل المساهمة في تغطية تكاليف الخروج تمططت حتى مسّت النِسْوَن ف أتين (ب بكل ما قدرن عليه فكن يلقين ـ في ثوب مبسط بين يدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المَسَك (بفتح الميم والسين الأساور واحدته مسكة ا.هـ.) والمعاضد «حُلّى العضد» والخَلاخِل والأقرطة «جمع قُرط» والخواتيم والخَدَمات «جمع خَدَمَة وهي حلية الرسغ».[1]

وهيعة التهيؤ ل لقاء الأعادي سُمعت (حين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص

---

(١) (إمتاع الإسماع ب ما للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع) ل تقي الدين المقريزي ٨٤٥هـ، تحقيق محمد عبد الحميد النميسى ـ الجزء الأول ـ ص ٣٢٦ ـ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م دار الأنصار ـ مصر وفيها على خلاف المعتاد وصرح ب الجهة التي يؤمها المعتاد صرح ب الجهة التي يؤمها.

على الحال من الزمان الذي هم عليه).[١]

(وكانت الغزوة في فصل الصيف اللاهب والناس ينتظرون موسماً جديداً من ثمار المدينة وخيراتها ويتمنون لو كانت في فصل آخر من السنة أكثر اعتدالاً).[٢]

والذين طابت ثمارهم واحبوا التفيؤ ب ظلالها والتلذذ بطعومها وكرهوا الشخوص في الصيف الذي يشبه فيح جهنم هم الأغنياء والمترفون أصحاب الحيطان «البساتين» وملاك كروم النخيل والأعناب الذين يفضلون البقاء بين جنباتها ومعهم الشراب السائغ البارد وبين أيديهم الناعمة زوجات شابات حسينا وضيئات.

(قال كعب بن مالك «وهو أحد الخوالف»... ولم يذكرني رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟

فقال رجل من بني سليم: حبسه يا رسول الله براده والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلاّ خيراً فسكت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم).[٣]

والبرد = طيب الشيء ونعيمه ومن الدعاء «نسألك الجنة وبردها».

والبردة = التخمة وهي ثقل الطعام على المعدة.[٤]

---

(١) (السيرة النبوية) ــ ل ابن إسحق/ المجلد الثاني ــ ص ٢٧٠ ــ طبعة أخبار اليوم ــ مصدر سابق.
(٢) (سيرة المصطفى: نظرة جديدة) تأليف هاشم معروف الحسنب ــ ص ٦٢٤ ــ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ــ دار التعارف للمطبوعات ــ بيروت ــ لبنان.
(٣) (في رحاب التفسير) ل عبد الحميد كشك ــ الجزء الحادي عشر ــ ص ص ١٦١٣ ــ ١٦١٤ ــ مرجع سابق.
(٤) (المعجم الكبير) الجزء الثاني/ الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ ــ مجمع اللغة العربية ــ إصدار الهيئة المصرية العامة ل الكتاب.

إذن الجملة التي وردت ب الحديث «حبسه يا رسول الله براده» تعني منعه عن الخـــروج النعيم الذي هو فيه: الماء البارد والطعام الطيب.هـ.

أما معاذ بن جبل الذي دافع عن كعب ف هو يثربي ومن بني قيلة مثله.

لا يهمنا من لم يدخل الإيمان في قلوبهم أو المشكوك في إسلامهم إنما الذي يعنينـــا أمـــر الصحبة الراسخى العقيدة الذين ليس في قلوبهم زغل، ولا في صدورهم دخل ولا يخـــالط يقيـــنهم وهن، ولم يعهد فيهم نفاق، ولم يعرف عنهم شقاق، بل على العكس لهم سوابق حميـــدة وحفظـــت عنهم بادرات طيبة وقدموا منحاً جزيلة ولا اعتبار ل المادية بل الأوعر المعنوية أو الأدبية...

من الذين أصروا على التخلف دون النفر وآثروا القعود على الشخوص وفضـــلوا القبـــوع على البروز.

وقبل أن نحلل دوافعهم نرفع الغطاء عن أساميهم:

هم (كعب بن مالك وكان من الخزرج، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية من الأوس).[١]

وأضاف إليهم ابن إسحق أبا حيثمة أخا بنى سالم بن عوف وأضاف أنهم «كانوا نفر صدق لا يُتهمون في إسلامهم».

ذات المصدر والمجلد والصفحة.

بيد أن عُظم المصادر اقتصر على الثلاثة الأول وفي شأنهم أشرقت آية كريمة.

---

(١) (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) الشهير ب «السيرة الحلبية» تأليف علي برهـــان الـــدين الحلبـــي ــ ٩٧٥ ــ ١٠٤٤هـ الجزء الثالث ــ ص ١٢٤ ــ الطبعة الأولى ١٢٨٤هـ/١٩٦٤م ــ مصطفى البـــابي الحلبـــي/ ب مصر.
(إمتاع الأسماع) ل المقريزي ــ الأول ــ ص ٣٤٩ سابق.
و(السيرة النبوية) ــ ل ابن إسحق ــ الثاني ــ ص ٢٧٣ ــ مصدر سابق.

ذلك أن أبا خيثمة بعدها راجع نفسه و«خرج في طلب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى أدركه حين نزل تبوك».[١]

أهم دواعي التخلف حرارة الجو إذ الوقت صيف لافح حرارته تشوي الوجوه وأن المتخلفين من ذوي اليسار يملكون الحوائط «البساتين» التي نضجت ثمارها وطابت ظلالها، ولعل الصورة التي رسمها لنا محمد ابن إسحق عن أبي خيثمة الذي تقاعس وقعد ثم وخزه ضميره فأرْقَل إلى اللحاق ب العسكر الغزاة، تعطينا فكرة عن الطبقة التي انتمى إليها الخوالف:

(ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه «بستانه»، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاماً..).[٢]

ف الذي يهيمن على هذه الإمكانات الباذخة (ب مقياس مجتمعهم المدهش): بستان حافل ب الثمار الشهية وبه عروش (جمع عريش) وأطعمة لذيذة وأشربة سوائغ، وأكثر من زوجة وكلهم حسناوات قسيمات..

لا يماري أحد أنه من الأثرياء الأماثل.

أما هلال بن أمية ف هو صاحب آيات اللعان الذي شغلته كروم نخيله وحوائطه «بساتينه» عن الالتفات إلى زوجاته وإيفائهن حقوقهن الطبيعية، فعاد ذات مساء فوجد رجلاً يتفخذ واحدة من بعلاته ورأى ب عينيه وسمع بأذنيه ــ وقد نسخنا القصة كاملة من قبل ــ ف هنا الهلال وهو اسم مناسب له، لائق بحاله، متوافق مع شخصيته لسنا في حاجة إلى زكانة ل ندرك أنه واحد من أثرياء بنى قيلة وأنه عضو بارز في نادي أصحاب الحوائط «البساتين»، وترتيباً عليه فهو أحد

---

(١) ذات المصدر ــ ص ٢٧٤.
(٢) ذات المصدر ص ص ٢٧٣، ٢٧٤.

البعول المخدوعين. هؤلاء المنعمون المترفون كيف يتركون هذا النعم ويغـادرون هـذه اللذائـذ ويذرون هاته الشهوات كيما يحملوا السلاح ويقطعوا آلاف الأميال بين رمال الصحراء الملتهبة.

(قال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى تبـوك فـي قيظ شديد فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصـر فَرْثـه فيشربه، ويجعل ما بقى على كبده...).[1]

* * *

وملحظ آخر هؤلاء الثلاثة المتخلفون بدون أي عذر ــ مع صدق الإيمان وإخلاص النيـة كلهم من بني قيلة: اثنان من الأوس والثالث من الخزرج ليس فيهم نازح فرد.

وهذا بديهي لأن المنازيح حتى ذيّاك الأوان لم يبلغوا بعد رتبـة الثـراء ودرجـة الغنـى ومستوى اليسار (إنما وصلوا إليه بعد الغزو النهبوي الاستيطاني الاستنزافي الثقافي الذي قاموا به ضد الشعوب المجاورة دون ذنب أو جريرة ومن غير أن يطلب منهم واحد من أبنائها ذلك. ا.هـ).

إذن تصفر أياديهم المعروقة الخشنة مما يغريهم ب القعود أو التخلف بـل العكـس هـو الصحيح إذ ربما في الغزوة يجدون مشاشة.[1] يتبلغون بها أو مسكة من خير يسدون بها خلتهم أو فتيتة من مال يغطون بها عَوَزَهم.

وبالتالي ف النَفْر هو الذي يناسبهم لا التخلف، والخـروج يصـلح أحـوالهم لا القعـود، والبروز هو الذي يشفي داءهم لا العدن «الإقامة».

أو أن اليثاربة الأعاريب قدموا الكثير من الأموال والأنفس بديّاً من

---

(١) «في رحاب التفسير» ل عبد الحميد كشك ــ الجزء الحادي عشر ــ ص ١٦١٢ ــ مرجع سابق.

غزاة بدر الكبرى ويكفي جِماعه ولا ثمة من حاجة بهم ل مزيد من التضحيات خاصة أن التخلف شمل عدداً سوى الثلاثة الذين تميزوا بشحنة إيمانية كبيرة.

أم أن نفراً من المتنفذين من بني قيلة أيقنوا أن الدولة ل بني سخين وحدهم ولا نصيب لهم فيه خاصة بعد ما حدث في فتح مكة وعلى رأسها المعاملة البالغة السمو التي عامل بها (متمم مكارم الأخلاق) قومه قبيلته.

أو نعده تمسكاً منهم ب الميثاق الأصلي الذي عقدوه معه في العقبة: أن النصر أو الحماية أو المؤازرة.. الخ تنحصر في الداخل ولا علاقة بها ب الخارج.

نحن نطرح هذه الاحتمالات أو الفروض لأن الذين كتبوا عن تبوك سواء من القدامى أو المحدثين (الذين هم في الحقيقة ينسجون على نولهم ويسيرون في محجتهم ويشربون من حوضهم دون تفكير ا.هـ.)

اقتصروا على الأبعاد التيولوجية والنواحي الغيبية والجهات الفوقية والجوانب اللامرئية دون أن يلتفتوا إلى أن هناك أموراً معاشية «هنا هي حربية أو قتالية» تحركها بواعث نفسية ودواع سياسية ونعرات عصبية.

وترتيباً عليه فإن تسويرها داخل العلل التجريدية وتسكيرها في الدائرة اللامحسوسة وعقلها (ربطها) ب المنظور المتيافيزيقى: عَيّ في التحليل وعجز عن التعليل وقصور في الاستنباط.

ومن هنا يصبح تماماً الذي نادينا به ولا يزال:

ضرورة كتابة التاريخ الإسلامي خاصة حقبة الفجر ب موضوعية وعقلانية ودون التأثر ب الهالات البراقة والإطارات «الكوادر» المتألقة والدوائر المتلألئة التي اكتسبتها بتراكم القرون والتي تعشى البصر عن الحقائق الموثقة والظروف المحايثة، والأحوال المواكبة لها.

---

(١) ال مشاشة العظم لا مخ فيه.

وننتهز هذه الفرصة لنوضح ما نعنيه ب «ضرورة كتابة التاريخ الإسلامي» لأن البعض أساء فهمها أو فهمها على غير ما نقصد، والذي نؤمه «نقصده» هو كتابة التاريخ الإسلامي من قبل المؤرخين المحدثين أو المعاصرين ب موضوعية وأمانة علمية أي كما دونته كتابات السلف في كافة فروع العلم: أسباب النزول/ مناسبات ورود الحديث المحمدي الشريف، التفسير، الناسخ والمنسوخ/ الفقه/ الحديث «السنة».. الخ طبعاً، بخلاف كتب التواريخ والسير والطبقات.

بدون أن يحذفوا الوقائع والنوازل والأحداث التي يرون فيها ما ينافي منزع التبجيل والتعظيم والتفخيم والتطبيل. أما ما يذهب إليه البعض من ضرورة تنقية كتب التراث أو غربلتها أو تهذيبها فنحن نعارضه بشدة ونخاصمه بقوة ونناوئه بأيْد لأنه معَ عطَنه وفسولته وفساده، بل وصعوبة أو استحالة تنفيذه فهو قمة الخيانة العلمية.

ثم نرجع إلى سياقة السرد:

سأل (ال رءوف) عن الثلاثة الذين تخلفوا من غير شك ولا نفاق: كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن أمية فأخبر أنهم من المتخلفين بغير عذر فلما عاد من الغزاة قال ل أصحابه لا تكلمن أحداً من الثلاثة).[١]

ولما مثلوا بين يديه لم يكذبوا عليه وأقروا أنهم قعدوا بلا مسوغ فرد على كل فرد منهم «يقضي الله فيك».

فقاطعهم المسلمون بيد أن الأوعر هو صدور أوامره لهم بأن يعتزلوا زوجاتهم ووجه الوعورة فيه الحرمان من التماس ولو أنه في

---

(١) (السيرة النبوية ل ابن هشام) تحقيق د. محمد فهمي السرجاني ــ الجزء الرابع ــ ص ١٢٧ ــ الطبعة الأولى ١٩٧٨م ــ المكتبة التوفيقية ب مصر و(الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء) ل أبي الربيع سليمان الكلاعي ٥٦٥ ــ ٦٣٤هـ تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ــ الجزء الثاني ــ ص ٣٩٩ ــ الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م ــ مكتبة الخانجى ــ القاهرة.

غاية الأهمية في نظر أولئك العُربان المتبدين، بل معناه التشكيك في إسلامهم لأن الكافر لا يـنكح مسلمة أبداً.

يقول كعب بن مالك «.. حتى إذا مضت أربعون ليلة جاءني رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال: إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت أطلقها أم ماذا؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى صاحبيّ أي وهما: هلال بن أمية ومرارة بن الربيع يمثل ذلك فقلت لامرأتى الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر).[1]

لعل القارئ الفطن لاحظ أن المرسال الذي بعثه «صاحب ألوية النصر» إلى الثلاث المخلّفين ليبلغهم اعتزال منكوحاتهم وصل إليهم بعد أربعين يوماً.

ولا بدّ أن سأل نفسه لماذا أربعين ب الذات؟.

لأن عدد أربعة ومضاعفاته له قداسة متجذرة في العقائد السامية القديمة وفي الديانتين الإبراهيميتين السابقتين خاصة اليهودية؛ لأن المسيحية «النصرانية» تعتبر «العهد القديم» كتاباً لها ومن ثم يضمه و«العهد الجديد» مجلداً واحداً يسمونه «الكتاب المقدس» وقداسة الأربعة ومضاعفاتها بدأت مع إبراهيم إذ أمره ربه أن يأتي بأربعة من الطير... الخ.

أما في اليهودية فلا تحتاج إلى بيان بعد أن ذكرها القرآن العظيم:

فقد واعد الرب موسى أربعين ليلة، والتيه في صحراء سيناء استمر أربعين عاماً، وتمام الميقات مع الرب أربعين ليلة وعقبها كلمه فسمى الكليم، ثم طلب النظر إليه ف أخبره باستحالة الرؤية.

---

(٢) (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ــ الشهير ب السيرة الحلبية) ٩٧٥/ ١٠٤٤هـ ــ الجزء الثاني ــ ص ١٢٥ ــ الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/١٩٦٥ ــ مكتبة مصطفى البابي الحلبي ــ ب مصر.

وجاء الإسلام وواصل مسيرة النظر إلى العدد أربعة ومضاعفاته بعين التقدير ف الإنسان يبلغ أشده لما يبلغ الأربعين من عمره وعندها يشكر الرب على هذه النفحة، والشهادة فـي اللعـان أربع شهادات ب الله، والذين يؤلون من نسائهم عليهم التربص أربعة أشهر والذي يرمي محصـنة عليه أن يأتي ب أربعة شهداء وإلاّ حَدّ في ظهره ثمانون جلدة وهو ضعف الأربعين، ومـن تـأتي بفاحشة من النسون يتعين استشهاد أربعة عليها فإن شهدوا ف إمساك في البيـوت حتـى الوفـاة، والأسافل المفترون الكذبة الذين جاءوا ب الإفك والبهتان والزور توجب عليهم أن يجيئوا بأربعـة شهود وإذا لم يفعلوا ف عند الله هم كاذبون، وواقعة حراء حدثت (لذؤابة بني هاشم) وله أربعـون عاماً من عمره المبارك.

أما من عقائد الفترة السابقة على الإسلام فقد استعيرت منها حرمة الأربعة أشـهر: ثلاثـة سرد «ذو القعدة وذو الحجة والمحرم» وواحد فرد «رجب» بل ربطها ب الدين «منها أربعة حرم ذلك الدين القيم».[١]

إذن انتظار «من جعلت له الأرض مسجداً» أربعين ليلة حتى نهى الخوالف الثلاثـة عـن مضاجعة بعلاتهم ــ وسبق أن كشفنا عن مدلوله ــ لا يتعين المرور عليـه ب خفـة واستسـهال ومجّانية، بل حتم لازم التفرس فيه لَ نقّه دالته ومعرفة مغزاه وفقاهة معناه.

وسبق أن طالبنا بضرورة رباط نصوص التقديس أو التأسيس ب الوسط الذي انبثقت فـي باطن حناياه لأنها تحمل بصماته وتتشكل ب أيأته «هيأته» وتظهر ب قسماته.

وب المثل ف مدونات السيرة المحمدية المِعْطَار عند مطالعتها يلزم لقارئها قدر من الوعي والتنبه واليقظة وأن يلتفت إلى الأرقام والرموز والشفرات التي تحملها لأن معرفة دلالة الرقم وما يومئ إليه وفك الشفرة تضع أقدامنا على الطريق الصحيح المؤدي إلى التقييم الأمثل.

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٦.

هكذا تتامت حلقة مقاطعة المتخلفين وتغريبهم داخلياً أي تحويلهم إلى غرباء وهم في بلدهم وبين أهلهم وذويهم وجاء اعتزال المسلمين لهم جاداً قاطعاً «.. فاجتنبهم الناس، فأما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فمكثا في بيوتهما يبكيان وأما كعب فكان يشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف ب الأسواق فلا يكلمه أحد منهم، قال ولما طال ذلك عليّ من جفوة الناس تسورت جدار أبي قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه والله ما رد عليّ السلام».[١]

هذه المقاطعة القاسية وإن أصابت في المقام الأول المتخلفين الثلاثة فإنها بلا شك آلمت «الرحيم» لأنهم من أعيان بني قيلة ولهم سابقة في الإسلام وحازوا فيه درجات سامية ومن ثم فإنها «= المقاطعة» أقصى ما استطاع عمله لأن التخلف وعن تبوك تحديداً خَطَل ليس ب اليسير، كما أنه بطريق الحتم واللزوم يشجع بقية التبع على الاحتذاء بهم لو نالوا عقاباً خفيفاً أو جزاءً هيناً مثل العتاب أو اللوم أو التوبيخ.

* * *

وبعد مضي خمسين يوماً من المقاطعة وهي مدة كافية لردع المتخلفين وكل متكاسل هلّت الآية الثامنة عشرة بعد المائة من سورة براءة أو التوبة (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إنّ الله هو التواب الرحيم): وهكذا أعلنت (= الآية) توبتهم.

القرآن المبين كما نسخنا مراراً لا يصرح بأسماء الأصحاب والاستثناء الوحيد هو زيد بن حارثة لعلة رقمناها، ومن ثم فيتعين أن

---

(١) المصدر السابق ــ ذات الصفحة.

(٢) و(السيرة النبوية) ل ابن إسحاق ــ الجزء الثاني ــ ص ص ٢٨٥ ــ ٢٨٦ تحقيق طه عبد الرءوف سعد وآخر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م ــ إصدار قطاع الثقافة ــ أخبار اليوم ــ مصر.

نوثق أن الثلاثة الذين انبثقت الآية العظيمة في أحدوثتهم هم كعب بن مالك وصاحباه.

«عن كعب بن مالك أنزل الله توبتنا على نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين بقي الثلــث الآخر من الليل... حتى إذا صلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ صلاة الفجر آذن توبــة الله علينا».

صحيح البخاري ونسخه السيوطي في «لبابه» ب نصه وفصه.[١]

لا يفوتنا ما جاء في الحديث أن «النسيب = ذا النسب العريق» أعلمهم بتوبة ربه عليهم لا توبته هو.

(وكان من أرجئ عن التوبة وخلف: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بــن أميــة فأرجئوا أربعين يوماً فخرجوا وضربوا فساطيطهم واعتزلهم نساؤهم ولم يتولهم المســلمون ولــم يقربوا منهم فنزل فيهم «وعلى الثلاثة الذين خلفوا» إلى قوله «التواب الرحيم»).[٢]

* * *

ل تمام البحث نرتدف توثيق كتب التفسير بأن الآية الشريفة طلعت كالشمس الساطعة فــي كعب بن مالك ورفيقيه.

أ ــ (قال ابن عباس: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا» نزلت في كعب بن مالك ومــرارة بــن الربيع وهلال بن أمية).[٣]

ب ــ («الثلاثة» كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية. «خلفوا» = تخلّفوا عن الغزو).[٤]

ج ــ («وعن الثلاثة الذين خلفوا» هم كعب بن مالك وهلال بن أمية

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ١٠٢ سابق. (٢) (المواهب اللدنية بِ المنح المحمديــة) ل القســطلاني ــ المجلد الأول ــ ص ٢١٢ ــ مصدر سابق.

(٢) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ص ٤٠٠ ــ ٤٠١ ــ مرجع سابق.

(٣) (غرائب القرآن) ل القميّ النيسابوريّ المجلد الخامس ص ٥٤٥/ مصدر سابق.

(٤) (الكشاف) ل الزمخشري ــ الثاني ــ ص ٢١٨ ــ مصدر سابق.

ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار.. ولما ذكر تعالى ما خرج به هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هَجْر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها.. الخ).[١]

د ــ المفسر المعاصر الشيخ عبد الحميد كشك أورد حديثاً مطولاً خرّجه أحمد بن حنبل في مسنده جاء فيه على لسان كعب بن مالك:

(ف لبثنا عشر ليال «بعد الأمر باعتزال النسون» فكمل لنا خمسون ليلة..

قال كعب: فلما سلّمت على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك، قال: قلت يا رسول الله أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله...).[٢]

السؤال الذي فغر فاه ابن مالك به وخاطب «الكامل ال مروءة» يقطع ب عباطة كعب ويجزم ب هبله ويؤكد بساطته، ولا غرو فهو من بني قيلة الذين أكد تاريخ الحقبة المدهشة أنهم مخمومو القلب لأنهم خرجوا من المولد بلا حمصة واحدة وانفرد بنو سخينة بالكعكة الشهية دون أن ينفحوهم ولو فُتيتة.[٣]

مع أن ب سيوفهم ارتفع بنيان الدولة وتفرسخت الديانة في جنبات جزيرتهم المبروكة.

ولكن لماذا اعتبرنا السؤال قرين سذاجة ودليل بلاهة؟

لأن التوبة لا بد أن تحملها آية كريمة من الذكر الحكيم لتقطع ألسنة المنافقين والمذبدين والمتشككين وبالمثل ينصاع لأمرها التبيع ويسلمون بها ولا يفتحون شفاههم بكلمة.

وهكذا شفا «الصدق/ القرآن» صدر «المختار» في هذه النازلة.

---

(١) (التيسير خلاصة تفسير ابن كثير) ــ الأول ــ ص ٤٦١ ــ مصدر سابق.
(٢) (في رحاب التفسير) ل عبد الحميد كشك ــ الجزء الحادي عشر ــ ص ١٦١٧/ المكتب المصري الحديث ــ ص ١٦١٦ ــ مرجع سابق.
(٣) العامة في مصر تقول فتفوتة ا.هـ.

ولقنت الآية أتباعه دروساً بليغة تجعلهم يترددون ألف مرة إذا راودتهم فكرة القعود.

كما ينطبق عليها ما سبق أن كتبناه عن الالتحام ب الواقع وحكمة التنجيم.

* * *

ثانيا: التربية السياسية:

طرحنا أمثلة محدودة في مجال التربية العسكرية.

بعدها نُعرّج على مضمار التربية السياسية وبديهي أن نماذجها أقل عدداً.

إذ إن أمور السياسية تولى زمامها «المعصوم من الناس» بنفسه الشريفة وإن عاونه فيها مجلس شورى كلهم بلا استثناء من قريش وهو مما لا تحتاج نقاهته إلى فطانة.

* * *

جمع البيت المحمدي الشريف تسع نسون بخلاف ملك اليمين مثل بنت مصر الوسيمة القسيمة مارية القبطية، ف من الطبيعي أن تشتعل الغيرة بينهن وتحتدم الخلافات وتلتهب المشاحنات، مما آد «الصابر» وضايقه بل وآلمه:

(وقد شهد بيت الرسول من غيرة نسائه المحتدمة ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميداناً لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر، وإن لم ترَ فيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة في الاستئثار به... وما من شك في أن الرسول قد عانى من ذلك كثيراً).[١]

بلغت الغيرة قُلتها (بضم القاف أي أعلاها) والمنافسة ذروتها والمباراة قمتها خاصة بين الزوجات الحسناوات، الجميلات، الفاتنات: عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش.

---

(١) (نساء النبي) د. بنت الشاطئ ـــ ص ٢٠، د. ت. ن. ـــ دار الهلال ب مصر.

وذات مرة أرسل «المزمل/ المدثر» ب هدية إلى زينب بنت جحش فردتها إليه، فـانتهزت عائشة هذه الفرصة لتدق إسفيناً في العلاقة بين الزوجة البيضاء البرهرة الحسينة وبـين «يـس» الذي دأب على كثرة التردد على حجرتها وإطالة اللبث عندها، وتعودت هي على إتحافه بنوع من العسل يحبه، وجِماعه يشعل النار في قلوب سائر النسون وأولاهن عائشة ف قالت له:

(عن عمرة عن عائشة، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنما آلى لأن زينب ردت عليه هديته، فقالت عائشة: لقد أقمأتك، فغضب فآلى منهن).[١]

تجاوزت التيمية بنت عتيق (كان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبـة ف سـماه رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عبد الله وقال له عليه السلام أنت عتيق من النار فكان يدعى عتيقاً وقيـل سمى عتيقاً لجماله).[٢] كل الحدود، إذ لا يجرؤ مسلم ولا مسلمة على أن يوجه هذه العبارة الفلوت (لقد أقمأتك) ل «سيد ولد آدم» ولعل صغر سنها ــ إذ لم تتجاوز آنذاك السادسة عشـرة وجمالهـا الذي لا بد أنها ورثت بعضه من أبيها الذي أحاطنا خبراً الشيخ الأكبر محيى الدين عربـي بـأن العلة في تسميته عتيق ترجع ل وسامته، يضاف إليهما (حداثة السن والبهاء) وحـب «طــه» لهـا الذي اشتهر أمره بين التبيع:

(قال عمر بن الخطاب لابنته حفصه: يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبهـا حسـنها وحـب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

---

(١) (سنن ابن ماجة) ل الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد، القزويني ــ ابن ماجة ــ ٢٠٧ ــ ٢٧٨هـ ــ تحقيـق محمد فؤاد عبد الباقى، المجلد الأول ــ ص ٦٦٤ ــ باب الإيلاء الحديث رقم ٢٠٦٠ ــ طبعـة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م ــ دار إحياء التراث العربي/ دون ذكر المدينة.

(٢) (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) ل الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربـي ٥٦٠/ ٦٣٨هـ تحقيـق محمـد موسى الخولي الجزء الأول ــ ص ٩٨ ــ د.ت.ن. دار الكتاب الجديد ــ القاهرة.

«يريد عائشة»).[١]

أو ربما تعمدت بنت أبي بكر التفوه بهذه الكلمات القوارض لتنفر «المثبت» من بنت جحش وتدمر محبته لها وتثنيه عن إدامة زيارتها وطول المكوث بجوارها.

فروض واردة بيد أنها لا تنفي أن ابنة ابن أبي قحافة تخطت قدرها ولم تلزم غرزها ولم تقف عند حدها وهي تخاطب «ذؤابة قريش».

* * *

الحديث خرجه ابن ماجة في سننه وهو أحد الصحاح الستة التي تلقتها أمة لا إله إلا الله بالتجلة والقبول وتضعها على رأسها، مما يقطع محجة التشكيك وسكة التوهين وطريق التهزيل.

يبرهن على صدور الجملة الخائبة من التيميّة أن جاء رد فعل «العفو/ العطوف» حاسماً وهو الإيلاء بالنسبة ل جميع بعلاته دون استثناء وأنه وقد ضرب المثل في الحلم البالغ الذي لا نديد له وسعة الصدر التي لا مثيل لها والأناة التي يعز أو ينعدم شبيهها لم يقدم على مثل هذه الخطوة الحاسمة إلاّ لسماعه هذا التعليق البالغ السخف والذي لا مشاحة أنه قد صدمه خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن الإيلاء شامل، على الرغم من أنه صرح علانية بأنه لم يحب من الدنيا سوى الصلاة والطيب والنساء (عن أنس قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حبب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة).[٢]

كذا أخبرتنا دواوين سيرته التي عني ب تدوينها السلف والخلف، أنه اعتاد أن يدور على زوجاته التسع كل ليلة، ولا عجب فيه فقد

---

(١) (اللولؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان «= البخاري ومسلم» تجميع محمد فؤاد عبد الباقي ــ مراجعة ــ د. عبد الستار أبو غدة ــ ص ٣٥٢ ــ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ــ نشرته الجمعية الإسلامية الصينية ب بكين الصين.
(٢) أورده النسائي في سننه والطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك

حُفظ عنه حديثه (أوتيت قوة أربعين في البطن والجماع) كما أنه عشق عدداً منهن وتمكن حـــبهن من قلبه وهن: عائشة وأم سلم وزينب بنت جحش وهو يوقن أنه لم يرَ للمتحابين مثل النكاح «عن طاوس عن ابن عباس قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم نر «يُر» للمتحابين مثـــل النكاح»).[1]

إن الإيلاء دلنا على ما كابده من ألم نفسي شديد وجرح غائر بسبب العبـــارة اللامســـئولة التي بدرت من التيمية.

* * *

ظن المسلمون أنه قد طلق نساءه فأخذوا يخوضون في هذا الشأن.

(حدثنا ابن عباس قال أصبحنا يوماً ونساء النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يبكين عند كل امرأة منهن أهلها، فخرجت إلى المسجد فإذا هو ملآن من الناس، فجاء عمر بن الخطـــاب فصـــعد إلى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو في غرفة له فسلم فلم يجبه أحد ثم سلم فلم يجبه أحد، ثم سلم فلم يجبه أحد، فناداه فدخل على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال: أطلقت نساءك؟ فقـــال: لا، ولكن آليت منهن شهراً، فمكث تسعاً وعشرين، ثم دخل على نسائه).[2]

هذا الحديث حمله البخاري أصح كتاب لدى أهل السنة والجماعة بعد القرآن الكريم وسنتبع بعد قليل ب أخبار تطلعنا على أنه مرقوم أيضاً في صحيح مسلم في باب الطلاق ومن ثم ف هـــو متفق عليه.

الصحيح المتفق عليه هو الذي خرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

---

(١) (سنن ابن ماجة) المجلد الأول ــ ص ٥٩٣/ مصدر سابق.
(٢) (صحيح البخاري) كتاب النكاح ــ الجزء السابع ــ ١٣٧٨هـ ــ مطابع الشعب ــ مصر.

والحديث الذي يجمع على صحته الشيخان «البخاري ومسلم» لا يمارى فيه إلاّ مشاغب ولا يشك فيه إلاّ مُعاسر ولا يعارضه إلا أحْدَل.[١]

* * *

توثيق الخبر من كتب «أسباب النزول»:

(روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه، فقمت على باب المسجد فناديت ب أعلى صوتي: لم يطلق نساءه، فنزلت هذه الآية... فكنت أنا استنبطت هذا الأمر).[٢]

عزاه السيوطي إلي صحيح مسلم وهو المصلَّى «التالى» ل صحيح البخاري ثم أورد أبو عمر نادي الأزهري الخبر الذي زبره السيوطي في لبابه كما هو دون زيادة أو نقصان.[٣] وبهذا يزداد الخبر رسوخاً.

واضح من ثناياه أن اجتماع الثُبّاع في المسجد، ووصف أيأتهم «هيأتهم» ينمان عن القلق الشديد لأن طلاق التسع زوجات حسبما بلغهم مسألة خطيرة، ورأوا أن من حقهم أن يتداولوها فيما بينهم ويقلبوها على كافة وجوهها.

هنا نذكّر بحقيقة يتعين ألا تغيب عن ذهننا ونحن نتناول ب البحث والتدقيق هذه الحقبة المدهشة هي: أن الأفراد أو الفاعلين في مجتمعها أميون مُتَبدّون مَلِيطون من كل سمات الحضارة وشارات الثقافة وعلامات التمدن، ومن ثم فإن الحكي أو المناقلة أو المشافهة أو المخاطبة أو المحادثة هي وسيلة الإعلام الرئيسة فيما بينهم.

---

(١) حدل عليه: مال بِ ظلم أو عداوة ف هو أحْدَل وهي حدلاء/ من «المعجم الوجيز».
(٢) (لباب النقول) ل السيوطي ص ٥٧ ــ ٥٨ مصدر سابق.
(٣) (المقبول) ص ٢٣٣ ــ مرجع سابق.

* * *

نرتدف بما ضمته التفاسير في هذه الخصوصية:

(وعند مسلم فقلت: أطلقتهن؟ فقال: لا فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نساءه ونزلت هذه الآية «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي أمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر).[١]

توكأ ابن كثير عندما تولى تفسير الآية الثالثة والثمانين من سورة النساء على حديث «مسلم» الذي اتفق عليه هو البخاري.

اعترف العدوي ابن الخطاب ــ الذي أصبح الخليفة الثاني بعد التيمي عتيق بن أبي قحافة وكلاهما من فرع خفيض في قبيلة بنى سخينة ــ بأنه أحد الذين عنتهم الآية المعظمة ب أنهم يستنبطون الأمور.

ولا غرابة فهو واحد من مجلس الشورى الذي سكّر بابه وأحكم رُتجَانَه ووثق مغلاقه، فلا يلجه إلاّ قرشي ولا يطأ عتبته إلاّ سخيني.

ذكر الألوسي تفسيرا للآية ــ سوف نأتى به مع آخرين في الفقرة القادمة بيد أنه أضاف: «غير أن روايات السلف على خلافه».[٢]

وشرح محمود الشرقاوي المحقق ما يقصد الألوسي بعبارته الأخيرة بقوله (يذكر هنا حديث عمر بن الخطاب المتفق عليه حين بلغه أن الرسول طلق نساءه فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد

---

(١) (تفسير القرآن العظيم) ل ابن كثير ٧٠٠ ــ ٧٧٤هـ ــ تحقيق عبد العزيز غنيم وآخرين ــ المجلد الثاني ص ٣٢٢ د. طبعة الشعب مصر.

(٢) (تفسير الألوسي ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) ل أبى الفضل شهاب الدين محمود الألوسي ــ ١٢١٧ ــ ١٢٧٠هـ تحقيق محمود الشرقاوي ــ الجزء الخامس ص ١٥٥ ــ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م ــ كتاب الشعب الدينى ــ القاهرة.

الناس يقولون ذلك فلم يصبر حتى استأذن على الرسول فاستفهمه: أطلقت نساءك؟ قال: لا، فقلت: الله أكبر وذكر الحديث بطوله.

وعند مسلم، فقلت: أطلقتهن؟ فقال: لا، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى: لم يطلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نساءه ونزلت هذه الآية.

البخاري كتاب النكاح ومسلم كتاب الطلاق).(١)

في النص الذي زبرناه عن شهاب الدين الألوسي قرأنا عبارة «غير أن روايات السلف على خلافه» وتوضيحها أو كشف خفائها أن المفسر نسخ قبلها تفسيراً مغايراً ل هذه الآية العظيمة ــ في الفقرة القادمة سنميط اللثام عنه تكملة للبحث ــ بيد أنه أضاف أن السلف على خلافه أي لا يمضونه أو لا يقرونه إنما يؤكدون أن الآية المجيدة إنما هلّت كَ النجم الثاقب بشأن لوك المسلمين الكلام في نازلة طلاق «صاحب التاج» لأزواجه.

وقد جزم محمود الشرقاوي محقق تفسير روح المعانى به وذكر حديث العدوي ابن الخطاب وأنه متفق عليه.

* * *

خلاصة هذه الفقرة أن الزوجة الصبية.(٢)

الغندورة.(٣)

التيمية عائشة تجاوزت مكانتها وخاطبت «القطب» بِ عبارة لا يليق بأي مقياس توجيهها إليه لا كَ زوج ولا مبشَر ب دعوة جديدة ولا مؤسس لدولة بنى سخينة، فغضب واعتزل نسونه ف خَبّ التباع ووضعوا في الواقعة.

---

(١) ذات المصدر السابق.
(٢) (تعني الحدثة والحسينة).
(٣) الناضرة أو بينة النظارة.

من الطبيعي أن يتضايق من هذا المسلك لا بسبب أن الإيلاء شأن عائلي ف حسب إنما لأنه دل على أنهم «الصحاب» ما زالوا في حاجة ماسة إلى المزيد من الصقل والتشذيب والصنفرة والقوظة والتهيئة خاصة في مربع السياسة.

لأن صحة القائد ومرضه وزواجه وظعنة وعدنه...... الخ كلها أمور من صميم السياسة بل من أخصها ف لا تصح إثارتها بين المواطنين «يُطلق أولئك العربان على المواطنين: الرعية التي هي في قواميس اللغة تعني الماشية ا.هـ» إذ من الحتم اللازم أن يستفيد منها العدو وهم هنا: صناديد الشرك، أولاد الأفاعي = اليهود، المنافقون (أوضحنا فيما سلف أن النفاق معارضة سياسية أكثر منها خلافاً عقائدياً ا.هـ) ب الإضافة إلى أعداء الخارج: الروم والفرس.

بيد أنه كَ العادةِ لا يتخلى «القصص/ القرآن» عن «قائد الغر المحجلين» ف تتهادى الآية ٨٣/ النساء ك الحيا أو الغيث بالنسبة للأرض الجديبة وتأمر الصحاب ب أن يكفوا عن المشى في هذه المحجّة العوجاء بأن يرجعوا في هذه النوازل الحساسة إلى القائد كيما يرشدهم إلى الصواب.

فوائد جمة حققتها الآية المجيدة: رفْع الضيق عن صدر «المختار» ودرس بليغ في السياسة للتبع وبرهنة على ارتباط «المرفوع المطهر = القرآن» بأمور معاشهم ووقائع مجتمعهم ورفع ستار عن حكمة التنجيم أي بزوغ الآيات والسور على دفعات لا مرّة واحدة.

* * *

هناك سبب آخر ل ظهور الآية ٨٣ من سورة النساء:

وهو أن عدداً قد لا يستهان به من المسلمين أخذ يذيع أخباراً كلما سمع الواحد منهم معلومة حتى ولو انضوت على قدر من الخطورة على أمن الدولة أو مستقبل الديانة أو سلامة القائد فلا يتورع عن نقلها ربما ب حسن نية أو عن غفلة، أي عدم تنبه أو للإشعار ب

أهمية القائل وأنه من المقربين للرئاسة ومن العليمين ب بواطن الأمور والمطلعين على الأسـرار وأنه يوشك أن يغدو من صناع القرار.

لا يهم ل من يلقى الخبر؟

ومعلوم أن أثرب تموج ب أخلاط تنفر من الإسلام وأَوْشَاب تنضوي صدورهم على بغض دفين ل «صاحب السرايا» وأفناء يكرعون من إناء كراهية دينة وأوباش يرقلون في درب الحقـد على دولته التي أسسها في القرية ذات الحرتين.

في مقدمتهم اليهود أولاد الأفاعي الذين ما تصوروا قط لا في منام ولا في يقظة أن عربياً من صلب إسماعيل يبشر بدعوة جديدة.

ويليهم المنافقون الذين ملأ الشنآن صدورهم أن ينجح أحد بنى سخينة في تأسيس دولته في بلدهم ويفقد زعيمهم «عبد الله بن أبى ابن سلول» إلى الأبد فرصته كيما يغـدو الحـاكم والملـك والزعيم.

ويتبعهم صناديد قريش الذي أعماهم الحسد عن معرفة حقيقة الموقف، إنما الـذي أفقـدهم صوابهم وأعمى بصيرتهم وضيع رشدهم أن «يتيم أبي طالب» ـــ كما دأبوا على نبذ «سيد الناس» به ـــ يحقق حلم أجداده: قصي/ هاشم/ شيبة الحمد (عبد المطلب) بل يحالفه الفلج في إقامة حكومة في يثرب والأنكى منه أنها طفقت تقطع على قوافلهم (مصدر رزقهم اليتيم) الطرق.

ومن بعدهم تشرئب الوجوه الكالحة لرؤساء القبائل المحيطة أو المتناثرة في أنحاء الجزيرة الذين وهموا ب أن «صاحب اللواء» سيقسم لهم نصيباً، بيد أن الإحباط شملهم واليأس هيمن عليهم والشعور ب الضياع ضربهم حتى النخاع عندما تيقنوا أنها ل قريش دون غيرها.

بخلاف جواسيس دولة الروم والفرس الذين ما فتئوا يراقبون بِ قلق بالغ ما يجـري فـي يثرب إذ حدثتهم عيونهم أنه شيء جديد لا عهد ل العُربان به من قبل.

هؤلاء جميعاً يتنشقون ولو رائحة ضعيفة لأي خبر ويفتشون عن أوهى بصيص لنبأ صغير ويرهفون آذانهم القبيحة لنأمة مهما بدت كليلة عن حكاية خمصانة ليستشفوا من أحدها حقيقة أحوال الدولة البرعومة وما يدور داخل كواليسها وما يحدث في أروقتها والذي يجري في دهاليزها.

* * *

هذا المسلك من بعض الصحاب ضايق «الخالص» وتمنى أن يكفوا عن المضي فيه ويعدلوا عن السير في محجته ويمتنعوا عن المشي في طريقه، ولا يتركه «العربي = القرآن» يكابد الألم ف تبزغ الآية ٨٢ من سورة النساء مثل الكوكب الدريّ تعيب على التبيع هذا النهج الأعوج وترشدهم إلى ما يتعين عليهم سلوكه وبذا أسهمت في تربيتهم ورفعت عن «المكى/ المكين» ما أصابه من غم.

(قيل عن ضعفة المسلمين إنه إذا «جاءهم» الخبر «بأمر» من الأمور سواء كان ذلك الأمر من باب (الأمن) أو من باب (الخوف) أذاعوا به وأفشوه.. ولا يخفى ما في الإفشاء من الضرر من جهة أن الإرجاف لا ينفك عن الكذب، ومن جهة أن تلك الزيادات إن كانت من جانب الأمن ولم تقع أو ورثت شبهة لضعفة المسلمين في صدق رسول الله...).[١]

ويذهب الألوسي إلى المنحى ذاته:

(... وذلك أن ناساً من ضعفة المسلمين الذين لا خبرة لهم بالأحوال، كانوا إذا أخبرهم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بما أوحى إليه من وعد بالظفر، أو تخويف من الكفرة يذيعونه من غير فهم لمعناه، ولا ضبط لفحواه، على حسب ما كانوا يفهمونه، ويحملونه عليه من المحامل وعلى تقدير الفهم قد يكون ذلك مشروطاً بأمور تفوت

---

(١) (غرائب القرآن) ل القميّ النيسابوري/ الرابع ــ ص ٤٥/ مصدر سابق.

بالإذاعة، فلا يظهر أثره المتوقع، فيكون ذلك منشأ لتوهم الاختلاف).[١]

وقد رأى الألوسي أن هذا التعليل «لا يخلو عن حسن غير أن روايات السلف على خلافه» أي أنه رأى على الرغم من جودته فإن السلف أجمعوا على غيره وهو الذي زبرناه في الفقرة السابقة، أي أن الآية الكريمة ٨٣ من سورة النساء هلت ب أنوارها الباهرة بسبب إيلاء (أرحم الناس بالعباد) ل نِسّونه وهو ما حدّث به العدوي عمر بن الخطاب.

* * *

ومن التفاسير الحديثة أو المعاصرة:

اخترنا تفسير عبد الله شحاتة (... أو بعض ضعاف النفوس من شهوتهم الكلام كانوا يروّجون أخبار النصر والأمن والخوف وهذه الأمور تسهل للعدو مهمة التجسس ومعرفة مواطن الضعف والقوة لدى المسلمين).[٢]

ثم يختم الدكتور المفسر أو المفسر الدكتور كلامه بفقرة إنشائية وعبارة بيانية وجملة خطابية (وبالتأمل فيما تضمنته الآية الكريمة من إرشادات حكيمة يتضح أن القرآن الكريم قد سبق جميع النظم الحربية في وضع أقوى الوسائل لمواجهة ما يسمّى الآن: الحرب النفسية أو حرب الأعصاب وهي التي تدير الحرب العسكرية).[٣]

وعلى الرغم من أن عَجُز الفقرة: «هي التي تدير الحرب العسكرية» غامض ومبهم ومشوش، إذ كيف تدير الحرب النفسية والحرب العسكرية؟ وأيتهما الأصل الذي يتولى الإدارة والفرع الذي يقبلها؟

فقد تمنيت ألاّ ينجرف المفسر، وهو أستاذ جامعي أي أكاديمي بدأ

---

(١) تفسير الألوسي/ روح المعانى) الخامس/ ص ١٥٥/ مصدر سابق.
(٢) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله شحاتة ــ الجزء الخامس ص ٨٨٤ ــ مصدر سابق.
(٣) ذات المرجع والجزء والصفحة.

بتعلم مناهج البحث إلى الطريقة التعظيمية وينحو منحى السكة التفخيمية ويهرول في محجة التطبيل وأن يترك ذياك جماعه ل واعظ في تليفزيون أو مشعبذ يزعم بكل جرأة على الحق أنه يمنح مشاهديه حزمة من نور كأنما لم يكفه ما هو فيه من نور!!

ومن حقنا أن نسأل شحاتة قبل أن ننتهي إلى نسخ (كتابة) هذه الخطبة المنبرية: هل اطلعت على «جميع النظم الحربية» قبل ظهور «الأحسن/ القرآن الكريم» لدى المصريين القدماء والإغريق والحيثيين والبابليين والأشوريين والصينيين... الخ، كيما تحكم عليها ب الدونية وتقضي عليها بالتخلف وتسمها ب التأخر؟

أو هل قرأت عن بعضها مع أن عبارتك تدل على الاستغراق والعموم والشمول؟

ألا يوجد في قواعد مناهج البحث العلمى ما يقيّدك عن إطلاق هذا الحكم الواسع؟

* * *

هل يوافقنا الدكتور المؤلف أن القرآن العظيم كتاب هداية وإرشاد وأخلاق ومواعظ ورقائق... الخ ولا شأن له ب الحروب العسكرية أو النفسية؟!

وإذا صح كلام شحاتة في أن الآية ٨٣ من سورة النساء «سبقت جميع النظم الحربية في وضع أقوى الوسائل لمواجهة ما يسمّى الآن:

(الحرب النفسية أو حرب الأعصاب) فلماذا لم نسبق منذ عهد التدوين إلى إبداع هذا العلم؟ ولماذا انتظرنا حتى توصل إليه الفرنجة الملعونون في كل كتاب؟

إن ما يحدث هو الآتى:

ما إن تظهر نظرية سواء في العلوم الطبيعية/ التجريبية أو العلوم الإنسانية ويقرأها أو يقرأ عنها أحدهم ويمر بِ نظره الكريم على سور وآيات المصحف الشريف حتى يصيح فجأة وجدتها أن النظرية

المذكورة جاءت في الآية الحميدة رقم كذا في السورة المجيدة رقم كذا... وبذا يزعم، أننـــا ســـبقنا الغرب في اكتشافها!!

طيب يا أخانا ــ جزاك الله خيراً ــ ما دام الأمر كذلك فلماذا لم نعلنها منذ أربعـــة عشـــر قرناً أو حتى عشرة قرون؟

وبديهي أن الإجابة هي الصمت المطبق.

* * *

إن الذي لا مرية فيه أن عدة عوامل وراء هذا الموقف الهزلي المأســـاوي الـــذي تكـــرر عشرات المرات والذي ما إن يسمعه الفرنجة حتى يضحكوا ملء أفواههم.

وعلى قلتها «بضم القاف أي قمتها» = عقدة النقص التي نعانيهـــا بســـبب تخلفنـــا وتقـــدم الفرنجة ثم يلحق بها وهو الأوعر محاولة التخدير أو التنويم أو التنبيج التي يلجـــأ إليهـــا الـــدعاة الأيديولوجيون لتبرير أيديولوجيتهم بين العامة وهم في ذلك ينافسون الأنظمة الحاكمة.

أما ثالثة الأثافي والأدهى: الإيحاء بقوة والإيهام بشدة والتلميح بكثافـــة أنـــه لا ضـــرورة لإعمال العقل ما دام كل اختراع وإبداع ونظرية مبثوثاً في ثنايا «النور = القرآن».

أيها المسلم ــ الذي ملكت العالم في وقت من الأوقات ــ لا تعمل عقلك ولا تفـــتح مخـــك ولا تشغل فكرك، ولماذا تفعل؟

إن كل علم واكتشاف موجود في «الذكر الحكيم» وما هو مطلوب منك أن تقرأه ب إمعان وعندها تخرج منه بما شئت من مخترعات ونظريات في كل المجالات!

أما أن الفرنجة الكفرة هم الذين احتكروا اكتشافها فلا تنس يا أخـــي أن الله جـــل جلالـــه سخّرهم لنا، هم يشقون ويتعبون ونحن نأخذها على الجاهز أو اللائح.[١]

هذا من أميز أساليب الخطاب الديماجوجي الذي يطرحه على

---

(١) تعبير صحيح لغوياً ف في المعجم الوسيط: لاح الشيء ظهر وبرز.

العامة الأيديولوجيون والدعاة المهيِّجون وهو لا يغدو أن يشكل «حقنة بنج» لتخديرها كيما يسهل عليهم قيادها وتوجيهها حسبما يريدون.

وبداهة أنه (= التوجيه) ليس في صالح العامة (القاعدة العريضة)، إنما لتحقيق مكاسب سياسية، إذ هم والأنظمة الحاكمة التي تفتقر إلى الشرعية يتنافسون على المراهنة على الدين:

الأولى: للحصول على الشرعية المفقودة.

أما هم (= الدعاة الأيديولوجيون والوعاظ المهيِّجون) فللتعكز عليها (القاعدة العريضة) وبها واستغلالها في إزاحة الأنظمة من سكتها والوثوب على السلطة لصالحهم هم.

وفي كلتا الحالتين فإن صحيح الدين والعامة (= القاعدة العريضة) هما الخاسران وللتأكد من مصداقية ذلك عليك بِ ما جرى ويجري وسوف يجري في أفغانستان والسودان.

وبعد هذه التفريعة التي نذهب إلى ضرورتها نعود إلى السياق.

* * *

نورد فيما يلي ما رقمه مفسّر حديث (أو معاصر) سبباً لإشراق الآية ٨٣ من سورة النساء:

(... جماعة في المعسكر الإسلامي لم تألف نفوسهم النظام ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر وفي النتائج التي تترتب عليها وقد تكون قاصمة لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ولم يدركوا جدية الموقف وأن كلمة عابرة وفلتة لسان قد تجر من العواقب على الشخص ذاته وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له على بال).[١]

ثم يضيف «هكذا كان القرآن.. فيغرس الإيمان والولاء للقيادة المؤمنة ويعلم نظام الجندية في آية واحدة».[٢]

إذن من رأي هذا المفسر أن الآية جمعت التربيتين العسكرية

---

(١) «في ظلال القرآن» لِ سيد قطب المجلد الثاني ص ٧٢٣ مرجع سابق.
(٢) ذات المصدر والمجلد ــ ص ٧٢٤.

والسياسة ولا بأس لدينا من ذلك.

وفوقهما أو معهما تجيء الأغراض الآخريات:

رفع الضيق عن صدر «مقيم السنة بعد الفترة» والتنفيس عما أصابه من نكد والإبانة عن مقاصد التنجيم والحكمة منه.

وهكذا أثمرت هذه الآية العظيمة عدة ثمار طيبة.

امتثال أوامر «القائد» بركة ورخصة:

دأب «العادل» على أن يقرع بين نسونه التسع كلما خرج لِ غزاة.

في غزوة المريسى أو بني المصطلق خرج سهم على أم سلمة بنت زاد الركب وآخر على عائشة بنت عتيق وهما الاثنتان من الزوجات الوضيئات.

و(غزوة المريسيع وهو ماء لبني خزاعة بينه وبين الفرع يومان وتسمى غزوة بني المصطلق. وكانت لليلتين خلتا من شعبان سنة خمس وفي البخاري قال ابن إسحق سنة ست، وقال موسى بن عقبة سنة أربع انتهى).[١]

وذهب ابن سعد إلي أنها وقعت في شعبان سنة خمس.[٢]

وبِ حسبة بسيطة تبين أن التيمية بنت ابن أبي قحافة لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها أي «حَدَثَة» كما وصفتها والدتها أم رومان في مناسبة أخرى.[٣]

وفي طريق العودة إلى أثرب ضيّعت عقداً لها أخذتها معها كيما تُحلّي به جيدها في منافستها لِ ضرتها الحسناء الأثيرة لدي «أكرم الناس» هند نعني أم سلمة.

هنا أمر القائد بالتوقف حتى يتم العثور على القلادة المعقودة وفي

---

(١) (المواهب اللدنية) لِ القسطلاني ــ الأول ص ٢٠١/ مصدر سابق.
(٢) (الطبقات الكبرى) الجزء الثالث ــ ص ١٠٤ ــ مصدر سابق.
(٣) الحدث صغير السن والجمع أحداث من «المصباح المنير» ل المقري و«المعجم الوجيز» ل مجمع اللغة العربية.

رواية أخرى سوف تجيء فيما بعد كلف بعض الرجال بـِ **التنقيب عنها.**

حدثت الواقعة في بيداء قفر لا تنبضّ بقطرة ماء للشرب ولا لغيره من الأغـراض ولعـل هذا يضاف إلى الأدلة التي تساق لإثبات حب «صاحب الشفاعة» لِ التيمية.

كما أن حديث الإفك بدأ بـِ: إضاعتها أيضا لِ قلادة وهو تكرار لافت النظر يشـهد علـى يُفوعها «= صغر سنها» حتى انها لا تحافظ على الثمين من حليّها الذي تحرص عليه الحدثـة أو اليافعة أو الصبية بـِ أبلغ ما لديها من عناية.

الصحاب (الذين خوطبوا بالنهي عن الحركة) تململوا وحاك في صدورهم فأرقلوا إلى والد التيمية وبثوه شكايتهم والعنت الذي أصابهم والضر الذي شملهم والضيق الذي انتابهم بـِ سببها:

(حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة زوج النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيـداء أو بـذات الجـيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على التماسه وأقام الناس معـه وليسـوا على ماء، فأتي الناس إلي أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟

فجاء أبو بكر ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واضع رأسه على فخذي قـد نـام، فقال حبست رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء.

فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقـول، وجعـل يطعننـي بيـده فـي خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلاّ مكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ علـى فخـذي، فقام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على غير ماء فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا.

فقال أسد بن الحضير: ما هي بـِ أول بركتكم يا آل أبي بكر.

فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فأصبنا العقد تحته).[١]

إن ما فعله ابن أبي قحافة وما شافهها به يدلان على كثافة شعور التبع ب الحروجة وإحساسهم ب السخط ووجدانهم الغضب.

ولا شك أنه نقل جِماعه ل (أول من يفيق من الصعقة) ونظراً لما يمتاز به من رقة في القلب ورفاهة في العاطفة فقد تألم كثيراً.

بيد أنه كالعادة لا يفاصله (البشرى/ القرآن) بل يقف معه باستمرار فإذا ب آية تبرق بنورها الوضاء «السادسة من سورة المائدة» تحل المشكلة وتفك الأزمة وتخلخل المعضلة وتأمر التبيع بـِ أن يتوجهوا لأديم الأرض ف فيه عوض عن الماء وهكذا عمهم الرضا وشملهم السرور ول ذا انفرجت أسارير (من جعلت له الأرض طهوراً) إذ أن بقاءهم بعيداً عما يعكر أمزجتهم أو يضربهم بـِ الكآبة أو يجرهم إلى وهرة.[٢] العصيان شأن في قُلة الأهمية لأنهم جنوده وعدته وعتاده في نشر الديانة وترسيخ أسس الدولة.

وقبل أن نمضي في توثيق الخبر نشد الانتباه إلى ما جاء في مؤخرته «فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فأصبنا العقد تحته»، إذ كيف لم يدر بخَلَد أحد منهم هذا الاحتمال البسيط؟

* * *

أولاً: من كتب السيرة المحمدية المعطار:

١ ــ (عن عائشة ــ رض ــ.... فلقيت من أبي بكر ــ رض ــ ما شاء الله، أي لأن الناس جاءوا لأبي بكر ــ رض ــ وشكوا إليه ما نزل بهم، فجاء إليها ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واضع رأسه الشريف على فخذها قد نام، فقال لها: حبست رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم

---

(١) (صحيح البخاري) الجزء الأول ــ باب التيمم ــ ص ٩١ ــ الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ ــ كتاب الشعب ــ ب مصر.

(٢) (الوقعة فيما لا مخرج للمرء منه).

ــ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجعل يطعن بيده في خاصرتها ويقول: يا بنية في كل سفرة تكونين عناءً وبلاءً وليس مع الناس ماء، قالت فما يمنعني من التحرك إلاّ مكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على فخذي: أي لأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان إذا نام لا يوقظه أحد حتى يكون هو يستيقظ، لأنهم لا يدرون ما يحدث، فقال حين أصبح، وفي لفظ: فاستيقظ وحضرت الصلاة فالتمس الماء فلم يجد فأنزل الله تعالى الرخصة بالتيمم.

وفي لفظ فأنزل الله تعالى آية التيمم أي التي في المائدة).(١)

البرهان الحلبي من الجائز أن نرقم أنه نسخ الحديث الذي خرجه البخاري في صحيحه، بيد أنه رفع الستر عن كلام التيمي الذي عنف به ابنته، وفيه قدر من القسوة مما يشي بأن الصحاب شحنوا عتيقاً بِ الحنق الذي كنته صدورهم وهو بدوره فرغه في (صورة) عتاب قارص شافه به الابنة الصبية.

٢ ــ (وقيل وفي هذه الغزوة نزلت آية التيمم. وفي الصحيحين من حديث عائشة أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في بعض أسفاره فذكر الحديث).(٢)

أورد القسطلاني معلومة ثقيلة الثمانة، وهي أن الحديث لم ينفرد به البخاري ف حسب بل خرجه مسلم أيضا عند قوله «... وفي الصحيحين» إذن هو متفق عليه.

٣ ــ (وفي هذه الغزاة يعني المريسيع سقط عقد ل عائشة ــ رض ــ فاحتبسوا على طلبه ف نزلت آية التيمم فقال أسيد بن الحضير ما هو أول بركتكم يا آل أبي بكر).(٣)

---

(١) (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون/ الشهير ب السيرة الحلبية) تأليف على بن برهان الدين الحلبي ٩٧٥ ــ ١٠٤٤هـ/ الجزء الثاني ــ الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ــ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ ب مصر.

(٢) (المواهب اللدنية) ل القسطلاني ــ الأول ــ ص ٢٠٢ ــ مصدر سابق.

(٣) (الطبقات الكبرى) ل ابن سعد الجزء الثاني ــ ص ١٠٧ ــ سابق.

طبقات ابن سعد من أميز كتب السيرة المحمدية المعطار والأخبار التي تضمها من التعنت الطعن فيها أو توهينها أو التشكيك فيها.

٤ ــ (قالت: وأيضاً قال: هلكت قلادتك ب الأبواء فأصبح رسول الله ــ صـلى الله عليـه وسلم ــ وأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله تعالى «فلم تجدوا ماءً فتيمموا صـعيداً طيبـاً» المائدة ــ ٦ فكان ذلك بسببك وبركتك ما أنزل الله تعالى لهذه الأمة من الرخصة).[١]

(السمط) ل المحب الطبري ليس كتاباً مباشراً في السيرة المحمدية البالغة السمو إنما هـو يترجم ل بَعْلاته ومن ثم ف إن إلحاقه ب ركب مؤلفات السيرة الزكية ليس شططاً.

٥ ــ (الرابعة: نزول آية التيمم بسبب عقدها حين حبس رسـول الله ــ صـلى الله عليـه وسلم ــ الناس، وقال لها أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر).[٢]

وقد ترجم شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ل بـدر الـدين الزركشـي مصنف كتاب «الإجابة» فقال:

(... وعني بالاشتغال (= أي بالعلم) من صغره فحفظ كتباً وأخذ عن الشيخ جمـال الـدين الإسنوى والشيخ سراج الدين البلقيني ولازمه... وكان منقطعاً عن منزله لا يتردد إلا إلى سـوق الكتب).[٣]

هذا الكتاب «الإجابة» يتناول جانباً من سيرة التيمية ابنة أبي بكر وهو ملاحظاتها على ما رواه عدد من الصحابة من أحاديث «ذؤابة

---

(١) (السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين) محب الدين الطبري ــ ت ٦٩٤هـ ــ تحقيق حمزة النشرتي وعبـد الحفيظ فرغلي ــ ص ١٠٧ ــ الطبعة الأولى ١٩٩٦ ــ الناشر: حمزة النشرتى، مصر.

(٢) (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) ل بدر الدين الزركشي ٧٤٥ ــ ٧٩٤هـ ــ تحقيق رفعـت فوزى عبد المطلب ــ ص ١٨ «الباب الأول في ترجمتها وخصائصها» الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م ــ مكتبة الخانجي ب مصر.

(٣) (الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) ل ابن حجر العسقلاني ــ ت ٨٥٣هـ ــ تحقيق محمد سيد جاد الحـق/ الجزء الرابع/ ص ١٧/ ١٨ ــ د.ت.ن/ دار الكتب الحديثة/ القاهرة.

قريش» ومن ثم يحق لنا أن نعده من حواشى سيرته الحميدة المحمودة.

وقد أكد أن آية التيمم انبثقت بسبب عقدها.

وأبان لنا شيخ الإسلام ابن حجر عن مكانة مصنفه.

نكتفي ب هذا العدد من هذا الضرب من المؤلفات إذ فيه الغنية والكفاء.

* * *

ثانياً: من كتب أسباب النزول

(روى البخاري من طريق عمرو بن الحارث عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ونزل فثنى رأسه في حجري راقداً وأقبل أبو بكر فلكزني لكزةً شديدةً وقال: حبست الناس في قلادة، ثم إن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد فنزلت الآية...

فقال أسيد بن حضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر).[١]

ما فعله السيوطي هو أنه نسخ حديث البخاري في الصحيح، بيد أنه وصف ما فعله أبو عائشة معها ب «اللكز الشديد» وهو في معاجم اللغة: الضرب ب جميع اليد على الصدر فإذا وصف ب الشدة دل على فوران الغضب الذي لمسه في صدور الصحاب وهم يصفون له ما كابدوه من جراء ما صدر إليهم من قرار حاسم ب التوقف الذي يؤوب إلى ضياع قلادتها.

* * *

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ٦٩ ــ مصدر سابق.

ثالثا: كتب التفاسير

١ ــ (نزلت في عائشة ــ رض ــ عندما سقطت قلادتها وهي مع النبي ــ ص ــ في غزاة بني أنمار وهم حي من قيس عيلان).[١]

هذا الكتاب من أقدم مؤلفات تفسير القرآن المجيد التي وصلت إلينا إذ إن واضعه عاش في الخمس الأخير من القرن الأول الهجرى حتى منتصف القرن الثاني.

وقد وصفه المحقق عبد الله شحاتة أنه أقدمها.

٢ ــ (ذكر القشيري وابن عطية أن هذه الآية نزلت في قصة عائشة حين فقدت العقد في غزوة المريسيع).[٢]

٣ ــ (المسألة الثانية في سبب نزولها: لا خلاف بين العلماء علي أن الآية مدنية كما تقدم ذكره في سورة النساء وأنها نزلت في قصة عائشة).[٣]

* * *

ثلاثة من كتب التفسير المعتبرة (= لها اعتبارها) وآخرها اختص ب تفسير آيات الأحكام جزمت بأن آية التيمم هلت بسبب قلادة التيمية.

* * *

هكذا تضافرت مؤلفات من كتب التراث عالية القدر في شتى العلوم الإسلامية على أن «المزمّل» اصطحب معه زوجته عائشة في غزوة بني المصطلق أو المريسيع ول صغر سنها «١٤ سنة» لم تحافظ على عقد حملته معها لتتجمل به ف لما أخبرت به (الرحمة المهداة) أمر بالتوقف حتى يعثروا عليه والمكان صحراء قرعاء جرداء وماؤهم

---

(١) (تفسير مقاتل بن سليمان) ٨٠ ــ ١٥٠هـ ــ تحقيق عبد الله شحاتة ــ الجزء الأول ــ ص ٢٩٨/ د.ت.ن./ ساعد المجمع العلمى العراقى في نشره ــ دار الشروق ــ مصر.

(٢) (تفسير القرطبى) المجلد الثالث ــ ص ٢٠٧٧ ــ مصدر سابق.

(٣) (أحكام القرآن) ل ابن العربى ٤٦٨ ــ ٥٤٣هـ المجلد الثاني ــ تحقيق محمد علي البجاوي ص ٥٨٨ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ــ دار الجبل ــ بيروت.

نفد ف لا مجال لشرب أو وضوء أو اغتسال أو سقي الدواب.

النهي الحاسم عن التحرك ولو خطوة واحدة دفع عدداً من التباع إلى التوجه إلى ابن أبـــي قحافة والد التيمية التي تسببت ب عدم حرصها على حليتها في هذا الموقف الحرج، فيتوجه عتيق إلى ابنته الصبية الحدثة ويعنفها ــ وعندما يستيقظ (القانت) من نومه ينقل إليه وزيره الأول وأكبر مستشاريه غليان الرأي العام وسخط الصحاب.

يحيط (سيد العرب والعجم) ب حقيقة الأمر فيؤذيه تسلسل الأحداث، ف من ناحية أوضحنا فيما سبق مكانة عسكره وحرصه على البعد عن إغضابهم، ومن رجا آخر فإن مما يخل ب هيبـــة القائد تراجعه عن أمر أصدره إذعاناً ل مشيئة عساكره (مرءوسيه) وأنه لو فعل فسوف يشـــجعهم على المشي في هذا الدرب الخطر، ومن جانب ثالث ف العدول عن قـــرار الوقـــوف واســـتبدال التحرك به دون العثور على القلادة سوف يثير سخط البعلة الغندورة (الغضة الإهاب) التي صرح مراراً بأنها أحب الناس إليه وأن حبها متمكن من شغاف فؤاده كما العروة الوثقى، إذن ما المخرج من هذه الثلاثية المربكة؟

كما رأينا مراراً فإن (الهادي/ العجب = القرآن) لا يترك مجالاً ل الهم أو القلق أن يقترب من (خيرة قرابين الله) وإذا حاول أحدهما أن يفعل فإنه يقطع دابره ومن هنا هلت الآيـــة السادســـة من سورة المائدة مثل القمر المنير ومنحتهم رخصة التيمم ووصفها أحد متنفذيهم بأنها بركة.

فانفثأ غضب التبيع ورحل مسرعاً الضيق عن صدر (سعد الخلائق) وأخذ الصحابة علـــى يدها درساً بليغاً في التربية السياسية وهي أن الامتثال ل أمر القائد والإذعـــان لقـــراره والتســـليم المطلق ل إرادته يثمر الخير الكثير والبركة الوفيرة والنعمة السابغة.

إن هذه الآية دليل فاذ على ارتباط (النور/ القرآن) ب الواقع

المعاش والتحامه به وارتباطه معه ب آصرة شديدة الإحكام.

إذن دعاوي التباعد والتجريد والانفصال فارغة من الدليل، فقيرة إلى الحجة، معوزة إلى البرهان يطلقها أصحابها لا من باب العلم إنما من نافذة الايديولوجيا.

وأخيراً لولا التنجيم «أي إشراق السور والآيات على دفعات».

هل يغدو من الجائز حل هذه المعضلة ذات الضفائر الثلاث؟

* * *

هناك رواية أخرى نجد أن موجبات البحث تفرض علينا طرحها:

(أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم عن عائشة: إنها استعارت من أسماء قلادة، فهلكت فأرسل رسول الله ــ ص ــ ناساً من أصحابه في طلبها، فأدركتهم الصلاة فصلوا بغير وضوء، فلما أتوا النبي ــ ص ــ شكوا ذلك إليه، فنزلت آية التيمم فقال أسيد بن حضير: جزاك الله خيراً فوالله ما نزل بك أمر قط، إلاّ جعل الله لك منه مخرجاً وجعل للمسلمين فيه بركة).[1]

قال المصنف الأزهري إن إسناده صحيح.

وإن أحمد بن حنبل خرجه في المسند والطبراني في الكبير.

وأورده الواحدي في «الأسباب».

هنا نجد أن مصنف «المقبول» زبرنا ب كوكبة لامعة من المصادر العوالى التي قدمت الخبر المذكور: البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي أي أربعة من أصح كتب السنة على وجه الإطلاق والتي أطبق على تقديرها أهل السنة والجماعة، ب الإضافة إلى مسند أحمد بن حنبل وكبير الطبراني ولكل منهما مقام محمود في هذا المجال، والأخير «الكبير» ينافس الأول «المسند» في الطول أي في احتوائه على عدد كبير من الحديث المحمدي الشريف.

---

(١) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ٢٧٣/ ٢٧٤ ــ مرجع سابق.

وزاد عليها كلها أن الواحدي أورده في أسباب النزول.

نخرج من جماعه أن الحديث عري عن المطاعن، مليط من الشكوك بعيد عن التضعيف «من الضعف».

هذا الخبر الصحيح الذي حملته إلينا مجموعة فاخرة من ذرى دواوين السنة المحمدية ينفحنا بسبب آخر مغاير ل هل الآية السادسة من سورة المائدة.

هو يطلعنا على صورة معجبة لطاعة الجند المطلقة ل قائدهم الحبيب ف هو يأمر نفراً من الصحابة بالبحث عن القلادة التي أضاعتها التيمية والتي استعارتها من أختها أسماء فيمتثلون للأمر ويسلمون بلا تأفف ولا نأمة تذمر ولا نبرة احتجاج ولا كلمة معارضة.

يرقلون إلى تنفيذ الأمر ويبعدون في الصحراء حتى تدركهم الصلاة وإذ لا ماء ل وضوئهم فإنهم صلوا بغير طهور لأنهم بين خيارين أحلاهما أمر من العلقم:

١ ـ إمّا أن يعودوا دون تنفيذ المهمة التي كلفهم بها وإمّا ـ ٢ ـ أداء الصلاة بغير وضوء رغم أنهم يعلمون عدم جوازه.

ولكنهم فضلوا الأخير لأن الله غفور رحيم وعالم ب الحال.

وفي رأينا أن التاريخ لم يرَ طاعة عسكر ل قائدهم مثلها.

المهم: عند عودتهم شكوا إليه وعرضوا عليه الأمر برمته ليفتيهم.

وهنا تتهادى كالكوكب الدري آية التيمم وتقضي على الشكاية وتخبر الصحب أن صلاتهم مقبولة.

وفي هذا الخبر لا ينسى أسيد بن حضير «أبوه حضير الكتائب» أن يدعو ل التيمية كما فعل في الخبر السابق، مما يؤكد أنه انقطع ل بنى تيم يطلب البركة لهم في كل واقعة ويثني عليهم لدى أي نازلة ويمدحهم عند وقوع أصغر حادثة مما يدفعنا أن نزير أن أقواله هي الجذر التاريخي لما تلاها على مر العصور حتى يومنا من

مدائح الطباالين والتمجيدين التفخيميين.

* * *

ب المقابل: الطاعة جزاؤها الرضوان ومثوبتها الفتح والمغانم الكثيرة:

في السنة السادسة من النزوح إلى أثرب ــ خرج «المنصور ب الرعب مسيرة شهر» ومعه ألف وخمسمائة من تبيعه ومعه بعله أم هند وترك التيمية «١٥ سنة» ربما لما سببته من متاعب من قبل، يريدون أداء العمرة وساقوا الهدى وليس معهم من سلاح إلا السيوف في القُرب «بضم القاف والراء جمع قراب».

وساروا حتى وصلوا إلى الحديبية على تسعة أميال من قرية القداسة.

بيد أن بني سخينة، وقد خذلهم الله في غزاة الأحزاب أو الخندق وردهم مقهورين، يجرون أذيال خيبتهم القوية، تصدوا لهم يبغون منعهم من إتمام نسكهم.

وإذ إنه مضرب المثل في الحلم وسعة الصدر ورحابة الأفق ونفاذ البصيرة فقد آثر أن يسلك معهم محجة المراوضة وسكة المفاوضة وطريق المداولة علهم يثوبون إلى رشدهم ويعودون إلى صوابهم ويحكّمون عقولهم.

خاصة أن ملأ قريش اشتهر بالحجى وامتاز ب التفكير وتحلى بالتدبير والبعد عن الطيش ومجافاة الاندفاع ومفارقة التهور.

ولو أن جماعه لا يمنع من وجود واحد أو اثنين من بينهم على النقيض خاصة الذين لحقت بهم مصائب في وقعة بدر الكبرى أو من الذين تأثرت تجارتهم بعد فلج «المعصوم من الناس» في السيطرة على الطريق المؤدى إلى الشام قبلة قوافلهم الصيفية.

فأرسل مندوباً عنه «خراش بن أمية الكعبي» ليخبرهم بما جاء له، فعقروا به وأرادوا قتله فمنعه من هناك قومه، فأرسل عثمان بن

عفان، فقال اذهب إلى قريش فأخبرهم أنّا لم نأتِ لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمته، معنا الهدى ننحره وننصرف، فأتاهم فأخبروه فقالوا: لا كان هذا أبداً ولا يدخلها علينا العام.

وبلغ رسول الله ــ ص ــ أن عثمان قد قتل فذلك حيث دعا المسلمين إلى بيعة الرضوان وبايعهم تحت الشجرة.[١]

نكتفي ب هذه السبعة مصادر ومراجع من مؤلفات السيرة المحمدية الرائعة للتدليل على صحة الخبر وهو مدرج في عظمها.

والحق أن إقبال التباع على المبايعة وعدم تخلف واحد منهم خلا من طوى قلبه على النفاق يشكل صورة مبهرة.

فمن ناحية يقطع بالطاعة المقرونة بالحب للقائد.

ويشي بكامل الولاء ويكشف عن الإخلاص الشامل.

ومن رجا آخر فهو يطرح حجة قوية على الشجاعة الفائقة.

فالتبيع لا يتجاوز بأي حال عددهم الألفين. ذكر ابن إسحق أن

---

(١) **أولاً المصادر:**
١ ــ (سيرة ابن إسحق) المجلد الثاني ص ١٣٠ ــ ١٣١ ط ــ أخبار اليوم ــ سابق.
٢ ــ (الطبقات الكبرى) ل ابن سعد ــ الجزء الثالث ــ ص ١٤١ ــ مصدر سابق.
٣ ــ (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) السيرة الحلبية ــ الثاني ــ ص ٧٠١ ــ مصدر سابق.
٤ ــ (المواهب اللدنية) ل القسطلاني ــ الأول ــ ص ٢٣٨ ــ مصدر سابق.
ثانيا المراجع:
٥ ــ (دراسات في السيرة وعلوم السنة) ل موسى شاهين لاشين وآخر ص ١٧٠ ــ الطبعة الأولى ١٩٨٤ ــ الفجر الجديد ــ صمر.
٦ ــ (سيرة المصطفى ــ نظرة جديدة) ل هشام معروف الحسين ص ٥٢٦ ــ مرجع سابق.
٧ ــ (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) ل محمد الخضري ــ ص ١٨٩ ــ مرجع سابق.

العدد يتراوح ما بين السبعمائة والأربع عشرة مائة.[١]

ولا تضم أيديهم من السلاح سوى القواصل.[٢]

في حين أن قريشاً في مكنتها أن تجيش عسكراً عددهم خمسة آلاف، إذ إنها في غزوة أحد جمعت ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس.

أي أن القوة بينهما غير متكافئة، ومفاده أن الصحابى يوقن أنه سوف يدخل عركة فدائية استشهادية بيد أنه لم يعبأ وما إن أصغى له هيعة البيعة حتى هرول إليها وأعطاها يده راضياً مختاراً وقلبه مفعم ب السرور.

خاصة بعد أن أعلمهم المنادي أن جبريل نزل من السماء كيما يشهدها.

هذا الإجماع أثلج صدر «المظفر/ المعزز» وأفعم فؤاده ب الطمأنينة وعبأ حناياه ب الحبور.

هذا الموقف الشعوري البالغ الروعة من المستحيل أن يفلت من «الشفاء/ الموعظة أي القرآن» دون أن تطلع منه آية كريمة مثل البدر المكتمل تهنئ الأتباع ب الرضا والسكينة وتعدهم بالفتح والمغانم الكثيرة.

(أخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال: بينما نحن قائلون، إذ نادى منادي رسول الله ــ ص ــ أيها الناس البيعة البيعة أنزل الروح القدس، فسرنا إلى رسول الله ــ ص ــ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه فأنزل الله «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً).[٣]

* * *

---

(١) (السيرة النبوية) الثاني ص ١٢٥ ــ ١٢٦ ط ــ أخبار اليوم ــ سابق.
(٢) القواصل هي السيوف مثل القواضب والقواطع. من كتاب «نظام الغريب في اللغة» ل عيسى الربعى الوحاظى الحمدى ــ تحقيق محمد على الأكوع ــ ص ١٢٧ ــ مصدر سابق.
(٣) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ١٥٥ ــ سابق.

نعرج بعدها على كتب التفسير:

(... والباقى واضح إلى قوله «لقد رضى الله» وبه سميت بيعة الرضوان ولا يبايعونك حكاية الحال الماضية، والشجرة كانت سمرة، وقيل سدرة، رُوي أنها عميت عليهم من قابل فلم يدروا أين ذهبت.

وعن جابر بن عبد الله: لو كنت أبصر لأريتكم مكانها.

«فعلم ما في قلوبهم» من خلوص النية «فأنزل السكينة» الطمأنينة والأمن عليهم، «وأثابهم» جازاهم عن الإخلاص في البيعة «فتحا قريباً» هو فتح خيبر غب انصرافهم من الحديبية كما ذكرنا، وقيل هو فتح مكة».[1]

ويستخرج الفخر الرازي معاني لطيفة من المسارعة في البيعة وأنها دليل الصدق وحجة الإخلاص وبرهان عمق الإيمان:

«لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم» من الصدق إشارة إلى الرضى لم يكن عند المبايعة فحسب بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم.

والفاء في «فأنزل السكينة عليهم» للتعقيب الذي ذكرته فإنه تعالى رضى عنهم فأنزل السكينة عليهم.

... وقوله تعالى «وأثابهم فتحاً قريباً» هو فتح خيبر.

(ومغانم كثيرة يأخذونها) مضامغها وقيل مغانم هجر...).[2]

* * *

رسم لنا ابن جزي الكلبي صورة تنبض ب الحياة والحيوية ل بيعة الرضوان المعجبة («لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» قال رسول الله ــ ص ــ لا يدخل النار إن شاء الله أحد من أهل الشجرة الذين بايعوا تحتها..

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمّي ــ المجلد العاشر ــ ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧ ــ مصدر سابق.
(٢) (مفاتيح الغيب ــ التفسير الكبير) ــ ل فخر الدين محمد الرازي المجلد الرابع عشر ص ٣٣١ ــ ٣٣٢.

وفي الحديث أنهم كانوا ألفا وأربعمائة وقيل ألفا وخمسمائة.

وسبب هذه البيعة أن رسول الله ــ ص ــ لما بلغ الحديبية وهي موضع على نحو عشــرة أميال من مكة أرسل عثمان بن عفان ــ رض ــ رسولاً إلى أهل مكة يخبرهم أنــه إنمــا جــاء ليعتمر وأنه لا يريد حرباً.

فلما وصل إليهم عثمان حبسه أهله كرامة له.

فصرخ صارخ أن عثمان قد قتل فدعا رسول الله ــ ص ــ الناس للبيعة على القتــال وألاّ يفر أحد وقيل بايعوه على الموت ثم جاءه عثمان بعد ذلك سالماً...

«فعلم ما في قلوبهم» يعني من صدق الإيمان وصدق العزم...

«وأثابهم فتحاً قريباً» يعني فتح خيبر وقيل فتح مكة والأول أشهر.

أي جعل ذلك ثواباً على بيعة الرضوان زيادة على ثواب الآخرة، أما الغنائم المذكورة فهي غنائم خيبر.[١]

من هذه اللوحة البديعة نستقطر بعض المعلومات البالغة الثمانة منها:

ــ أن التبع الذين شهدوها ضمن لهم «صاحب لواء الحمد» عدم دخول النار وب مفهــوم الموافقة دخول الجنة وبذا تغدو مقولة البعض أن المبشرين ب الجنة هم عشرة فقط فيها تحجير ل واسع وتضييق ل مفرطح.

خاصة أن العشرة كلهم من بنى سخينة.

في حين أن أهل بيعة الرضوان من قبائل شتى وبطون متعددة وأفخاذ متفرقة وهــذا هــو الأقرب إلى روح الإسلام.

ــ أن حبس عثمان بن عفان الأموي قام به رهطه إكراماً له، وفي روايات أخــرى أنــه دعى ل الطواف حول الكعبة المشرفة فرفض لأن

---

(١) (كتاب التسهيل لعلوم التنزيل) ل محمد بن أحمد بن جزّي الكلبي ــ الجــزء الرابــع ــ ص ٥٤ ــ مصــدر سابق.

«الحامد» وصحبه محرومون منه.

وحبس ابن عفان من قبل بني أمية أدنى إلى المعقولية وأقرب إلى المنطق من سواه لأنهم من القوة والمنعة بحيث لا يتصور معه أن يعرض له أحد بسوء مهما بلغت مكانته لأنه إن فعل لن يفلت من النكال الأليم والعقاب الصارم والجزاء الرادع، ولعل هذا هو سر اختيار عثمـــان ل أداء المهمة بعد أن اعتذر العدوي عمر بن الخطاب ل ضعف أرومته عن حمايته.

(ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من عدي بن كعب أحد يمنعني).[١]

ــ أن البيعة على الموت كما وصفناها استشهادية وهذا هو أس روعتها ومنبـــع شـــموخها وأصل سموها.

ــ عدد الكلبي المكافات السخية والعطايا الجسيمة والمنح الوفيرة التي أهـــديت للمبـــايعين تحت الشجرة والتي سوف تنفح لهم مستقبلاً.

ــ من هنا فتعرف أهمية حضور البيعة وخطورة شهودها ف هو نوط بالغ الرفعـــة ومـــن فازوا ب حمله أو تعليقه على صدورهم نظر إليهم المسلمون إبان ذياك الزمان ويعده نظرة إكبـــار وإعجاب.

كيف لا وقد وضعوا أرواحهم على أكفهم فداءً ل عقيدتهم وإخلاصاً ل سيدهم.

* * *

ومن التفاسير المعاصرة

(يخبر الله تعالى برضاه عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة وكانوا قد بايعوا رســـول الله ــ ص ــ تحت الشجرة على الموت وعلى

---

(١) (السيرة النبوية) ل ابن إسحق ــ المجلد الثاني/ ص ١٣٠ ــ ط/ أخبار اليوم/ مصدر سابق.

ألا يفروا وذلك عندما أرسل النبي ــ ص ــ عثمان إلى قريش كمبعــوث لرســول الله ــ ص ــ يخبرها أنه جاء معتمراً معظماً للبيت الحرام.

لكن قريشاً احتبست عثمان.

وأشيع أنه قد قتل، فتمت هذه البيعة...

«لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة...» إلى آخر الآية.

إن الرضا والبركة والرحمة والفضل والسكينة والأمان والمغفرة. قد نزلت من الله تعــالى على هؤلاء الصحابة الأجلاء وكانوا ألفاً وأربعمائة رجل، قد بــايعوا رســول الله تحــت شــجرة الرضوان فسجل الله رضاه عنهم وقال لهم «أنتم خير أهل الأرض». وقد حضر جبريــل الأمــين هذه البيعة).[١]

ب هذا تتامت براهين الثبوت من عديد من المصادر ذات الرتب العوالى بخلاف المراجــع ل هذا الخبر.

ومنه يبين أن الصحاب في هذه المرة فعلوا صنيعاً باهراً طابت له نفس «خير هذه الأمة» وقرت عينه وانشرح صدره.

و«الشفاء = القرآن» كما يؤازره في الشدة ويعاضده في المحنة ويأخذ ب ضَبْعَيْه.[٢]

كذلك في وقت سروره وساعة فرحه تراه ب جانبه في الأزمة.

ولا شك أن أصحاب بيعة الرضوان لا يتصور أحد مدى انبساطهم فقــد فــازوا بتحقيــق الأمنية التي يتشوق إليها كل مسلم وهي دخول الجنة.

أما في الدنيا فالفتح القريب والمغانم الكثيرة، وسبق أن رقمنا أنه مــا مــن شــيء يــدخل السعادة على أولئك العربان أكثر من الأنفال والأسلاب والغنائم ب الإضافة إلــى أنــه يوثــق أن «المجيد/ الزبور أي

---

(١) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله شحاتة ــ الجزء السادس والعشرون ــ ص ٥٤٥٥ ــ مرجع سابق.
(٢) الضبْع بسكون الباء: العضد والجمع أضباع من «المصباح المنير» المقري الفيومي و«المختار» من صــحيح اللغة.

القرآن» تربطه ب الواقع صلة شديدة الحميمية.

وتتضح علة انبثاقه منجماً: أجزاء وتفاريق لا دفعة واحدة.

والنصوص التي تتحاور مع الواقع المعاش في كافة تعرجاته وسائر منعطفاتــه وجمــاع تقلباته تنفي ب ذاتها عن نفسها دعاوي الانفصال والتجرد والتباعد التي يــروج لهــا الــبعض ل حاجت في نفوسهم.

* * *

لا تعتدوا حتى على من تبغضون:

(أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال:

كان رسول الله ــ ص ــ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت.

وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقــال أصحاب النبي ــ ص ــ نصد هؤلاء كما صدنا أصحابنا، فأنزل الله:

«ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا») المائدة ــ ٢.[١]

الواقعة كما وضعها الخبر:

مشركون مشارقة في طريقهم إلى قرية القداسة بكة ل أداء العمرة مروا في طريقهم علــى المسلمين وهم وقوف ب الحديبية من جراء تعرض مشركي قريش لهم فهم نفر من الصــحاب ب منعم وصدهم مثل ما فعل معهم بنو سخينة.

الذي نعلمه عن خلق «أبي القاسم» الرفيع وعدالته العربية عن الضروب ومروءته التــي تند عن الشبيه أنه رفض هذا الموقف الجائز.

إذ ما هو ذنب هؤلاء العمار = هل هم الذين حرضوا المكاكوة على حبسهم عنــد حــدود الحديبية؟ ألم يعلمهم مراراً وتكراراً أن الإنسان

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ص ٦٨ مصدر سابق.
(أسباب النزول) ل الواحدي ــ ص ١٢٦ مصدر سابق.

مسئول عن فعله لا عما يعمله سواه؟

كم مرة سمعوه وهو يتلو عليهم الآية العظيمة التي ترسخ قواعد العدل أساس الملك وقوام المجتمع:

«ولا تزر وازرة وزر أخرى».(١)

أليس من الكياسة وحسن السياسة وبعد النظر الحصول على وداد المشارقة بدل اكتساب عداوتهم؟

من أجل هذا ضاق صدره عندما تناهى إلى سمعه الشريف شروع الصحب في ارتكاب العمل الأسيف.

ومن البديهي أنه في مقدوره زجرهم عنه ونهيهم عن المضي فيه وكفهم عن التمادي، إنما خشى أن يذر منعهم أثراً في نفوسهم ويخلف مرارة في حلوقهم ويترك ندوباً في صدورهم وهم جنوده الخلص وعسكره الأصفياء وأعوانه الأوفياء.

هنا تشع ك النور الساطع الآية الثانية من سورة المائدة تؤيد «من جعلت له الأرض مسجدا إلاّ المقبرة والحمام» وما إن يتلوها عليهم حتى يسكنوا ويطمئنوا ويعلموا أن التوجيه ليس من قبله إنما جاء به «أحسن الحديث».

* * *

بعد كتب «أسباب النزول» نؤم:

كتب التفسير

١ ــ أورد القمّي النيسابوري الخبر بنصه.(٢) ومن ثم ينسحب عليه التحليل الذي نسخناه آنفاً.

٢ ــ (فتأويل الآية إذا: لا يحملنكم بغض قوم لأن صدوركم عن المسجد الحرام أيها المؤمنون أن تعتدوا حكم الله فيهم فتتجاوزوه إلى ما نهاكم عنه).(٣)

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة الأنعام والآية ١٨ من سورة فاطر.
(٢) (غرائب القرآن) المجلد الرابع ــ الجزء السادس ــ ص ١٨٢/ ١٨٣ مصدر سابق.
(٣) تفسير الطبري/ الجزء التاسع/ ص ٤٨٩ ــ سابق.

ثم سطر كبير الآباء المؤسسين لعلم التفسير أبو جعفر الطبري «أن هذه السورة ــ يعني المائدة ــ لا تدافع بين أهل العلم في أنها نزلت بعد الحديبية».[١]

مفاده أن سورة المائدة التي نتفيئ ظلال الآية الثانية منها هلت بعد محاولة الصحاب منع المشركين المشارقة عن أداء عمرتهم.

الرد عليه = جميعه لا يقدح في أن الآية فاضت كما النبع الصافي غب الحادث مباشرة ثم ألحقت من بعد في موضعها في السورة إذ يوجد فرق واضح يعلمه المتمرسون في علوم القرآن بين «تاريخ النزول» و(ترتيب التلاوة) ف شيخ المفسرين إنما عنى الأخير لا الأول.

يوضح لنا السيوطي هذه التفرقة الدقيقة «قد تنزل الآيات على الأسباب الخاصة وتوضع مع ما يناسبها من الآي العامة لنظم القرآن وحسن السياق».[٢]

إذن لا تعارض بين ما ذهب إليه كبير الآباء المؤسسين لعلم التفسير من إطباق أهل العلم على أن سورة المائدة هلّت بعد الحديبية ــ والبعض جزم أنها من أواخر سور القرآن ــ وبين أن آيتها الثانية تلألأت بشأن الصد الذي مارسه بعض التباع إبان الحديبية إذ إن الحاقها ب «المائدة» مرده كما زبر السيوطي توكأ على المناسبة في النظم وحسن السياق.

٣ ــ ما رجحناه هو عين ما أكده القرطبى في تفسيره:

(قال ابن زيد لما صدّ المسلمون عن البيت عام الحديبية مر بهم ناس من المشركين يريدون العمرة، فقال المسلمون نصدهم كما صدنا أصحابهم ف نزلت هذه الآية).[٣]

---

(١) ذات المصدر السابق والجزء ــ ص ٤٨٨.

(٢) (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطى الجزء الأول ــ ص ٤٠ ــ الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ــ مكتبة مصطفى البابي الحلبي ــ ب مصر.

(٣) (تفسير القرطبى) ــ المجلد الثالث ــ ص ٢٠٤٣ ــ سابق.

النص والدلالة معا يطبقان على أن الآية العظيمة أعقبت الصد دون أبطاء، وهي حقيقة لا تحتاج إلى إبانة ولا تفتقر إلى إيضاح ولا تفتقد إلى شرح.

٤ ــ ونختم ب تفسير حديث أو معاصر:

(لا يحملنكم شدة بغضكم لقوم سبق أن صدوكم عن المسجد الحرام ــ كما حدث يوم الحديبية ــ لا يحملنكم ذلك على الاعتداء عليهم فالإسلام دين العدل..).[١]

* * *

نمرق من جماعه إلى أن الآية حققت أهدافاً عديدة: ف من ناحية أيقن التبيع أن النهي عن صد المشركين حملته آية مجيدة ساهمت في ترتبيتهم سياسياً بأن يموضعوا العدالة نصب أعينهم وأن يحرصوا على زيادة رصيد أصدقائهم وأن يتعلموا أن من لا يحتاجون له اليوم ربما يعوزونه في غد واستراح «صاحب السرايا» لاقتناعهم ب التوجيه الكريم الذي بدأه معهم وعاضدته فيه الآية العظيمة التي في ذات الوقت انضمت بدورها إلى أدلة الثبوت السوابق على حوار (الصحف المكرمة/ القرآن) مع الواقع.

وأنه بالتنجيم حاز الميزة الباهرة التي نفحته الحيوية والنضارة والفتاء المتجدد وأعلت مقامه على ما سبقه.

* * *

التزام الأدب في مخاطبة القائد

عظم التبيع من العربان الجفاة الذين لم يتربوا في أسر تلقنهم أصول التهذيب ولا في مدارس تتولى توجيههم أو في مجتمع يحد من حوشيتهم.

ومن ثم لم يدر بخلد أحدهم أن يتأدب عند ما يكلم سيده وسيد الخلائق.

الأمر الذي ضايقه وآذى أحاسيسه وخربش مشاعره.

---

(١) (في رحاب التفسير) عبد الحميد كشك/ السادس/ ص ١٠٦٤/ مرجع سابق.

وهو كما سبق أن رقمنا: كل من عاشره يطبق على أنه أشد حياءً من العذراء الخدرة، والذي راكم ضيقه وضاعف حروجة صدره الشريف وزاد من ألمه صدور هذا المسلك الفج والتصرف الممجوج والفعل الطفس من تباع أكابر من المفترض أنهم على النقيض:

(«يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي...» إلى آخر الآية الثانية من سورة الحجرات) روى البخاري والترمذي بسنديهما عن أبي مليكة قال: حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبي ــ ص ــ فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله، فتكلما عند النبي ــ ص ــ حتى ارتفعت أصواتهما، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلاّ خلافي فقال عمر: ما أردت خلافك، قال: فنزلت هذه الآية: «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي... الآية. ومعنى الآية = «يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله = عظموا رسول الله ــ ص ــ إذا حدثتموه فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته...».(١)

الحديث رواه البخاري مقدم كتب الصحاح والترمذي وهو منها ووضع أيدينا عليه التفسير الوسيط الصادر بإشراف مجمع البحوث الإسلامية وبذا يمكن أن نطلق عليه التفسير الرسمي ل المعهد العتيق المشهور ب الأزهر، فأنّى يلحقه الضعف أو يلم به التوهين أو يركبه الهزل أو يصل إليه الجرح، أو يهيمن عليه القدح.

فيه نرى التيمي عتيق والعدوي ابن الخطاب في حضرة «ذؤابة ولد آدم» يختلفان ويتنازعان ويتجادلان بصوت عال «.. حتى ارتفعت أصواتهما»...

---

(١) (التفسير الوسيط ل القرآن الكريم) تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ــ المجلد الثالث ــ الحزب الثاني والخمسون ص ١٠٢٧ ــ ١٠٢٩ ــ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨٩م ــ الأزهر ــ القاهرة.
(سبق أن زبرنا وما زلنا نكرر: أنه أقرب إلى هدى الإسلام وسنة السلف الصالح لو أن مجمع البحوث الإسلامية ب المعهد العتيق سطر على غلاف الكتاب «تأليف لجنة من المشايخ أو الوعاظ أو خطباء المساجد أو من الأساتذة بدلاً من لجنة العلماء.
ورحم الله الأئمة الأثبات الذين كانوا يستهجنون وصف ذواتهم ب علماء. ا.هـ»

والأمر لا يحتاج إلى فطانة ولا يفتقر إلى فقاهة ولا يضحى في عوز إلى ذكاء أن «الحبيب المصطفى» استهول هذا المسلك الفلوك منهما.

ولو بادر ب زجرهما وأسرع إلى نهرهما وأرقل إلى توبيخهما ل حز في صدريهما وكسر قلبيهما وحمل الضجر إلى نفسيهما.

وهما وزيراه والمجلى والمصلّى في مجلس شوراه وهما صهراه وأولهما أبو أحب زوجاته إليه «عائشة» وليس من اللائق أن يعذل العدوي ويذره كما أنهما من بنى سخينة قبيلته. سكت عن مضض وصمت عن أدب جم وصبر من باب حسن الخلق.

بيد أن نفسه الكريمة شحنت ب الأسى الدفين فهل يتركه «المتشابه/ القرآن» يكابد هذه الأحاسيس؟

ب التأكيد تأتي الإجابة ب النفي القاطع، ف تتلألأ ك النجم الثاقب الذي يبدد بضوئه اللامع حجب الظلام الكثيفة الآية الثانية من سورة الحجرات.

ول زيادة التوثيق نورد ما يلي:

(أخرج البخاري وغيره عن طريق ابن جريج عن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله ــ ص ــ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر ما أردت إلاّ خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك قوله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا» ... على آخر الآيات).[١]

كذلك أورده الواحدي بنصه في «الأسباب».[٢]

وقد رواه أبو عمر نادي الأزهري ب صيغة مقاربة:

(أخرج البخاري والإمام أحمد عن أبي مليكة قال: كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر، لما قدم على النبي ــ ص ــ وفد بنى تميم، أشار

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ص ١٥٥/ مصدر سابق.
(٢) (أسباب النزول) ل الواحدي النيسابوري ــ ٢٥٦ ــ مصدر سابق ذكره.

أحدهما بالأقرع بن حابس الحنظلي أخ بنى مجاشع، وأشار الآخر بغيره، قال أبو بكر لعمر: إنما أردت خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما عند النبي ــ ص ــ فنزلت: «يا أيها الذين آمنوا...» إلى آخر الآيات) وقد وصف الأزهري هذا الحديث ب أنه صحيح في هامش الصفحة وأضاف أنه خرجه كل من البخاري في الصحيح في كتاب التفسير والنسائي في كتاب القضاء والترمذي في كتاب التفسير وأحمد في مسنده وأبو يعلي في مسنده والواحدي في أسباب النزول.[١]

* * *

(قال تعالى في الآية اللاحقة «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي... إلى وأنتم لا تشعرون) ــ الحجرات ٤٩/ ٢ ــ وقصتها أنه قدم وفد تميم منهم الأقرع بن حابس، فكلم أبو بكر النبي ــ ص ــ أن يستعمله على قومه، فقال عمر: لا تفعل يا رسول الله! فتكلما حتى ارتفعت أصواتهما عند النبي ــ ص ــ فنزلت الآيات.

قال ابن أبي مليكة: كاد الخيران أن يهلكا: أبو بكر وعمر! رفعا أصواتهما عند النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ.

وفي هامش ص ٣٩: انظر تفسير الطبري ١٣ ــ ١١٩ سنن الترمذي ٥ح ٣٢٦٦ ــ سنن النسائي ــ كتاب القضاء باب ٨ ــ ٥٩٣٦ ــ أسباب النزول للواحدي: ٢١٥ ــ لباب النقول: ١٩٤ ــ الدر المنثور ٧ ــ ٥٤٦، ٥٤٧.

وفي هامش ص ٤٠: صحيح البخاري ــ تفسير سورة الحجرات باب ٣٢٩ح ٤٥٦٤.[٢]

---

(١) (المقبول) ص ٦٠٦/ ٦٠٧ ــ مرجع سابق.

(٢) (تاريخ السنة النبوية ثلاثون عاماً بعد الرسول) ل صائب عبد الحميد ــ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م ــ الغدير للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ لبنان.

مؤلف الكتاب وثق الخبر توثيقاً رائعاً ف زبر أن مصادره:

البخاري في الصحيح ــ والترمذي في السنن والنسائي في السنن.

هذا عن كتب الحديث.

أما في مربع مؤلفات «أسباب النزول» فقد ذكر. كتاب «أسباب النزول» ل الواحدي وكتاب «لباب النقول» ل السيوطي.

ومن التفاسير = «تفسير الطبري» و«الدر المنثور» ل السيوطي.

ومن المفسرين الذين أكدوا أن الآية المعظمة هلّت بشأن سلوك التيمي والعدوي: ابن جزّي الكلبي:

(«إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله» نزلت في أبي بكر وعمر ــ رض ــ..»).[١]

والقمّي النيسابوري في الغرائب.

(وذكر المفسرون في أسباب النزول وجوهاً منها ما رُوي عن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبر أنه قدم ركب من تميم إلى آخر الخبر).[٢]

وبذا تأكدت صحة الحديث بعد أن حملته هذه الكوكبة الرائعة من كتب التفسير وأسباب النزول والحديث المحمدي الشريف.

ولا يفوت القارئ الفطن أن أبا مليكة قال إن التيمي والعدوي أوشكا على التهلكة إذ فعلا ذلك، كيف لا وقد تجاوزا قدريهما وتعديا حديهما وتخطيا درجتيهما ولم يلزما غرزيهما بل نسيا أو تناسيا أنهما يجلسان مع «أعظم من وطئت قدماه أديم الأرض».

وما إن هلت الآية الكريمة ب أضوائها اللوامع حتى عادا إلى رشديهما وطفقا يخفضان صوتيهما عندما يخاطبانه أو يكلمان أحداً

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمّي النيسابوري ــ المجلد العاشر/ ص ٢٤١ ــ مصدر سابق.
(٢) (كتاب التسهيل ل علوم التنزيل) ل ابن جزّي الكلبي/ الجزء الرابع ص ٥٨.

في وجوده، حتى قيل إن الواحد منهما عندما يتشرف ب الحديث معه يساره في أذنه.

(قال ابن عباس: لما نزلت الآية قال أبو بكر يا رسول الله لا أكلمك إلاّ السرار أو كــأخي السرار حتى ألقى الله).[١]

* * *

وهكذا حققت هدفيْن:

أ ــ علمت الصحبة الأدب في حضرة سيدهم وسيد العرب والعجم عندما يكلمهم أو عندما يشافهونه وهذه منها يد طولى في تربيتهم سياسياً واجتماعياً.

ب ــ أزاحت عن نفس القائد ما ألم بها من عنت من جراء جفاء طبع تبيعه وعدم تفرقتهم بين مجلسه الشريف ومجالسهم السوقية وبين توجيه القول إليه وخطاب بعضهم ل بعض.

وحفظ الأتباع الدرس ووعوه وطبقوه ب حذافيره لكي لا تحبط أعمالهم ف لا يدخلوا الجنة فيحرمون من نعيمها ولذائذها.

ج ــ أضافت برهاناً جديداً على شدة آصر (التذكرة/ العجب/ القرآن) ب كافة المخــاطبين ب آياته العظيمة وفي مقدمهم «أول المسلمين/ أول المؤمنين» وبوقائع حيواتهم مهما صــغرت أو دقت.

د ــ رسخت الحكمة العميقة من قدومه أبعاضاً متفرقة وأجزاء يترى بعضها وراء الآخر، وهي التي خفيت على مشركي قرية القداسة وعلى أولاد الأفاعي اليهود كما دأب على وصفهم ب ذلك عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته نعني عيسى ابن مريم، وهي فــي ذات الوقــت التــي ميزت «المرفوع/ المطهر/ القرآن» على الكتب التي حملها إلى أقوامهم الكمل السابقون.

ومن هنا أمدته ب خاصية النضارة الخالدة والحيوية المتجددة.

* * *

---

(١) (غرائب القرآن) وكذلك فعل العدوي عمر بن الخطاب.

رأينا فيما سلف أن كبيرين من الصحبة لم يلتزما ب الأصول المرعية والقواعد البديهية في ضرورة التزام الحشوم وهما في مجلس «أحمد» ف ما بالك ب عامة التبع؟

لقد بلغ بهم التبدي ووصلت عندهم الجفوة ووزتهم الحوشية إلى أنه طفقوا ينادونه ب اسمه المجرد = يا محمد يا محمد... يا أبا القاسم... يا أبا القاسم.

غير مدركين ـ وأنى لهم ـ أنه يبشرهم بدعوة جديدة قيمة يباهون بها اليهود والنصارى وسائر أصحاب الملل والنحل والعقائد والمذاهب ويؤسس ل أول مرة في جزيرتهم القرعاء دولة تقف في وجه الروم والفرس، علاوة على شمائله الشخصية المنيفة ومناقبه الرفيعة ومحامده التي لا تعد ولا تحصى.

(أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق الضحاك عن ابن عباس قال:

كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فأنزل الله «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً» فقالوا: يا نبى الله، يا رسول الله).[(١)]

* * *

من «أسباب النزول» إلى كتب التفسير العوالي:

١ ـ «مفاتيح الغيب» ل الفخر الرازي:

(لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) فيه وجوه منها:

لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً يا محمد، ولكن قولوا يا رسول يا نبي الله، عن سعيد بن جبير.[(٢)]

٢ ـ (غرائب القرآن) ل القميّ النيسابوري:

في تفسير الآية ٦٣ «لا تجعلوا دعاء الرسول»:

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ـ ص ١٣٠ ـ مصدر سابق.
(٢) (مفاتيح الغيب/ التفسير الكبير) ل الفخر الرازي/ المجلد الحادي عشر/ ص ٦٤٥ ـ مصدر سابق.

(وعن سعيد بن جبير لا تنادوه باسمه ولا تقولوا يا محمد، ولكن يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت الخفيض).[1]

٣ ــ (التسهيل ل علوم التنزيل) ل ابن جزّي الكلبي:

(والقول الثاني أن المعنى لا تدعوا الرسول ــ ص ــ باسمه كما يدعوا بعضكم بعضاً باسمه بل قولوا يا رسول الله أو يا نبي الله تعظيماً ودعاء بأشرف أسمائه).[2]

ومن التفاسير الحديثة/ المعاصرة اخترنا:

٤ ــ تفسير القرآن الكريم

(«لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً...» النور ٦٣ قال ابن عباس: كانوا يقولون يا محمد، يا أبا القاسم فنهاهم الله ــ عز وجل ــ عن ذلك إعظاماً لنبيه ــ ص ــ وأمرهم أن يقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

وقال قتادة: أمر الله أن يُهاب نبيه وأن يُبجّل وأن يعظم، وقال مقاتل يقول جل جلاله: لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله).[3]

وهكذا هلت الآية الثالثة والستون من سورة النور ب سبب هذه الجلافة التي أظهرها أولئك التبع وهم ينادون «المحمود في الأرض والسماء» باسمه أو ب كنيته كما يدعو أحدهم أخاه، وهذا ما أثبتته هذه المصادر من مؤلفات الأسباب ومن التفاسير. وقد تلألأت في ثنايا الأخبار التي حملتها: عدة من أسماء النجوم اللوامع في سماء العلوم الإسلامية وهم:

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمّي النيسابوري/ المجلد الثامن/ ص ٣٣٤ ــ مصدر سابق.
(٢) (كتاب التسهيل لعلوم التنزيل) ل ابن جزّي الكلبي/ الجزء الثالث ص ٧٣ ــ مصدر سابق.
(٣) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله شحاتة الجزء الثامن عشر ص ٢٦٥٩ ــ مصدر سابق.

ابن عباس «حبر الأمة» وسعيد بن جبير من علماء التابعين وأبو نعيم «صاحب الحلية».

أما الذين ساقوها إلينا ف هم أيضاً من الأعلام المبرزين حسب الترتيب:

السيوطي، الفخر الرازي، القمّي النيسابوري، ابن جزّي الكلبي.

هذا أقصى ما يمكن التوصل إليه لتوثيق سبب إشراق الآية الكريمة المذكورة.

* * *

المناداة البدائية ل «أشرف من مشى على الأرض» ب اسمه أو ب كنيته لا شك أنها أغضبته وأصابته ب المرارة ف هي ب الإضافة إلى أنها قرينة على سوء الأدب وغلظ الحس وثخانة الشعور ف إنها من رجا آخر توحي، أو ب الأصح، توهم بعدم استيعابهم الكامل ونقاهتهم التامة وفقههم الشامل ل الجانب الديني الذي يمثله والناحية العقائدية التي يشيئها والرجا «= مفرد أرجاء» الغيبي الذي يموضعه، وكلها تبدر منه ب صورة يعز نظيرها ويندر مثيلها وينعدم نديدها، ولم نقرأ في سير البطارقة الميامين السابقين من يساميها أو حتى يصل إلى القرب من ركبة قامتها البالغة الروعة حتى ولا كبيرهم الذي علمهم البلاغة أو البيان ونعني به إبراهام.

بيد أن «الشفاء/ القرآن» لا يلبث إلاّ قليلا وتتفجر كالنبع الصافى العذب آية منه تنهى التبع عن هذا المسلك الفسيد والفعل القبيح والمنحى الذميم فيكفون ويرتدعون وينزجرون ويعودون إلى مناداته ب التعظيم اللائق له والتوقير الذي يستحقه والاحترام الذي هو أهل له فيستريح خاطره ويهدأ باله.

إنها حلقة من حلقات عناية «المرفوع/ القرآن» ب «الطيب/ المطيب» وجمعية المخاطبين.

* * *

أتحفتنا مصنفات السيرة المحمدية العلية الفاخرة بصورة تنطق ب خشونة وحوشبة أولئـك العربان دلت على قلة الذوق وانعدام الأدب وفحاشة السلوك.

وفد بني تميم عندما وصل إلى يثرب ف سأل عن «صاحب السـلطان» ف علمـوا أنـه يقضي فترة القيلولة وبدلاً من أن ينتظروا حتى يفرغ منها رفعوا أصواتهم المنكرة أخرج إلينا يـا محمد... الخ.

علاوة على ما أفصحت عنه الواقعة من سفولة وكشفت عنه من زعارة وأظهـرت مـن شراسة أولئك البدو الأجلاف فإنها نمت بوضوح وشفت ب جلاء وأبانـت ب عمـق عـن سـوء تقديرهم ل مقام «صاحب المحجة البيضاء» ومنزلته السامية ومكانته الباذخة، ولا غرابة فيـه لأن هذه الفعلة السمجة والبادرة المرذولة والحركة الطفسة تتناسب مع جهالتهم وتتواءم مع ضيق أفقهم وتتسق مع تخلفهم.

و(متمم مكارم الأخلاق) هو المثل الأعلى في رهافة الإحسـاس ورقـة الشـعور ودقـة الوجدان. وصفاته بنى تميم ووقاحتهم وكلوح وجوههم تؤذي الرجل العادي فما بالكم به؟

وكما تعودنا ف إن «الموعظة/ القرآن» سرعان ما يتكرم ب رفع الضـيق عـن نفسـه الشريفة وإذهاب الغم عن صدره الكريم ومحو الهم عن قلبه الرءوف، ف تهل آية ك الشمس التي تملأ الأرض ب الضوء والدفء والحياة...

ف ينفثئ غضبه ويتلاشى سخطه ويتبدد انقباضه، كيف لا وقد وصفت المنادين ب عـدم العقل «أكثرهم لا يعقلون» ومفارقة التمدن والغربة عن التحضر.

* * *

أولاً: توثيق سبب هَلّ الآية المعظمة وارتباطها ب سلوك بنى تميم.

١ ــ (أسباب النزول):

(حدثنا أبو مسلم البجلي قال سمعت زيد بن أرقم يقول: أتى ناس

النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فجعلوا ينادونه وهو في الحجرة: يا محمد يا محمــد، فــأنزل الله تعالى: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون.

وقال محمد بن إسحق وغيره: نزلت في جفاة بنى تميم، قدم وفد منهم على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ف دخلوا المسجد فنادوا النبي من وراء حجرته أن أخرج إلينا يا محمد).[١]

٢ ــ (لباب النقول):

(أخرج أحمد بسند صحيح عن الأقرع بن حابس أنه نادى رسول الله ــ صــلى الله عليــه وسلم ــ من وراء الحجرات فلم يجبه ف فقال يا محمد، إن حمدي لزين وإن ذمي لشين فقال ذاكم الله).[٢]

الأقرع الذي ورد ذكره في الخبر من سادات بني تميم، وهو الذي طلب التيمي ابــن أبــي قحافة استعماله على قومه فعارضه العدوي ابن الخطاب ف تلاحيا وارتفعت أصواتها في حضــرة «ذؤابة قريش».

٣ ــ (المقبول):

نسخ أبو عمر نادي الأزهري الحديث الذي سطره السيوطي ب نصه ووصف إســناده ب الصحة وأضاف أن السيوطي أورده في الدر وزاد نسبته ل أحمد والطبراني وقال سنده صحيح.[٣]

* * *

ثانياً: التفاسير

١ ــ غرائب القرآن:

(روى أن وفداً من بني تميم قدم على النبي ــ ص ــ وهو سبعون رجلاً منهم الأقرع بن حابس وعينية بن حصن فدخلوا المسجد ونادوا النبي ــ ص ــ من خارج حجراته كأنهم تفرقــوا على الحجرات، أو أتوها

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي ــ ص ٢٥٩ ــ مصدر سابق.
(٢) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ١٥٦ ــ مصدر سابق.
(٣) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ٦٠٨ ــ مرجع سابق.

حجرة حجرة فنادوه من ورائها أو نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها، ولكنها جمعت إجلالاً له ــ صلى الله عليه وسلم ــ...

وحكى الأصم أن الذي ناداه عيينة والأقرع قالا: أخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين، فتأذى رسول الله ــ ص ــ من ذلك فخرج إليهم وهو يقول: إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين).[1]

وفي هامش الصفحة:

ذكر المفسرون هذه القصة في تفاسيرهم بروايات عدة متفقة في مضمونها ومختلفة في بعض ألفاظها.

وإزاءه فإنا نكتفي ب ما زبره القميّ في «الغرائب» بشأنها ونقدمه كَ مثال لما جاء عن الواقعة في التفاسير التراثية.

ثم نقدّم ما رقمه اثنان من المفسرين المُحدثين/ المعاصرين أولهما مغربيّ والآخر مشرقيّ:

٢ ــ (تفسير سور المفصل):

(«يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي..» إلى آخر الآيات من ٢ ــ ٥ من سورة الحجرات.

السبب في نزول هذه الآية أن وفد بنى تميم.. قَدِموا على النبي ــ ص ــ وكان الوقت ظهراً والناس ينتظرونه للصلاة فلم ينتظروا مع الناس بل جعلوا ينادونه: يا محمد أخرج إلينا يرفعون أصواتهم بذلك فأعلمه الله أن أكثرهم لا يعقلون أدب السلوك ولا يعرفون علوّ مقامه لأن جفاء الأعراب غالب عليهم فلا يؤاخذون بذلك، ولهذا قال: «والله غفور رحيم»).[2]

---

(١) (غرائب القرآن) ل القميّ النيسابوري ــ المجلد العاشر ص ٢٤٥ ــ مصدر سابق.

(٢) (تفسير سور المفصّل من القرآن الكريم) لِ عبد الله كَنّون ص. ص ١٣، ١٤ ــ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ــ دار الثقافة ــ الدار البيضاء.

٣ ــ (تفسير القرآن الكريم):

(«إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» الحجرات/ ٤، كان من عادة رسول الله ــ ص ــ أن ينام القائلة ــ منتصف النهار ــ فجاء وفد من أعراب بني تميم فنزلوا في المسجد وأخذوا ينادونه من خلف حجرات نسائه، ويقولون: اخرج إلينا يا محمد، فإن مدحنا زَيْن وذمنا شَيْن).(١)

* * *

هكذا تضافرت هذه الآيات الكريمة على تحقيق عدة أغراض كشفنا النقاب عنها في ما سلف. إنما الجانب أو الهدف الجوهري فهو تقديم حُجّة ساطعة على أن السبب في بزوغها أو إهلالها يصعد من واقع المجتمع فيلتحم به النص الأغرّ في علاقة جدلية تصل إلى منتهى الروعة ومن ثم فهما مُلتبكان يستحيل الفصل بينهما وبه تتجسم هنا عدم معقولية إشراق الآيات مرة واحدة مثل لوْحَى توراة صاحب اليهود ونعني به موسى وهو ضرب من إعجاز «الصراط» لم يلتفت إليه أحد من قبل.

قبل أن تناجي «العظيم» قدّم صدقة:

(يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة).(٢)

اختلف أصحاب كتب «أسباب النزول» و«التفاسير» في علّة شروق هذه الآية الكريمة والملابسات الواقعية التي واكبتها والأحوال المعاشية التي حايثتها والظروف التاريخية التي رافقتها:

(.. قال مقاتل بن حيان: نزلت الآية في الأغنياء، ذلك أنهم كانوا يأتون النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيُكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء

---

(١) (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله شحاتة ــ الجزء السادس والعشرون ص ٥٢٨٦ ــ مرجع سابق.
(٢) «١٢» من سورة المجادلة.

على المجالس حتى كره رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك من طول جلوسهم ومناجــاتهم، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية وأمر بالصدقة عند المناجاة، فأما أهل العُسرة فلم يجدوا شــيئاً، وأما أهل الميسرة فبخلوا واشتد ذلك على أصحاب النبي ــ صــلى الله عليــه وســلم ــ فنزلــت الرخصة).[١]

دائماً أهل الدثور،[٢] في كل زمان ومكان أياديهم الناعمة تنال ما يرغبون وتحصل علــى ما يشتهون وتصل إلى ما يريدون بعكس المحاويج فإنهم محرومون والمفاليس مقهورون.

فـَ هنا نجد الأغنياء يغلبون المعُوزين وينفردون أو يكادون ب مناجــاة «أجــود النــاس» ويطيلون مُكثهم عنده ويمدون لِباثهم لديه، الأمر الذي بعث الكراهية في نفسه الشريفة و«الحبــل/ القرآن» كما رأينا لا يتركه يعاني الضيق أو يتململ من الحَرَج أو يتألم من بغضه لهذه المواقــف فـَ تتهادى هذه الآية المجيدة تأمر التبع بتقديم صدقة عند المجالسة والمحادثة.

بيد أن الميسورين يَخْنِسون ويبخلون، أما المُعسرون فقد صَفُرت أياديهم القَشِفَة[٣] من مؤنة «تكلفة» المناجاة.

هذا الموقف اشتد على التُبّاع وهنا لا بد من حل لِ هذه المشكلة فـَ تبزغ الرخصة.

* * *

يؤيد الفخر الرازي هذا السبب ويضيف «وأما الفقراء فلم يجدوا شيئاً واشتاقوا إلى مجلــس الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فتمنوا لو كانوا يملكون شيئاً فينفقونه ويصــلون إلــى مجلــس رسول الله ــ صلى

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي النيسابوري ص ٢٧٧/ مصدر سابق.
(٢) كناية عن الأغنياء وفي الحديث «ذهب أهل الدثور ب الأجور.. الخ»
(٣) العامة في مصر تقول «مقشفة» وأصل القشف خشونة اليدين من «المصباح المنير» ل المقري الفيومي.

الله عليه وسلم ـــ.. ويحتمل أن يكون المراد منه التخفيف عليه لأن أرباب الحاجات كانوا يُلحـون على الرسول ويشغلون أوقاته وهي مقسومة على الإبلاغ إلى الأمة وعلى العبادة».[1]

من هذا النص يبين أن الرازي بعد أن وافق الواحدي في سبب هَلّ الآية وهي تغلب الموسرين على المملقين على مجالس «إمام الخير» وانفرادهم به، رفع الستر عن علة أخرى وهي رغبته في التفرغ للدعوة إلى الديانة الجديدة التي طفق في التبشير بها خاصة في القرية ذات الحَرتَيْن إذ اتسع المجال وتفرسخ المضمار وتفرشح الميدان، فَ علاوة على كثافة أعداد المخاطبين في داخلها فهناك قبائل وبطون وأفخاذ من الحتم اللازم أن تبلغهم وتصل إلى آذانهم وتنفذ إلى قلوبهم.

وإذ إن المجالس تستنزف مساحة وسيعة من وقته الثمين وأيامه الغوالى وزمنه العَصيّ على التقدير. إذن المخرج من هذا الزناق هو تكليف من يبغي اللقاء أو يريد المقابلة أو يود المجالسة أن يدفع صدقة تذهب للفقراء وبذا تتحقق فائدتان:

الأولى: التوسعة على المليطين من المال من المسلمين وما أكثرهم في ذياك الوقت.

الأخرى: وهي الأهم، الحد من تهافت الصحاب على اللصوق به في الصغيرة والكبيرة حتى جاروا على الحصة المخصصة للبلاغ وعلى سهم العبادة.

* * *

أما السيوطي فَ يزْبدنا ب علّة أخرى لِ انبثاق الآية كما المورد العذب الصافي: (أخرج من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ حتى شقوا عليه فأراد الله أن يخفف عن نبيّه فَ أنزل الله الآية).[2]

(١) (مفاتيح الغيب) لِ الرازي ـــ المجلد الخامس عشر ـــ ص ٤٥٣ ـــ مصدر سابق.
(٢) (لباب النقول) لِ السيوطي ـــ ص ١٦٥ ـــ مصدر سابق.

سبق أن رقمنا أن التبيع درجوا على الإلحاح على «البــدر/ البــديع» فــي ســؤاله حتــى عــن خصوصياتهم مثل السمج الذي أراد أن يعرف هل هو مُلْصق/ دَعِيّ/ زَنِيْم أم ابن صُلْبيّ صــحيح النسب فسأله عن أبيه!!

يضاف إليه جهالتهم وضيق أفقهم وانعدام أي لون من الثقافة أو حتى التعليم العادي لديهم، أما عن المعارف الدينية ف هم عراة منها ب الكُلّيّة ومن ثم فمن البديهي أن تتضاعف اســتبياناتهم وتتراكم استفساراتهم وتكثر استفهاماتهم وجماعه على حساب وقته!

فـَ هل يناظر «المهيمن/ المبارك = القرآن» كل هذا ولا يبــادر بـِ التخفيــف عنــه ولا يسارع إلى رفع المعاناة التي تلم به ولا يهرع إلى إزاحة هذا الحمل الثقيل عن عاتقه؟

من المستحيل أن يأتي الردّ بـِ السلب.

* * *

ويؤيده أبو عمر نادي الأزهري السيوطي فيما اختاره وزاد أن الحديث الذي نفحنا ب هذه العلة إسناده حسن وأن ابن جرير أخرجه في تفسيره وابن كثير فــي تفســيره وأن الســيوطي زاد نسبته في الدُرّ لِ ابن المنذر.

* * *

جمع القميّ بين السببين (قال ابن عباس: كان المسلمون أكثروا المسائل على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى شقوا عليه وأراد الله أن يخفف عن نبيه فلما نزلت آية النجوى شَــحّ كثير من الناس فكفوا عن المسألة).[١]

في هذا النص تأكيد أن راوي الحديث هو عبد الله بن عباس حَبْر الأمة.

وأخرى وهي هامة أن الآية المجيدة حققت ثمرتها الطيبة، إذ إن الســائلين امتنعــوا عــن توجيه الأسئلة، بداهة لِ عدم تقديم الصدقة.

---

(١) (غرائب القرآن) لِ القميّ ــ المجلد العاشر ــ ص ٤٨٨ ــ مصدر سابق.

بخلاً من الأغنياء وعجزاً من الفقراء.

ثم زَبَر السبب الآخر (وقال مقاتل بن حبان: إن الأغنياء غلبوا الفقراء في مجلس النبي ــ ص ــ وأكثروا مناجاته، فأمر الله بالصدقة عند المناجاة، فازدادت درجة الفقراء وانحطــت رتبــة الأغنياء، وتميز محب الآخرة عن محب الدنيا).(١)

فيه توثيق لِ رواية مقاتل ابن حبان للخبر.

ويثبت منه ومما سبقه أن مجتمع يثرب في تلك الحقبة المدهشة منقسم إلى طبقتين:

ذوي اليسار والجِدَة والنَشَب والمعُوزين المفاليس الذين لا يملكون شروى نقير.

وترتيباً عليها تسقط الدعوى الفطيرة التي تلوكها جوقة الطبّالين بِ أن (مجتمــع يثــرب) مثالي لم ير التاريخ لا قبله ولا بعده نظيره وأن جميع المسلمين فيه سواســية كَ أســنان المشــط، وهذا الادعاء الأجوف واحد من ركائزهم في المناداة ب عودته أو إعادته حاليــاً، ورغــم أن أيــاً منهما مستحيلة واقعاً وتاريخاً فإن السند في المطالبة بهما أثبتت المصادر التراثية عاليــة الرتبــة والتي يتعين عليهم إحناء رؤوسهم لها فساده وبرهنت على بطالته وقدمت الحُجّــة علــى عَطنــه وطرحت الأدلة الدوامغ على زَيْفه.

ونأتي إلى آخر المحطات في سفرة هذه الفاصلة ونعني كتب المفســرين المعاصــرين أو المحدثين: (أمر الله تعالى عباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاة الرسول ــ ص ــ أن يقدموا بين يــدي نجواهم صدقة للفقراء يواسونهم بها وتطهرهم فيتأهلون لمناجاته ــ س ــ...).(٢)

صاحب تفسير سور المفصل طلع علينا بسبب جديد لِ إشراق الآيــة الحميــدة، وهــي أن تقديم الصدقة الهدف منه تطهير المناجي كما

---

(١) ذات المصدر والمجلد والصفحة.
(٢) (تفسير سور المفصل من القرآن الكريم) لِ السيد عبد الله كنون ــ ص ١٣٢ ــ مرجع سابق.

أن الوضوء تطهير للمصلي ــ والحق أنه سبب يغاير السببين السابقين.

بيد أن له وجاهته إذ يُشعر من يخاطبون «قَدَم صِدْق» بأنه ليس كَ أحدهم وأن لـــه مقامـــاً سامياً يعلو على قاماتهم.

أما عبد الله شحاتة فيؤكد بديهية ــ يعرفها عامة المسلمين قبل حامتهم ــ هي أن الصـــدقة للفقراء ثم ينتهي إلى أن القصد هو تعويد الأغنياء إخراج الصدقة وتطهير أنفسهم من الشح.[١]

وهو لم يأتِ ــ كعادته ــ ب جديد ــ إذ إنه كما سطرنا فيما سلف يتعكز علـــى التفاســـير السوابق وأجدر وأحرى به أن يستبدل بِ كلمة «تأليف» ألفاظاً أخرى مثل: تجميع ــ أو انتقـــاء ــ أو اختيار.. الخ.

* * *

بِ خنوس مياسير الصحب عن تقديم صدقة النجوى، وعجز الفقراء عنهـــا غـــدا الأمـــر مُشكلاً، فلو أن «نعمة الله» ألغاها بِ قول مباشر منه لَ حدثت بلبلة، إذ ستقبّ تســـاؤلات: كيـــف يوجبها القرآن ثم يرفعها هو؟ وقد ذهب عُظم المفسرين أن الأمر الذي تضمنته الآية الحميدة هـــو للوجوب «الالزام» لا ل «الندب» (ظاهر الآية يدل على أن تقديم الصدقة كان واجباً، لأن الأمـــر للوجوب).[٢]

ونقشه عبد الله شحاتة كَ دأبه وديدنه (وظاهر الآية يدل على أن تقديم الصدقة كان واجبـــاً لأن الأمر للوجوب).[٣]

ولم يكلف هذا ال شحاتة نفسه أن يبدّل ألفاظ الفخر الـــرازي أو يحوّرهـــا ــ طبعـــاً مـــع الحرص على عدم خربقة المعنى ــ بل رصّها كما

---

(١) (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله شحاتة ــ الجزء الثامن والعشرون ص ٥٧٤٣ ــ مرجع سابق.
(٢) (مفاتيح الغيب) لِ الرازي ــ المجلد الخامس عشر ــ ص ص ٤٥٢/ ٤٥٣ ــ مصدر سابق.
(٣) (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله شحاتة ذات الجزء والصفحة.

هي بحروفها.

واستمرار الوضع بـِ هذه الصورة من العسير تصوره:

إذ كيف ينفصل الصحاب عنه ولا يجالسونه إما عن كَزَازَة أكف الموسرين وإما عن صُفُور أيادي المعوزين؟

في مثل هذه الأزمة عوده «القَيّم/ الفصل/ القرآن» أن ينفحه الحل ويزبده بـِ الفرج ويمنحه الفَكّ وكَ النور الساطع تلمع الآية المُصليّة «التالية»:

(أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون).(١)

أي ما دمتم لم تفعلوا فقد تاب ربكم عليكم فهو خبير ب أعمالكم، فقط داوموا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (أخفتم الفقر من تقديم الصدقة أو خفتم التقديم لما يعدكم الشيطان من الفقر..

فإذ لم تفعلوا وتاب عليكم ب أن رخّص لكم أن لا تفعلوه وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم مما قام مقام توبتهم.. فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلا تفرطوا في أدائهما وأطيعوا الله ورسوله في سائر الأوامر فإن القيام بها كالجابر للتفريط في ذلك).(٢)

وعند سماع الآية من قبل الصحاب أشحة باخلين، أو بائسين عاجزين، انفرجت أساريرهم بعد انقباض وانبسطت وجوههم بعد ضيق وعادوا يتحلقون حول حبيبهم «المجتبى» وهو بدوره شمله السرور لـِ عودتهم إليه.

وهكذا في حلقات متوالية يأخذ آخرها بعقب أولها ويتصل لاحقها

---

(١) الآية الثالثة عشرة من سورة المجادلة.

(٢) (تفسير البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل) لـ البيضاوى ــ ص ٧٢٢ ــ مصدر سابق.

بِ سابقها ويرتبط مُصليّها بِ مُجليّها تتوالى أدلة الثبوت على أن «النور/ الهدى = القــرآن» مــع ذياك المجتمع وعلى قُلّة (بضم القاف أي الذروة والقمة وأعلى السنام) الفاعلين فيه سيدهم وقائدهم وهاديهم لكل خير لا ينفصل عنهم بل هو دائم اللحاظ لهم، مستمر المراعاة لهم يعــالج أدواءهــم، ويشفيهم من أمراضهم ويبرئهم من أسقامهم.

إذا أثقلوا على «الشارع/ الشكور» تهادت منه آية مجيدة تهب بلسماً ل هذا الجــرح فـَ إذا لم يستطيعوا إنجازه ــ بغض النظر عن الكابح الذي لَجَم والغل الذي قَيّد والعِقال الذي ربط ــ فـَ لا تثريب عليهم فـَ هم الجند الخُلّص والصحب الأوفياء والعسكر المطيعون فقد غفر لهــم ربهــم فليرتفع هذا التكلف وتُشرق آية حميدة أخرى بهذا الرفع وتقول إنّ في الصلاة والزكاة جبراً لما تم التفريط فيه وعِوَضاً عما جرى التقصير بشأنه بشرط عدم التهاون في أدائهمــا أو التراخــي فــي القيام بهما أو التساهل في تنفيذهما.

نموذج بالغ الروع في الالتحام بِ الواقع والارتباط بِ الممارســات الحياتيــة والتشــابك بالسلوكيات اليومية.

إنه الارتفاع من أرض المخاطَبين إلى أفق النصوص ثم تتفضل الأخيرة بإعادة الخط إلــى مساره الأول وهكذا وشيجة متينة وآصرة قوية وعلاقة شديدة الأسْر.

من الواقع إلى النص ثم منه إلى مصدره الذي انطلق منه في حركة جدلية مدهشة معجبة.

بِ القطع واليقين لا تجد لها مثيلاً في الكتب التي قدّمها «الكُمّل» السابقون إلى أتباعهم.

ولعل هذا يتفضل علينا بِ حزمة ضوء باهرة تضيء حَفَافي ما حكاه «المبارك/ المكــين» عن نفسه أنه آخرهم وخاتمهم والكتاب الذي جاء به هو المُهيْمن على ما سبقه.

وكل هذا ينزع عن دعاوي التجريد والانفصال والابتعاد الأثواب

الزُيوف التي تحاول جاهدة أن تلبسها لتضفي عليها المصداقية التي هي منهـا بَـرَاء. ويؤكـد أن الطريق الأقوم والمحجّة الأسدّ لنقه مقاصد «نصوص التأسيس» المجيدة هذه: هو التذكر دائمـاً لِ هذه السمات البالغة الروعة التي تنطق بها وهذه الملامح البديعة التي تُظهر بها والقسمات الأخّـاذة التي تطالعنا بها وأن نسيانها أو تناسيها هو الذي يؤدي إلى الخلط وينتهي إلـى الربْـك ويوصـل بطريق الحتم واللزوم إلى الخَرْبَقَة، ومن نافل القول أن نحطّ أن جماعه ليس في صالح المخاطَبين «بِ فتح الطاء» فضلاً عن أنه يسيء إلى النصوص ويبرزها بِ غير أيأتها «هيئتها» المجيدة.

[Blank Page]

الباب الثّاني

آيات الحجاج مع أهل الكتاب

[Blank Page]

الفصل الأوّل

آيات الحجاج مع اليهود

[Blank Page]

أوضحنا فيما سلف كثافة اليهود في يثرب عندما نزح إليها «الأمين المأمون». ومن بينهم عدد من الأحبار على درجة من الصلف والعنجهية إذ إنهم يعتبرون أنفسهم علماء بإسطيرهم المقدس الذي يعتبرونه الأصل والأساس.

ومن البديهي أن يتم بينهم وبينه حوار سجالي وحِجَاج شديد وجدال اتسم بالعناد «من ناحيتهم» وتدثر بالمكابرة وتزَمّل بالمغالطة، وأحياناً يشارك في النقاش بعض صناديدهم من ذوي المكانة السياسية أو الوجاهة الاجتماعية أو الثقل الاقتصادي.

وفي كتابات لنا سوابق سطرنا أن مما يؤسف له أن دواوين السيرة المحمدية العطرة لم ترقم من تلك المناقشات إلاّ النزر اليسير مع أنها رصدت أسماء أولئك المجادلين والأحبار اللجَجَة الذين أمعنوا في المخاصمة وبالغوا في اللدد وأفرطوا في المناوأة.

بيد أن القرآن العظيم تلافى هذا النقص ب جدارة وسد هذه الثلمة ب مهارة وغطى هذه الثغرة ب اقتدار فائق فحملت آياته المجيدة قدراً وفيراً من المساجلات، ولسنا هنا بصدد رصدها لأنه يحتاج إلى حشد كبير وتجييش بالغ وتعبئة محبوكة كما يضخم حجم الكتاب بصورة لا يحتملها القارئ وتخل بتناسق أبوابه وفصوله.

ومثلما فعلنا منذ البديّ نطرح عدداً من الأخبار المتعلقة بها فحسب لإثبات العلاقة الجدلية ل «المهيمن. المبارك = القرآن» مع واقع المخاطبين، إذ إن الحصر أو الإحصاء أو التعداد صعيب ومتعذر.

لا يماري أحد أن الحجاج مع أولاد الأفاعي ــ كما أطلق عليهم عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم أحد البطاركة الميامين ــ يقدم جانباً على درجة عالية من أهمية وشيجة الآيات الكريمة ل «التذكرة/ العجب = القرآن» مع مجتمع المخاطبين؛ لأن أولاد يعقوب أعضاء فاعلون فيه. حقيقة لهم دينهم وللمسلمين دينهم بيد أن الاختلاف في العقيدة والمفاصلة في المذهب والتباين في الملة

لا علاقة له ب الفاعلية في المجتمع ف المؤتلفون والمختلفون في النحلة والمتفقون والمفترقون في الديانة جميعهم أفراد فيه يتأثرون ب موجباته ويخضـــعون ل إكراهاتـــه وينقـــادون ل التزاماتـــه ويؤثرون خاصة الحامة أو الخاصة وتحديداً من الرجا الفكري في حركته ويسهمون فـــي حِـــراك مساره ويضعون بصمات أصابعهم على خطواته، هذا يتم في الأوقات العادية. فكيف في أحـــوال التبدل وأوقات التحوّل وأزمان التطور وعهود التشكّل وساعات التنقل من مقام إلى مقام.

كما أنهم يتأثرون به وينفعلون بأحواله وينقادون لتوجيهاته ويخضعون لأنســـاقه وبداهـــة يتفاوتون فيه حتى الصفوة لا يفلتون منه.

من هذا المنطق فـَ إن هذا القطاع الثرّ الغني من حياة «أبي القاسم» والبالغ الأهميـــة بـــل الخطورة إن على محجة الديانة التي بشّر بها وما انفك يفشوها، أو على جادة الدولة الوليـــد حلـــم الأجداد العظام.

ليس من المنطقي ولا من المعقول ألاّ يوليه «المثاني/ البصائر = القرآن» فـــائق عنايتـــه وبالغ اهتمامه وموفور رعايته.

حقيقة أن «سيد العرب والعجم» له من القدرات والملكـــات ويختـــزن مـــن المحفوظـــات والمأثورات القدر الوفير الذي يستطيع به أن يوقف الأحبار والمحاورين الخَصِـــمين عنـــد حـــدهم ويلزمهم غرزهم.

لكن يد «العلم/ الحق = القرآن» لا غنى عنها ل المؤازرة والمعاضدة والمعاونة، وهكـــذا نجد أنه ما إن يحدث اشتباك بين علماء بني إسرائيل وججاججهم ومرازبتهم وبين «مدينة العلـــم» حتى تتلألأ كمثل النجم الثاقب التي تهزم أضواؤه حجب الظلام الكثيفـــة، وب مجـــرد أن تصـــك أسماعهم يخنس إخوان القردة مع اللواذ ب الصمت المطبق. وفي ختام الفاصلة سنقيّم موضـــوعياً هذا المنحى المبهر من قبل «النبأ/ الفصل = القرآن» ونزيح الستر عن دواله ونكشف الحجب عن مراميه ونميط اللثام عن معانيه ونرفع النقاب عن إيحاءاته ونزيح

الغطاء عن قصوده.

* * *

أخرج ابن جرير قـال: حدثنا أبو كريب حدثنا يونس، حدثنا محمد ابـن إسـحق حـدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال: دخل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بيت المدراش على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله فقال له نعيم بن عمرو، والحرث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟

فقال لهما رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم، فأبوا عليه. فأنزل الله عز وجل:

«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بيـنهم ثـم يتـولى فريق منهم وهم معرضون».

الآية الثالثة والعشرون من سورة آل عمران.[١]

ونسخ السيوطي الحديث بنفس الاسناد في ال (لباب).[٢]

كذلك رقمه الواحدي النيسابوري في «الأسباب» ب إسناده نفسه مع اختصار يسير[٣] ولـو أنه زبر «اختلفوا في سبب نزولها».[٤]

ثم أردف «وقال الكلبي نزلت في قصة اللذين زنيا من خيبر وسؤال اليهود للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن حد الزانيين.[٥]

---

(١) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ص ١٥٢/ ١٥٣ مرجع سابق.
وقد ذكر المصنف أن إسناده حسن وأنه ورد في:
تفسير الطبري ٣/ ١٤٥.
وعزاه السيوطي في أسباب النزول ل ابن أبي حاتم وابن المنذر.
ورواه ابن إسحق.
ورواه البغوي في تفسيره.
(٢) «لباب النقول» ل السيوطي ــ ص ٣٧ ــ مصدر سابق.
(٣) «أسباب النزول» ل الواحدي ــ ص ٦١ ــ مصدر سابق
(٤) ذات المصدر والصفحة.
(٥) ذات المصدر والصفحة.

أصدر أبو عمر نادي الأزهري بعد «المقبول» كتاباً حمل عنواناً «نهاية السول فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول» جاء فيه أن الآية هلت في شأن رجل وامرأة من أهل خيبر زنيا.[(١)] نتناول القصة وما دار حولها فيما بعد.

في الخبر عاليه الذي نفحتنا به كتب «الأسباب» نستقطر عدة معطيات على رتبة منيفة من الثمانة:

١ ــ ذهب «المصلح/ المصون» إلى بيت المدارس «مدرسة أو معهد العلم الديني اليهودي».

فهل هي الأولى والأخيرة أم أنه دأب عليه «= الذهاب» أو فعل مرات قليلة؟ كتب سيرته المطهرة ــ التي طالعناها لم تبرزه!!

٢ ــ لولا علمه ب التوراة نعني ب ما فيها لما أقدم على تلك الخطوة، إذ إنه يدرك أن بالمدراش علماء يهود «أحبار».

٣ ــ بدأ النقاش من اليهود إذ سأله عن دينه نعيم بن عمرو والحرث بن زيد.

٤ ــ رد «خير الخلق أجمعين» أنه على دين إبراهيم وهو أبلغ برهان على صحة ما كررناه في كتاباتنا عن «الديانات الإبراهيمية الثلاث» وأَخَذه علينا من حصّلوا قشوراً في العلوم الإسلامية ويدعون ب كل جرأة على الحق أنهم «علماء»!

٥ ــ اعترض نعيم بن عمرو والحرث بن زيد أن إبراهيم يهودي ف هل قصد أنه أبو بطارقتهم الأكابر يعقوب وإسحق ومن نسلوهم؟ لأن جهل حبرين أن التوراة انبعثت بعده «= إبراهيم» مسألة فيها نظر، خاصة أن القرآن العظيم وصف أحبار يهود ب العلماء ولم يصف غيرهم به «أوَلَم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل».[(٢)]

٦ ــ هل أمّا (قصدا) أن الذي هَلّ بصحف إبراهيم هو ذاته ما

---

(١) «نهاية السول» ص ٨٩ ــ مرجع سابق.
(٢) ١٩٧ من سورة الشعراء.

حملته التوراة؟

٧ ــ لو صح الافتراض فلماذا رفضا طِلْبَة «الشهم/ الصابر» نعني الاحتكام إلى التوراة؟

٨ ــ ودالته بطريق التبع أنه «= الموقن» يعلم بدوره: العقائد والمبادئ والقواعــد التـــي سطرت ب صحف إبراهيم وإلاّ يغدو اللجوء إلى التحكيم عبثاً، وهو ما ننزه «الخالص/ المزمّــل» عنه تماماً وبالكلية.

٩ ــ إذن فقاهته بالصحف والتوراة أمر يقيني لا مرية فيه. ومن رجا آخر فطن إليه «أي هذا العلم» الأحبار وتثبتوا منه وهو علة إبائهم الرجوع إلى إسطيرهم المقدس.

١٠ ــ اقتصر الجدال على تقرير «المدثر» أنه على دين أبيه إبراهيم «على ملة إبـــراهيم ودينه» وهنا نجد أنه ميّز بين الملة والدين وقدّم الملة، أم جاءت لفظة مرادفة للتأكيد؛ لأن معـــاجم اللغة ساوت بينها ولو أن بعضاً منها ذهب إلى أنها تعني الشريعة.

ثم على التساؤل عن أبي البطارقة إبراهيم هل هو يهودي كما جنح إليه الحبران أم غيـــر يهودي كما أكده القرآن الكريم ومحمد؟.

١١ ــ سجلت الآية الثالثة والعشرون من آل عمران الموقف ببيان رائع. إنما يلفت الانتباه ويشد النظر ما ورد فيها «أوتوا نصيباً من الكتاب» أي أن ما ألموا به من التوراة أبعاض وتفاريق وهو عين ما أكده العديد من البحاث الجادين.

فهل هو علة أنهم كلما دخلوا فيها معه سجالاً أو فتحوا مناقشة أو بـــدأوا محـــاورة دارت الدائرة عليهم فتصيبهم الهزيمة ويلحقهم الإخفاق ويركبهم الخذلان؟.

١٢ ــ تشرق الآية المجيدة كَشلال من نور تفضح أولاد الأفاعي وتكشف جهلهـــم فيـــوقن أتباعه الذين بطريق الحتم واللزوم شهدوا الحِجَاج عند وقوعه أو أحيطوا به خبراً بعد قليل أو كثير أن رأى «المستقيم المقتفى» هو الأصح ووجهة نظره هي الأسد، وما ذهب إليه

هو الأصدق. كيف لا؟ وقد جاءت به آية حميدة.

١٣ ــ حققت الآية ٢٣ من سورة آل عمران ثلاثة أهداف:

أ ــ نصرت «المعصوم من الناس» نصراً عزيزاً على إخوان القردة والخنازير.

ب ــ قرّت أعين الأصحاب وخاصة بني قيلة بِ الفَلَج المبين الذي صَتّ اليهود لأنهم ظلوا إماداً طويلة يتعالون عليهم ويتوعدونهم.

ج ــ انقمع أولاد يعقوب وازدادوا ذلة وصغاراً.

لولا ارتباط الآيات الحميدة ب الواقع المعاش وبزوغها أبعاضاً وتفاريق ونجوماً لما تموضع واحد من هذه القصود السامية، وهي في الوقت ذاته تتبرأ من دعاوي الانفصال والتباعد والغُربة التي تطلقها هيئات أو أفراد لهم مصالح يقدمونها على حساب النصوص.

* * *

نعرّج. على كتب التفسير.

١ ــ تفسير مقاتل بن سليمان

«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» يعني أعطوا حظا من التوراة يعني اليهود: كعب بن الأشرف وكعب بن أسيد ومالك بن الضيف ويحيى بن عمرو ونعمان بن أوفى وأبو ياسر بن أخطب وأبو نافع بن قيس، وذلك أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لهم: (أسلموا تهتدوا ولا تكفروا، فقالوا للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ نحن أهدى وأحق بالهدى منكم ما أرسل الله نبياً بعد موسى فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ: لم تكذبون وأنتم تعلمون أن الذي أقول حق فأخرجوا التوراة نتبع نحن وأنتم ما فيها وهي بينكم فإني مكتوب فيها أني نبي رسول فأبوا ذلك فأنزل الله عز وجل الآية).[1]

طلع علينا مقاتل بن سليمان بِ خبر مختلف عن سابقه، مفاده أن

---

(١) (تفسير مقاتل بن سليمان) ٨٠ ــ ١٥٠هـ ــ تحقيق عبد الله محمود شحاتة ــ الأول ص ٦٣ ــ ٦٤٢ ــ مصدر سابق.

سبعة من متنفذي بني إسرائيل قابلوا (أرحم الناس بالعباد) دون ذكر المكان، إنما لا تفوت العين البصيرة أن عددهم سبعة وهو المقدس لدى الفرقتين. اليهود فيهم أحبار (علماء دين) وفيهم أهل وجاهة (الملأ).

أن (صاحب العطايا) بدأ بدعوتهم لدخول الدين الذي يبشر به.

فردوا ب صلف وخنزوانة أنهم أهدى منه بل وأحق ب الهدى منه.

ولا يحتاج تعليله لزكانة «فراسة» ولا يفتقر ل فطانة، فهم أصحاب الإسطير العتيق الذي يعد الجرثومة ويعتبر الأصل ويحسب أنه الأساس لما تهادى بعده من إسطيرات.

(العروة الوثقى) شديد الثقة في أنه مكتوب في التوراة أنه نبي ورسول وإلاّ لما أمرهم ب إخراج التوراة ليدلهم على الإصحاحات التي ورد فيها اسمه الشريف أو نعته معنوياً وجسدياً أي الصفات الخُلُقية والخَلْقية.

وهنا ينتصب سؤال مستساغ؟

ما هي لغة التوراة التي بين أيديهم؟

والجواب: إما العبرانية وإما العربية.

(حرز الأميين) بنص القرآن الحميد أمي لا يقرأ ولا يكتب أي لا يعرف أيا من اللسانين؟

فَ لو أخرج اليهود توراتهم فكيف يدلّهم على المواضع التي فيها نعته؟

لا بد أنه سيستعين بمن يجيدها خاصة من الأثاربة في نطاق اللغة العبرية.

إنما هذا لا يكفي.

لأنه من غير المعقول قراءة التوراة من أولهما لآخرها ل العثور على الإصحاح الذي وصف «الخاتم ــ الخاشع» أو حتى الأبعاض التي معهم

والتي وصفها المفسر ابن سليمان «حظاً من التوراة» إذ لا بد من حصر وتحديد الأماكن التي تشرفت بذكره، وهذا يتطلب بطريق الحتم واللزوم حفظ التوراة ليدلّهم عليها.

وهذا شأن لافت للنظر!

من شق آخر:

رفض اليهود يعني أن صفات «الطيب/ الظفور» الخلقية والخَلْقية مذكورة ب دقة شديدة وتفصيل مُحكم، إذ لو غير ذلك لأبرزها الأحبار وحاجوه بشأنها.

لماذا؟

لأنه من المعلوم أن الأساطير المقدسة الخاصة بأهل الكتاب على بكرة أبيهم مرقومة ب لغة شاعرية مليئة بالرموز والاستعارات والتشبيهات والكنايات والأمثال.

وكلها تعطي مجالاً ل ما لا يحصيه إلاَّ الله تعالى وحده من التفسيرات والتأويلات والشروحات والتوضيحات.

وبالتالي يسهل على أحبار اليهود وعلمائهم لو دلّهم «العربي/ العدل» على السطور التي تنضوي على أوصافه لردوا عليه ب النفي: أنها تدل على خلافك، بدليل كذا وكذا مستغلين شاعرية اللغة وترميزها.. الخ.

إذن لماذا تهرب أولاد الأفاعي من إظهار التوارة؟

* * *

٢ ــ تفسير الطبري

مُقدم الآباء المفسرين أبو جعفر بن محمد الطبري سطّر الأثر الذي أهدته إلينا كتب «أسباب النزول» وذكر «واختلف أهل التأويل في «الكتاب» الذي عُنى الله بقوله «يدعون إلى كتاب الله» فقال بعضهم:

هو التوراة دعاهم إلى الرضا بما فيها، إذ كانت الفرق المنتحلة

الكتب تقر بها وبما فيها: أنه كانت أحكام الله قبل أن ينسخ منها ما نسخ».[١]

ومفاد ما رقمه الطبري أن التوراة لم يلحقها التحريف حتى زمن «البشير، بدليل أنه وزّهم على الاحتكام إليها لأنه لا يجوز في شرعة العقل أن يطلبها منهم مع علمه ب تحريفها.

وأيضاً ما جاء بِ الآية المعظمة «يدعون إلى كتاب الله» أي أنها حتى تلك اللحظة لم يلحقها التحريف لأنه من المحال وصفها ب «كتاب الله» وهي محرّفة.

٢ ــ غرائب القرآن

كذلك فعل القميّ النيسابوريّ، نسخ الخبر ذاته وأكد أن «كتاب الله» هو التوراة.[٢]

ثم أردف «وقال الكلبي: نزلت في اللذين زنيا من خيبر وحكم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيهما بالرجم وأنكر اليهود على النبي ــ صلى الله عليه وسلم».[٣]

٤ ــ تفسير القرطبي

أما القرطبي ف بعد أن رقم الأثر سالف الإلماع أضاف «وذكر النَقّاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال لهم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ هلموا إلى التوراة ففيها صفتي فأبوا».[٤]

هذا نص بالغ الثمانة، إذ يؤكد أن صفة «أول من يفيق من الصعقة» مرقومة في التوراة التي بين يدي اليهود المعاصرين له، كما أنه يعرف موضعها بالدقة وطلب إليهم أن يأتوه بها ليدلهم عليه

---

(١) (تفسير الطبري) ــ السادس ــ ص ٢٨٨ ــ مصدر سابق.
(٢) (غرائب القرآن) المجلد الثالث ــ ص ١٠٨ ــ ١٠٩ ــ مصدر سابق.
(٣) ذات الصفحة.
(٤) (تفسير القرطبى) ــ المجلد الثاني ــ ص ١٢٩٢ ــ مصدر سابق.

تحديداً، إنما لعنادهم وتكبرهم على الحق وصلفهم وإصرارهم على الباطل وعلى عدم الاعتـراف به والدخول في الإسلام الذي يدعوهم إليه رفضوا الإتيان بها.

ومفهوم الموافقة أن التوراة التي معهم حتى ذياك الإبان لم تُحرّف؛ لأنه مـن المنطـق أن يبدأوا بتحريف هذا الموضوع وتغيير الصفة التي تنطبق عليه.

إن تحريف أولاد الأفاعي للتوراة ثابت من القرآن الكريم بموجب آيات مجيدة حاسـمة كـحد السيف الهيذام «القاطع»:

أ ــ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه(١)

ب ــ «يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به»(٢)

ج ــ «يحرفون الكلم من بعد مواضعه»(٣)

وفي رأينا أنه لا مشكل فيه:

التحريف الذي حملته إلينا هذه الآيات الكريمة لا بد أنه حدث بعد أن بدأت المساجلات بين الأحبار و«المرتضى/ المشاور» وطلبه إليهم الرجوع إلى التوراة التي معهـم فـلكـيلا يفتضـح أمرهم أمامه وأفراد شعبهم أي عامة اليهود بل وأمام جميع من بـقرية الحرّتين خاصة حلفـاءهم القدامى من فرعيْ بني قَيْلة «الأوس والخزرج» عمدوا إلى التحريف وجنحوا إلى التزييف وأرقلوا «أسرعوا» إلى التزوير.

* * *

٥ ــ المحرر الوجيز لـابن عطية:

أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي:

أكد رواية النقاش التي زَبَدنا بها القرطبى بنصها وفصها

---

(١) ٤٦ ــ النساء.
(٢) ١١٣ ــ المائدة.
(٣) ٤١ ــ المائدة.

وحروفها.

بذا ترسّخت حقيقة انضواء التوراة ــ في ذاك الوقت ــ على صفه «المزمّل/ المُزكّى» لأن كلاً من القرطبي وابن عطية من المفسرين الأثبات وهما أندلسيان حيث التفتح والعقلانية والاستنارة وسعة الأفق.

فالأول منسوب إلى قرطبة والآخر إلى غرناطة ولكل منهما مكانة عزيزة في أفق الثقافة الإسلامية، ب الإضافة إلى أن تفسير الغرناطي صادر عن إحدى هيئات وزارة الأوقاف التي بدورها تشكّل الضلع الثالث في مؤسسة شئون التقديس في مصر «الأوقاف/ الأزهر/ دار الافتاء» الأمر الذي ينفح هذا التفسير قدراً من النفاسة وشطراً من الثمانة وركناً في القوة.

وفي تفسيره: «في قوله «إلى كتاب الله» هو التوراة وقال قتادة وابن جريج هو القرآن، كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يدعوهم إليه فكانوا يعرضون ورجّح الطبري القول الأول».

وقال مَكّي الكتاب الأول: «اللوح المحفوظ والكتاب الثاني التوراة».[1]

والذي يقصده مَكّي من عبارة «الكتاب الأول» هو ما ورد في الآية «أوتوا نصيباً من الكتاب» وهو برأيه = اللوح المحفوظ ومن عبارة «الكتاب الثاني» هو ما جاء في الآية «كتاب الله» وذهب إلى أنه التوراة.

وهكذا أطبقت عدة من التفاسير التراثية عالية المقام أن «المُؤتى جوامع الكلم» دعا اليهود إلى الاحتكام إلى التوراة التي معهم وذكرت

---

(١) (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) ل أبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي ٤٨١ ــ ٥٤١هـ تحقيق أحمد صادق الملاح ــ الجزء الثاني ــ ص ٣٧٢ ــ ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ــ لجنة القرآن والسنة ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ وزارة الأوقاف ــ مصر.

بعض الروايات أن فيها صفته مما يعني أنها إلى تلك اللحظة لم تحرّف، ثم حُرّفت بعد حِجَـــاجِهم معه.

* * *

ونختم هذه الجولة بالمفسرين المحدثين.

٦ ــ في رحاب التفسير

(أورد عبد الحميد كشك نفس الخبر لـ «الخاص دخـــول المـــدارس» ب حروفـــه، وفسّـــر «الكتاب» بأنه «التوراة» و«ليحكم بينهم» أي ليفصل بين اليهود والداعي لهم وهو النبي ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ والتولي: الإعراض بالبدن و«الإعراض» يكون بالقلب).(١)

ونكتفي ل شعورنا بِ الإطالة

الخلاصة أن كتب «أسباب النزول» قديمـــة ومحدثـــة و«التفاســـير» تراثيـــة ومعاصـــرة تعاضدت فيما بينها على إثبات أن الأهداف الثلاثة الشريفة التي زبرناها فيما ســـبق قـــد تحققـــت بأكملها ب إشراق هذه الآية الكريمة.

* * *

(أخرج أبو داود والبيهقي وابن إسحق قال:

حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن سعيد بن جبير وعكرمة، عـــن ابـــن عباس قال: لما أصاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قريشاً يوم بدر وقدم المدينـــة، جمـــع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشـــاً، قالوا: يا محمد لا يغرنّك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال. إنـــك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلقَ مثلنا، فأنزل الله عز وجل في ذلك: «قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد» الآية ١٢ من سورة

---

(١) (في رحاب التفسير) الجزء الثالث ــ ص ٥٧١ ــ مرجع سابق.

آل عمران).[١]

الحِجاج «السِجال» في هذا الخبر دار بين إخوان القــردة والخنــازير وبــين «صــاحب السرايا» بخصوص شأن ديني سياسي ف بعد أن نصره الله نصراً عزيزاً مؤزراً على أئمة الكفــر من صناديد بني سخينة، بدأ ب الحسنى معهم ف جمعهم بالسوق التي تحمل اسم أحــد فــروعهم «بني قينقاع» ودعاهم إلى الإيمان بدعوته ودخول الإسلام لكيلا يصيبهم ما لحق قريشاً من هزيمة ساحقة.

وبدلاً من أن يردوا عليه رداً مهذباً حتى ولو جاء بالرفض أخذتهم العزة بالإثم والاغترار ب قوة موهومة والانخداع ب منعة متخيلة ورفضوا مقارنتهم ب بني سخينة فهــؤلاء أغمــار = جمع غمر.[٢]

في حين أنهم أعظم الناس ولم يسبق له أن لقي مثلهم أي شجاعة في القتــال وشــدة فــي البطش وبصراً ب مكائد الحرب.

وهي إجابة تشي بالغطرسة وتكشف عن الغشم وتبرهن على التهور وتمــيط اللثــام عــن انعدام البصيرة وتقطع ب الجهالة في قراءة عواقب الأمور.

وفي الوقت نفسه دلّت على أنهم فطنوا الجانب السياسي في الدعوة إلى الإســلام، إذ كمــا قلنا مراراً إن الدخول فيه واعتناقه يعني القطع دون ذرة من سوام الوقوف تحت راية دولة قريش.

---

(١) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ص ١٥١ ــ مرجع سابق.
وذكر أن إسناده حسن وأردف:
رواه أبو داود في كتاب الخراج.
والبيهقي في الدلائل.
وابن جرير في تفسيره.
ورواه ابن إسحق في السيرة.
ونقله ابن كثير في تفسيره.
ونقله ابن حجر في الفتح.
(٢) رجل غمُر بسكون الميم وضمها، أي لم يجرب الأمور ــ من «مختار الصحاح» ل الرازي.

هذه حقيقة تاريخية تطالعنا بوجهها الصريح من ثنايا صفحات السيرة المحمدية العظيمة.

إن الحرص الشديد على قتال القبائل والعشائر والأفخاذ والبطون... الخ، حتى يقولــوا أو ينطقوا ب الشهادتين والذي نجده في آيات كريمة وأحاديث محمديــة شــريفة صــحيحة حملتهــا الصحاح الستة وغيرها من دواوين السُنّة المطهرة، لحمته الدخول في الإسلام واعتنــاق الديانــة، وسداه الاعتراف ب سيادة دولة بني سخينة التي قامت في أثرب، إنهما وجهان لعملة واحــدة مــن المستحيل الفصل بينهما.

إن الإسلام ك دين ــ ونحن نبحث فترة تاريخية محددة هي حقبة التأسيس ــ لا بد له من حكومة تعمل على نشره وإذاعته وفُشوّه وسلطة تمكن له وترسخ أسسه وترسيل قواعــده ودولــة تساعده وتشد مئزره وتأخذ ب عضده وهذا أمر لا ينال منــه ولا يخــدش كرامتــه ولا يخــربش اعتباره.

ويجب التمعن فيه ببصيرة والتحديق فيه بأفق رحيب والتفرس فيه ب بعد نظر والتأمل فيه ب روية شديدة.

في ذياك الزمن المعجب، العصبية غالبة والجهالة مسيطرة والأميــة مكتســحة والعرقيــة مهيمنة ف ربط أولئك العربان الأجلاف بين الإسلام وبين من بشر به ودعاهم إليه، ف ما دام هو من قريش فإن اعتناق الذي جاء ب يعتبرونه خضوعاً واستسلاماً ل سطوتها وانقياداً ل هيمنتها.

والذي درس أحوال العربة في تلك الحقبة ينقه أن أهم ما تحرص عليه كل قبيلة كبيــرة أو متوسطة أو صغيرة هو التميز ومنه تفرع أمران على قدر وافر من الأهمية:

أ ــ الحرص على وحدة القبيلة وتماسكها.

ب ــ محاربة أي محاولة ل ذوبانها في قبيلة أخرى.

ومن هنا نبذت القبائل على بكرة أبيها فكرة «الدولة».

وهذا بدوره يفسر لنا عدم قيام دولة في جزيرتهم شديدة القداسة على مدى قرون طويلة.

إن إنشاء سلطة عليها تحكم وتتحكم في الجميع يعني ب منتهى البساطة ذوبان القبيلة وتفككها وتفسخها وتماهياً في غيرها وهذا يساوي الانتحار.

فإذا تحولنا من النظرية إلى التطبيق:

دعوة القبيلة إلى اعتناق الإسلام تعني التخلي عن دينها ولا يعني هذا طرح عبادة الصنم الخاص بها ف هذه سطحية وسذاجة ولكنه (دين الآباء) وكرة أخرى ليس مدلوله نبذ الوثن الذي ألهه الآباء، كلا بل ما سنّه الآباء من تقاليد وأعراف وقيم ومبادئ وأنساق.. ولذا نجد في السيرة المحمدية المنيفة أن «المصباح/ المصدوق» عندما طلب من عمه أبي طالب وهو في مرض الموت أن ينطق ب الشهادتيْن أيْ يدخل الإسلام أبي وقال: بل على دين أو ملة عبد المطلب، لم يقل بل على عبادة الصنم الذي تعبده قريش.

لماذا؟ لأن القبيلة أي قبيلة وأي فرد فيها زعيماً أم غَمْراً هو على (دين الآباء) لأنه المِلاط الذي يشد أحجار أساس الوحدة «القبلية» بعضها بعضاً، فإذا سيبه الفرد أو سيبته القبيلة[١] انهارت وحدتها التي هي جوهر وجودها وبنيتها وكينونتها.

وهو ذاته ما ورد بل ما أكده القرآن العظيم في العديد من آياته المجيدة:

(قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)[٢]

---

(١) كلمة عربية صحيحة في «المعجم الوجيز» سيبه: تركه وخلاّه يسيب كيف يشاء.
(٢) ١٧٠/ البقرة.

(قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا)[١]

(قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا)[٢]

وكما قيل ل «حزب الله/ الحاشر» قيل ل «الكُمّل» الذين سبقوه.

لم يأت جوابهم عليهم «بل نتبع ما يأمرنا به سدنة أوثاننا أو الكهان أو العرافون» مع أن هؤلاء موجودون.

إذن دين الآباء (سبق شرحه) هو الذي يحول دون اعتناق الإسلام.

فلرفضه دالة سياسية هو الحفاظ على وحدة القبيلة من كافة نواحيها وبالمقابل ف قبوله ينفح معنى سياسياً وهو الذوبان في كيان أكبر، وهذه هي العقبة الأولى أي حتى ولو دعا إليه فرد من القبيلة ذاتها وهو ما حدث مع محمد ذاته من ناحية قبيلته فما بالك والداعي للديانة الجديدة من قبيلة أخرى؟

ونذكر ب ما زَبَرناه في المفتتح هناك عائقان:

العصبية والعض ب النواجذ على وحدة القبيلة.

العصبية لأن المبشر ب الدعوة الجديدة من قريش.

و«ذو الخلق العظيم» يعرف ذلك كله تمام المعرفة بحكم نشأته ومن ثم انتهى إلى قرار حاسم هو شهر السيف على القبائل حتى تنطق ب الشهادتين شارة الإسلام وشعاره وعلامته.

ومتى فعلت تخلت ب طريق الحتم واللزوم عن (دين الآباء) وترتيباً عليه انفكت العقدة وانحل الرباط وساب الحزام وتخلخلت الحُجزة فتصبح وحدة القبيلة أثراً بعد عين فتموص في الدولة ويتحلل كيانها.[٣]

من أجل ذلك ف لا دواء إلاّ الفَوَاصل/ القواطع/ البواتر (=

---

(١) ١٠٤/ المائدة.

(٢) ٧٨/ يونس.

(٣) في حديث عائشة ــ رضى الله عنها ــ ماصوه كما يُماص الثوب ب الصابون ثم قتلوه «أساس البلاغة» ل الزمخشري.

السيوف) وهذا يفسر لنا شراسة مقاومة القبائل للمسلمين إذ يدعونهم ل الولوج في ديـــانتهم، فهـــم دافعوا عن هويتهم وكينونهم.

فليس الأمر ــ كما سطر كثيرون ــ أنه الدفاع عن الدين أو الذود عن الصـــنم المعبـــود فالدين في حياة أولئك الأعاريب شأن ثانوي وأمر هامِشي.

ف حتى زمن خلافة الأموي عثمان دأب الطليق أبو الطلقاء أبو سفيان علـــى القـــول: لا أدري ما جنة أو نار!!!

وشعارهم الذي عاشوا وماتوا عليه = إن هي حياتنا الدنيا وما يهلكنا إلاّ الدهر.

بالإضافة إلى إقبالهم على الملذات وإفراطهم في الشهوات وعَبّهم من المسرات.

إذن جِماعه يؤكده ويوثقه.

إنما حاربوا ببسالة وقاتلوا ب شجاعة وفتكوا ب شراسة من أجل بقاء وحدة القبيلة وهو ما يمكن أن نسميه العصبية القبلية.

* * *

اليهود الذين عاشوا زمن (أبي القاسم) في منطقة يثرب لا شك أنهـــم تـــأثروا ب التقاليـــد والأعراف القبلية وهذا ما يوضحه لنا علم الاجتماع ولا أدل عليه من أنهم انقسموا إلى قبائل.

ف مثلما انشق بنو قيلة فرعين = الأوس والخزرج افترق أولاد الأفاعي إلى ثلاثة عثاكيل «شماريخ وزناً ومعنى»: بني قريظة، وبني النضير، بني قينقاع.

لم يمنعهم الإيمان ب الإسطار المقدس الذي لديهم من التجزؤ، لأن الأعراف القبليـــة فـــي البيئة التي فيها عاشوا زمناً متطاولاً أقوى أثراً وأشد فاعلية وأعمق نتيجة من المبادئ التي حملهـــا كتابهم. نخلص من جمعيته أن الرد الجافي والجواب الفلوت الذي جابهوا به «الأكـــرم/ الأعـــز» ليس مبعثه الاغترار

بالديانة أو التيه بالعقيدة أو الحرص على كتابهم المقدس فحسب، بل يدخل في مكوناتـــه ويشـــكّل بعضاً من كينونته الحفاظ على الوحدة القبلية بالنسبة لِ فروعهم الثلاثة ــ شـــأنهم شـــأن القبائـــل العربية الأخرى.

ف التقاليد والأعراف والأنساق الاجتماعية القبلية تتحكم فيها كلها.

ونذكّر هنا بالزواج المختلط بين العربة واليهود ونشأة كثير من أولاد البطون العربية لدى اليهود ب الإضافة إلى الأحلاف والولاء وسائر الارتباطات الأخرى...

كل الفرق: إن القبيلة العربية تنادي ب «دين الآباء» والقبيلة اليهودية تستند إلى الإســـطير المقدس وكل منهما تجعله المدماك الذي تقوّى به أساس وحدتها.

هذا الملحظ الذي نطرحه وهو أن القبائل اليهودية الثلاث التي ناجزت «المدثر/ المزمـــل» وعادته من بين دوافعها ــ ب الإضافة إلى العامل الديني ــ تمسكها ب وحدتها القبلية مثلها مثـــل أي قبيلة عربية في تلك المنطقة وفي ذياك الزمن المعجب.

هذا الملحظ لم نرَ ــ فيما قرأناه في هذه الخصوصية ــ أن أحد البحاث التفت إليه.

ونرجّح أن الانتباه إليه سوف يأتي ب حقائق أو نتائج أو حتى ب أراء جديـــدة لا مشـــاحة أنها تساعد على الفهم والإحاطة خبراً ب تعمق وشمولية ل حقبة التدشين المهمة هذه والتـــي هـــي في مزيد من الحوجة إلى الحفر والتنقيب والتنقير.

* * *

أورد السيوطي في ال «لباب» الحديث عينه وقرر أن أبا داود (وهو من أصحاب الســـتة الصحاح) رواه في سننه والبيهقي من الدلائل عن

... عكرمة عن ابن عباس.[١]

وهذا تأكيد ل صحة الأثر.

هذا ال فنحاص هو أحد المتنفذين في صفوف إخوان القردة والخنازير غاظه وشحن نفسه الخبيثة سخطاً وعبأ صدره اللئيم ضغناً وملأ فؤاده الأثيم حنقاً انتصار «صاحب السرايا» وتباعه في غزاة بدر.

ثم أردف سبب آخر (أخرج بن المنذر عن عكرمة عن فنخاص اليهودي يوم بدر، لا يغر محمداً أن قتل قريشاً وانتصر عليها، إن قريشاً لا تحسن القتال/ فنزلت هذه الآية).[٢]

فقد أدرك أن ل الفلج المؤزر ما بعده.

ولم تغب عنه نتائجه الخطيرة وآثاره البالغة وعواقبه العميقة ف أمّ «قَصَدَ» أن يتلقف زمام المبادرة ولكن بطريقة لحمتها الطفس «القذر» وسداها ال لَقَس «الخبث» ف هَدَرَك البعير ب تهديد أجوف ووعيد فارغ وإنذار ظاهر الحَيْدودة واضح الرَّوَغان لا يخيف أحداً ولا يرهب عدواً ولا يرغب خصماً.

وتصريحه الفالت مهما تعددت بواعثه وتنوعت دوافعه وكثرت تحاضيضه التي وزّته على التفوه به فإنه ومن سار على دربه أو شايعه في كلامه يدل على أنهم لم يقدروا «الناسك» حق قدره خاصة أنه لم يمكث معهم في يثرب حتى ذيّاك الإبّان طويلاً إذ إن عركة بدر حدثت في السنة الثانية من النزوح.

ولندع ال فنخاص جانباً.

من ألزم اللازم أن يتضايق «المنصور» من كلام الأرعن فنحاص خاصة أنه في تلك الفترة بدأ مشروع استئلاف بني إسرائيل ومشى

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي/ ص ٣٧/ مصدر سابق.
(٢) ذات المصدر والصفحة.

فيه خطوات ومن ثم يُسرع «الصدق/ العدل = القرآن» إلى محو أي أثر ل الضـيق مـن نفـس «المُعطى/ المُعقب» وإجلاء أي هم أو غم ألم به ف تطلع كَ الفجر الصادق آية مجيدة تبدد ظلمات الكآبة التي ربما انتابته وتعيد إليه الطمأنينة.

وفي الجانب المقابل ينقمع أولاد يعقوب إذ ينقهون أن الأمور ليسـت بِ البسـاطة التـي يتوهمونها.

* * *

ثمة مسألة لا بد من طرحها وفحصها بقدر من الاهتمام ــ وهي: سواء في الأثر الخـاص ب جمع اليهود في سوق بني قينقاع وردهم القبيح على «المتين/ المثبت = محمد» أو فـي الخبـر الخاص ب فنحاص وألفاظه الشرود.

فإن الآية العظيمة التي رقم المصنفون في «أسباب النزول» سواء من السلف أو المحدثين أنها هلت بشأنهما أو بِ خصوص واحد منهما تخاطب الكفـرة «قـل للـذين كفـروا سـتغلبون وتحشرون».

واليهود أهل الكتاب و«العروة/ الوثقى = القرآن» دأب على خطابهم بِ «يا بني إسرائيل» فَ لماذا ــ في هذه الآية تغيرت الصيغة وناداهم ب اعتبارهم كفرة «قل للذين كفروا...».

هل من باب أن «ل كل مقام مقال» ب معنى أنهم في هاتين النازلتين أظهروا ولم يُسَـرّوا وأوضحوا ولم يُخْفُوا وصرحوا ولم يجمجموا عداءهم ل «أحمد» ودعوته ودولته ف رِدْفُ له تغدو صفة الكفر أليق بهم، أم هي نقطة البدء في طريق تغيير الموقف من أولاد يعقوب ومقابلتهم ب ما يستحقون ومعاملتهم ب ما هم به جديرون؟

كتب التفسير

١ ــ تفسير الطبري

أورد ابن جرير الطبري خبر فنحاص بنصه عن عكرمة ثم «قـال أبـو جعفـر يعنـي الطبري»: فكل هذه الأخبار تنبئ عن أن المخاطبين

بقوله:

«سنقلبهم وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد» هم اليهود المقول لهم: «قد كان لكم آية في فئتين» الآية ويدل على أن قراءة ذلك بالتاء أولى من قراءته بالياء».[١]

٢ ــ «غرائب القرآن»:

أما القميّ النيسابوري فيذكر سببين:

أ ــ أحدهما رد اليهود على «الأحسن/ الأحشم» عندما جمعهم في سوق بني قينقاع وقد زبرناه فيما سبق.

ب ــ الآخر «عن ابن عباس في رواية أبي صالح عنه قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر قالت يهود المدينة: هذا والله النبي الأمي الذي بشرنا به موسى ونجد في كتابنا نعته وصفته وأنه لا ترد له آية، وأرادوا تصديقه واتباعه ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى.

فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ شكوا، فقالوا: لا والله ما هو به، وغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا.

وكان بينهم وبين رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عهد إلى مدة فنقضوا ذلك العهد وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة أبي سفيان وأصحابه فوافقوهم وأجمعوا أمرهم وقالوا لتكونن كلمتنا واحدة ثم رجعوا إلى المدينة، فأنزل الله فيهم هذه الآية».[٢]

بيد أن القميّ يرى أن «الآية في بدر».[٣]

أي عقب غزاة بدر الكبرى ومقالات أولاد الأفاعي الطائشة ثم عدّد أسباباً تؤيده في ما ذهب إليه.

---

(١) (تفسير الطبري) ــ الجزء السادس/ ص ٢٢٩/ مصدر سابق أما خبر فنحاص اليهودي فَ قد حملته ص ٢٢٨.

(٢) (غرائب القرآن) المجلد الثالث ص ٨٨ ــ سابق.

(٣) ذات المصدر ص ٨٩.

ونحن نرجحه لأن رواية عزم اليهود الإيمان بدعوة «الشاهد/ الحليم» وتصديقه واتباعه فيها نظر لأن موقفهم منه أصيل ومرده التمسك بإسطارهم المقدس وفزعهم مثل أي قبيلة عربية من فقدان وحدتهم القبلية إذا ما آمنوا به ومن ثم ينضمون ل دولة قريش.

كما أن الادعاء بأنها نزلت بعد وقعة أحد مستبعد لأن آيات مستقلة هلت بشأنها.

٣ ـ الكشاف:

ذكر الزمخشري رواية عزم اليهود دخول الإسلام بعد النصر في غزوة بدر ورواية تراجعهم عن ذلك بعد عركة أحد ورواية جمعهم في سوق «بني قينقاع» ولم يرجّح واحد منها.[1]

٤ ـ تفسير القرآن العظيم:

نسخ ابن كثير روايتين لخبر جمع اليهود في سوق بني قينقاع عن محمد بن إسحق الأولى عن عاصم بن عمر والأخرى عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس ثم أضاف «فأنزل الله في ذلك من قولهم «قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون... إلى قوله لعبرة لأولى الأبصار».

(تفسير القرآن العظيم) ل ابن كثير ـ المجلد الثاني ـ ص ١٣ مصدر سابق.

هنا نجد أن الحافظ ابن كثير يذهب إلى أن الآيتين الثانية عشرة والثالثة عشرة أيضاً خوطب بهما اليهود لم يتردد ولا خالجته ذرة من شك.

٥ ـ تفسير القرطبي:

أبو عبد الله محمد الأنصاري القرطبي ذكر صراحة أن الآية

---

(١) (الكشاف) ل الزمخشري ـ الأول ـ ص ٤١٤ ـ مصدر سابق.
(٢) (الجامع ل الأحكام القرآن) ـ تفسير القرطبي ـ المجلد الثاني ـ ص ١٢٦٦ ـ مصدر سابق.

الثانية عشرة «آل عمران» موضوع هذا التنقير خوطب بها اليهود («قل للذين كفروا... إلى آخر الآية ــ ١٢ ــ) يعني اليهود.

ثم نسخ خبر جمع «المسبّح المستغفر» ل اليهود وتحذيره إياهم من الله أن ينزل بهم مثل ما نزل من قريش وردهم السافل عليه «فأنزل الله تعالى «قل للذين كفروا ستغلبون» يعني اليهود أي تهزمون وتحشرون إلى جهنم في الآخرة فهذه رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس».[١]

إذن في مذهب القرطبي أن الخطاب الذي حملته الآية «يا أيها الذين كفروا» موجه إلى اليهود.

ثم رقم رواية أبي صالح عن ابن عباس «أن اليهود لما فرحوا بما أصاب المسلمين يوم أحد نزلت».[٢]

بيد أن سياق الرد يشي بأن القرطبي يهزل (= أنها هزيلة) الرواية الأخيرة ويطرحها جانباً ويأخذ ب الأولى.

٦ ــ المحرر الوجيز:

الغرناطي أبو محمد عبد الحق بن عطية نسخ خبر سوق بني قينقاع.

ثم ألحق به قول اليهود بعد ما حدث في وقعة أحد وفي المرة الأولى: «فأنزل الله في قولهم هذه الآية» وفي الأخرى: «فنزلت الآية في ذلك أي قل لهؤلاء اليهود سيغلبون يعني قريشاً ويحشرون» ثم استطرد «ورجّح أبو عليّ قراءة التاء على المواجهة وأن الذين كفروا يعم الفريقين: المشركين واليهود».[٣]

نخلص من جماعه أنها سواء هلت عقب انتصار بدر أو انكسار

---

(١) ذات المصدر والصفحة.
(٢) ذات المصدر والصفحة.
(٣) (المحرر الوجيز) ل الغرناطي ابن عطية ــ الثاني ص ٢٤٨ ــ مصدر سابق.

أحد وسواء بقراءة «ستغلبون» ب التاء أو «سيغلبون» ب الياء فإن اليهود خوطبوا بها، حتى لو وُجّه خطابها للفرقتين أو ب تعبير الغرناطي «يعم الفريقين» ف إن اليهود يدخلون في الخطاب.

٧ ـ روح المعاني:

أبو الفضل شهاب الدين الألوسي في ال «روح» لملم خبر سوق «بني قينقاع» وشروع يهود في تصديق واتباع «الماء المعين/ المأمون» بعد فوزه المبين يوم بدر ثم خُنُوسهم عنه بعد نكبة أحد وانطلاق الخليع الماجن كعب بن الأشرف وستون من تُبّاعه إلى قرية القداسة ل تحريش بني سخينة على قتال «القمر/ القطب».

ثم يخلص إلى: (فأنزل الله تعالى «قل للذين كفروا» إلى قوله «سبحانه لأولى الأبصار» فالمراد من الآية اليهود، والسين لقرب الوقوع أي: تغلبون عن قريب وأريد منه الدنيا.

وقد صدق الله تعالى وعده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقتل كما قيل من بني قريظة في يوم واحد ستمائة جميعهم في سوق بني قينقاع أمر السيّاف بضرب أعناقهم وأمر بحفرة حفيرة ورميهم فيها...).[١]

إذن الألوسي انضم ل سائر المفسرين الأكابر الذين أكدوا أن الآية المذكورة «آل عمران/ ١٢» هي خطاب موجه ل اليهود وحتى لو شركهم فيه غيرهم فهم أيضاً معنيون به.

إن من مفارقات التاريخ أن سوق بني «قينقاع».[٢] الذي شهد معارضة بني إسرائيل ل محمد ورفضهم دعوته إياهم إلى اعتناق ديانة الإسلام هو «= سوق بني قينقاع» الذي تم فيه نحر ستمائة من ذكران بني قريظة.

---

(١) (تفسير الألوسي) ـ الجزء الثاني ص ١٧١ ـ مصدر سابق.
(٢) السوق يذكر ويؤنث من «المعجم المبتكر» ل التقوي/ مرجع سابق.

وقد رأى في هذا الذبح الجماعي تحقيقاً لما جاء في الآية الحميدة «ستغلبون» بل هو أجلى صورة من صور الغلب.

* * *

بقيت التفاسير المعاصرة.

٨ ــ في رحاب التفسير:

زبر عبد الحميد كشك رواية تجميع اليهود في سوق بني قينقاع وما حدث فيه.

وعزمهم بعد الفوز الساحق يوم بدر اعتناق الإسلام ثم تراجعهم وكنوسهم عنه غب نازلة أحد. وسفر المخنث المنحل كعب بن الأشرف إلى مكة ل إثارتهم ضد «البحر الباهى» وانتهى المصنف «في هذه الآية الكريمة وعيد شديد وتهديد وويل وثبور، جاء هذا التهديد للكافرين ومنهم اليهود».[(١)]

أي أن الآية المجيدة خوطب بها الكافرون واليهود.

بداهة يعنينا في هذه الخصوصية أن «عبارة للذين كفروا» شملت اليهود.

٩ ــ تفسير القرآن الكريم:

جاء مصنفه عبد الله شحاتة ب خبر جمع اليهود في سوق بنى قينقاع وما قالوه (فأنزل الله «قلْ للذين كفروا» الآية ١٢، إلى قوله «لأولى الأبصار» الآية ١٣ وحكم الآية يعم جميع الكافرين وإن نزلت بسبب اليهود).[(٢)]

ثم يعدد المصنف شواهد الغلب الذي وقع على يهود «ستغلبون»:

(وقد صدق الله وعده بقتل يهود بنى قريظة، وإجلاء بنى النضير وفتح خيبر).[(٣)]

* * *

---

(١) (في رحاب التفسير) الجزء الثالث/ ص ٥٥٩ ــ سابق.
(٢) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله شحاتة الجزء الثالث ٥٢١ ــ مرجع سابق.
(٣) ذات المرجع والصفحة.

هكذا أطبقت التفاسير تراثية ومحدثة على أن اليهود خوطبوا أو إذا شئنا الدقة الشديدة أمر «المجيد/ الزبور = القرآن» ب أن يخاطبهم باعتبارهم كافرين «قل للذين كفروا» في حين أنهم أهل كتاب.

ف هل هذا رد مكافئ أم جزاء وفاقاً على عنادهم واستكبارهم دخول أو اعتناق الإسلام أم هو، وفي هذا الموضع ب الذات أي حصراً وتحديداً. كفر دون كفر كما يقول الفقهاء في مواضع أخرى، أم هو من نوع كفران الزوجة ل العشير أي البعل أو الزوج؟

قلت «في هذا الموضع ب الذات» لأن اليهود بعد هذه الآيات الكريمة وحتى الآن ما زالوا أهل كتاب: تُنكح نساؤهم وتُؤكل ذبائحهم، بخلاف الكفرة أو الكافرين ف لا يحل ل المسلم شيء منه.

* * *

بعد أن بزغت الآية الكريمة ك القمر الوضاء ارتدع أولاد الأفاعي وركبهم الخوف واستولى عليهم الذعر وشملهم الرعب مما حمل الراحة والطمأنينة لنفسه الشريفة.

وفرح التبّاع ل فرح قائدهم وانتصاره المعنوي على أعدائهم.

وأثبت «الصحف المكرمة/ القرآن» معايشته ل ِأحوالهم ودورانه مع تقلبات ظروف سيدهم سواء مع أصحابه أم عدوه، وأنه دائماً ينفحه ب ما يناصره ويؤازره.

ودائماً يؤكد النص الأساس الحكمة العميقة الكامنة وراء انبثاقه نجوماً وأبعاضاً وتفاريق.

وهو ب هذه المثابة بريء من ادعاءات الابتعاد والافتراق والانفصام التي يرفعها البعض غير المدرك ل مدى خطورتها على المخاطبين.

* * *

(قوله تعالى: ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا تظلمون فتيلاً).[١]

---

(١) الآية التاسعة والأربعون من سورة النساء.

قال الكلبي: (نزلت في رجال من اليهود أتوا رسـول الله ــ صـلى الله عليـه وسـلم ــ بأطفالهم، وقالوا: يا محمد هل على أولادنا من ذنب؟ قال: لا، فقالوا والذي نحلف به ما نحـن إلا كهيأتهم، ما من ذنب نعمله بالنهار إلاّ كفر عنا بالليل وما من ذلك نعملـه بالليـل إلا كفـر عنـا بالنهار، فهذا الذي زكوا به أنفسهم).[١]

الجدال مستمر بين «نعمة الله» واليهود. واضح من الخبر أن الحِجَاج لـم يقتصـر علـى الأحبار والغطاريف بل تعداه إلى عامتهم «رجال من يهود».

هم الذين بدأوا الحوار فسألوا «المخصوص ب الشرف» سؤالاً إجابته معروفـة ب بدائـه العقول لأن الأطفال لم يعقلوا والعقل مناط المسئولية.

ثم أجروا قياساً خاطئاً وهو أنهم مثلهم ثم قفزوا إلى نتيجة فاسدة ف هم ما داموا «هيأتهم» أي مثلهم ف إن ذنوبهم الليلية تغفر لهم بالنهار وذنوبهم النهارية تسدل عليها حجـب الظـلال ف تمحوها، مع أن الأطفال لا خطايا لهم لا ب الليل ولا ب النهار إذ لا مسئولية عليهم لعدم احتلامهم أي وصولهم إلى سن البلوغ.

مثل هذه المجادلة العقيمة المحشوة ب الأغلاط والتي يواجهون بها «نور الأمم» يتفضـل «العلى/ الحكيم = القرآن» ب آية مجيدة تفرج عنه ما سببته «المجادلة» من ضيق وتبين لأتباعـه لجاجة بني يعقوب.

(أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانت اليهود يقدمون صـبيانهم يصـلون بهـم ويقربون قرباتهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب فأنزل الله «ألم تر إلـى الـذين يزكـون أنفسهم»).[٢]

وأضاف المصنف «وأخرج ابن جرير نحوه عن عكرمة ومجاهد وأبي مالك وغيرهم».

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي ١٠٣ سابق.
(٢) (لباب النقول) ل السيوطي ص ٥٤ ــ مصدر سابق.

إذن هذا الأثر له أكثر من مصدر ب حسب ما رقمه السيوطي.

منه يتضح أن اليهود دأبوا ـــ عند أدائهم الصلاة ـــ على تقديم أولادهم لأنهم خلــو مـــن الخطايا وإذا ما عزموا تقريب قرابين فعلوا مثله إذ إنه ادعى لقبولها لأن الصبيان لم يقارفوا ذنوباً بعد.

صورة تعبدية على الرغم من صفورها من المعقولية وفراغها من المنطق وخوائهــا مـــن الفكر السليم فإنها لا تخلو من مخاتلة وتنضوي على خداع وتلتبس ب الفتنة.

إذن احتمال المطالبة بِ مثلها وارد ومن ثمة فَ النهج القويم ل قطع الطريـــق علـــى أي تفكير في ذلك إماطة القناع عن بهرجتها «الصورة التعبدية» والكشف عن زيفها ورفع الستار عن سرابها ولا يتحقق إلاّ بأن تهل آية حميدة ك النجم الثاقب الذي يقضي ضوؤه علـــى جمـــاع تلـــك البروق الخلوبة.

وغب أن تشرق يتبين لكل ذي عينين، ولمن يملك ذرة من بصيرة أو مسكة من تعقل أنهـــا مجرد وهم لا يستحق حتى مروره ب الخاطر.

* * *

ذكر صاحب «المقبول» الخبر ذاته بالرواية عينها ووصفه ب أنه صحيح وأن ابن كثيـــر أورده في تفسيره وأن ابن جرير أخرجه عن أبي مالك مرسلاً وأن الشيخ شاكر في عمدة التفســـير أكد صحة إسناده ولكن المصنف الأزهري أو الأزهري المصنف أضاف إليه ما يلي:

(.. وكذبوا قال الله: اني لا أطهر ذا ذنب بآخر لا ذنب له وأنزل الله... الآية).(١)

إن كلمة «وكذبوا» من المرجح أنه تعقيب من «المكي/ الملاحمي» على ما يفعله اليهـــود من تقديم صبيانهم في الصلاة وتقديم القرابين.

أما: قال الله إني لا أطهر... ف هو أشبه ب الحديث القدسي.

---

(١) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ـــ ص ٢١٩ مرجع سابق.

والاثنان «= التعقيب والحديث القدسي» يقطعان ب صلابة الموقف ورد الفعل الحاسم على النسق اليهودي في التعبد.

ولكي لا يخطر ب بال أحد من التبيع أن يطلب نسخها أو تقليدها غدا من الحتم اللازم حسم المسألة ب آية مجيد تضع الأمور في نصابها وليلزم كل واحد منهم غرزه ولا يتعدى حده خاصة أن التعقيب المحمدي الشريف «كذبوا» وما أطلقنا عليه «أنه أشبه ب الحديث القدسي» لم يطرحا الثمرة المرجوة ب السرعة المطلوبة واللازمة في مثل هذه الحالة خاصة وهي تتعلق ب مسألتين عباديتين أو تعبديتين أولاهما الصلاة: عماد الدين ومنسك تقريب الأضاحي.

إذن بزوغ آية عظيمة في هذا الموضوع تحديداً أمر من الضرورات الملحة، وهكذا يثبت «العربي/ المبين = القرآن» أنه في الشأن الخطير والأمر اليسير يظاهر «المتبتل/ المتضرع» ويأخذ ب عضده.

كما أنه «العلي الحكيم = القرآن» لا تغفل عينه الكريمة عما يعترض محجتهم من عوائق مهما صغرت حتى تسير الدعوة المعظمة في طريقها المرسوم وبجوارها توأمها الحبيب الدولة التي حلم بها الجدود في يقظتهم وغفوتهم.

* * *

نعرج على كتب التفسير:

١ ــ تفسير القرآن الكريم

نسخ ابن كثير الحديث السابق بحذافيره لم يخرم منه شيئاً.[١]

ولو أنه ذكر سبباً آخر ل إشراق الآية «٤٩ النساء».

(قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية... في اليهود والنصارى حين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه).

وقال: ابن زيد: نزلت في قولهم «نحن أبناء الله وأحباؤه» منه

(١) (تفسير القرآن العظيم) ل ابن كثير ــ المجلد الثاني ــ ص ٢٦٢ ــ مصدر سابق.

قولهم: «لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى».[١]

ونحن نرى أنه سبب في غاية الوجاهة وعلى قُلة «بضم القاف» درجــات الإقنــاع: لأن اليهود ويرتدف بهم النصارى عندما يرددون ويشيعون ويذيعون ولا يملون تكرار ادعــائهم أنهــم وحدهم دون غيرهم من أصحاب العقائد والملل والنحل أبناء الله وأحبابه وأنه آثرهم دون غيــرهم واختصهم وحدهم ب الجنة فإن هذا «= الترديد أو التكرير» سوف يشيع بين الأتباع الربك ويفشي في صفوفهم المرج ويزرع في مجتمعهم الخلط خاصة أن هؤلاء التبيع حديثو عهد ب الإسلام من جانب ومن آخر حصيلتهم من البداوة وفيرة ومخزونهم من ضيق الأفق غزير وجعابهم «= جمــع جعبة» مليئة ب السذاجة وطيبة القلب.

ف حتم لازم وقف هذه الشعارات الزيوف التي يروجها إخوان القردة والخنازير وينتقلــون بها من مجلس ل آخر وفي كل قعدة وفي نهاية كل جلسة ويجب ألا ننسى أن أصرتهم ب بني قيلة وثيقة ورابطتهم حميمة وصلتهم متينة.

إذن لِ استئصال هذه البلبلة ول بتر هذه الشائعة ول محو هذا الإرجاف يُتحف «الــذي لا يمسه إلاّ المطهرون» «المؤتى جوامع الكلم» ب هذه الآية التي تكذب اليهود في لا هم أحبابــه ولا أبناؤه لأنه لم يلد ولم يولد وأن هذا من جانبهم تزكية جوفاء لأنفسهم اللقِسَة، وب مفهوم المخالفــة ف إن الذين يحبهم الله ويحبونه ويرضى عنهم ويرضون عنه هم أصــحاب (قائــد الخيــر) دون سواهم من أتباع الملل والنحل والعقائد والأديان.

ف تعود الطمأنينة إلى نفوسهم ويهدأ بالهم ويسر خاطرهم وبالتالي تقر عــين «صــاحب المدينة» بعد انقشعت السحابة الداكنة التي تجمعت نتيجة أكاذيب اليهود والنصارى.

ويثبت «الصحف المكرمة = القرآن» أنه يواكب أحوالهم عن قرب

---

(١) المصدر السابق والمجلد ذاته/ ٢٦١.

شديد وأنه لولا إشراقه نجوماً متفرقة لما حقق هذه الغايات السامية.

ولعل الذين يزعمون دعاوى الانفصام والانفصال والاغتراب بين النص المؤَسِّس وواقــع من خاطبهم قد ثابوا إلى رشدهم واقتنعوا.

* * *

٢ ــ التسهيل:

محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي ذكر في «ال تسهيل»:

(الذين يزكون أنفسهم هم اليهود لعنهم الله وتزكيتهم قولهم: نحن أبناء الله وأحبــاؤه وقيــل مدحهم لأنفسهم).[١]

٣ ــ أنوار التنزيل:

مصنفه البيضاوى جمع بين الخبرين: خبر قولهم «= أهل الكتاب» نحن أبناء الله وأحبــاؤه وخبر إحضار بعض يهود أطفالهم ل «دعوة إبراهيم» وقولهم نحن ك هيأتهم.[٢]

ولو أنه لم يرجح أحدهما بيد أن تقديمه لخبر مدحهم أنفســهم يشــي ب اقتناعــه ب دون الآخر.

٤ ــ تفسير الجلالين:

(«ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم» وهم اليهود، حيث قالوا نحن أبنــاء الله وأحبــاؤه، أي ليس الأمر بتزكيتهم أنفسهم «بل الله يزكي» «يطهر «من يشاء» ب الإيمان...).[٣]

ف هذا التفسير رغم وجازته البالغة أوضح جوهر القضية وهو إنه لا تلقوا بالالم لمــزاعم اليهود الجوفاء ف الله وحده هو الذي يزكّى ب الإيمان ويطهر ب الإسلام.

---

(١) (التسهيل ل علوم التنزيل) ل ابن جزيّ الكلبي ــ الجزء الأول ص ١٤٥ ــ مصدر سابق.
(٢) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل أي تفسير البيضاوي) ص ١١٤ ــ سابق.
(٣) (تفسير الجلالين) جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطي ــ ص ٧١ ــ مصدر سابق.

* * *

ومهما تعددت أسباب بزوغ الآية ٤٩ النساء، المجيدة فإنها حققت الهدف التي أمّته والقصد الذي رمت إليه بل في الحقيقة أنها قصود عديدة سبق أن رقمناها ف ليرجع إليها القارئ.

* * *

(قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنــون بالجبــت والطــاغوت» النساء/ ٥١... عن عكرمة قال: «جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكــة فقــالوا لهما: أنتم أهل الكتاب والعلم القديم فأخبرونا عنا وعن محمد؟ ف قالوا: ما أنتم وما محمد؟ قــالوا: نحن ننحر الكوماء الناقة المكتنزة» ونسقي اللبن على الماء ونفك العاني ونصل الأرحــام ونســقي الحجيج، وديننا القديم ودين محمد الحديث، قالا: بل أنتم خير منه وأهدى سبيلاً فــأنزل الله تعــالى الآية).[١]

الآية الكريمة نصت على أنهم «أوتوا نصيباً من الكتاب» أي حظاً أو جزءاً أو بعضاً منـــه مع أن آيات حميدة أخرى نصت على «الكتاب» دون تبعيض:

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) ٧٩/ البقرة و(نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب) ١٠١/ البقرة و(الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ١٤٦/ البقرة و(وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) ١٤٤/ البقرة...

ومعلوم أن سورة البقرة تلاها «الرحمة المهداة» على أصحابه قبل أن يقرأ عليهم ســورة النساء إذ إن البقرة بإجماع هي أول سورة من القرآن العظيم هلت في أثرب.

إذن ما هو السبب في ذكر «الكتاب» ب الكامل في آيات من البقرة وفي ورود «نصــيباً» من الكتاب في آية النساء هذه وهي مصلّية أو

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي ــ ص ١٠٣ ــ مصدر سابق.

تالية أو لاحقة لها؟

من الأجوبة التي يمكن تقديمها أن من أجاب قريشاً على سؤالها اثنان: حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف وهما ليسا من الأحبار أي علماء الدين ومن ثم فإن محصولهما من «الكتاب» هو مجرد «نصيب» أي جزء أو بعض.

ومما هو جدير بالذكر أن حيى بن أخطب غدا فيما بعد والد إحدى زوجات «الراضي — الأرجح» وهي صفية وقتل في خيبر.

أما كعب بن الأشرف فقد زبرنا فيما سبق قصة قتله على يد إحدى جماعات التصفية الجسدية لأعداء الديانة الإسلامية والدولة القرشية.

فهل المصير الذي لقيه كل منهما هو الجزاء الأوفق لموقفهما هنا وما تلاه من أفعال ذميمة صدرت من كل منهما؟

* * *

صناديد بنو سخينة بدأوا سؤالهم لليهوديين بقولهم: «أنتم أهل الكتاب والعلم القديم» أي قرنوا بين الاثنين أو جمعوا بينهما ف لماذا؟.

قبل أن نسطر الإجابة نوجز وجهة نظرنا عن معنى ما قصدوه من عبارة «العلم القديم» الذي نراه أنهم يؤمنون «دين الآباء» الذي كما رقمنا أنه ال أُسّ المتين والعمود المكين لوحدة القبيلة العربية الذي يمنعها من الذوبان في غيرها وفي مقدمها القبول حتى ب مجرد أداء التحية لعلم أي دولة لأن موجبه أو مقتضاه التماهي فيها، وكما زبرنا فيما سلف أن هذا النسق انتقل إلى قبائل يهود الجزيرة العربية أو منطقة الحجاز وأنه في مذهبنا من أوضح = تحاضيض معارضتهم الشرسة لاعتناق الإسلام وليس الإسطير المقدس الذي معهم وحده.

إذن انضواء خطاب المرازبة الجحاجح ل بنى يعقوب على العلم القديم لم يأت اعتباطاً.

وقد ألححنا وما زلنا على أن قراءة ما سُطّر عن «فترة التأسيس» الباهرة في كتب التراث يجب أن تتم ب عين يقظة وبصيرة نفاذة وعقل متفتح.

وتتمة للتنقيب في هذه النقطة نلفى أن قالة ملأ قريش تضمنت: «وديننا القديم ودين محمد الحديث» ولسنا في حوجة أن نكتب أن المعادل الموضوعي لكلمتي «ديننا القديم» هو «دين الآباء» الذي تتمسك به القبيلة العربية، وانتقل ب دوره إلى القبيلة اليهودية وتعض عليه ب النواجذ وتعتبره مدماك وحدتها والعنصر الصلب الذي يمنعها من «الموص» في غيرها.

كما أن عبارة «ودين محمد الحديث» أي المقابل ل «القديم» وهو «= الحديث» الذي يودى ب طريق التبع إلى الضياع وفقدان الهوية القبلية.

إن الباحثين الذين حللوا أسباب الحرب الضروس التي شنتها قريش على «المعصوم» لم يلتفتوا إلى هذا الملمح البالغ الخطورة:

ف منهم من نقر عن الدوافع الاقتصادية، ومن بينهم من بحث عن البواعث السياسية، ونجد من ذهب إلى أن العلة كامنة وراء العداوة الشديدة بين الرهطين: بنى هاشم وبنى أمية، وهناك من اتجه صوب المحافظة على ما يعبدونه من أصنام أو أوثان «مع أن هذا تعوزه الدقة وينقصه التحديد ويفتقر إلى التعيين ا.هـ».

هذه التحاضيض تمنعنا أمانة القلم وقواعد المنهج العلمي الصارمة التي نلزم أنفسنا بها، أن ندعي أنها غير صحيحة «إذّ في كل واحد منها قدر من الصحة ا.هـ»

إن النقص يعتورها والخداج يلم بها والهَتْم يشينها والثرم يعيبها... إذ إنها لم تلتفت إلى الجرثومة ولم تتنبه إلي الباعث الحثيث وهو الحفاظ على «الدين القديم» أي (دين الآباء) وهو كما خططنا مباين لعبادة الأوثان ومفارق لتقديس الأصنام، هو شأن قائم

بذاته، مستقل بنفسه، مرتفع برأسه يتمثل في التقاليد والأعراف والعـــادات والوصـــايا والنصـــائح والتوجيهات التي خلفها لهم الآباء وقد عبر عنها «الذكر المبين» بأنصع بيان وأوجزه «هـــذا مـــا وجدنا عليه آبانا».

وليست زلة لسان أو لفظاً عابراً أو رمية رام أو خبط عشواء أو هو سهم غرب «طـــائش لا يعرف من رماه ا.هـ» أن يصف سادة بني سخينة «الإسلام» أو «دين محمد حسب قـــولهم» ب الحديث أي الجديد المقطوع الآصرة ب الدين القديم «دين الآباء» وهو «من وجهة نظرهم» الـــذي سيؤدي بالقطع وعلى عجل لا ريث فيه إلى ذوبان قريش في محيط الدولة التي هي أبـــرز معـــالم الدين الحديث أو المحدث الجديد.

* * *

وعندما نتفرس فيما حدث غب انتصار «الدين الحديث» وتأسيس الدولـــة، نجـــد أن مـــا توجس منه ملأ قريش قد وقع ب حذافيره، حذوك النعل بالنعل أو القذة ب القذة، نعم قامت «دولة» ل قريش ولكن على حساب «قبيلة» قريش حتى ب صورة لم تكن في الحسبان:

حارب الأمويون بني هاشم ب شراسة وتقاتل المروانيون مع الزبيريين وثـــأر العباســـيون «وهم فرع من بني هاشم» من الأمويين بوحشية ثم انقلبوا على بني عمومتهم العلويين وأذاقـــوهم من النكال أضعاف ما لحق بهم على أيدي الأمويين، وغدا كل فرع من هؤلاء قبيلة مستقلة، وغدا الانتساب ل قريش مجرد رمز وهمي أو تصوري مثل انتساب العرب المستعربة إلى إسماعيل.

في حين أنه في ظل (دين الآباء) لم تتحارب بطون قريش لا ب ضراوة ولا بدونها.

وفي حالة نشوب أي خلاف بين رهطين أو فرعين سرعان ما يـــتم حســـمه ب الطـــرق السلمية، ونذكّر ب ما حدث بين أصحاب «حلف

لعقة الدم» وأعضاء «حلف المطيبين».

حتى المخاصمات الفردية يسرعون بفضها ب أي طريــق ــ ك التحكــيم ــ إلاّ امتشــاق السيوف أو حمل الأسلحة ف هو محظور.

إن تاريخ قريش في زمن «دين الآباء» أو «الدين القديم» مرقوم في كتب السير والتواريخ والأدب ودواوين الشعر ف ل يدلنا أحد وله الشكر والامتنان على حرب شبت بين بطنيْن منهــا أو قتال حدث بين فخذين أو صدام دموي بين فرعين أو حتى نزاع مسلح بين فردين.

إنما استعرت المعارك الضارية التي تشيب لها الولدان والتي سقط فيها عشرات الألــوف، والثارات التي راح ضحيتها المئات بين أولاد العم من القرشيين الــذين يعتنقــون عقيــدة واحــدة ويتعبدون ل إله واحد ويتجهون في صلاتهم ل قبلة واحدة ويقرأون كتاباً واحداً وضــربت الكعبــة المشرفة ب المنجنيق حتى كادت تحترق، في حين أنه تحت سماء (دين الآبــاء) دأب القرشــيون جيلاً بعد جيل على تعظيمها بل وتقديسها واعتبارها وما حولها حرماً آمنا وحرصوا على حمايتها.

كل هذه النوازل الفظيعة والوقائع الشنيعة والأحداث المريعة التي لــم يــر التــاريخ لهــا ضروباً تمت في عهد «الدين الحديث» وهي مفارقة صارخة في عوز بالغ في دراسة مكثفة وفــي حوجة شديدة إلى بحث عميق ومفتقرة بِ الكلية إلى حفر غائر فــي طبقــات التــاريخ ل معرفــة أسبابها ونقه عللها وفقاهة ماهيتها.

* * *

ثم نؤوب إلى سياقة البحث:

استعرض أئمة الكفر من بني سخينة أمام اليهــوديين منــاقبهم وقــدموا لهمــا محامــدهم وأطلعوهما على شمائلهم فذكروا نحر النوق اللحيمة وسقي اللبن على المــاء كنايــة عــن إكــرام الضيف والعمل على الإفراج عن الأسير ورفد ذوي القرابة وبــرهم وتقــديم المــاء ل الحجــاج والمعتمرين وهي أخلاق حميدة.

ولم يتكلموا عن أصنام أو أوثان أو ملائكة أو جن، فـَ هذا في نظرهم ليس من المفـــاخر التي يتغنى المرء أو القبيلة بها، بل هي علاقة حميمة الخصوصية بين الرب والمربـــوب والعبــد والمعبود وهي نظرة حكيمة.

وفي معرض الدين قارنوا بين دينهم ودين «الصفي/ محمد» ووصفوا الأول ب القدم وهي تعني العراقة والأصالة وغور الجذور في أعماق الأرض.

ف أجاب اليهوديان اللعينان على تساؤلاتهم ب أنهم خير منه وأهدى ســبيلاً ولقــد كــذب عدوا الله فليس ثمة وجه ل المقارنة بين زعماء الكفرة من بني سخينة وبين «سيد الوجود» في أي رجا من الأرجاء.

الذي لا مشاحة فيه أنه رد سياسي لأن المطرودين من رحمة الله توجها إلى قرية التقديس ل تحريش غطاريفها وعقد حلف معهم ضد «المتين/ المصباح» وتبيعه، ف من بدائه العقــول أن يتفوها ب هذا الإفك المبين.

وسرعان ما تصل هذه القالة الخبيثة إلى أسماع المسلمين ف تشوش عليهم وتشيع الــوهن في كتلتهم وتؤدي إلى فَسْح عَضَل جسم جمعيتهم، وتؤذي أحاسيس قائدهم وتخربش مشـــاعره، إذ كيف يفضل اليهوديان عليه رؤساء بني سخينة الذين لا يتورعون عن القــوادة ولا يــأنفون مــن الديوثة ولا يتعففون عن العيهرة ويتعاملون بالربا ويســتحلون عــرق ســواعد العبــدان وأفخــاذ الإماء...

وقبل أن تطرح تلك الكلمات النتنة حصادها المر تقبل متلألئة الآية ٥١/ النساء ـــ فيتنفس الأتباع المخلصون الصعداء ويطمئن «ذؤابة قريش» بالاً ويزداد يقينه رسوخاً بأنه الأهدى ســبيلاً والأشمخ مكانة.

* * *

أورد السيوطي خبراً مماثلاً لما نسخه الواحدي ولا يخرج عن

مضمونه، وأثراً آخر يدور في ذات الفلك.[١]

وكذلك فعل صاحب (المقبول) ولو أنه أورد ثلاثة أخبار تنسج على ذات النّوّل وتجري في المضمار نفسه وتنهل من النبع عينه.

ووصف الأول والثاني بالصحة والثالث بأنه حسن ل غيره.

وذكر من ضمن من خرجوهـا: النسائي في تفسيره، وابن كثير في تفسيره وعزاه ل أحمد بن حنبل، والطبراني في الكبير والبيهقي في الدلائل..[٢] وبهذا أصبحت الأخبار التي تعلقت ب الآية العزيزة على درجة طيبة من التوثيق.

* * *

بعدها ننعطف إلى:

التفاسير:

١ ــ التسهيل ل علوم ال تنزيل:

(الآية سببها أن حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف أو غيرهما من اليهود قالوا لكفار قريش أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه).[٣]

٢ ــ تفسير البيضاوي:

(... نزلت في يهود كانوا يقولون إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعو إليه محمد، وقيل في حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف وجمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا ل آلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا...).[٤]

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ٥٤ ــ مصدر سابق.
(٢) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ٢١٩ ص ٢٢٢ ــ مرجع سابق.
(٣) (كتاب التسهيل ل علوم التنزيل) ل ابن جزّي الكلبي الأول ــ ص ١٤٥ ــ مصدر سابق.
(٤) (أنوار التنزيل) ل البيضاوي ــ ص ١١٤ ــ مصدر سابق.

بدأنا ب «التنزيل» ثم ثنّينا ب «الأنوار» ل صفورهما من معلومات جديدة ذات أهمية مـــا خلا ما طرحه القاضي البيضاوي عن سجود الجمع اليهودي «الذي توجه إلى قريـــة التقـــديس ل التحريش والتهييج ضد المسلمين ل أصنام بني سخينة رغم نهي إسطيرهم المقدس عنه، وقد فعلوه من باب السياسة إذعاناً ل مطلب ال مكاكوة وإذا شئنا الدقة ل شرطهم بعـــد أن أخبـــروه أنهـــم لا يأمنونهم لأنهم أقرب إلى «المقرى/ المقسط = محمد» منهم فهم معه في قرية واحدة «يثرب» وأن بيده «كتاباً» وهم بالمثل لديهم «كتاب» ولا يغير من الأمر شيئاً سبق كتابهم في التـــاريخ لا فـــي الرتبة: لأن «الفرقان/ العلم = القرآن» هيمن على الكتب التـــي أعلنهـــا (الكمـــل) الســـابقون دون استثناء حتى «الصحف» التي بشر بها إبراهيم كبير البطاركة وأُسهم وأصلهم ا.هـ.»

فلو لم يسجد إخوان القردة والخنازير للأصنام لما صدّقهم ملأ قريش ولما وضعوا أيـــديهم الدنسة في أكفهم الدرنة ولما ارتبطوا معهم ب الحلف الذي سعوا ل عقده.

٣ ـــ الكشاف:

فسر لنا الزمخشري ما جاء ب الآية الحميدة «يؤمنون ب الجبت» (أنهم سجدوا ل الأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوه).[١]

بيد أن المصنف «= الزمخشري» أتى ب المعلومة الجديرة ب الالتفات:

(قال كعب بن الأشرف ل صناديد بني سخينة: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت ونســـقي الحاج ونقري الضيف ونفك العاني وذكروا أفعالهم).[٢]

---

(١) (الكشاف) ل الزمخشري ـــ الأول ـــ ص ٥٢٣ ـــ مصدر سابق.
(٢) ذات المصدر والجزء والصفحة.

السؤال من جانب الماجن المتهتك حصراً وتحديداً عن الدين «وما دينكم؟».

ف لم يجبه السادة النجب من قريش: نعبد اللات والعزى ومناه ل تقربنا إلى الله زلفى وأن الملائكة بنات الله... الخ ف لو اعتقدوا ولو ل لحظة خاطفة أن عبادتها والإيمان بها والاعتقاد فيها هو الدين الذي يعتنقونه ل صرحوا به إنما هم ذكروا «الأفعال» الأعراف والتقاليد ومنهـا سـدانة الكعبة المشرفة وعمارة البيت الحرام وصيانتهما على الوجه الأمثل ل يلفاهما الحجج والعمار فـي أحسن صورة وأجمل أيأة (سبق شرحها: الأيأة هي الهيأة وزناً ومعنى) وتهاون الزمخشري سامحه الله في رقمها وهي التي ورثهم إياها آباؤهم.

إن جماعها هو «دين الآباء» الذي تناولناه فيما تقدم ولا نرى موجباً ل طجنـه «نضـجه» أكثر كيما لا يشيط.[1]

٤ ــ تفسير القرآن العظيم:

نفحنا ابن كثير عدة أسباب ل هلّ الآية الكريمة إنما تميز ب النص على أسماء الوفد الذين ذهبوا إلى مكة ب شيء من التفضيل.

ونضرب صفحاً عن البذاءة التي تفوه بها المكاكوة في حق «يد ولد آدم» إنما نسلط حزمة من الضوء علي ما أضافوه إلى أنفسهم (نحن أهل الحجج وأهل السدانة وأهل السقاية).[2]

هذا القول يذكرنا ب ما جاء في الآية التاسعة عشرة من سورة التوبة:

(أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله...)

السقاية والعمارة من أبرز مفردات أو عناصر «دين الآباء» لدى

---

(١) شاط الطعام قارب الاحتراق من «المصباح المنير» و«المعجم الوسيط».
(٢) (تفسير القرآن العظيم) ل ابن كثير/ المجلد الثاني ص ٢٩٥ ــ مصدر سابق.

بني سخينة وقد وضعتها الآية العظيمة في مقابل الإيمان بالله.

وقررت بحسم وحمم انتفاء المساواة بينهما.

ولعل رقم سبب إشراق هذه الآية يساعد على توضيح جوانب هامة:

(عن ابن عباس قال: قال العباس حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني فأنزل الله الآية).[1]

ردد العباس هنا كلمات زعماء قريش التي قالوها سابقاً لليهود بنصها وفصها.

وهي ليست مصادقة لا لأنه أحد السادة ولكن لأن هذه الأفعال هي «دين الآباء» ومن ثم وضعها في مقابل إيمان المسلمين ب الله أو الإسلام والهجرة والجهاد.

إذن معالم أو مكونات أو أبعاض الدين القديم في كفة ومثيلاتها في الدين الحديث في كفة أخرى.

وهنا يرتفع سؤال ينضوي على قدر من الخطر:

لماذا لم يصرح العباس: كنا نعبد كذا وكذا من الأصنام ونذبح لها ونقرب القرابين؟.

لعل الإجابة غدت معروفة:

لأن هذه ليست هي الدين القديم ومن ثم ف لم تجر على لسانه إنما عدد مقوماته أو بعضها.

إن نفي الآية «١٩/ التوبة» المساواة أو المقارنة بينهما أو حتى مجرد التفكير فيها يؤكد أن العم العباس أو العباس العم قصد المقارنة بين الدينين أو ربما أم المساواة بينهما وهو ما شجبته الآية وأدانته تماماً لأنه قياس فاسد ولا وجه له.

---

(١) (لباب النقول) ل «السيوطي» ص ٩٢ ـ مصدر سابق.

وإذا رجعنا إلى ابن كثير في تفسيره نجد أنه ذهب إلى أن الآية ٥١ من سورة النساء هـــي لعن لليهود وإخبار بأنه لا ناصر لهم في الدنيا أو الآخرة وأن ردهم علـــى استيضـــاحات جبـــابرة قريش صدر بقصد استمالتهم للانضمام إلى الأحزاب ضد «الخاشع».[1]

وب المثل فإن سجودهم للأصنام فعلوه لذات الدافع، لأن الغاية في مذهبهم تبرر الوسيلة.

٥ ــ غرائب القرآن:

أهدانا القمّي النيسابوري ــ في نطاق هذه الآية الحميدة «٥١ النساء» ــ خبراً مفصـــلاً س نرقمه ب كامله لأنه ثرٌّ ب المعطيات غني ب المعلومات، متضلع ب الإيحاءات:

(قال المفسرون: خرج كعب بن الأشرف وحيى بن الأخطب في سبعين راكباً إلى مكة بعد وقعة أحد، ليحالفوا قريشاً على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ونقضوا العهد الـــذي كـــان بينهم وبين رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فنزل كعب على أبي سفيان، والآخرون فـــي دور قريش، فقال لهم أهل مكة: إنكم أهل كتاب ومحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ صاحب كتـــاب، ولا نأمن من أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصـــنمين وآمنـــوا بهما، فذلك قوله «يؤمنون بالجبت والطاغوت» ثم قال كعب لأهل مكة ليجيء منكم ثلاثون ومنـــا ثلاثون، فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب هذا البيت لنجهدن على قتال محمد ــ صـــلى الله عليـــه وسلم ــ ففعلوا ذلك فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتب ونحن أميون لا نعلـــم، فأينا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق؟

نحن أم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ؟ فقال كعب: أعرضوا على ديـــنكم، فقـــال أبـــو سفيان:

نحن ننحر الكوماء «= الناقة العظيمة السنام» للحجيج ونسقيهم

---

(١) (تفسير القرآن العظيم) ل ابن كثير ــ الثاني/ ص ٢٩٥/ سابق.

الماء، ونقري الضيف ونفك العاني، ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا، ونطـوف بـه ونحـن أهـل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم، وديننا القديم ودين محمد ــ صـلى الله عليه وسلم ــ الحديث، فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه.. فأنزل الله تعالى الآية).[١]

إذا قرأناه «= الخبر» ب روية نخرج منه ب الكثير:

١ ــ عدة الوفد اليهودي سبعون: عشرة أضعاف السبعة العدد المقـدس لـدى الـديانات الإبراهيمية الثلاث.

٢ ــ ذهاب أولاد الأفاعي ل قرية التقديس حدث غب وقعة أحد التي انكسر فيها المسلمون أي أن قريشا في قمّة ارتفاع الروح المعنوية مما يسهل إقناعهم بعقد الحلف ل يتخلص الفريقان من عدوهم المشترك (الأخشى لله).

٣ ــ كعب بن الأشرف أعلى رتبة من حيى بن الأخطب، فقد أنزله زعيم بني سخينة فـي ذياك الوقت في داره ثم بعد قليل توجه إليه دون غيره من رؤوس أو أعضاء الوفد ب الاستفسـار عن المفاضلة بين دينهم وين «بشرى عيسى» وهو «= كعب» الذي اقتـرح دون سـواه اختيـار ثلاثين من كل ل يلصقوا أكبادهم ب الكعبة.

إذن هذا الكعب شخصية ذات مكانة لدى يهود، فهل من ضمن عناصر عَـدّه كـذلك أنـه شاعر وهو تقليد عربي في اعتبار الشاعر لدي قبيلته من أصحاب المقام المحمود فيها؟ أم لأنه «= هذا الكعب» يحوز صفات ذاتية أهلته، لذلك أم لأنه «انتخب كبيراً لليهود بـدلاً مـن مالـك بـن الصيف»؟[٢]

---

(١) (غرائب القرآن) ل القميّ النيسابوري ــ المجلد الثالث ــ ص ص ٦١٣ ــ ٦١٤ ــ مصدر سابق.

(٢) (محمد واليهود/ نظرة جديدة) تأليف بركات أحمد/ ترجمة محمـود علـى مـراد ــ ص ص ١١٤/ ١١٥ ــ الطبعة الأولى ــ مكتبة الأسرة/ مهرجان القراءة ل الجميع ١٩٩٨/ الهيئة المصرية العامة ل الكتاب ــ نقلاً عـن «إنسان العيون/ السيرة الحلبية» ل علي بن برهان الدين الحلبي ــ الجزء الثاني ــ ص ١١٦.

٤ ــ خشى مرازبة قريش مكر اليهود ف طلبوا منهم السجود ل صنيمين أشــاروا إليهمــا وأن يؤمنوا بهما بيد أن الخبر صفر من سجودهم كما جاء في الأخبار السوابق.

٥ ــ اقترح كعب بن الأشرف اختيار ثلاثين من قريش ومثلهم من يهود يلصقون أكبــادهم ب الكعبة وهم يعاهدون «رب هذا البيت» على بذل أقصى جهد في قتال «المدثر».

ف هل هذا يعني أن اليهود يعظمون الكعبة باعتبار أنها إرث إبراهيم جدهم الأعلى؟!.

الذي قرأناه في كتب السير أن القبائل على اختلاف مللها ونحلها دأبت على تعظيم كعبــة مكة قبل الإسلام (في ذياك الزمان وجد أكثر من عشرين كعبة ا.هـ) والحج والطواف حولها سبعة أشواط (كل مرة).

ومما هو جدير ب التنويه أن لزق الجسم ب الكعبة المشرفة والدعاء إبانه مازالا مستمرين فالحجيج والمعتمرون يمارسونه حتى الآن إذا تيسر لأحدهم. فهل هما نسيرة (قطعة) أي حتــة (= كلمة عربية صحيحة ا.هـ) بقيت من الدين القديم؟

الذي يجيب على السؤال علماء الأنثروبولوجيا الدينية.

٦ ــ قال أبو سفيان ل الخليع الماجن كعب بن الأشرف: نحن أميون لا نعلم ويوجد حديث محمدي شريف «نحن أمة أمية» والقول الفصل دائماً هو ما يرد في «الذكر الحكيم»:

«هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم».[١]

من الألغاز التي عجز أكابر المؤرخين عن حلها أن هذه الأمة الأمية التــي لا تقــرأ ولا تكتب ولا تحسب هزمت دول الجوار ذوات الحضارات الباذخة وعلى رأسها مصر بل وفرضــت عليها لغتها

---

(١) سورة الجمعة/ الآية الثانية.

«الجميلة» وثقافتها!!!

٧ ــ مما نطق به اليهودي ابن الأشرف: فنعاهد «رب هذا البيت» وهي عبارة لا بـد أن لها مدلولاً عميق الإيحاء، غائر الترميز في تلك الحقبة، ففي الآية الثالثة من سورة قريش «فليعبدوا رب هذا البيت» وهي من أوائل السور المكية، بيد أنه لم تتضمن أية سورة من سور «الحكيم المهيمن/ المبارك = القرآن» فيما عداها جملة «رب البيت». وبعبارة أخرى لم يوصف الرب بعدها في «العلم/ الحق = القرآن» ب «رب البيت». وهو أمر يستنفر التدبر ويستدعي التفكير ويتطلب التدقيق ويحتم التفرس في خوافيه ويستلزم التحديق في بواطنه.

٨ ــ عندما تكلم الطليق أبو الطلقاء «فيما بعد» أبو سفيان في حق سيده وسيد العرب والعجم، ذكر أنه «فارق دين آبائه» ثم أردف ب ما يعنيه أنه قطع الرحم وفارق الحرم.

هذا تأكيد لما ذكرناه أن (دين الآباء) ليس هو عبادة الأصنام والسجود ل الأوثان والذبح لها وتقديم القرابين إليها وسفح الدم تحت أقدامها والطواف حولها والتمسح بها، ف هذه عبادتهم التي اعتنقوها وآمنوا بها، وهي شيء مغاير وأمر مباين وشأن مفاصل ل (دين الآباء) الدين القديم الذي أوضحنا كنهه فيما سلف.

المهم في هذا النص أنه ذكر (دين الآباء) صراحة.

وبعد قليل سرد مقومات الدين القديم أي (دين الآباء).

لعل من بقيت لديه ذرة من شك أو جزيء من ريب أو فتات من ظن في مصداقية ما زبرناه عن «دين الآباء» قد اقتنع.

* * *

في خيتام الفاصلة عسانا وقد وفقنا في تحليل أسباب إشراق الآية الواحدة والخمسين من سورة النساء وإثبات أنها حققت القصود التي تغيتها وسطرناها فيما تقدم.

بقي تأكيد حكمة التقييم ف لولاه لما أمكن لجم أولاد الأفاعي وصتّهم ورفع المعاناة عن الصحب من جراء أفاعليهم الذميمة وأقوالهم الخبيثة خاصة أن التبيع ما كادوا يستردون أنفاسهم مما ألم بهم في غزاة أحد.

ولولاها لم انزاح ما اعتور نفس «أجود خلق الله» من ضيق على أثر لوكها «= الأقاويل» والإتيان بها.

إذ لو أن «دليل الخير/ الحسن الخلق» قرأ «مأدبة الله/ القرآن» دفعة واحدة على تبعه كما فعل أخو بنى إسرائيل إذ نزل من الجبل وبين يديه اللوحان المباركان اللذان احتضنا التوراة ثم أردف أن ربه قد نقشهما بأصبعه فكيف إذن يتسنى مقابلة النوازل ب ما يذهب عواقبها الوبيلة؟

أما أصحاب دعاوي الانفصال ــ انفصال النص عن واقع المخاطبين ــ أفي مكنتهم أن يدلونا ولهم الشكر عن حقيقة هذا الانفصال وماهية هذا الافتراق والنصوص تعالج ندوباً تحدث تباعاً وتداوي جروحاً تتواتر وتصلح شروخاً تتلاحق وترأب صدوعاً تتوالى وتلأم تشققات تتوافر؟

* * *

(أخرج البغوي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال:

إن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا وكان في كتابها الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرفعوا أمرهما إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ورجوا أن يكون عنده رخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقال له النعمان بن أوفى وبحري بن عمرو: جرت عليهما يا محمد! ليس عليهما الرجم! فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بيني وبينكم التوراة قالوا: قد أنصفتنا.

قال: فمن أعلمكم بالتوراة؟ قالوا: رجل أعور يسكن فدك يقال له: ابن صوريا، فأرسلوا إليه فقدم المدينة وكان جبريل قد وصفه لرسول

الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنت ابــن صــوريا؟ قال: نعم، قال: أنت أعلم اليهود؟ قال: كذلك يزعمون، قال فدعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشيء من التوراة فيها الرجم مكتوب، فقال له: اقرأ، فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليهــا وقرأ ما بعدها على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم!!

فقال عبد الله بن سلام: يا رسول الله قد جاوزها فقام فرفع كفه عنها. ثم قرأ على رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعلى اليهود بأن المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البينة رجما، فغضب اليهود لذلك وانصرفوا فأنزل الله عز وجل:

«ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بيــنهم ثــم يتــولى فريق منهم وهم معرضون. ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلاّ أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون» الآية ٢٣ آل عمران).[١]

وأيد الواحدي النيسابوري أن سبب إشراق هذه الآية العزيزة واقعة زنا يهوديين من خيبــر «وقال الكلبي نزلت في قصة اللذين زنيا من خيبر وسؤال اليهود للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن حد الزانيين.[٢] ورقم القمي النيسابوري هذه العبارة بنصها وفصها في «الغرائب».[٣]

وأيد الجلالان المحليّ والسيوطي أن سببها هو زنا اليهوديين ولم ينسباها إلى خيبر، وفــي رأينا أنه لا يغير من الأمر شيئاً «نزل في اليهود زنى منهم اثنان فتحاكموا إلى النبي ــ صــلى الله عليه وسلم ــ

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمي النيسابوري ــ المجلد الثالث ــ ص ١٠٨ ــ مصدر سابق.
(٢) (نهاية السول) ل أبي عمر نادي الأزهري ــ ص ٨٩ ــ مرجع سابق.
(٣) (أسباب النزول) ل الواحدي ص ٦١ مصدر سبق ذكره.
ورقم القميّ النيسابوري هذه العبارة بنصها وفصها في «الغرائب».

فحكم عليهما بالرجم فجيء ب التوراة فوجد فيها فرجما فغضبوا».(١)

وفي تنوير المقباس تأكيد أن سببها هو إعراض يهود بني قريظة والنضير من أهل خيبر عن الرجم.(٢)

* * *

وذكر الشيخ محمود محمد شاكر محقق «تفسير الطبري» والمعلق على حواشيه: «في رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها نزلت في أمر اليهودي واليهودية من أهل خيبر فزنيا فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما، فرفعا إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فحكم برجمهما، فقالت الأحبار ليس عليهما الرجم! فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بيني وبينكم التوراة، فلما جاءوا بالتوراة وانتهوا إلى آية الرجم وضع ابن صورية يده عليها وقرأ ما بعدها والخبر مشهور».(٣)

أما الألوسي فقد نسخ الخبر باختصار وقرر أنه نقله عن البحر.(٤)

* * *

من كتب التفسير الحديثة اخترنا:

تفسير القرآن الكريم

يوجد للشيخ محمود شلتوت، وهو شيخ سابق للمعهد العتيق المعروف ب الأزهر، تفسير يحمل ذات الاسم ظهر منذ أكثر من ربع قرن وددنا لو أن عبد الله شحاتة اختار اسماً أو عنواناً مغايراً ل

---

(١) (تفسير الجلالين) ص ٤٥ مصدر سبق ذكره.
(٢) (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) ل الفيروز آبادي ــ ص ٣٦ مصدر سابق.
(٣) هامش صفحة ٢٩٠ من تفسير الطبري ــ الجزء السادس ــ مصدر سابق.
(٤) (روح المعانى) ل الألوسي ــ الجزء الثاني ــ ص ١٧٧ ــ مصدر سابق.

لتفسيره، إنما يبدو أن إدمانه على النقش من تفاسير من ظهروا قبله أدى إلى اقتباس حتى العنوان، في حين أن سيد قطب وعبد الحميد كشك اختار كل منهما ل مصنفه عنواناً مبتكراً.

(أخرج البخاري في كتاب التفسير باب «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» عـــن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنه ــ أن اليهود جاءوا إلى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنا منكم؟ قالوا نحممهما ونضربهما، فقـــال لهـــم: ألا تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا لا نجد فيها شيئاً، فقال لهم عبد الله بن سلام كذبتم «فـــأتوا ب التوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» فوضع مدراسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الـــرجم فطفـــق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم. فقال: ما هـــذه الآيـــة؟ فلما رأوا ذلك قالوا هي آية الرجم فأمر بهما فرجما قريباً من موضع الجنائز عند المسجد).(١)

هذا الحديث مختلف عن نديده الذي رقمناه في جبين هذه الفاصلة ولو أن المضمون واحد، كما ندرك أننا قدمنا سبباً آخر ل بزوغ الآية ٢٣/ آل عمران مبايناً ل الحالي إنما نذكّر القـــارئ ب قالة علماء «التفسير» و«أسباب النزول» أنه لا مانع من تعدد الأسباب.

* * *

وثقت كوكبة عالية المقام من تلك الكتب أن الآية ٢٣ من سورة آل عمران لمعت كـــالنجم الثاقب بشأن قصة زنا اليهوديين وأن روايتهما ترجع في الأس ل ابن عباس.

في الخبر الذي استفتحنا به نجد أن يهوديين «رجلاً ومرة» زنيا ولأنهما من عليه القوم فلم يقيموا عليهما الحد المنصوص عليه في

---

(١) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله محمود شحاتة ــ الجزء الثالث ــ ص ٥٤٦ ــ مرجع سابق.

إسطارهم المقدس وتخيلوا أن «دعوة إبراهيم = محمد» لا علم له بتوراتهم فرفعوا الأمر إليه إذ ربما يقضي في شأنهما ب عقاب آخر، فلما حكم عليهما ب الرجم عقبوا عليه ب كل سفولة أنه ظلمهما في حين يعلمون أنه مثال العدل ومن المحال أن يجور.

ونظراً لأنه على خلق عظيم وواسع الصدر وحليم ف لم يغضب وب كل أناة طلب الاحتكام إلى التوراة فأسقط في أيديهم النجسة إنما تظاهروا بالموافقة وأحضروا أعمقهم علماً ب كتابهم «فدعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشيء من التوراة فيها الرجم» وهذه العبارة تشي بأنه يعلم الجزء المنصوص فيه على آية رجم الزناة ولو أن ظهور اسم عبد الله بن سلام في الخبر ل أول مرة يعطي الفرصة ل الاستدراك بأنه هو الذي حدد البعض أو الجزء المنضوب على عقوبة الزنا.

ف عبد الله بن سلام يهودي أسلم في السنة الثامنة «عن عاصم عن الشعبي أسلم عبد الله بن سلام قبل وفاة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعامين» والأصح الرواية التي تقول إنه أسلم بعد وصول «أحمد» إلى قرية الحرتين ب قليل. وهو من ذرية يوسف بن يعقوب حليف القوافل من الخزرج الإسرائيلي ثم الأنصاري وهو من سادة بني إسرائيل وأعلمهم وبشره «الحبيب/ المجتبى» ب دخول الجنة «في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص قال: ما سمعت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة».[1]

وقد شهد له القرآن المجيد ب العلم.

(أخرج ابن مردويه من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه عن عبد الله بن سلام: أنه لقي الذين أرادوا قتل عثمان ــ رضى

---

(١) باختصار من «الإصابة» ل ابن حجر العسقلاني المجلد الرابع ص ص ١٦٣/ ١٦٤ مرجع سابق.

الله عنه ــ فناشدهم بالله فيمن تعلمون نزل: «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب» قالوا: فيك.

وأورده شيخ الإسلام قاضي القضاة ابن حجر العسقلاني بشيء من الطول:

(روى الزبيدي من طريق ابن أخي عبد الله بن سلام قال: لما أُريد قتل عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال: جئت لأنصرك، فخرج عبد الله فقال: إنه كان اسمي في الجاهلية فلاناً «ملحوظة = كان اسمه الحُصين» فسماني رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عبد الله ونزلت فيّ آيات من كتاب الله ونزل فيّ «وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله» ١٠ من سورة الأحقاف ــ ونزل فيّ «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب» ٤٣ من سورة الرعد).[١]

أما صاحب «المقبول» فقد أتى ب رواية أخرى:

(أخرج ابن مردويه عن طريق عبد الله بن عمير عن جندب قال: جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضادتي المسجد ثم قال: أنشدكم الله أتعلمون أني الذي أنزلت في «ومن عنده علم الكتاب قالوا: اللهم نعم»).[٢]

ووصفه الأزهري المصنف بأنه حديث حسن وأردف: أورده السيوطي في الدر ورواه الطبري «يعني في تفسيره» والترمذي في كتاب التفسير.

* * *

ثم عود إلى السياق:

إذن احتمال أن عبد الله بن سلام هو الذي حدد مكان آية الرجم كبير بدليل أن بن صوريا عندما قفز عليها ولم يقرأها أخبر

(١) (الإصابة) ــ المجلد الرابع ــ ص ١٦٥ ــ مصدر سابق.
(٢) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ص ص ٤١٤/ ٤١٥ ــ مرجع سابق.

«المطيع/ المظفر» «فقام فرفع كفه عنها» فاضطر ل قراءتها وفيها النص علـــى رجـــم الزانـــي المحصن والزانية المحصنة بعد انتصاب أدلة الثبوت. ومن الجدير ب لفت النظر أن ذات العقوبـــة موجودة في الإسلام مع أن عرب ما قبله لم يعرفوها في حين أن حد السرقة وهو قطع اليد دأبـــوا على تطبيقه وجاء به «البشرى = القرآن» إنما لم ينص فيه على رجم الزاني المحصن، ولذا فـــإن بعض الفرق كالخوارج والظاهرية لا تعترف به مع أن «المنصور/ المنيب» طبقه وأشهر قصـــة في هذا المجال هي «رجم ماعز والغامدية».

ونلاحظ أن الذين استقر غضبهم أكثر من بين اليهود هم الأحبار أي رجال الـــدين لأنهـــم يعيشون على استثمار «النصوص» وجعلها مأكلة ومطعمة أي مأدبة دسمة.

فإذا ارتكب الجريمة غنى وذو مال وجاه حرفوها عن موضعها واصطنعوا له مخرجاً، أما الجاني الفقير المُمْلق فإنهم يسارعون إلى الفتوى بتطبيق الجزاء الصارم عليه.

ولقد سجل «الخالص/ الخاشع» هذه الخصلة في حديث رائع، وكل أحاديثه كذلك، عنـــدما قال «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضـــعيف أقاموا عليه الحد».

وجاء ب الآية العظيمة: «يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم» والذي تم تحكيمه في الخبـــر هو التوراة وسبق أن تناولنا التنقيب في هذه النقطة عند دراسة السبب الأول لإهلالها ومن ثم فـــلا موجب للإعادة.

* * *

فإذا وصلنا إلى الخبر الخاتم الذي ساقه عبد الله شحاتة فإنه لا يخرج في مضـــمونه عـــن السابق سوى أنهم أحضروا الزانيين فعلاً إلى «حامل لواء الحمد» وفي الأول أنهم اكتفوا بـــالترافع إليه ثم حاولوا

تضليله، لعنهم الله لعناً وجيعاً، لما سألهم عن عقوبة الزناة عندهم إذ أجابوه: التحميم والضرب وأنكروا حد الرجم.

وهنا انبرى عبد الله بن سلام إليهم وفضح كذبهم.

ولم يظهر ابن صوريا بين أبطال هذه القصة وقام بدوره المدارس «المدرس». لكنه فعل مثله في التمويه فأخفى آية الرجم «ف نزع يده» عنها ولم يبين راوي الخبر من الذي نزع أهو «الغالب/ الغياث = محمد» أم من «عنده علم الكتاب» نعني عبد الله بن سلام، ثم سألهم «ما هذه الآية؟» مما يرجح أنه «صاحب البيان» هو النازع فلما أجابوا أنها هي «فأمر بهما فرجما».

وفي رأينا أن الخبر بهذه المثابة مُخدج.[1]

إذ من المستحيل أن يقضي «الطيب/ الطبيب» ب الرجم دون أن يحقق في القضية ويمحص شواهدها ويسمع بينتها ونستعبد تماماً أن يصدر حكمه العادل مستنداً إلى أقوال إخوان الخنازير المرسلة وهو أدرى الناس بهم.

كالنبع الصافي روت الآية ٢٣ من سورة آل عمران الظمآن إلى المزيد من العرفان ل صفات اليهود التي ربما انخدع فيها وأعتقد عكسها فيما انقضى من عمره.

وسجلت نصراً مبينا وفوزاً ساحقاً وفلجاً رائعا ل «الشارع/ الشكور» على أكبر فئة في أثرب أدمنت المناوأة وأصرت على الشكاسة وداومت على ال لجج.

وعندما ينقمع اليهود وينكّسون رؤوسهم خجلاً لهزيمتهم المعنوية ووكسهم الأدبي وخسرانهم الاعتباري يزداد سرور الصحب ويتضاعف حبورهم ويتراكم انبساطهم.

وجماعه يضاعف ثقتهم في قيادتهم ف يقدمون مزيدا من الطاعة

---

(١) أخدج صلاته: نقص بعض أركانه.
من: (أساس البلاغة) ل الزمخشري/ الأول/ سابق.

والانقياد وينعكس أثره في توسيع رقعة انتشار الديانة وترسيخ عواميد الدولة.

إذ من المعروف ب بدائه العقول أن العسكر أطوع ل القائد المنتصر من القائد الفليل.[(١)]

وأشد تفانياً في تنفيذ أوامره. ولولا التنجيم في الإشراق لما تحققت قطرة مفردة من مقاصدها السامية.

العلاقة بين «المرتفع الدرجات» واليهود اتسمت ب الرجرجة واتصفت ب التموّج وتميّزت بالتلوّن، لأنهم استهولوا أن يدعو لِ ديانة جديدة عربي من الأميين أو الأمميين، إذ يعتقدون أنها حكر عليهم وحدهم وإن «الكمل» لا بد أن يخرجوا من بين ظهرانيهم، حتى عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم أصله منهم وإن انفرد فيما بعد بديانة باينت ديانتهم.

ويوجد خبر ضعيف ينص على أنهم طلبوا منه أن يلحق ب الشام لأن جميع البطارقة ظهروا فيها غبّ أن يئسوا من القضاء عليه وأيقنوا نجاحه وتثبتوا من فلاحه وتأكدوا من فلجه بعد أن أخفقت معه كل مؤامراتهم، ولا أدلّ عليه من أن الطلب تراخى أي تأخر حسبما يدل عليه الأثر الضعيف لأن سبق غزوة تبوك وهي كما هو معلوم من أهم نوازل السنة التاسعة من النزوح «= الهجرة» وأنها آخر غزاة له.

روى البيهقي من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن ابن غنم: أن اليهود أتوا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوماً فقالوا:

يا أبا القاسم: إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق ما قالوا: فغزا غزوة تبوك لا يريد إلاّ الشام، فلما بلغ تبوك، أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعدها ختمت السورة: «وإن كادوا ليستفزونك من الأرض

---

(١) في معاجم اللغة: فل منه شي أي انكسر.

ليخرجوك منها» إلى قوله: «تحويلاً» فأمره الله بالرجوع إلى المدينة وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث.[1]

ورغم أن السيوطي وصفه بأنه مرسل ضعيف الإسناد إلاّ أنه أضاف أن له شاهداً من مرسلات سعيد بن جبير عند أبي حاتم وله طرق أخرى عند ابن جرير «يعني الطبري»: أن بعض اليهود قاله له.

ومع أن الحديث الضعيف بخلاف الموضوع، وأن الضعيف إذ روى من طرق أخرى تقوّى فإننا لا نعول عليه ولا نعتمده لأننا في كل كتاباتنا لا نسطّر حديثاً ضعيفاً ولا نلتفت إليه.

إنما رقمناه كقرينة مهما بلغ وهنها لإثبات أن اليهود استفظعوا أن يطلع واحد من غيرهم بديانة لا تمت إليهم بصلة ف هم قدّروا حتى إذا غدا الداعي الجديد من خارج أرومتهم فلا بأس عندما ينتقل من أثرب إلى الشام أن تقوم آصرة بينه وبينهم ولو مكانية.

وليعذرنا القارئ إذا كررنا مسألة ضعف الحديث كيما نقطع الطريق على أي لجوج يدّعى على خلاف الحق أننا نستند إلى الأحاديث الضعيفة.

إذ إن الهدف الذي نرمي إليه هو فضح موقف بني إسرائيل من «المبرأ/ صاحب الخاتم» ومحاولاتهم المستميتة للتضبيب على الدعوة التي طفق يبشر بها أو الادعاء بأنها نسخة مكررة أو هي تفريع لديانتهم بعد أن سقطت كل جهودهم المتنوعة للقضاء عليه وعلى دينه.

* * *

من أبرز المساعي التي بذلها أولاد الأفاعي للإجهاز على استقلالية الإسلام وجعله تبيعاً لديانتهم أو على الأقل رافداً من نهرها هو تهويده من الداخل، بمعنى الاحتفاظ ب مظهره كما هو دون مساس عن طريق إدخال بعض أو عدد من المبادئ أو القواعد

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ـــ ص ١١٢ ـــ مصدر سابق.

اليهودية.. حتى إذ تم ابتلاع الطُعم يجري دمج أخرى وثالثة وهكذا حتـــى يغـــدو «= الإســـلام» فصيلاً لليهودية، ومعلوم أن الفصيل هو ولد الناقة الذي انفصل أو فصل عنها إنما في نهاية الأمر هي أمه وهو منسوب إليها بيد أن «أشجع الناس» وهو العبقري الذي لا يشق له غبـــار والألمعـــي الفطن تنبه إليه وقضى على المحاولة الأولى في مهدها.

دخل بعض (ولا نقول كل أو جل) يهود ديانة الإسلام لتحقيق هذا الغرض الخبيث وتنفيـــذ الهدف الماكر.

(أخرج ابن جرير بن عكرمة في قوله: «يا أيها الذين آمنوا في السلم كافة» قال: نزلت في ثعلبة وعبد الله بن سلام وابن يامين، وأسد وأسيد ابنى كعب وسعيد بن عمرو، وقيس بـــن زيـــد، كلهم من يهود، قالوا: يا رسول الله. يوم السبت يوم كنا نعظمه فدعنا فلنُسبت فيـــه، وأن التـــوراة كتاب الله، فدعنا فلنقم بها بالليل، فنزلت الآية).

وهي الثامنة بعد المائتين من سورة البقرة.[١]

(ويوضح لنا أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي بشيء من التفصيل الخطة التي أراد بعض اليهود الذين اعتنقوا الإسلام تطبيقها ل تهويده.

وذلك أنهم ذهبوا إلى تعظيم يوم السبت وكرهوا لحم الجمل وأرادوا استعمال شـــيء مـــن أحكام التوراة وخلط ذلك ب الإسلام فنزلت هذه الآية فيهم).[٢]

وفي هامش الصفحة أورد محقق الكتاب أحمد صادق الملاح أسماء «الدفعة الأولى» مـــن أولئك اليهود الذي كلفوا بالعمل على خلط أحكام توراتهم بالإسلام حسب تعبير الغرنـــاطي وهـــم، بالإضافة إلى عبد الله بن سلام الذي ورد اسمه في المتن. ثعلبة وابن يامين وأسد وأسيد بن كعـــب وشعبة بن عمرو وقيس بن

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي/ ص ٢٨ ــ مصدر سابق.
(٢) (المحرر الوجيز) ــ الجزء الثاني ــ ص ٢٥ ــ مصدر سابق.

زيد.

من كتب التفسير الحديث اخترنا:

تفسير القرآن الكريم:

كعادته نقش مصنفه عبد الله شحاتة ما دونه مقاتل بن سليمان في تفسيره:

(جاء في تفسير مقاتل بن سليمان أن عبد الله بن سلام وسلام بن قيس وأسيد وأسد ابني كعب ويامين وهم مؤمنو التوراة، استأذنوا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في قراءة التوراة في الصلاة وفي أمر السبت وأن يصلوا ببعض ما في التوراة، فقال الله عز وجل خذوا سنة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وشرائعه فإن قرآن محمد نسخ كل كتاب قبله فقال: ادخلوا في السلم كافة يعني في شرائع الإسلام كلها..).[1]

وأهم ما يلفت الانتباه معلومة انفرد بها مقاتل الذي قلنا عن تفسيره إنه من أقدم التفاسير، عبارة «قراءة التوراة في الصلاة» ومعلوم أنها الركن الأول من أركان الإسلام في العبادات «بعد الشهادتين الركنين الأول والثاني» وأنها عمود الدين من أقامها فقد أقمه ومن هدمها فقد هدمه ــ وهؤلاء ــ النفر ــ باستثناء عبد الله بن سلام ــ اختاروها «= الصلاة» عمداً وعن تصميم بإدخال قراءة التوراة فيها ليفسدوها وليلبسوا على المسلمين دينهم، إذ بعد ذلك يتناولون باقي الأركان مثل الصوم والزكاة بحجة تطبيق أحكام التوراة عليها.

بيد أن «الماء العين/ المبتهل = محمداً» يقظ متنبه لهم فرد كيدهم في نحورهم وأيدت الآية المجيدة موقفه.

ونلفت الانتباه إلى ما زبرناه وهو أن بعضاً من اليهود هو الساعي

---

(١) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله محمود شحاتة ــ الجزء الثاني ص ٣١٧ ــ وفي الهامش ــ ص ٤٢٧ أضاف أن الخبر ورد في تفسير الألوسي وفي تفسير المنار.

إلى المَرْج والخَرْبقة والتمييع لأكلهم لأن من بينهم من لا يرقى إليه اتهام في دينه أي إسلامه مثـل عبد الله بن سلام، حتى لا ينبري شكس يختلق أخطاء موهومة ويصطنعها وينسبها إلينا دون وازع من ضمير أو كابح من خُلق كما حدث وينعق صائحاً أو يصيح ناعقاً: الحقوا إنه ينسب إلى مؤمن طيب ومسلم صالح حسن الإسلام جاء بحقه في «الزبور ــ المجيد = القرآن» أنه من أهل العلـم وشهد له «المخصوص ب المجد = محمد» أنه من أهل الجنة ويدعي أنه دخل في ديـن الإسـلام ليفسده.

نؤوب بعد هذه ال ملحوظة المهمة إلى سياق التنقير:

بعد اعتناق هؤلاء النفر الإسلام وتقديم طلبهم هذا ألفى «المجيب/ المجاب = محمد» نفسه في موقف واعر الحروجة، فلو زجرهم ونهاهم ل أثر فيهم ووزّ بعضهم إلى المروق من الإسلام، وهذا أمر له ما بعده فمن ناحية سيخسرهم كمسلمين وأتباع له. كما سيعقب صدى وسيعاً ورد فعل عميقاً وأثراً غائراً، إذ سوف يتشدق الخصوم الألداء ويتفاصح الأعداء اللجج بأنهم لولا أن وجـدوا فيه عواراً لما فارقوه ولولا أنهم ألفوا فيه عيبا لماً فاصلوه ولولا أنهم تثبتوا من وهنه لمـا بـاينوه ولولا أنهم تأكدوا من تهافته لما مرقوا منه.. الخ.

* * *

وكما حدث في المرائر السوابق ف إن «الشفاء/ الموعظة = القرآن» من المحال أن يطلع على حيرة «قائد الغر المحجلين» ومعاناته منها دون أن يمد له طوق النجاة فتنبزغ كالقمر في ليلـة الرابع عشر الآية ٢٠٨ من سورة البقرة، وما إن ترسل أضواءها الرائعة حتـى تهـرب الحيـرة وتقبل الطمأنينة.

«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة».

ما المقصود من «السلم»؟ وما معنى هذه اللفظة في هذا الموضع؟

يورد ابن جرير الطبري آراء عدد من كبار المفسرين من السلف

الصالح الذين ذهبوا إلى أنها تعني الإسلام منهم:

قتادة والسدي ومجاهد والضحاك ووكيع.

ومسك الختام أن حبر الأمة ابن عباس قال به قبلهم.[١]

وإذ إن الخطاب موجه إلى اليهود الذين اعتنقوا الإسلام فقد أمرهم ب الدخول في الإسلام كافة أي خذوا ب جميع أحكامه وشرائعه ولا تخلطوها ب غيرها أو تخلطو سواها بها. وبذا قضت الآية العظيمة على الرسم الذي خططه ب ليل بنو إسرائيل ب تزريب نفر منهم إلى الإسلام ليعجنوه بالتوراة فإما أن يفسد حاله وإما أن يتهود.

* * *

من خُلُق أولاد الأفاعي التشبث بالعناد واللد في الخصام وعدم اليأس في تنفيذ المخطط والاستمرار في تحقيق الرسم ولا توقفهم العقبات ولا تؤثر فيهم المعوقات ولا يثنيهم عن عزمهم الحيق.[٢]

فقد عاودت ذات الفرقة محاولتها دمج الإسلام ب التوراة حتى إنهم طلبوا أن يؤمنوا ب عزير، في حين أن «الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة = القرآن» أكد أنهم يقولون عن هذا العزير أنه «ابن الله» تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، حسبما ورد في الآية الثلاثين من سورة براءة/ التوبة «وقالت اليهود عزير ابن الله».

والذي يبعث على الحيرة ويستنفر الدهش ويدعو إلى الاستغراب: كيف تخيل أولئك أن «المأمون/ المانح» سيوافقهم على الإيمان ب عزير وهو وفق اعتقادهم الزنخ أنه ابن لله في حين أن الإسلام هو دين التوحيد الخالص الذي لا تشوبه ذرة واحدة ب شهادة حتى من يبغضونه من أعماق قلوبهم.

أخرج الثعلبي والبغوي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن

---

(١) (تفسير الطبري)، الجزء الرابع، ص ٢٥٢/ مرجع سابق.
(٢) الحيق: ما يصيب الإنسان من مكروه فعله.. الذي يحيط به.

عباس قال: نزلت هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله» الآية ١٣٦ من سورة النساء في عبد الله بن سلام، وأسد وأسيد ابنى كعب وثعلبة بن قيس وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة ابن أخيه ويامين بن يامين وهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب.

أتوا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقالوا: «يا رسول الله، إنا نؤمن بك وبكتابك، وموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فقال عليه السلام: بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن، وبكل كتاب كان قبله، فقالوا لا نفعل، فنزلت الآية. فآمنوا كلهم».[١]

وأورده الحافظ في الإصابة وعزاه ابن الأثير في أسد الغابة لابن منده وأبي نعيم من طريق الكلبي.

ملحوظة على رتبة مرتفعة من الخطر: وهي أن الآية الكريمة التي نحوّم حول حفافيها الشريفة هي ١٣٦ من سورة النساء.

بينما الآية السابقة التي تناولناها هي ٢٠٨ من سورة البقرة، ومعلوم أن السورتين مدنيتان، بيد أن المتفق عليه بين جهابذة علوم القرآن أن سورة البقرة هي المجليّة أي أنها هي المتقدمة من صوب التاريخ بل هي أول سورة تلاها «أبو الأرامل = محمد» على تبيعه في أثرب.

فماذا نقصد من هذا التاريخ للآيتين أو السورتين؟

نؤم أن بني إسرائيل لم يكفوا عن تصميمهم على إفساد الإسلام وتهويده ف بعد أن فضحت آية سورة البقرة موقفهم انتظروا ملياً ثم استأنفوا سعيهم الحثيث فنزلت آية سورة النساء، الأمر الذي يقطع بأن في أدمغتهم العفنة عشّش قصد إفساد الإسلام وعدن (أقام) هدف تهويده.

---

(١) «أسباب النزول» ل الواحدي ــ ص ١٢٤ مصدر سابق و«نهاية السول» ل أبي عمر نادي الأزهري ص ١٠٨ ــ مرجع سابق.

بيد أنهم في كلٍ يعودون بالخيبة الثقيلة ويرجعون بالإخفاق الموجع ويؤوبــون بالخســران المبين.

وملاحظة أخرى: وهي أن أولئك النفر عندما سمعوا رد «الصفوح عن الزلات» الحاسـم عليهم لجأوا للمناورة ف رفضوا «فقالوا لا نفعل» ف لما هلت الآية الحميدة وعرفوا أن الأمر جد لا هزل فيه ولا سوم (مساومة) تراجعوا وخنسوا ربما من أجل أن تسنح لهم الفرصـة أخـرى إذ اليأس لا يعرف طريقه ل أفئدتهم الدرنة.

* * *

من التفاسير

١ ــ «رُوي أن جماعة من أحبار اليهود جاءوا إلى النبي ــ صـلى الله عليـه وسـلم ــ وقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه مـن الكتـب والرسل، فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ بل آمنوا بالله وبرسله وبمحمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله، فقالوا: لا نفعل: فنزلت هذه الآية فكلهم آمنوا».[١]

٢ ــ نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب وثعلبة بن قيس وسـلام ابن أخت عبد الله بن سلام وسلمة ابن أخيه ويامين بن يامين فهؤلاء مؤمنو أهل التوراة نزل فـيهم يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة آمنوا بالله ورسوله محمد و«الكتاب الذي نزل على رسوله...» محمد يعني القرآن.[٢]

٣ ــ الزمخشري في كشافه نسخ الخبر الذي رقمه الواحدي في الأسباب بحروفه.[٣]

---

(١) «مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» لفخر الدين الرازي، المجلد الخامس ص ٤٨٦ مصدر سابق.
(٢) «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» ل الفيروز آبادي ــ ص ٦٦ مصدر سابق.
(٣) «الكشاف» ل الزمخشري/ المجلد الأول ــ ص ٥٧١ ــ مصدر سابق.

٤ ــ «روي أن ابن سلام وأصحابه قالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه فنزلت...».[١]

٥ ــ «قال الكلبي إن عبد الله بن سلام وأسداً وأسيداً ابنى كعب وثعلبة بن قيس وجماعة من مؤمني أهل الكتاب قالوا يا رسول الله نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل فأنزل الله الآية.. فآمنوا بكل ذلك».[٢]

خمسة من القلل العوالى من كتب التفسير،[٣] أوردت الأخبار السوابق.

صحيح أن واحداً أو اثنين نص على أنه أحد أسباب إشراق الآية وليس السبب اليتيم إنما ضمها لبعض يرفع القول إنه السبب الوحيد أو الرئيسي إلى درجة الصحة وينفحه المصداقية ويمنحه رتبة اليقين.

جاءت عبارة «مؤمني أهل الكتاب» وصفاً ل النفر الذين رقمت أساميهم الأخبار السالفة فكيف يتفق هذا مع قولنا إنهم دخلوا الإسلام إما ليخربقوه أو يهودوه.

بداية نحن استثنينا عبد الله بن سلام وأوضحنا أسانيدنا.

أما جملة «مؤمنو أهل الكتاب» فهذه من إنشاء المفسرين أي لا تلحقها القداسة.

وقد رجعت إلى ما تحت يدي من موسوعات تراجم الصحابة لمعرفة شأن بعض أولئك اليهود الذين أسلموا وشكل طلبهم الفطير سبب إشراق الآية فلم أجد لهم مكانة مكينة بين الصحاب بل إن صورتهم مهزوزة وآياتهم غامضة وسحنتهم باهتة مما يؤكد أنهم

---

(١) «أنوار التنزيل» ل البيضاوي ــ ص ١١٦ ــ مصدر سابق.
(٢) «غرائب القرآن ل القمي النيسابوري ــ المجلد الرابع ص ١٣٥ سابق.
(٣) ولو أننا نعلم أن تنوير المقباس يوجد من يشك في نسبة ما جاء فيه إلى الحبر ابن عباس بيد أن مصنفه هو الفيروز آبادي صاحب القاموس ومن علماء القرن التاسع الهجرى

دخلوا الإسلام بهدف محدد.

ف على سبيل المثال

(أسد بن كعب القرظي: روى ابن جرير من طريق ابن جريج قال في قوله تعالى «من أهل الكتاب أمة قائمة» قال هم عبد الله بن سلام وأخوه ثعلبة وسعيه وأسد وأسيد بن كعب).[١]

وبداهة أن القول إن هذه الآية التي وردت في المتن هي في حق عبد الله بن سلام والآخرين معه منسوب ل ابن جريج رواه عنه مقدم الآباء المفسرين ابن جرير الطبري أي مجرد رأس ليس له سند من حديث محمدي شريف.

وهذا هو كل ما ترجمه ابن حجر ل أسد أما أسيد فلم يترجم له شيئاً.

ابن عبد البر يتحفنا ب أثر بالغ الثمانة «أسد بن عبيد القرظي نزل هو وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية يوم قريظة ف أسلموا ومنعوا دماءهم وأموالهم».[٢]

ولو أنه أضاف مناقضة ابن إسحق أنهم من بني قريظة ولا النضير إنما هم من بني هذيل بيد أن الأهم أنهم «أسلموا في تلك الليلة التي نزلت في غدها قريظة على حكم سعد بن معاذ».[٣]

أي أنهم دخلوا الإسلام ليلة صدور حكم سعد بن معاذ في بني قريظة وقلنا إن هذا القضاء معروف أمره مسبقاً وإن أبا لبابة أفشاه لهم.

إذن هؤلاء اعتنقوا الإسلام لا حباً فيه أو إيماناً به إنما ب قصد النجاة من القتل وسبي النسون والذرية واستصفاء الأموال.

---

(١) (الإصابة) ل ابن حجر العسقلاني الأول/ ص ١١٧ ــ مصدر سابق.
(٢) (الاستيعاب) ــ ل ابن عبد البر ــ الأول ــ ص ٢٤٨ ــ مصدر سابق.
(٣) ذات المصدر والجزء ص ٢٤٩.

ومن أجدر منهم ل الكيد للإسلام ومحاولة تهويده وب المثل لم يترجم ابــن عبــد البــر ل أسيد. زبر ابن الأثير الجزري ما حكاه ابن إسحق عن أولئك النفر وأنهم من بني هدل «وهو أصح مما جاء في الاستيعاب أنهم من بني هذيل ا.هـ» إنما الأهم أنه أكد «أنهم بنو عم بني قريظة وأنهم أسلموا تلك الليلة التي نزلت في غدها بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه فمنعــوا دماءهم وأموالهم».(١)

وأيضاً لم يترجم ل أسيد. هذه مجرد عينة من الذين أسلموا من بني إسرائيل آنذاك. وبــلا جدال لا تنطبق عليها عبارة «مؤمنو أهل الكتاب» إذ لم يدخلوا الإسلام عن إيمان وعقيــدة إنمــا اتقاءً للقتل والعقوبات التبعية التالية له، ومن ثم يغدو الفرض ــ الــذي طرحنــاه أنهــم ــ نكــرر باستثناء عبد الله بن سلام ــ إنما تظاهروا بالإسلام ليفسدوه ويهودوه ــ صحيح تؤيده الوقائع وهنا نطرح سؤالاً:

هل هؤلاء هم السلف غير الصالح ل عبد الله بن سبأ أو ابن السوداء رأس فرقــة الســبئية المتوفي نحو ٤٠ هجرية ومن على شاكلته الذين أكملوا المسيرة في محاولة تشويه الإسلام ولكــن ــ هذه المرة ــ بإدخال عقائد فاسدة «بتأويلاتهم في عليّ وأولاده».(٢)

ونؤوب إلى السياق:

جاءت الآية ١٣٦/ البناء ك السيف الصقيل البتار ف أجهزت على المسعى الخبيث الــذي خطط له أولئك «باستثناء عبد الله بن سلام» وعضدت «المبلغ المتين» في رده عليهم ف اســتراح قلبه وعلم الصحب أنه دائما على حق.

ومن جانب آخر ب كرم بالغ أهدتنا برهاناً على حكمة إشراق

---

(١) (أسد الغابة) ل ابن الأثير الجزري ــ الأول ــ ص ٨٥ مصدر سابق.

(٢) (الفرق بين الفرق) ل البغدادي عند كلامه عن فرقة السبئية ــ مع ملاحظة أن هناك من البُحاث مــن يــذهب إلى أن عبد الله بن سبأ أو ابن السوداء شخصية أسطورية تفتقر هناك إلى الوجود التاريخي ا.هـ.

«المجيد/ العزيز = القرآن» نجوماً وتفاريق وأبعاضاً وأبسطها معالجة الوقائع الحياتية ومن ثم تثبت أن الادعاء بالتباعد ومفاصلة المجتمع وأفراده الفاعلين فيه ادعاء فطير.

* * *

٦ ــ ظهور «الكتاب العزيز = القرآن» نجوماً غاظ أولاد الأفاعي وسعر حريق الحقد في صدورهم إذ أدركوا الحكمة البالغة فيه، إذ كلما قبت «بدت ك القبة» معضلة أو هوت نازلة أو انفجرت مشكلة بزغت آية كريمة أو أكثر قضت عليها في مهدها أو حلتها من أسّها أو فككت أوصالها فصارت أثراً بعد عين فآبت السكينة إلى قلب «مُصحح الحسنات» وانشرح صدره الشريف واطمأن الصحاب وعمّهم الحبور وشملهم السرور وبذا تزداد الأمة المسلمة تماسكاً وغدا من العسير بل ومن المستحيل خلخلتها، أو النفاذ إلى حناياها أو اختراق وحدتها.

ولعل في الأمثال التي طرحناها والصور التي قدمناها والنماذج التي نفحنا القارئ بها ما يوثقه، هذا من رجا.

ومن صوب آخر أدرك بنو يعقوب ــ وهم لا ينقصهم الدهى ولا تعوزهم الخيانة ولا يفتقرون إلى المكر أن إشراق «الهدى والرحمة = القرآن» تفاريق وسطوعه أبعاضاً[1] أفسد عليهم خطتهم وخربق رسمهم ودهده.[2] تدبيرهم وأجهز على محاولاتهم في خربشة.[3]

«الهدى البشرى = القرآن» أو تهويده أو إعطاب «من العطب» عمود

---

(١) بعض مقابل كل، وبعض الشيء: طائفة منه ــ من «المعجم الكبير» الجزء الثاني ــ الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م مجمع اللغة العربية ــ الناشر: ال هيئة المصرية العامة ل الكتاب.
(٢) في (المعجم الوجيز) دهده الحجز: دحرجه.
(٣) خربش الشيء: أفسده من «المعجم الوسيط».

الدين نعني الصلاة ب تلاوة التوراة في ركعاتها واتخاذ هذا تكأة أو محطة أولى نقطة انطــلاق ل الوثوب ل باقي الأركان ل إماعتها وإضاعة مقوماتها وتشويه أيأتها «هيأتهــا» وتغييــر ســحنتها وتبديل قسماتها.

ومن شق ثالث فطنوا إلى أن هل «البلاغ/ الإيمان = القرآن» نجوماً نفحــه ســموا علــى إسطارهم المقدس وامتيازاً على كتابهم ومقاماً محموداً بزّ توراتهم.[١] مكانتهــا وهــم يعتبرونهــا الأصل ويعدونها الجرثومة.[٢]

وينظرون إليها ب اعتبارها إمام الكتب التي جاء بها البطاركة جميعهم فيما بعد. ومن ثــم ولجوا محجّة مغايرة وسلكوا طريقاً مبايناً وساروا في درب مفاصل:

(أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا: إن موسى جاءنا بالألواح من عند الله، فاتنا بالألواح حتى نصدقك، فأنزل الله «يسألك أهل الكتاب» إلى قوله «بهتاناً عظيماً» فجثا رجل من اليهود، فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا عيسى ولا على أحد شيئاً، فأنزل الله «وما قدروا الله حق قدره، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء» «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهــدى للنــاس، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون»).[٣]

اليهود أظهروا خبيئتهم وكشفوا عن طويتهم وأعلنوا سرارهم فهم

---

(١) بزّ أي غلب وسلب وفي المثل «من عز بزّ». من «المعجم الكبير» الثاني/ حرف الباء/ سابق.
(٢) الجرثومة = الأصل وفي «أساس البلاغة» ل الزمخشري ــ فلان من جرثومة العرب.
(٣) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ٦٦، ٦٧، مصدر سابق.

يريدون ألواحاً ك تلك التي نزل بها أخوهم موسى من على جبل سينين ب الجانب الغربي حصـــراً وتحديداً.

وانهى إليهم أن ربه وربهم تفضل مشكوراً ونقشها تواضعاً ب أصابعه القدسانية كأنمـــا لا يوجد لديه من يكلفه ب أداء هذه المهمة أو أنه لا يستطيع أن يقول لها: كوني مكتوبة وجاهزة على سنجة عشرة.[١]

يستطيع أن يقول لها: كوني مكتوبة وجاهزة على سنجة عشرة.[١]

تعالى الله عما قالوا علواً كبيراً ــ والحق أنه لا توجد بين الديانات الســامية الإبراهيميــة الثلاث واحدة وحدت الله جل جلاله ونزهته تقدست أسماؤه مثل الإسلام.

فإذا جاء ب الألواح مثلما فعل أخوهم «موسى» آمنوا وصدقوا به.

ولا مشاحة أنها طِلْبة في قِلّة السَفْسَفة وفي قمة السخافة وفي غاية الركْركة.

ولكنها توضح أن إخوان القردة والخنازير أسقط في يدهم وبلغوا نهاية الحبــوط ووصـــلوا إلى آخر الشوط في اليأس وارتقوا ذروة القنوط ووصلوا إلى عين اليقين أنه لا فائدة في اســتمالة «عصمة الله تعالى» إلى جانبهم وضمه إلى صف بطاركتهم وأن المحجة قطعت أمامهم فلا أمــل في توهين الكتاب العظيم الذي يتلو على صحابته سوره المجيدة وآياته الكريمة فسولت لهم أنفسهم المريضة وخيالهم المئوف وفكرهم الآسن أن يتحدوا «اللسان/ اللبيت = محمداً» ويحرجــوه أمــام تباعه ب أن يطالبوه بألواح من عند الله مثل ما فعل أخوهم موسى، وحتى لا يستغرب أحــد مــن المتحذلقين إطلاق هذا اللفظ على موسى، نذكره ب الآيات الحميدة الآتية:

أ ــ (وإلى عاد أخاهم هوداً).[٢]

---

(١) في (المعجم الوسيط) سنجة الميزان ما يوزن به كالرطل والأوقية والجمع سنج ا.هـ. و«على سنجة عشــرة» تعبير بجري على ألسنة العامة في مصر وهو يعني أن الأمر في غاية الإحكام ورأينا لا بأس من استعارته ا.هـ.
(٢) سورة الأعراف/ ٦٥.

ب ــ (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً).[١]

ج ــ (وإلى مدين أخاهم شعيبا).[٢]

ولعل فيها غُنية لأننا تعودنا من أحبابنا ــ غفر الله لــي ولهــم ــ لعجــزهم عــن الــرد الموضوعي الرصين/ الموثق ــ أن يتوقفوا عند هذه الرفائع فيصيح أحدهم بأعلى صــوته: إنــه يقول عن موسى وهو من أولي العزم أخا اليهود وهو ما لم يسبقه إليه أحد فنرد عليه ب أننا سرنا في هذه الخصوصية على نهج «الفرقان»:

ف ما دام هود أخا عاد وصالح أخا ثمود وشعيب أخا مدين... إلخ ف أي بأس إذا أطلقنــا على موسى أخا اليهود؟

ثم نؤوب إلى سياقة التنقيب:

وهنا ــ وبعد هذه المحادّة الخائبة تطلع ك الشمس في رابعة النهار الآية ١٥٣ من ســورة النساء (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلــك فقــالوا أرنا الله جهرة.. إلى آخر الآية).

كما تعنت أسلافهم مع موسى وطلبوا منه رؤية الباري، جهرة ف إن خلفاءهم هؤلاء مثلهم في اللجاجة واللدد يريدون ألواحاً أو كتاباً ينزل من السماء.

نفس الموقف الذي يتسم به النطاعة.[٣]

ويأتزر ب المماحكة ويتدثر ب العوج.

وما إن صكت الآية الحكيمة أذانهم وصتت أسماعهم وذكــرتهم بماضــيهم الــذي يتســم بالالتواء حتى خنسوا وتراجعوا إلاّ واحداً منهم فقد رشده وأفلتت منه أعصابه فأنكر علــى جميــع «الكمل» ما طلعوا

---

(١) سورة العنكبوت/ ٣٦.
(٢) سورة هود/ ٨٤.
(٣) في (المعجم الوسيط) تنطع في الشيء: غالي وتكلف فيه.

به من كتب على أتباعهم وهنا ارتدفت الآية المصلية تفند هذا الزعم الفسيد ووصفته أنـــه مجـــرد لعب وطلبت منه «قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون».

هذا أكمل توصيف ل ذياك اللجاج أو العبث.

* * *

اتباعاً ل المنهج الذي اتبعناه نلتفت ناحية:

القمم الشوامخ من التفاسير:

١ ـــ تفسير مقاتل بن سليمان

(«يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء» نزلت في اليهود وذلك أن كعب بن الأشرف وفنحاص اليهودي قالا للنبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إن كنت صادقاً بأنك رســـول الله فائتنا بكتاب غير هذا، مكتوب في السماء جملة واحدة كما جاء به موسى).[١]

يعود كعب بن الأشرف وفنحاص اليهوديان إلى الشكاسة ويرجعان إلى المعاسرة ويؤوبان إلى المخالفة ف يعلقان صدق «قائد الخير» على إتيان كتاب غير «الصحف المرفوعة المطهرة = القرآن» وبشرط كتابته في السماء جملة واحدة.

وضربواً له مثلاً ب أخيهما موسى وهنا نشم ريح كراهية التنجيم وبغضهم إياه وعـــداوتهم له.

٢ ـــ الكشاف

(رُوي أن كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء وغيرهما قالوا لرسول الله صـــلى الله عليه وسلم إن كنت نبياً صادقاً فآتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى فنزلت).[٢]

---

(١) (تفسير مقاتل بن سليمان) الجزء الأول ـــ ص ٢٧٩ ـــ مصدر سابق.
(٢) (الكشاف) ل الزمخشري ـــ المجلد الأول ـــ ص ٥٧٦ ـــ مصدر سابق.

أيد الزمخشري خبر مجيء كعب بن الأشرف وفنحاص ولو أنه نسب الأخير بأنـــه ابــن عازوراء وأضاف إليهما آخرين.

٢ ــ تفسير الطبري

(... عن كعب بن محمد القرظي قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ فقالوا: إن موسى جاء بالألواح من عند الله فآتنا بالألواح من عند الله حتى نصـــدقك، فأنزل الله تعالى: يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء).[(١)]

عمدة آباء علم التفسير وذروة سنامهم أبو جعفر بن جرير لم يهتم بأسامي الـــذين وفـــدوا على «الصين/ الصفوح = محمد» إنما نفحنا معلومة قيمة هي أنهم طلبوا ألواحاً لأن أخاهم موسى جاء بها من عند الله مما يشي ب أن هؤلاء يتمسكون بحروف النصوص لا معانيهـــا أو قيمهـــا أو أهدافها.

٤ ــ تفسير البيضاوي

(... نزلت في أحبار اليهود قالوا: إن كنت صادقاً فائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتـــى به موسى ــ س ــ وقيل كتاباً محرراً بخط سماوي على ألواح كما كانت التوراة).[(٢)]

زبر القاضي البيضاوي الرواية الأخرى التي لخصت الطلب العنيد بأنه:

ــ كتاب محرر ب خط سماوي.

ــ على ألواح.

ــ مماثل ل التوراة.

ولا ندري كيف يستطيع إخوان القردة والخنازير التفرقة بين الخط السماوي الذي يتوجــب أن ينسخ به الكتاب والخط الأرضي المتداول

---

(١) (تفسير الطبري) ــ التاسع ــ ص ٣٥٩ ــ مصدر سابق.
(٢) (تفسير البيضاوي) ــ ص ١٣٤ ــ مصدر سابق.

آنذاك وب أي لغة تتم كتابته هل هي العبرية أم العربية أم هي المصرية القديمة «الهيروغليفية» التي يرى البعض أن اللوحين كتبا بها لأن موسى لم يتكلم ويقرأ إلاّ بها ومعرفته ب العبرية مهزولة وهذا في نظرهم تفسير الحبسة التي أصابت لسانه والتي أشار إليها «البصائر/ القيم = القرآن»: «واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي».[١]

أي علمني اللسان العبراني كيما يفهموا ما أقول.

ولماذا جمع الأحبار الألواح مع أنهما لوحان فقط كما تنص عليه توراتهم هو من قبيل التهويش[٢] الذي اشتهر به اليهود منذ قديم.

وهل حتى ذياك الوقت يحتفظون بهما كي يجروا مضاهاة بينهما وبين الكتاب الذي طلبوه ليعرفوا أنه من السماء؟ فإذا أجابوا نعم، قلنا لهم كذبتم لأن موسى عندما نزل من الجبل ووجد أسلافهم يعبدون العجل «ف حمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل».[٣]

وطبعاً ذلك حسب إسطيرهم المقدس وحتى إذا عنوا اللوحين البديلين فكيف يمكن الاحتفاظ بهما عبر القرون المتطاول؟

أما (الكتاب المبين = القرآن) فقد نص على الإلقاء فحسب دون التكسير «وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه».[٤]

بل إنه نفاها: (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح).[٥]

---

(١) الآيتان ٢٧ ــ ٢٨ ــ من سورة طه.
(٢) كلمة فصيحة/ هوشتهم إذا ألقيت بينهم الفتنة والاختلاف ومنه قيل هذا يهوش القواعد أي يخلطها ا.هـ. من «المصباح المنير» ل المقري الفيومي.
(٣) خروج ــ ٢٢ ــ ١٩.
(٤) (الأعراف) الآية ١٥٠.
(٥) (الأعراف) الآية ١٥٤.

وب مفهوم الموافقة أنها سليمة إذ لا يعقل أن أخا اليهود يلملم فتيتهـــا!!! ولمـــاذا اشـــترط اليهود أن يجيء الكتاب الذي طلبوه منسوخاً على ألواح؟ أن يهوه رقم اللوحين بأصابعه المقدســـة لأنه قابل أخاهم موسى على جبل فليس أمامه سوى الأحجار أما لو التقاه في وسط الدلتا ب مصر ف من الضرورة أن ينسخهما على أوراق البردى لأن الطبيعة في تلك الحقب المدهشة تتحكم فـــي أدوات الكتابة.

كيف غابت هذه الحقيقة على أحبار اليهود «العلماء»؟

لو أنهم يتملكون ذرة من العلم أو لديهم مسكة (بقية) من التفكير أو ندفة[١] مـــن التـــدبر ل طلبوا أن ينزل الكتاب مزبوراً على الأدوات التي تعارف الناس على الكتابة عليها آنذاك.

أما شرط المماثلة ل إسطيرهم المقدس ف هذا إمعان في الجهل وإفراط في ســـوء الفهـــم وغلو في ضيق الأفق ومبالغة في قلة الإدراك.

لماذا؟

لمضى زمن سحيق (شديد البعد) بين نزول موسى من الجانب الغربي مـــن جبـــل ســـيناء متأبطاً اللوحين المقدسين وبين تقدمهم ل «الحبيب/ المصطفى» بهذا الطلب يجعل المماثلة ضـــرباً من العبث، والمشاكلة نوعاً من الهذر، والمشابهة نحوا (قصداً) إلى السخف لتغير جميع المفـــاهيم والقيم والأنساق والأعراف والتقاليد والأفكار.. الخ.

إنما يبدو أن رجال الدين في كل الملل والنحل والعقائد والمذاهب في سائر بقـــاع الأرض وفي التاريخ القديم والوسيط الحديث لا يعترفون ب مضي المدة وكرور الليـــل والنهـــار ودوران الأرض حول الشمس الذي لم يتوقف منذ بدء الخلق وما يحتمه ذلك من تبديل في جميع الصُّـــعد، ويعتقدون أن النصوص التي بأيديهم المبروكة صالحة ل كل زمان ومكان ولا ينصلح حال الخلف إلا ب ما طبقه السلف.

---

(١) الندفة: القليل من الشيء من «المعجم الوجيز».

(قال محمد بن كعب القرظي والسدي وابن قتادة: سأل اليهود رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة).[١]

لم يأت ابن كثير على ما يسره صاحب خلاصة تفسيره ب جديد يستحق التحليل إنما أثبتناه ل زيادة وثاقة الخبر الذي هو على درجة من الأهمية.

* * *

من التفاسير الحديثة/ المعاصرة اخترنا:

٥ ــ التفسير الوسيط:

(قال محمد بن كعب القرظي والسدي وقتادة: سأل اليهود رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة فنزلت الآية).[٢]

أكد هذا التفسير الخبر الذي يضم بين جناحيه السبب في هَلّ الآية المحكمة. أهميته أنه صادر من مجمع البحوث الإسلامية من الهيئات التوابع ل المعهد العتيق ــ مد الله في عمره ــ المشهور ب الأزهر وهو الضلع الرئيس والأقدم في مؤسسة التقدس في مصر.

ومن الصعب أو المستحيل أن يحمل «= ال تفسير» خبراً شاذاً أو منكراً أو موضوعاً أو متروكاً.[٣] أو معتلاً بأي علة قادحة.

إذن من بين صفحات هذه التفاسير الشوامخ الخمسة من التراث والسادس الذي أصدره حراس العقيدة وحلاس الديانة في مصر غدا

---

(١) (التيسير خلاصة تفسير ابن كثير) ص ٢٤٢ ــ سابق.

(٢) (التفسير الوسيط للقرآن الكريم) لجنة من العلماء ــ مجمع البحوث الإسلامية الأول ــ ص ٩٥٨ ــ مرجع سابق.

(٣) لتعرف الفروق بينها فضلاً ارجع إلى كتاب «نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر» ل ابن حجر العسقلاني ٧٧٣/ ٨٥٢هـ تحقيق محمود حمودة ــ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م ــ مكتبة الآداب ب مصر.

سبب إشراق الآية من سورة النساء راسخ الأساس، متين البنيان، مكـين الشـرفات وبزوغهـا ك القمر المنير الذي تبدد أضواؤه المتلألئة حجب الظلام الكثيفة المتراكمة.

وما إن سمعها أولاد يعقوب حتى هبط إلى ذاكـرتهم الجمعيـة تـاريخهم المخـزي مـع البطاركة الكبار بديّا ب موسى حتى عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم فغرقوا في بحور خجلهم وانصرفوا مدحورين تعلوهم الذلة ويشملهم الصغار وتحوطهم الوكسة، وحققـت الآية المحكمة نصراً ل (المزكى/ المرتضى) وبالتالي عزة ل أتباعه المخلصين وجنوده الأوفيـاء وهي (= الآية العظيمة) بذاتها ومن داخلها أكدت حكمة التنجيم وتفوقه، ووثقت ارتباطها الحميم ب (القاسم/ القانت) وأصحابه، وأهابت برافعي شعار.

الفصل الثاني

آيات الحجاج مع النّصارى

[Blank Page]

الانفصال والتغريب والابتعاد أن يكفوا ويذعنوا ل الحق.

عمل اليهود مع «المختص ب القرآن = محمد» ما لا يعمل، حسب التعبير الجاري علـى ألسنة الناس حامة وعامة.

تآمروا عليه وغدروا به ونقضوا عهودهم معه وشرعوا في اغتياله شخصياً وهو في عقر دارهم ضاربين بكل التقاليد عرض الحائط وحرّشوا على حربه وحضّوا على قتاله وسعوا ب كـل قوة ل تخريب القبائل الكبيرة ذات الوزن الثقيل التي تملك العدد والعدة بقصد القضاء على دعوتـه ودولته.

وفي زناق الحصار وشدة الكرب وعنفوان المحنة عقدوا الخناصر على الإجهـاز عليـه وعلى إتيانه من حيث لم يحتسب اطمئناناً للعقد وارتكاناً ل العهد واستناداً للشـرط الـذي يربطـه معهم، ورفضوا محاولات التقرب أو الاستئلاف التي بدأ بها «الشكار الكريم» ومقابلتهـا ب كـل صلف وخنزوانة، وبذلوا أقصى ما في الطاقة والوسع ل تذكير فرعي بنى قيلـة ـ عنـى الأوس والخزرج ـ ب العداء القديم وبعث الثارات البايتة ونبش الأحقاد الدفينة ل يؤوبوا ك سابق العهـد أعدا يتقاتلون بعد أن غدوا إخوة يربطهم الحب وتضمهم الألفة ويشملهم الود، وناصروا المنـافقين ـ في أثرب ـ الذين وصفناهم ب المعارضين السياسيين وعملوا على شـد أزرهـم والأخـذ ب حُجُزاتهم وتقويتهم على المضي في طريقهم الوبيء.

ب الإضافة وك عمل رديف وفعل مُصَل وممارسة ملحقة:

تعرضوا للنسون المسلمات ب تحرشات قبيحة مثل كشف العورة الغليظة ل مسلمة غـب انصرافها من محل صائغ «يهودي» في سوق بني قينقاع.

وتشبيب الداعر الخليع العاهر كعب بن الأشرف بهن وعلى رأسهن الفاضـلة العفيفـة أم الفضل بعل العباس بن عبد المطلب.

هذا غيض من فيض من الملف الأسود ل بني إسرائيل.

الأمور ـ المرقومة ب عاليه ـ تلتبك ب الجانب السياسي فحسب.

أما في الرجا العقائدي فإنهم ــ مثل المسلمين ــ موحدون ولا يعتقد أي يهودي أن يَهّــوه إله واحد في ثلاثة أقانيم، ومن الصعب أو العسير أو ــ إذا شئت قلت وأنت مطمئن القلب ــ مــن المستحيل أن التوراة تحتوي على فكرة التثليث أو أن يهوه يتــبعض إلــى ثلاثــة أجــزاء أو أن وحدانيته قابلة للتقسيم.

ول ذلك جماعه نص «الهدى/ العزيز = القرآن» على: «لتجدن أشد الناس عــداوة للــذين آمنوا اليهود والذين أشركوا».[1]

معيار سياسي بحت مقطوع الصلة بالعقيدة ومفصوم الآصرة ب الملة ومبتور الوشيجة ب الديانة.

والبرهان عليه أنه قرن بين أولاد الأفاعي والمشركين الذين حاربوا الإســلام ب شراســة وقاوموه ب قوة وقاتلوه ب عناد حفاظاً على دين الآباء ورفضاً باتا ل ذوبان القبيلة في بحر الدولة الخضم ومحيطها الواسع ومياهها العميقة.

اليهود والمشركون العنصران اللذان ربطتهما ببعض الآية الكريمة يشــتركان فــي ســمة واحدة هي العداء السياسي البحت مع أن الأولين موحدون والآخرين مشركون.

لا تهم العقيدة ولا وزن ل الديانة ولا اعتبار ل الملة.

المهم الحركة السياسية التي تحدد الاتجاه وترسم خط السير وتعيّن معالم الطريق.

* * *

وفي المقابل أو على الضفة الأخرى من النهر:

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى).[2] مع أن النصارى يؤلهون عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن

---

(١) سورة المائدة/ ٨٢.
(٢) سورة المائدة/ ٨٢.

مريم ويعبدونه من دون الله «لقد كفر الذين قالوا إنه الله هو المسيح ابن مريم».[1]

ويؤمنون بعقيدة التثليث ب أن أشركوا مع الله الواحد الأحد اثنين آخرين تعالى عما يقولون علواً كبيراً «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة».[2]

ولكنهم من رجا آخر: لم يحاربوا «البدر/ البر» ولم يتآمروا عليه ولم يؤلبوا أحداً ضده ولم يحرشوا قبيلة عليه أو يتحالفوا معها ولم يقتربوا من بني قيلة كيما يوقظوا العداوات الكامنة بينهم ولم تصلهم ب المعارضين السياسيين ـ نعني المنافقين ـ أي علاقة ولم يتعرضوا لنساء المسلمين بأي طريق ف لاهم تحرشوا بهن جنسيا ولا تغزلوا فيهن.

من أهم الأسباب:

أ ـ بُعد مقر الدين والدولة الإسلاميين أي قرية الحرتين عن موطن النصارى في نجران مئات الأميال.

ب ـ التعاليم التي حملها إنجيلهم أو أناجيلهم المنسوبة إلى عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم تحض على المسالمة وتؤز على الألفة وتدفع إلى المهادنة.

«طوبى ل صانعي السلام.. من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر.. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم.. باركوا لاعنيكم.. أحسنوا إلى مبغضيكم».[3]

فعندما فرضت عليهم الجزية لم يعارضوا ربما لمع في ذهنهم ما جاء في ذات الإصحاح (ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً).

---

(١) سورة المائدة الآية ١٧ ثم الآية ٧٢ من نفس السورة.
(٢) سورة المائدة الآية ٧٣.
(٣) (إنجيل متى) الإصحاح الخامس.

إذن لم يحدث خلاف سياسي بين النصارى والمسلمين ومن ثم فازوا ب لقب «الأقرب مودة».

وإذ إن القرآن العظيم امتاز بالدقة البالغة في اختيار كلماته ووضعها في أماكنها الصحيحة فإننا نلفى الآية المحكمة الحكيمة تنص على «أقربهم مودة للذين أمنوا» أي أن النصارى أقرب إلى المؤمنين/ المسلمين.

لم تقل إن ديانة النصارى أقرب إلى ديانة المسلمين أو العكس.

إنما جماعة أو أمة أقرب إلى جماعة أو أمة أخرى. ولا محل للعقيدة في هذا المقام. ولا مكان للديانة في هذا الموضع. ولا مجال للملة في هذا الشأن.. وما دامت أمة مقابل أخرى ف النطاق أو المضمار اختر ما تشاء مقصور على الشئون الدنيوية. ومن البديهي أن تجيء على قُلتها الأمور السياسية.

إذن القرب الذي أمته «قصدته» الآية المجيدة دينوى لا عقدي.

* * *

إنما لوجود شق غائر لا حيلة في لأمه، وصدع وسيع لا طريق ل رأبه، وهوة عميقة لا سبيل إلى اجتيازها بين التوحيد والتثليث، فقد هدرت شلالات من الحجاجات المستعرة وانفجرت براكين من المساجلات الملتهبة وانبجست عيون حامية من الحوارات الساخنة بين «الفجر/ الفخم = محمد» وبين رجال الدين النصارى.

جاء القرآن حاسماً ك الفرند ذى الشفرة الحادة القاطعة أن المسيح هو عبد الله ومملوك من مماليكه «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله».(١)

و«إن مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب».(٢)

---

(١) سورة النساء/ ١٧٢.
(٢) سورة البقرة/ ٥٩.

وإنه واحد من البطاركة الكّمل الأماثل الذين سبقوه تاريخاً ورتبة ومقاماً (وما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل).[١]

هذه الحقائق عفرتت القسس وجننت الرهبان وأفقدت رجال الدين النصراني صوابهم، إذ كيف يتحول الإله أو ابن الإله أو الضلع الثالث في مثلث الألوهية إلى مجرد رسول بل إلى عبد الله ومملوك له خلقه من تراب مثل آدم وذريته من بعده؟

كيف؟

إنهم لم يفكروا أو حتى لم يتخيلوا أو يدر ب خَلَدهم أن هناك من يجرؤ على التفوه بها. من ينزل المسيح من عرش الألوهية إلى رسول ك غيره، لا بل عبد مملوك من التراب خلق، ويوم القيامة يقف بين يدى رب العزة فيحاسبه ويسأله: (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله).[٢]

فيسارع عبد الله ومملوكه ورسوله إلى النفي القاطع «قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق».[٣]

من هذا المنطلق بدأت الحوارات وفي فلكه دارت وفي مرجه رتعت وفي مضماره جرت.

* * *

نظراً لأن الخلاف عقدي، فقد تربع على مساحة مفرسخة وشغل حيزاً وسيعاً واحتل مكاناً فضفاضاً من الكتاب الحكيم.

ففي قصة وفد نجران أنه بعد الآيتين الأولى والثانية من سورة آل عمران الزهراء (يذكر المفسرون أنه قد نزل أكثر من ثمانين آية من أول السورة في وفد نجران وهو وفد من النصارى أتى إليه في أمر

---

(١) سورة النساء/ ٧٥.
(٢) سورة المائدة/ ١١٦.
(٣) نفس الآية والسورة.

عيسى ــ س ــ وقد دارت بين الوفد ورسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مناقشات شديدة ولكنها لم تسفر عن نتيجة فطلبهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى المباهلة، فتشاوروا فيما بينهم ثم امتنعوا).[١]

سورة واحدة قدمت أكثر من ثمانين آية كريمة.

ب الإضافة لسور أخرى قدمت آيات حميدة كثيرة في هذه الدائرة منها: الزهراء الأولى نعني البقر وسورة النساء وسورة المائدة واسمها يشير إلى المائدة التي طلب عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم من ربه أن ينزلها من السماء ب مثابة علامة على صدق ما يدعو إليه، فاستجاب له (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين)[٢] و(تسمى عند النصارى «مائدة الرب» أو «عشاء الرب» أو «العشاء الرباني» وهو «الاجتماع ل كسر الخبز في أول كل أسبوع وهو مقدمة وتمهيد لكل اجتماع طيلة أيام الأسبوع حيث يجتمع المؤمنون ك أعضاء الجسد الواحد حول الرأس الواحد).[٣]

ونبادر ف نذكر ب ما جاء ب الآية «المائدة/ ١١٥»: (لتكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا) والعيد أساساً في معاجم اللغة «كل يوم يحتفل فيه بذكرى حبيبة أو كريمة».[٤]

---

(١) (تفسير سورة آل عمران) للشيخ عبد الحليم محمود ص ٢٧ ــ الطبعة الأولى ١٩٧٨م ــ الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع ــ القاهرة ــ والمصنف تربع على دست المعهد العتيق المشهور إعلامياً ب الأزهر.

(٢) سورة المائدة/ الآية ١١٥.

(٣) (القاموس الموجز ل الكتاب المقدس) ــ ص ٤٥٨ ــ طبعة ثانية ١٩٩٢ ــ الناشر: مكتبة كنيسة الإخوة ــ شبرا ــ مصر.

(٤) (المعجم الوجيز).

إذن المشاكلة بين النصين قائمة والمماثلة متعينة والمشابهة متحققة.

ثم عود إلى السياق:

وثمة سورة كاملة من ثمانٍ وتسعين آية تحمل اسم «مريم» فيها قص ل حكاية عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم منذ حمله بطريقة معجبة وولادته أو ولادتها العذراوية إياه ثم خارقة كلامه في المهد حتى موته ثم بعثه حياً وأخيراً اختلاف الأحزاب بشأنه.

والنفي الجازم لاتخاذ الله ولداً وهي الفرية العظمى التي نسبها جميع فريق النصارى ــ ما عدا القليل الذي لا يؤبه له ــ إلى الله سبحانه وتعالى عما يدعون علواً كبيراً.

ولسنا ب البداهة ب صدد عمل إحصائية عما جاء ب «الحكمة البالغة/ القرآن» ب شأن المساجلات أو المحاجات مع النصارى أو حول عقيدتهم في تأليه عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم أو جعله شريكاً ل الله أو ابناً له تنزه جل جلاله عنهما. أو عن عقيدة التثليث ف هذا أمر يطول وينِد عن صلب الكتاب، إنما المطلوب تقديم مثل أو اثنين أو ثلاثة.

لماذا؟

لأن حجاج النصارى مع «الشاهد/ الشديد = محمد» جزء من وقائع حقبة التدشين المدهشة وضفيرة في نسيج ثوبها المعجب وقطاع من تاريخها الرائع أولاه «أحسن القصص/ القرآن» قدراً من عنايته وسجله ببيانه البديع ودونه ببلاغته المعجزة ونسخه في سطوره المبينة.

ونحن إذ نرصد عن كثب العلاقة الجدلية الحميمة التي تصل «الفرقان/ البشرى = القرآن» ب المجتمع الذي انبثق في حناياه من جميع مناحيه وشتى أقطاره وجمعية جوانبه، يصير من الحتم اللازم تناول هذه المفردة الفاذة، خاصة أنها تتناول الديانة المصلية (التالية)

في سلسلة الديانات الإبراهيمية السامية وتماس ديانة المسلمين بها من خلال الجدال الثر والحـــوار الغني والحجاج البالغ الثمانة الذي دار بين «سيد ولد آدم» وبين جهابذة عقيدة النصـــارى وحملـــة علمها.

١ ــ أخرج ابن إسحق وابن جرير والبيهقي عن محمد بن أبي محمد سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال:

قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجـــران عنـــد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبـــدك كمـــا تعبـــد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أوذاك تريد منـــا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال. فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم: معـــاذ الله أن نعبـــد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غيره، وما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني. أو كمـــا قـــال ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما: «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكـــم والنبوة» إلى قوله: «بعد إذ أنتم مسلمون».(١)

وصف المؤلف إسناده ب أنه حسن وأضاف أن ابن كثير أورده في تفســـيره وكـــذا فعـــل الطبري، أما البيهقي فقد أخرجه في الدلائل.

٢ ــ («قوله ما كان لبشر أن يؤتيه الله» الآية، قال الضحاك ومقاتل: نزلت في نصـــارى نجران حين عبدوا عيسى، وقوله لبشر يعني عيسى، يؤتيه الله الكتاب: يعني الإنجيل وقـــال ابـــن عباس في رواية الكلبي وعطاء إن أبا رافع اليهودي والرئيس من نصارى نجران قالا: يا محمـــد أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني، فأنزل الله تعالى الآية).(٢)

٣ ــ (أخرج ابن إسحق والبيهقي عن ابن عباس قال: قال أبو رافع

---

(١) (المقبول) ل الشيخ أبي عمر نادي الأزهري ص ١٦٠ ــ ١٦١ مصدر سابق.
(٢) (أسباب النزول) ل الواحدي النيسابوري ــ ص ٧٤ ــ مصدر سابق.

القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟ قال: معاذ الله. فأنزل الله في ذلك «ما كان لبشر» إلى قوله «بعد إذ أنتم مسلمون»).[١]

* * *

بدأنا ب كتب «الأسباب» أولهما معاصر والآخران من التراث.

أبو رافع الذي ورد اسمه في الخبرين الأول والثالث يهودي لأن لقبه «القرظي» يشي أنه من بني قريظة.

في الثاني أن الرئيس من نصارى نجران انضم إليه في القالة الخبيثة التي طرحت في وجود أحبار الديانتين مما يبرهن على موافقتهم عليها.

وصفناها بالخبيث لأنه ليس ثمة في (الهدى/ الفرقان = القرآن) آية واحدة ولا صدر من (فئة المسلمين = محمد) حديث فرد يشير ــ ولو من على بعد ألف ميل ــ إلى أنه دعا إلى عبادته، بل العكس هو الصحيح فقد حمل إلى الناس دعوة التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة ولا يحض على عبادة أحد خلا الله تقدست آلاؤه.

وفي الخبر أنه أكده فإنه لم يأمر أحداً ب عبادة غير الله ولا ربه أمر به.

(قال بعض العلماء = أرادت الأحبار أن تلزم هذا القول محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما تلا عليهم «قل إن كنت تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله»، وإنما معنى الآية فاتبعوني فيما أدعوكم إليه من طاعة الله فحرفوها بتأولهم وهذا من نوع ليّهم الكتاب بألسنتهم).[٢]

ونضيف إلى رد الغرناطي الآتي:

أولئك الأحبار خليط من النصارى واليهود والأخيرون خصهم

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي ــ ص ٤٠ ــ مصدر سابق.

(٢) (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) ل الغرناطي أبي محمد بن عطية ــ الجزء الثاني ــ ص ٤٨٣ ــ مصدر سابق.

«مأدبة الله/ القرآن» ب لقب علماء، والطائفتان من المستحيل عقلاً أن تجهلا الفرق بين الأتباع والعبادة ف الآية ذكرت «فاتبعوني» لا على اعبدوني.

نرقم هذا التعقيب ل نثبت الخباثة لتي نعتنا بها قالتهم.

ومن اليسير أن نعتبر أن هذا الخبر بداية المحاجات.

بعد ذلك ننبش في:

كتب التفسير:

١ ــ تفسير الطبري:

أورد شيخ المفسرين الخبر ذاته مروياً عن ابن عباس نقله عن عكرمة أو سعيد بن جبير ونسب المقولة إلى أبي رافع القرظي وتأييد الرئيس النصراني له فيه ثم رد «رفيع الرتب والدرجات» عليهما وأن هذا سبب إشراق الآية.[١]

ذكر المحقق محمود محمد شاكر في هامش الصفحة أن أبا رافع القرظي، هو سلام بن أبي الحقيق اليهودي ونحن توصلنا إلى يهوديته من لقبه «القرظي».

ومن تعريف شاكر: يثبت أنه من رؤساء اليهود.

وفيما بعد توجهت إليه إحدى فرق التصفية الجسدية لأعداء الديانة الإسلامية ودولة بني سخينة فاغتالته.

(قال ابن إسحق: ولما انقضى شأن الخندق، وأمر بني قريظة وكان سلام بني أبي الحقيق وهو أبو رافع فيمن حزّب الأحزاب على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكانت الأوس من قبل أحد قتلت كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتحريضه عليه، استأذنت الخزرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في قتل سلام بن أبي الحقيق وهو بخيبر فأذن لهم. فخرج إليه من الخزرج

---

(١) (تفسير الطبري) السادس ص ٥٣٩/ مصدر سابق.

من بني سلمة خمسة نفر.. فقدمنا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأخبرناه بقتل عــدو الله).[1]

كبير الآباء المؤسسين لِ علم التفسير ونعني به الطبري افتتح الخبر بأن من رواه عن ابن عباس إما عكرمة وإما سعيد بن جبير.

إنما هذا لا يؤثر في صحة الخبر لأن أولهما مولى ابن عباس فهو عكرمة بــن عبــد الله البربري المدني ويعد من علماء التابعين وروى عنه ثلاثمئة رجل منهم أكثر من ســبعين تابعيــاً ومن أعلم أهل زمانه في التفسير والمغازي.

(عن جابر بن زيد قال: هذا عكرمة مولى ابن عباس هذا أعلم الناس وقال الشــعبي: مــا بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة وقال قتادة أعلم ب التفسير عكرمة).[2]

أما سعيد بن جبير فهو (من بنى أسد ولاء، الكوفى أبو عبد الله تابعي كان من أعلمهــم.. أخذ العلم عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ قتله الحجاج بواسط).[3]

إذن سواء حمله عنه هذا أو ذاك ف الخبر صحيح لأنهما من الثقات.

فضلاً عن أن من هو في مكانة الإمام الطبري من المحال أن يسمح ل تفسـيره أن يضــم خبراً معلولاً.

ولولا أنه يتحرى الدقة التامة لما حظى كتابه منذ أكثر من عشرة قرون بالثقة البالغة.

---

(١) (السيرة النبوية) ل ابن إسحق/ «فصل مقتل سلام بن أبي الحقيق» ــ المجلد الثاني/ ص/ ٩٦/ ٩٨ ــ طبعــة أخبار اليوم ــ مصدر سابق.

(٢) (صفة الصفوة) ل ابن الجوزى ــ تحقيق طه عبد الرءوف ســعد وآخــر ــ المجلــد الأول ــ ص ٤٥١ ــ الطبعة الأولى ــ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م ــ دار الغد العربي/ ب مصر.

(٣) (صفة الصفوة) المجلد الثاني/ ص ٣٩/ مصدر سابق.

٢ ــ غرائب القرآن:

رقم القمي النيسابوري سببين لإشراق الآية:

أولهما:

زعم النصارى أن عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم ادعى الألوهية وأمرهم ب عبادته من دون الله تعالى (من جملة ما حرفه أهل الكتاب أن زعموا أنه كان يدعى الألوهية ويأمر قومه بعبادته، فلهذا قال عز من قائل «ما كان لبشر» الآية).

الآخر: قالة أبي رافع القرظي من اليهود والسيد من النصارى.. الخ.(١)

٣ ــ المحرر الوجيز:

نهج الغرناطي ابن عطية ذات المنحى.

أ ــ (... فقال النقاش وغيره إلى عيسى ــ س ــ «أي أن الإشارة موجهة إلى «أخي النصارى»، الآية رادة على النصارى الذين قالوا: عيسى إله وادعوا أن عبادته هي شرعة ومستندة إلى أوامره).(٢)

ب ــ (وقال ابن عباس والربيع وابن جريج وجماعة من المفسرين: بل الإشارة إلى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسبب نزول الآية: أن أبا رافع القرظي.. إلى آخر الخبر).(٣)

ونلاحظ توثيق الغرناطى للخبر ب نسبته إلى ابن عباس والربيع وابن جريج وغيرهم من أعلام المفسرين.

٤ ــ تفسير القرطبي:

(وهذه الآية قيل إنها نزلت في نصارى نجران.

كذلك روي أن السورة كلها إلى قوله «وإذ غدوت من أهلك» كان سبب نزولها نصارى نجران ولكن مزج معهم اليهود، لأنهم فعلوا من

---

(١) (غرائب القرآن) ل القمّي النيسابوري ــ المجلد الثالث ــ ص ٢١٢ مصدر سابق.
(٢) (المحرر الوجيز) ل ابن عطية الغرناطى ــ الجزء الثاني ــ مصدر سابق.
(٣) ذات المصدر والجزء والصفحة.

الجحد والعناد فعلهم).[١]

النصف الأول من النص يؤيد ما زبرناه أن شطراً وسيعاً من السورة جاء لمناسبة قدوم وفد نصارى نجران وما أجروه من حجاج.

أما عجزه الباقي فيدل على أن شمولها أولاد الأفاعي علته الجحد والعناد الذي دأبوا على إظهارهما.

من التفاسير الحديث/ المعاصرة.

٥ ـ تفسير سورة آل عمران:

(بيد أن من أسباب نزولها ما رُوي أن بعض أهل الكتاب قالوا: يا محمد أتريد أن نتخذك رباً؟ قال معاذ الله ما بذلك بعثني.. فنزلت هذه الآية.. قاله ابن عباس).

(تفسير سورة آل عمران) ل الشيخ عبد الحليم محمود / الجزء الأول/ ص ١٦٥ ـ مرجع سابق.

المصنف اختزل الخبر اختزالاً شديداً، إذ أرجع المقولة «إلى بعض أهل الكتاب» بينما في أمهات المصادر أن من تفوه بها القرظي وشايعه فيها رئيس النصارى، ونسب الخبر إلى ابن عباس دون غيره.

٦ ـ التفسير الوسيط:

جاء به «أن السورة كلها إلى قوله «وإذ غدوت من أهلك» نزلت بسببهم.. ذكره القرطبى».[٢]

وهذا نقل مباشر من القرطبى، ومن رجا آخر يؤكد ما زبرناه أن شطراً مفرسخاً من السورة جاء بشأن قصة وفد نصارى نجران.

ثم نسخ خبر قالة القرظي والرئيس النصراني النجراني وأنه من رواية ابن إسحق وغيره عن ابن عباس.[٣]

---

(١) (تفسير القرطبي) ـ المجلد الثاني ـ ص ١٣٦٤ ـ مصدر سابق.
(٢) (التفسير الوسيط) الحزب السادس/ ص٦٥ ـ مرجع سابق.
(٣) ذات الصفحة.

وأضاف سبباً جديداً (وأخرج ابن أبي حاتم قال: كان ناس من يهود يتعبدون النـــاس مـــن دون ربهم بتحريفهم كتاب الله عن موضعه فقال: «ما كان لبشر» الآية.[1]

وهو اجتهاد من قبل أبي حاتم يتسم ب الركّ ويتسربل بالعمومية ويأتزر ب عدم التعميق.

ف من هو هؤلاء ال يهود؟ وما هي مواضع التحريف التي أدت إلى تعبيد الناس؟.

فضلاً عن أن هذا المسلك أدنى إلى نهج النصارى.

وددنا لو أن المؤلفين ــ وقد نعتوا أنفسهم ب «العلماء!» ألا يضمنوه كتـــابهم، وإذ فعلـــوا أليس من الأحرى أن يعلقوا عليه ويوضحوا ل القراء قيمته.

* * *

جولة ليست ب القصيرة في كتب أسباب النزول والتفاسير، تراثية وحديثة.

جميعها أوردت أن الآية التسعة والسبعين من سورة آل عمران أشرقت عقب محاجّة بـــين «الخبير/ الخاتم = محمد» وعدد من أحبار يهود والمتحدثين باسم وفد نجران من النصارى، ولـــو أن بعضاً منها أضاف سبباً أو اثنين عليهما سيماء الضعف.

من البديهي أن يدعوهم إلى دخول الإسلام.

فـَ بدلاً من أن يناقشوه مناقشة موضوعية سلكوا محجة العناد وساروا فـــي درب العـــوج ومشوا في طريق اللدد فـَ نسبوا إليه فرية ظاهرة وكذبة بينة وبهتاناً واضحاً وهو أنـــه يحضـــهم على عبادته ويحثهم على تأليهه ويوزّهم على الانقياد لربوبيته، مع أن ما تلاه من قرآن مجيـــد ـــ حتى ذياك الوقت ــ سواء في قرية القداسة أو في قرية النزوح ذات الحرتين وما قاله من أحاديث شريفة لا يوجد في أي

---

(١) ذات الصفحة.

منها حرف واحد يساند هذه القالة المتضلعة من البطلان، المليئة بالفساد، المتورمة من الفسولة «= الرداءة والرذالة».

لم تصدر هذه العبارة اعتباطاً أو ألقيت عن بلاهة أو طرحت بغير تدبير أو دون تمعن أو ب لا روية.

بل أمّ من فاه بها وقصد من عاضده فيها هما الاثنان أن يلخما[1] (العظيم/ العافي = محمد) وهما ومن حضر معهما لا شك غرهم علمهم وأبطرهم ما حصّلوه من إسطيرهم المقدس وأضـــلهم ما توهموه في أنفسهم، هذا من رجا، ومن شطر آخر أثبتت هذه الجملة الفطيـــرة أنهـــم يجهلـــون مكانته السامية وغُمّى عليهم مقامه المحمود وخفيت عليهم درجته الرفيعة.

كما أنهم تعمدوا إيقاع البلبلة لدى صحبه وإشاعة الشك في صفوف تبعه وإذاعة التخلـــيط بين جماعته. كيف لا وهم أصحاب العلـــم الأصـــيل والمـــدارس العريـــق والكتـــاب الجرثومـــة «الأساس»؟

هنا يتحتم رد الأمر إلى نصابه الصحيح ووضع النقط فوق الحروف كيما يرتفـــع اللغـــط وينقطع التشويش ويتهاوى اللبس ف تطلع في الأفق الآية ٧٩ من سورة آل عمران كمـــا القمـــر المنير تبدد الظلمات «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبـــاداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون». أيدت «المبـــرأ/ المتين محمداً» في رده الفوري عليهم ونفحته مزيداً من القوة وفيضاً من الوثاقة وعدداً من الإحكام والمتانة.

وألقم المشاكسون حجراً ف تصاغروا ولو أنهم لم يكفوا عن اللدد ولم يتوقفوا عن اللجاجة ولم يقلعوا عن العوج ولم يتركوا الالتواء.

وسعد التبيع بنصر «الفرقان» له وتأييده إياه.

وبذا انزاحت الغُمّة عن الصدور وتربعت مكانها الطمأنينة وحل

---

(١) في «المعجم الوجيز» لخمه شغله ب ما يثقل عليه.

مطرحها الهدوء وملأت فراغها السكينة. وأثبت «البشرى/ المجيد = القرآن» صلته الحميمة بهم بديّاً ب القائد الكريم حتى الأجناد الأوفياء. ونفح حجة أخرى على زيف ادعاءات البعد عن الواقع وعن سر الهَلّ نجوماً.

* * *

وفد نصارى نجران ومثل من حِجاجهم:

بدأنا ب الآية ٧٩ آل عمران والأخبار المتعددة التي حملت سبب شروقها ك الشمس.

واعتبرنا ما دار بشأنها قَيْداماً «= مقدمة» ل محاجات وفد نصارى نجران الذي أكد نفر من المفسرين أن شطراً وسعياً من سورة آل عمران تناوله وما جرى بينه وبين «أبي القاسم» من حوارات.

ومن الأفضل تعريف القارئ ب الوفد كيما يغدو على بصيرة به وببواعثه في المجادلة.

(.. كتب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى أهل نجران فخرج إليه وفدهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم نصارى... وفيهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم: العاقب هو أميرهم وصاحب مشورتهم.. وأبو الحارث أسقفهم وحبرهم وصاحب مدارسهم والسيد وهو صاحب رحلتهم.. ثم غدوا بزيّ الرهبان، فسلموا عليه فرد عليهم ودعاهم إلى الإسلام فأبوا وكثر الكلام والحجاج بينهم وتلا عليهم القرآن وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إن أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم فانصرفوا على ذلك...).(١)

وبقية الخبر أنهم رفضوا المباهلة وصالحوه على دفع الجزية.

ولعل القارئ لاحظ أن عدده: أربعة عشر رجلاً وهو ضعف العدد سبعة الذي كررنا مراراً أنه مقدس لدى الديانات الإبراهيمية السامية

---

(١) (الطبقات الكبرى) ل ابن سعد الجزء الثاني ــ ص ١١٩ ــ ١٢٠ ــ طبعة ١٣٥٨هـ ــ لجنة نشر الثقافة الإسلامية ب مصر ــ ب اختصار.

الثلاث والذي اقتبسته من الديانات السامية القديمة وليس هو المقتبس اليتيم.

وعسى هذه العدة أكدت ما ذهبنا إليه. على خلاف العرف المستقر أن يترأس أي وفد أو جماعة واحد، فقد تربع على قلة وفد النصارى النجرانيين ثلاثة والذي لا مشاحة فيه أنهم تأثروا ب الثالوث الإلهي الذي يؤمنون به.

والمباهلة هي استنزال اللعنة على الكاذبين.(١)

أما رفضهم المباهلة ف علته «أن أسقف نجران لما رأى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مقبلاً ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين ــ رضى الله عنهم ــ قال: يا معشر النصارى: إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا».(٢)

وإذ إن المباهلة في الأساس تتمترس على أمر غيبى ف عندما ردفتها نصيحة الأسقف نهلت من ذات المعين أي أنها ب المثل لم تنتصب على سبب محسوس ول تتمحور على منطق ولم تتسربل برداء عقلاني.

من العسير بل من المستحيل أن تزن فتوى أو مشورة الأسقف النجراني أو النجراني الأسقف بميزان العقل والمنطق أو الفكر السليم.. الخ لأننا لو فعلنا ل أسقطنا من حسابنا الأمور الآتية:

أ ــ الزمن الذي وقعت فيه الأحداث.

ب ــ المنطقة التي شهدتها وهي محور أثرب/ نجران.

ج ــ الدرجة الحضارية ل نصارى نجران وأسقفهم المبجل.

* * *

---

(١) بأهل القوم بعضهم بعضاً: اجتمعوا في أمر اختلفوا فيه ليقولوا: بهلة الله على الظالم منا أي لعنته.. وباهلت فلانا: لاعنته.

من (المعجم الكبير) الجزء الثاني ــ حرف الباء ــ مرجع سابق.

(٢) (تفسير الألوسي) الجزء الثالث/ ص ٢٨٩/ مصدر سابق.

نبدأ ــ في توثيق الخبر ــ ب «كتب أسباب النزول»:

أولاً ــ أسباب النزول:

١ ــ (... عن الحسن قال: جاء راهبا نجران إلى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال لهما: أسلما تسلما، فقالا: قد أسلمنا قبلك، فقال: كذبتما يمنعكما من الإسلام سجودكما للصليب وقولكما اتخذ الله ولداً وشربكما الخمر، فقالا: ما تقول في عيسى؟ قال: فسكت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ونزل القرآن = «ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم» إلى قوله = «فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم» الآية.

فدعاهما رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى الملاعنة وقال: وجاء بالحسن والحسين وفاطمة وأهله وولده عليهم السلام، قال فلما خرجا من عنده، قال أحدهما لصاحبه: أقرر بالجزية ولا تلاعنه فأقرا بالجزية قال: فخرجا وقالا نقر بالجزية ولا نلاعنك).[(١)]

من النص يبين أن الراهبين من نجران عندما سألا «المنصور ب الرعب مسيرة شهر» عن عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم لم يجبهما على الفور أي في التو واللحظة بل تريث حتى بزغت الآية كأنها النجم الثاقب ثم قرأها عليهما.

وهي حجة لنا دامغة على أن «القرآن ذي الذكر» لا يفارق «من لا تحل له ولا ل آله الصدقة = محمد» طرفة عين ولا يباينه ولا يفارقه أقل منها، ف عندما استوضحه الراهبان قالته في ابن مريم أسعفه ب آية مجيدة ك البلسم الشافي وافته ب الجواب المبين والرد القاطع. راوي الخبر هو الحسن، ونرجح أنه الحسن البصرى «وكان من أهل بيسان فسبي، ولد في خلافة عمرو حنّكه عمر بيده وكانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فبما غابت فتعطيه أم سلمة ثديها».[(٢)]

---

(١) (أسباب النزول) ل الواحدي ص ٦٧ ــ مصدر سابق.
(٢) «صفة الصفوة» الثاني/ ص ١٢٥ مصدر سابق

ف الذي حنكه، من بني عدى والتي ألقمته ثديها من بني مخزوم وهما فرعــان منافســان لبني هاشم ولذا أغفل الإمام علياً ــ كرم الله وجهه ــ فيمن جاء بهم «ذؤابة بني هاشم» ليباهل «ل يلاعن» بهم الراهبين مع أن عُظم دواوين السيرة المحمدية العطرة ذكرته!! وأضاف أنه جــاء ب «أهله» وهذا إيهام ب أنه أتى بآخرين مع أمير المؤمنين علي وسيدة نساء العالمين فاطمة وســيديّ الشباب الحسن والحسين عليهم جميعاً أزكى السلام، وكتب السيرة تَصفُر منه.

وأردف «وولده» وساعتها ليس له ولد ف إبراهيم ابن مارية القبطية توفى، وحتى لو أنــه حي يرزق ف ليس من المعقول ولا جرت العادة حمل طفل رضيع ما زال فــي «اللفــة» إبــان المباهلة أو الملاعنة ولو فعل لما توانى مؤرخو السيرة المعطاءة عن زبره، وولده همــا الحســن والحسين رضى الله عنهما وقد ذكرهما من قبل.

ومعذرة عن الإطالة في هذه الفرعية وقد قصدناها كيما نثبت أن هوى الروي أو منحاه أو اتجاهه أو أيديولوجيته تؤثر على روايته ف إن لم يحرفها ــ وهو محتمل ووارد ــ ف على الأقل يلونها كيما تتفق مع مشربه وتتلاءم مع منهله وتتناغم مع عزفه.

ثم نؤوب إلى سياقة التنقير ومجرى التنقيب:

ما الذي دفع الراهبين إلى تفضيل دفع الجزية على المباهلة: أهو وجود ولو نسبة معقولــة من الإيمان ب صدق «بشرى عيسى» فيما دعاهما إليه؟ أم هو إيثار الطريــق اللــين والمحجــة السلسة والسكة السلمية اتباعاً لتعاليم أخيهما عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم الذي اشتهر بالموادعة وعرف ب الملاينة واختص بالاستئلاف؟

* * *

٢ ــ لباب النقول:

(أخرج ابن سعد في الطبقات عن الأزرق بن قيس قال: قدم على النبي

ــ صلى الله عليه وسلم ــ أسقف نجران والعاقب فعرض عليهما الإسلام، فقالا: إنا كنا مسلمين قبلك، قال: كذبتما، إنما منعكما من الإسلام قولكما اتخذ الله ولداً وأكلكما لحم الخنزير وسجودكما للصنم، قالا: فمن أبو عيسى؟ فما درى رسول الله ما يرد عليهما حتى أنزل الله «إن مثل عيسى عند الله» إلى قوله «وإن الله لهو العزيز الحكيم».

فدعاهما إلى الملاعنة فأبيا وقررا ب الجزية ورجعا).[1]

الخبر أورده السيوطي في ال «لباب» وقبلاً رفعنا الستار عن مكانته العلمية. نقله عن «الطبقات الكبرى» ل ابن سعد كاتب الواقدي وهو من أقدم من أرخ ل السيرة المحمدية الرائعة وتحظى موسوعته ب فائق التقدير وعميق الاحترام.

نخط جمعيته لكي نلقم به حجراً بعض مدعي العلم الذين عجزوا عن تفنيد كتاباتنا السوابق ف زعموا ب كل جرأة على الحق أننا نلجأ ل أحاديث ضعيفة.

طيب: ما هو سندك في ادعائك الفطير الذي ألقيته دون وازع من ضمير علمي؟

وما دمت تدّعي أن مصادرنا وهي في الأحاديث المحمدية الشريفة: الصحاح الستة، ومسند أحمد والمستدرك.. الخ. وفي السيرة المحمدية المِعْطِير: ابن إسحق، ابن هشام، الحلبية، الشامية، الوفا، الاكتفاء.. الخ. واهنة/ واهية وتنضوي على أحاديث معلولة وأخبار مدسوسة!!. فما هي في نظرك المصادر الصحيحة الموقرة المحترمة؟.

ألا تعني عباراتهم الفلوت الحكم ب الإعدام ــ والعياذ ب الله تعالى ــ على كتب التراث التي تضعها أمة لا إله إلا الله على رؤوسها وعيونها منذ قرون؟.

ومن أسف أن هذه المزاعم تصدر ممن يصفون ذواتهم المبجلة ب أنهم «علماء»!!.

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي/ ص ٣٨ ص ٣٩/ مصدر سابق.

إنه الإفلاس المطلق عن الرد والعي الكامل عن التنفيذ والقصور الكلي عن التعقيب هـذا من رجا. وإما أن الأخبار والآثار والوقائع (وكلها موثقة ب الإفصـاح عـن المصـدر والجـزء والصفحة وسنة ودار النشر) التي حملتها مؤلفاتنا لم تصل حتى الساعة إلى علمهم الغزير فأثـارت دهشتهم وبعثت حيرتهم ووزّت ربكتهم، إذ لم يتصوروا قبلها بثانية واحدة وقوعها في أيدينا ف لـم يلفوا في أيديهم المباركة حلا إلاّ رميها ب التهزيل وقذفها بالتهوين ووسمها ب التجريح. ومن شق ثالث: يعلمونها ويكتمونها.[1]

بيد أنهم لا يريدون بل يعملون جاهدين على إخفائه وإبقائها في بطون الكتب التي يوقنـون أن المثقف أو غير المتخصص ــ دعك من القارئ العادي ــ لا طاقة له ب قراءتهـا واسـتيعابها وهضم ما فيها، فلما تجرأ واحد من خارج «جماعتهم» على الإقدام عليه ونشر مـا فيهـا علـى الناس، قامت قيامتهم وثارت ثائرتهم، إذ إنهم يسيرون على درب إمامهم الغزالي الـذي نـادى ب ضرورة «إلجام العوام» عن بعض العلوم.[2]

فعمدوا إلى التشهير وجنحوا إلى الاتهام وقصدوا التشويه.

بداهة أنه كله على حساب أمانة القلم ومسئولية العلم إنما «لا شيء يهم» لأن الغايـة فـي نظرهم القدساني تبرر الوسيلة!!!.

ثم عود إلى السياق:

ورد في الخبر = «وسجودكما للصنم» وإذ إن النصارى كمـا هـو معلـوم لا يفعلونـه و«الصادق المصدوق» لا ينطق عن الهوى ولا يخرج من شفتيه الشريفتين إلاّ الحق ف لعله قصد تقديسهم الأيقونات.[1]

---

(١) العامة في مصر تقول: يكتم عليها.

(٢) ألم الدابة = ألبسها اللجام من «المعجم الوسيط»، ولاحظ أن حجة الإسلام ــ غفر الله لي وله ــ شـبه عامـة المسلمين ب «الدواب»!!.

نستمر في تحليل الخبر (.. قالا: فمن أبو عيسى؟ فما درى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما يرد عليهما، حتى أنزل الله «إن مثل عيسى»).

نستطيع أن نؤكد أن عبارة «.. فما درى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما يرد عليهما..» تعوزها الدقة وينقصها الضبط وتفتقر إلى الإحكام ف ثقافة «دعوة إبراهم = محمد» الدينية خاصة في القطاع النصراني وثبت جماعه في عدة مواضع منها نقاشه مع عدي بن حاتم الطائي في أول لقاء لهما ــ ثرة وغزيرة.

إلا أنه تريث وتأني وتمهل.. وهذا معلم بارز في شخصيته التي لم تتكرر ف لا يتسرع في الرد ولا يتعجل الإجابة ولا يندفع في التوضيح ولا يهرع إلا الإبانة ولا يرقل إلى التفهيم أما ال جملة الرديفة «حتى أنزل الله» ف هي برهان ساطع ودليل قاطع على صدق ما نسخناه منذ أول سطر: أن «المثاني/ الروح = القرآن» أقرب إليه من حبل

---

(١) الأيقونة صورة المسيح أو ماري «مريم» أو قديس تُبَجّل «تُقَدَّس» طبقاً ل تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ــ حسب تعريف (قاموس وبستر ــ ل العالم الجديد) الطبعة الثانية الموجزة ب اللهجة الأمريكية من اللغة الإنجليزية.

(القاموس الجديد ل الثيولوجيا) ــ ص ٣٢٦ ــ طبعة ١٩٩١م ــ انجلترا/ الولايات المتحدة ونحن نرى أن نفي واضعي القاموس لتأثير تحريم الإسلام ل الصور على الإمبراطور ليو عند حظره عبادة الأيقونات لا يؤخذ به على علاته إنما الذي لا مشاحة فيه أنه حتى عام ٧٢٥م ظلت تلك العبادة منتشرة أي، أنه وقت مجادلة أسقف نجران والعاقب مع «خير خلق الله = محمد» بقيت معمولاً بها ومن ثم يضحى تأويلنا لقوله «أو سجودكما للصنم» هو عبادتها أو تقديسهما للأيقونات منطقياً ومقبولاً.

وفي سنة ٧٢٦م أصدر الامبراطور ليو في بيزنطا بعد نزاعات حول عبادة الأيقونات ــ ديكريتو بتدمير الصور في الكنائس ــ ودوافعه دينية جزئياً ولا يوجد دليل على أنه تأثر ب تحريم الإسلام ل الصور.

ومن شق آخر فإن السجود لا يعني العبادة ب المعنى الاصطلاحي إنما يفيد الخضوع والتطامن/ سجد سجوداً = خضع وتطامن (المعجم الوجيز) ويؤيده نص الآية الرابعة والثلاثين من سورة البقرة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) إذ لا يعقل أن ربهم يأمرهم بعبادة آدم.ا.هـ.

الوريد فسرعان ما أمده ب آية حميدة حملت إجابة شافية وضعت في فمي السائلين حَكَمَـة (بفتح الحاء والكاف والميم) حبست لسانيهما عن لوك أي اعتراض أو التفوه بأي طعن أو المشافهة ب أدنى مخالفة، أو الإثابة بأي معاكسة أو الإدلاء ب أي معاندة.

٣ ــ المقبول:

(... عن الشعبي عن جابر قال: قدم على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ العاقب والطيب، فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة. قال فغدا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين، ثم توجه إليهما فأبيا أن يجيئا وأقرا له بالخراج، قال: فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والذي بعثني بالحق لو قبلا لأمطر عليهم ناراً، قال جابر فيهم نزلت: «ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم»).(١)

وصفه المصنف الأزهري بأنه حديث حسن.

الملاعنة أو المباهلة في الخبر طقس موروث من العقائد السامية القديمة انتقل إلى جزيرة العرب المبروكة واستقر فيها.

وإذ توافق مع الدرجة الحضارية والحالة العقلية ل قبائلها فقد تبنته وعضّت عليه ب النواجذ، وأصل البهلة اللعنة أما أصل البهل (ب دون تاء مربوطة) ف هو كون الشيء غير مراعى.(٢)

ف توجد رابطة معنوية بين اللفظين فإذا تباهل شخصان أصبحا خارج عناية السماء والذي يكذب أو يحنث منهما يصبح مستحقاً ل لعنتها.

بيد أنني وقفت طويلاً إزاء رفض النصارى من نجران خاصة المقدمين فيهم من القس والرهبان كيف أبوا المباهلة التي عرضها

---

(١) (المقبول) ل أبي عمر نادي الأزهري ص ١٥٥ مرجع سابق.
(٢) «المفردات في غريب القرآن» ل الراغب الأصفهاني ــ ص ٦٣ ــ تحقيق محمد سيد كيلاني ــ طبعة ١٣٨١/ ١٩٦١م نشر البابي الحلبي ب مصر.

عليهم «العامل/ العائل = محمد»؟.

ف عقيدتهم وهي مستقاة من العهد القديم «الإسطار المقدس ل بني إسـرائيل» تـنص ب صراحة وبلا مواربة على أن ربهم أعطى عهده مع نوح ونسله وكل الخليقة أنه لن ينـزل علـى أحد (بل على أي مخلوق أي ليس البشر فحسب) اللعنة مرة أخرى وأعطى علامة أو إشارة أو آية وهي قوس قزح.

(فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض، وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمته بيني وبين كل ذي جسـد على الأرض).[١]

في عقائد «بلاد ما بين النهرين» حدث طوفان في عهد شمس بيتشين فأوحى إليه ربـه أن يصنع فلكاً ضخماً من الخشب ويضع فيه كل ما يحتاجه لحياته ويأخذ معه حبة من كل شيء حي، واستمر الطوفان ستة أيام وفي السابع أرسل غراباً ثم عصفوراً ثم يمامة فعـادت وفـي منقارهـا ورقة من غصن الزيتون.[٢]

وثمة حكاية عن طوفان كبير بابلي وتعد قصته البابلية أو السومرية أقدم حكايـا الطوفـان المعروفة في الأدب حدث في عهد الملك اكسيو نزوس/ العاشر الذي حكم بابل.. الخ.[٣]

ومن المعلوم أن منطقة ما بين النهرين هي التي التي عاش فيها بنو إسرائيل فيما عـرف بعد ذلك ب (السبى البابلي).

هل نسى رجال الدين من نصارى نجران هذين النصين وغيرهما من النصوص المتعلقـة بالموضوع أم لأن الجزيرة العربية خاصة منطقة

---

(١) «تكوين» الإصحاح التاسع/ ١٨١٧.
(٢) «موسوعة الأديان في العالم» ــ مجلد «الديانات القديمة» الطبعة الأصلية ــ ٢٠٠٠م إصدار إيـدتوكريس ــ بيروت ــ لبنان.
(٣) (الفلكلور في العهد القديم/ التوراة) تأليف جيمس فريزر ترجمة د. نبيلة إبراهيم الجزء الأول ص ٩٤.

الحجاز وتضم قرية النزوح ذات الحرتين التي حدث فيها الحجاج شحيحة المطر وبالتـالي ينـدر ظهور السحاب فيها الذي يتعلق به قوس قزح الذي يمثل خاتم الرب على العهد أو الوعد المقـدس بعدم نزول لعنة بعد طوفان نوح العجيب ومن ثم فإن بلاد العرب تغـدو مسـتثناة مـن الميثـاق الإلهي؟ وعليه فإذا قبلوا المباهلة حلت عليهم اللعنة خاصة أن أسقفهم عندما رأى «جد الحسـنين/ محمداً» مقبلاً ومعه أهل البيت عليهم السلام جزم بأنهم لو سألوا الله تعالى إزالة جبل مـن مكانـه لفعل والأمر سيان فإن المباهلة التي ندبت إليها الآية العظيمة وضعت حـداً ل حجـاج نصـارى نجران فعادوا إلى تحكيم عقولهم ورضخوا ل تقديم الجزية.

ومن جِماعه يثبت أن الآيات نصرت «رافع لواء الحمد ـــ محمداً» نصراً معنوياً عزيـزاً ب أن آزرته في قطع جدالهم والتغلب على مماحكاتهم وظفراً مادياً مبيناً قوياً تمثل في إلزامهم دفع الجزية التي شكلت شطراً لا بأس به من مالية دولة بني سخينة آن ذاك.

ثانيا: التفاسير

١ ـــ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس:

(ثم ذكر خصومة وفد بنى نجران مع النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بعدما بين لهـم أن مثله عند الله كمثل آدم، فقالوا ليس كما تقول، إن عيسى لم يكن الله ولا ولده ولا شريكه، فقـال الله «فمن حاجك فيه» فمن خاصمك فيه ـــ في عيسى ـــ من بعد ما جاءك من العلم «البيـان» بـأن عيسى لم يكن الله ولا ولده ولا شريكه «فقل تعالوا ندع أبناءنا» نخرج أبناءنا «وأبناءكم» أخرجوا أنتم أبناءكم «ونساءنا» نخرج نساءنا و«نساءكم» أخرجوا أنتم نساءكم «أنفسـنا» نخـرج بأنفسـنا «وأنفسكم» أخرجوا أنتم أنفسكم «ثم نبتهل» نتضرع ونجتهد في الدعاء «فنجعل» فنقل «لعنة الله» فيما بيننا «على الكاذبين» على الله في عيسى...).[١]

---

(١) (تنوير المقباس) ص ٣٩/ مصدر سابق.

في هذا النص يعترف النصارى بأن عيسى ابن مريم هو الله وولده وشريكه.

وفسر المباهلة ب التضرع والاجتهاد في الدعاء.

بيد أن الآية الكريمة أوردت إخراج الأبناء والنسون، في حين أن وفد بنــي نجــران لــم يضمهم، ومع ذلك ف إن «الفاتح/ الفاضل = محمد» طبق الأمر ب حذافيره، إذ خرج ومعه ابنتــه السيدة فاطمة «نساءنا» والحسن والحسين «حفيداه» ب الإضافة إلى ابن عمه وصهره علي، ولــم يذكر «التنوير» تراجع وفد نصارى نجران لأنه يفسر الآية ولا شأن له ب الواقعة كتاريخ.

٢ ــ تفسير القرآن العظيم:

(فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أسلما، قالا: قد أســلمنا، قال إنكما لم تسلما فأسلما قالا: بلى أسلمنا قبلك، قال: كذبتما: يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير، قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصــمت رســول الله ــ صــلى الله عليه وسلم ــ عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم، صــدْر ســوْرة آل عمران إلى بضع وثمانين آية.

وأمر بما أمر بهم من ملاعنتهم أن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك فقالوا: يا أبــا القاســم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما تريد أن نفعل في ما دعوتنا إليه فانصرفوا عنه.. فأتوا النبــي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا يا أبا القاسم رأينا ألاّ نلاعنك)..[١]

مما يحمد ل ابن كثير ويدفعنا ل أن نثني عليه خيراً أنه في هذا المربع نسخ سطوراً كثيرة عن حجاج نصارى نجران ألقت أضواء كواشف على العقائد النصرانية القديمــة التــي تعتبــر ب مثابة الجذور

---

(١) (تفسير القرآن العظيم) ل. ابن كثير ــ المجلد الثاني/ ص ٤٠ وما بعدها/ مصدر سابق.

التاريخية لعقائد خلائفهم المعاصرين تبيع الكنيسة الشرقية.

أكل النصارى لحم الخنزير مخالفة صارخة ل أحكام التوراة مع أن عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته كثيراً ما فتئ يصرح جئت ل أكمل الناموس لا أنقصه.

وليس هو الحكم الوحيد فهناك الأمر الصريح ب الختان الذي نصت عليه التوراة بصرامة وباشره البطاركة الأكابر إبراهيم ويعقوب وإسحق.. الخ. وأبناؤهم وأصهارهم وعبـــدانهم، بـــل إن عيسى نفسه أزيلت قلفته لأنه نشأ يهودياً.

أما تحريم أكل الخنزير فقد نقشه بنو إسرائيل من المصريين القدامى أساتذة وسادة العـــالم آن ذاك إذ إنهم كرهوه واعتبروه حيواناً نجساً لأنه ساعد الشرير «ست» على قتل «أوزوريـــس» وقطع أوصاله ولكن زوجته «إيزيس» تمكنت من جمعها وبعثته حياً بفضـــل تعاويـــذها الســـحرية وأنجبت منه «حورس» ولقيامها ب تلك الأعمال المجيدة أصـــبحت الإلهـــة العظيمـــة والوحيـــدة وانتشرت عبادتها في مناطق شاسعة وأقيمت لها مئات المعابد وظلت تؤله حتى خـــارج مصـــر، فمثلاً عند اليونان والرومان حتى أواسط القرن الثاني الميلادي، ثم اندثرت كغيرهـــا مـــن مئـــات الديانات والعقائد والملل والنحل التي مرت على البشر طوال تاريخهم الطويل والتي ظن معتنقوها أنها أبدية سرمدية خالدة لأنها تبشر ب الحقيقة المطلقة التي لا يقربها الباطل من أي جانب!!!

وعود إلى السياق:

إذ إن «سيد ولد آدم» حاور النصارى النجرانيين في أمور أولها نسبة ولد إلـــى الله جـــل جلاله وتنزه وعلا علواً كبيراً، وعبادة الصليب وهي فيما نرجح عبادة الأيقونـــات التـــي تحمـــل صورة عبد الله المسيح عيسى أو صورة أمه الله مريم/ أمه أو صورة أحد الرسل «أي رسل

المسيح الذي أطلقهم ل هداية الناس.[١]

وأضاف ابن كثير واقعة دعوتهم إلى المباهلة ورفضهم إياها.

والمباهلة هي طقس أو فعل شعائري (هناك ثلاثة استخدامات لمصطلح الفعل الشـــعائري، اثنان منها يؤكدان الطابع الرمزي له والثالث يحدده في ضوء العلاقة بين وسائل الفعل وغاياتـــه، وعلى ذلك فإن لفظ الشعائري قد ينطبق أساساً على الأفعال الدينية).[٢]

ويرى راد كليف براون عالم الأنثروبولوجيا المعروف أن (القاعدة الأساسية ل الطقـــوس هي تطبيق القيم الطقوسية على الأشياء

---

(١) الرسل الاثنا عشر هؤلاء قيل عنهم إنه أقامهم «عينهم» ليكونوا معه وأرسلوا ليكرّزوا وأعطاهم سلطاناً لشفاء الأمراض..
(القاموس الموجز ل الكتاب المقدس) ص ٢٠١ ــ مرجع سابق.
ولكن قد يكلف الرسل أو أحدهم ب مهمة غير دينية/ براجماتية أي ذرائعية تتصل ب الحاجات الآتيّة:
(وفي الباب الحادي والعشرين «لعل المؤلف يقصد ب «الباب» «الإصحاح» كتب متّى «وهـــو أحـــد التلاميـــذ أو الرسل وينسب إليه الإنجيل المعروف ب اسمه ا.هـ.» عن عيسى أنه أرسل تلميذين إلى القريـــة ليأتيـــا ب الأتـــان والجحش وركب عليهما).
وكتب مرقص ولوقا ويوحنا «وهم أيضاً من أصحاب الأناجيل ا.هـ.
«ليأتيا ب الجحش فأتيا به وركب عليه».
(الموسوعة النقدية ل الفلسفة اليهودية) تأليف د. عبد المنعم حفني ص ٢٠٣/ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ــ دار المسيرة/ بيروت.
وبديهي أن إحضار أتان أو جحش ليس مهمة دينية ومن اليسير تكليف أي تابع عادي، وليس رسولاً ل ينجزهـــا، ولا مشاحة أن قبول التلميذين «الرسولين حسب وصف النصارى» القيام بها دليل لا يمارى على شـــدة طاعتهمـــا وولائهما ل عبد الله ومملوكه وابن أمته عيسى ابن مريم، في حـــين أن (الحبـــل/ المبـــارك = القـــرآن) ســـماهم الحواريين ا.هـ. أو أحد القديسين وما أكثرهم لديهم إذ إن لكل فرقة أو شيعة قديساً.
فهم قديسون ــ أي مقدسون أمام الله ــ طبقة من الناس منفصلة لله لأجل خدمة كهنوتية.
(القاموس الموجز ل الكتاب المقدس) ــ ص ٣٨٧ ــ مرجع سابق.
(٢) «قاموس علم الاجتماع» د. عاطف محمد غيث ــ ص ٣٨٩ ــ طبعة دار المعرفة الاجتماعية/ الإسكندرية.

والحوادث والمناسبات التي يمكن اعتبارها بمثابة الأهداف..).[١]

وبدأ يمكن أن نقول إن المباهلة فعل شعائري أو طقوسي له قيمة تتمثل في وسيلة أدائها التي شرحتها النصوص السوابق وغاية مبتغاها نزول اللعنة على الكاذب أو الكاذبين والتي تنتهي ب طريق الحتم واللزوم إلى الإبادة أو الاستئصال أو الإهلاك... الخ.

كما يمكن وصفها ب أنها «حفل مراسمي» ولو أن التفرقة بينها وبين الفعل الشعائري أو الطقوسي دقيقة ل أن «الحفل المراسمى» هو (أداء أسلوبي يتخذ شكلاً محدداً وغالباً ما يكون عاماً (يعني ليس فردياً ا.هـ) ويتضمن أكثر من مشارك أو مراقب وهو يميز تراثاً ثقافياً معيناً).[٢]

وتهمنا الجملة الأخيرة التي وردت في عجز المتن (وهو «= يعني الحفل المراسمى» يميز تراثاً ثقافياً معيناً) لأن المباهلة وقد شرع في أدائها (الموعظة/ الموقر = محمد) تعد سنة عملية بلا أدنى معارضة بيد أنه في عصر الحضارة العربية/ الإسلامية في زمن بني العباس دارت مساجلات وحوارات ومحاجات عديدة بين الفقهاء وحصراً وتحديداً علماء الكلام المسلمين وعلى الأخص المعتزلة وسائر الأدباء والمثقفين وبين رجال الدين النصارى ولم يفكر الأولون في دعوة الأخيرين إلى الملاعنة أو المباهلة مع علمهم اليقيني بأن آية مجيدة حملت قصتها وأنها سنة محمدية عملية نصت عليها أحاديث صحيحة لماذا؟

الجواب لا يحتاج إلى فطانة ولا يستلزم لقانة ولا يستنفر زكانة ولا يتطلب فراسة.

---

(١) (معجم علم الاجتماع) تحرير البروفيسور دينكن ميتشيل ترجمة ومراجعة د. إحسان محمد الحسن ــ ص ــ الطبعة الثانية ــ ١٩٨٦ ــ دار الطليعة ــ بيروت.

(٢) (موسوعة علم الإنسان) ل شارلوت سيمور سميث/ ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع/ بإشراف محمد الجوهري ــ ص ٣٤٧ ــ الطبعة الأولى/ ١٩٩٨ ــ العدد ٦١ من المشروع القومي للترجمة ــ المجلس الأعلى ل الثقافة ــ القاهرة.

ومن ثم نكله إلى ذكاء القارئ ولوذعيته وقوة فهمه وعمق إدراكه.

* * *

٢ ــ تفسير الجلالين:

(... دعا رسول الله ــ ص ــ وفد نجران لما حاجّوه فقالوا حتى ننظر في أمرنا ثم نأتيك فقال ذو رأيهم لقد عرفتم نبوته وإنه ما بأهل قوم نبياً إلا هلكوا فوادعوا الرجل وانصرفوا فأتوه وقد خرج معه الحسن والحسين وفاطمة وعلي وقال لهم إذا دعوت فأمّنوا فأبوا أن يلاعنوا فصالحوه على الجزية. رواه أبو نعيم.

عن ابن عباس قال: لو خرج الذين يباهلون لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً ورُوي لو خرجوا ل احترقوا).[١]

(بإمعان النظر في الخبر نجد أن صاحب رأي وفد نصارى نجران ألقي كلامه على عواهنه: ما باهل قوم نبياً إلاّ هلكوا) إذ لم يقدم مثلاً واحداً يدعم به ادعاءه أن البطريرك الفلاني عندما لاعنه قومه، هلكوا.

والتوراة مبسوطة صفحاتها لكافة القارئين، وليس فيها أحدوثة واحدة عن واحد من الكمّل بأهل الجاحدين ل دعوته فدمرتهم السماء.

إلاّ إذا قلنا إن التوراة التي بيد ذلك الصاحب مختلفة عن التوراة الحالية.

كذلك ليس ثمة أعجوبة ملاعنة في (الشفاء/ البلاغ = القرآن).

صحيح أنه توجد أقاصيص هلاك المكذبين لإخوانهم الذين يدعونهم إلى اتباعهم ودخول الديانة أو الديانات التي يبشرون بها ب مختلف أنواع الهلاك أو الإهلاك. بيد أن الثابت أن أي واحد منها «العذابات أو التدميرات» لم تسبقه مباهلة.

نخلص من جماعه إلى أن «ذا رأيهم» عندما فاه ب تلك العبارة

---

(١) (تفسير الجلالين) عند تفسير سورة آل عمران ــ ص ٤٩ ــ مصدر سابق.

صفرت يداه من قرينة تساندها ومن ثم ف هو قد قصد أن يهوشهم.(١)

ولا عجب أن يفعل وكما يقول المثل «شنشنة أعرفها من أخزم» أو «الشيء من معدنه لا يستغرب».

إنما قد يشفع له هو رغبته العارمة في تجنيب جماعته أو رهطه ما توهمه من نزول بلاء إذا اشتركوا في الحفل المراسمي ل المباهلة.

وأورد الجلالان قالة نسباها إلى «أبي الأرامل = محمد»:

«ولو خرج الذين يباهلون لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً» ودلالتها أن المتباهلين من النصارى أي الذين حضروها يخرجون منها سالمين «لرجعوا» لأنهم لا يعودون إذا هلكوا أو حلت بهم النقمة ــ في الوقت الذي يصيب المَحْق والمحْو أهلهم الذين لم يساهموا فيها بل ربما لم يسمعوا بها ولم يأذنوا أو يوكلوا المتباهلين ليؤدوا طقسها أو يقوموا ب شعيرتها أو يحضروا حفلها.

والحق أن هذه الجملة أشكل على فهمها وعسر نَقْهها وصعب علي إدراكها.

٤ ــ تفسير الألوسي:

رقم الألوسي خبر وفد نصارى نجران المكون من أربعة عشر رجلاً والسابق ذكره رواه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.(٢)

قمنا ب تحليله في ما تقدم

٥ ــ التسهيل ل علوم التنزيل:

لم يخرج ابن جزيّ الكلبي في ما أورده عند تفسير الآية عما ذكر ولم يأت ب جديد.(٣)

---

(١) يقال هوّشه أي خلط عليه الأمر/ من «المعجم الوجيز» سابق.
(٢) (تفسير الألوسي) الجزء الثالث ــ ص ص ٢٨٨/ ٢٨٩ ــ مصدر سابق.
(٣) (التسهيل) ل ابن جزّي الكلبي ــ الجزء الأول ــ ص ١٠٩.

من التفاسير الحديثة

٦ ــ تفسير القرآن الكريم

(وقد حدث أن النبي ــ ص ــ بما نزلت هذه الآية ــ أخبر وفد نجــران ودعــاهم إلــى اجتماع حاشد ومعهم نساؤهم وأبناؤهم، ليبتهل الجميع إلى الله تعالى أن ينزل لعنته علــى الكــاذب من الفريقين، وحضر الرسول في الموعد ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي فلم يجدهم).[١]

ثم أردف نصيحة صاحب رأيهم ب عدم المباهلة «لقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبتت صغيرهم...».

ذات المرجع والصفحة.

وانتهى الأمر ب قبولهم دفع الجزية.

ثم نقل عن أبي نعيم في الدلائل مقدار الجزية وهي «ألف حلة في صَفَر ومثلها في رَجَــب ودراهم».[٢]

الخبر الذي نقله شحاتة على قدر لا بأس به من الأهمية ويلفت النظــر فيــه عــدد مــن المعلومات.

١ ــ أن (سعد الله وسعد الخلائق = محمداً) دعاهم إلى اجتماع حاشدا ومعهــم نســاؤهم وأبناؤهم) والمصادر التي سقناها تصفر من وجود الأبناء والنسوان معهم هذا من رجا «النقل».

أما من جهة «العقل» فما الذي يدعو وفد نجران وهم قادمون ل المحاجــة فــي مســائل تيولوجية أو عقائدية أن يصطحبوا معهم النسوة والأطفال ولم يسبق لقبيلة أن ضم وفــدها نســاء وأولاداً[٣] وهي التي تأتي لإعلان إسلامها وولائها ل دولة بني سخينة فـَ من باب أولى ألا يفعلــه وفد قدم خصيصاً للدخول في جدل ديني.

---

(١) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله شحاتة ــ الجزء الثالث ص ٥٧٩ ــ سابق.
(٢) ذات المرجع والصفحة.
(٣) فضلاً ارجع إلى كتابنا «بصائر في عام الوفود وفي أخباره».

ولو أن المصنف عبد الله شحاتة ذكر مصادره فيه ومن بينها ابن كثير وقد رجعنا إليه فألفينا أنه خلا تماماً من أي إشارة لنسون أو صبيان ونسخ أنهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ثم ذكر أساميهم.(١)

وبعده القرطبي وأيضاً رجعنا إليه فإذا به خلو تماماً حتى من مجرد تلميح ــ دعك من التصريح ــ عن وجودهم.(٢)

ومن ثم نرجح أن شحاتة نقش حكاية وجود الأبناء والنسون من مصدر آخر من بين التي أثبتها إذ نربأ به أن تجيء الإضافة من عنده.

٢ ــ أورد مقولة ذى مشورتهم: إنه ما لاعن قوم نبياً إلاّ... وسبق أن فندناها.

٣ ــ أهمية ما حمله إلينا من أن «الصادع بما أُمر = محمد» دعاهم إلى اجتماع حاشد ومعهم نساؤهم وأبناؤهم يرجح وصف المباهلة ب (احتفالية مراسمية).

٤ ــ لائحة الجزية التي التزم نصارى نجران بدفعها والتي يبين منها أنها جزيلة ينفح عدة دوال:

أ ــ أن أهل نجران على درجة ملحوظة من الغنى ويسر الحال.

ب ــ الهيبة التي بلغتها دولة قريش في نفوس الأعاريب على اختلاف عقائدهم.

ج ــ طواعية نصارى نجران وتفضيلهم الطريق السلمي حتى ولو فيه كلفة عليهم اتباعاً لِ تعاليم أخيهم أو صاحبهم عبد الله ومملوكه

---

(١) (تفسير القرآن العظيم) ل ابن كثير ــ المجلد الثاني ص ٤٠ طبعة الشعب ــ مصدر سابق.
(٢) (تفسير القرطبي) ــ المجلد الثاني ــ ص ١٣٤٦ ــ طبعة دار الريان/ القاهرة ــ مصدر سابق.

وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم الذي لا يماري أحد في تأكيده ـ وهو يفشو دعوته ـ المحبة والسلام والموادعة وخفض الجناح، ونذهب إلى أنه ليس ثمة واحد من البطاركة الذين سبقوه في بني إسرائيل، وهم يعدون ب العشرات، من يساميه أو حتى يدانيه في هذا المنحى البالغ الروعة.

* * *

أضاف المصنف عبد الله شحاتة «قد يقول قائل إن الجزية فرضت بعد فتح مكة ووفد نجران قبلها ف كيف يقال إن الرسول ـ ص ـ صالحهم على الجزية؟

الجواب أن ذلك من باب المصالحة على ترك المباهلة وجاء فرض الجزية بعده على وفق ما صنعه الرسول.(١)

الجواب الذي رقمه عبد الله شحاتة على السؤال شَفّ عن عدم معرفة بوقائع السيرة المحمدية المعطير، ولو أنه فتح أي كتاب من التي تشرفت ب تناولها لعلم أن العكس هو الصحيح أي أن قدوم وفد نصارى نجران جاء بعد فرض الجزية التي زبر هو أنها فرضت غبّ فتح الفتوح، فَ بعد هذا الفتح الأكبر ـ الذي تم في السنة الثامنة من النزوح «= الهجرة». جاءت الوفود في التاسع تهنئ وتقدم فروض الطاعة والولاء وفيه أيضاً كتب «الزاهر/ الزاهد = محمد» إلى الملوك ورؤساء الدول ومن بين من أرسل إليهم نصارى نجران وبعد مشاورات قرروا إرسال أربعة عشر رجلاً منهم... الخ.

فكيف يقال إن وفد النصارى النجرانيين قدم قبل فتح قرية القداسة؟

وب التالي إن ما ألزموا بدفعه مصالحة لا جزية.

وكثيراً ما نصحنا ـ ونحن نعرف أنها (= النصيحة) من أثقل الأمور على النفس ـ الإخوة المحدثين أو المعاصرين الذي يكتبون في

---

(١) (تفسير القرآن الكريم) ل عبد الله شحاتة ـ الجزء الثالث ـ مرجع سابق.

الإسلاميات أن يتحروا الدقة وأن تظل أدوات البحث حاضرة بين أيديهم وهم يرقمون، وتطبيقاً ل هذه النصيحة لو أن المصنف شحاتة أو شحاتة المصنف قام به لما انزلق إلى هذه الغلطة التي لا يليق به ك أستاذ جامعي.

وأردف «وقد أجيب بأجوبة أخرى فارجع أن شئت إلى تفسير ابن كثير».(١)

وقد فعلت فلم أجد شيئاً أليس من الأدق والأوفق له ـ وهو باحث أكاديمي ـ أن يحدد الموضع الذي أثبت فيه ابن كثير، أي أورد أن وفد نجران أتى قبل الفتح، ب أن يحدد الجزء والصفحة والطبعة وسنة النشر والدار... الخ.

بعد هذه السكة الجانبية التي جرنا إليها عبد الله شحاتة. نؤوب إلى محجة السياق.

* * *

إذن وقفت الآيات ٦٠/ ٦٢ من سورة آل عمران ب جانب «صاحب العطايا = محمد» أمدته في البديّ ب الإجابة عن السؤال الذي فجأه به رؤساء الجوق النصراني النجراني عن عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم ومن أبوه؟ بأنه مثل آدم الذي ليس له أب وخلق من تراب كذا خلق المسيح.

ثم أبدت الآيات الكريمات «الرفيع الذكر والرتب: محمداً» ب الحل الذي أخرس ألسنتهم وقطع حجتهم وأزاح الستار عن أباطيلهم ورفع الحجاب عن ادعاءاتهم الزيوف وكشف الغطاء عن مزاعمهم الفسيدة ونعني الأمر ب إقامة احتفالية مراسمية = المباهلة.

وإذ إنهم في قرارة نفوسهم يوقنون ب صدق دعوته فقد خنسوا وفضلوا دفع الجزية.

في هذا الموقف الحواري الساخن الذي أثاره أساتذة متخصصون

---

(١) ذات المرجع والصفحة.

وعلى مستوى عالٍ في اللاهوت آزره «الهادى/ العجب = القرآن» ونصره على خصمائه الألـداء فاطمأن قلبه وهدأ باله وازداد إعجاب تباعه له وإيمانهم ب ما يدعوهم إليه.

ف لولا أنه صادق أمين لما تراجع رؤساء وفد النصارى وهم من القمم العـوالى والقلـل الشوامخ والذُرى المنيفة من علماء أهل الكتاب.

كما أنه ليس من المنطقي ولا من المقبول أن يعرّض ذاته الشريفة وخاصـة أهـل بيتـه الكرام وأحبّ الناس إلى قلبه إلى الهلاك والدمار لولا أنه شديد اليقين ب صدق دعوته.

ومن ثم ازدادوا إيماناً ب ما يفشوه بينهم وتضاعف حبهم إيّاه وتراكم إخلاصهم للدولة التي يرسّخ أسسها.

ووضع (الجبل/ المهيمن = القرآن) بين أيدينا برهاناً جديداً على متانة الوشيجة التي تصله ب واقع من يتوجه إليهم ب خطابه المبين وعلى العلاقة الجدلية بينهما.

وأن النصوص في مثل هذه الحالة ونديداتها التي عرضناها تَهلّ استجابة لدواع اسـتجدت ول وقائع استحدثت، فهذه تنبت على أرض الواقع وتتضلّع عروقها من مياهه، وتلـك تبـزع رداً عليها وريّاً لا عطشها وشفاء ل غليلها.

الأولى «= التحاضيض المستحدثة» تتجه من أسفل إلى أعلى.

والأخرى تسير في الاتجاه المقابل لا المعاكس لأنها لو عاكست أو عاسرت أو شاكست لَ فقدت هويتها وأضاعت كينونتها وهدمت بنيتها.

تمشي في المحجّة الموازية كيما تحقق الغاية المستهدفة فيها.

وهنا تبرز حكمة التنجيم والتبعيض والتفريق.

وسيظل أصحاب شعار المفاصلة والمباعدة والمباينة حيارى لأن الشك بدأ يـراودهم فـي جدواه وأخذوا يقتنعون رويداً ب مقولة

تاريخية النصوص والتصاقها بحياة من جاءت تهدي ضلالتهم وتفك عقدهم وتحل مشكلاتهم.

* * *

أخرج الطبري وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال:

قال أهل الكتاب: زعم محمد أنه أُوتي ما أوتي في تواضع وله تسع نسوة، وليس همه إلا النكاح، فأي ملك أفضل من هذا؟ فأنزل الله:

«أم يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله».

وهي الآية الرابعة والخمسون من سورة النساء.

نحن نرجح أن هذه المقالة الفلوت تفوه به أحد أو بعض نصارى نجران على الرغم من أن عدداً من المصادر عزاها إلى بني إسرائيل.

سندنا في هذا الترجيح ما يلي:

أ ــ بعد أن أفحموا في الحِجاج بِ شأن عبد الله عيسى ابن مريم أرادوا أن يغمزوا «الأرجح/ الأزهر = محمداً» ل وجود تسع زوجات على ذمته.

ب ــ أن أخاهم أو صاحبهم «حسب تعبيرهم» المسيح عيسى لم يسبق له الزواج وليس في سيرته الطيبة الزكية ما يشير ولو من بعيد إلى اتخاذه سرية أو جارية «ل المتعة» فقد عاش حياته متبتلاً ومن ثم ففي نظرهم «= نصارى نجران» أن هذه هي الصورة المثلى لأصحاب الدعوات الكُمّل.

ج ــ من المستبعد ــ رغم ما قلنا إن عدداً من المصادر فعله ــ نسبة هذا القول إلى اليهود لأن «علماءهم» يعلمون أن بطاركتهم الأكابر عددوا زوجاتهم بل إن بعضهم تزوج المئات وتسرى المئات.

د ــ الذهنية النصرانية «المسيحية» يعشش في تلافيفها مبدأ ربط التبتل «عن ملامسة النسون» بالاشتغال ب الخدمة الدينية وليس مصادفة أن نظام الرهبنة نشأ فيها دون غيرها، ولو أن هذا لا يحول

دون وجود عوامل أخرى ساعدت على ظهوره فيها منها التأثر ب كهان مصر القديمة.

هـ ــ النصرانية تذهب إلى أنه في حالة الزواج يتعين الاقتصار على بعلـــة واحـــدة وهـــو ضرب من التبتل الجزئي، أو يمكن القول إنه دحرجة إلى التبتل الكلي.

و ــ من المعلوم أن عبد الله ومملوكه عيسى هو آخر حلقة مـــن سلســـلة بطاركـــة بنـــي إسرائيل ولو أنه استقل ب ديانة خاصة تفارق ديانتهم وتفاصلها وتباينها، ومن هذا المنطلق اعتبره حواريوه «تلامذته» وتباعه من بعدهم نسقاً جديداً ومصححاً لنموذج الداعية الكامل أو البطريـــرك، خاصة بل وحصراً وتحديداً هي منحى الابتعاد عن ملامسة النسون والذي لا مشاحة فيه أن هنـــاك من بطاركة أولاد يعقوب من أسرف فيها بصورة صـــارخة ول مفاصـــلته «= عيســـى» للحكـــم والملك.

ز ــ الذهنية النصرانية لا تفارقها صورة الأم الأولى حواء وغوايتها ل آدم كيما يأكل من الشجرة المحرمة التي انتهت بهما إلى الخروج أو ب الأدق الطرد من الجنة وهي الخطيئة الأولى، ف البطريرك أو الداعية يتعين ألا تغدو ب جواره «حواء» أخرى «ثانية» توقعه في الخطيئة عن طريق الإغواء أو الإغراء، ويكفي الإنسانية التعسة ــ طبعاً من منظورهم أو مـــذهبهم.ا.هـ ــ مـــا لقيته على يد حواء الأولى.

ح ــ لم يؤسس عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم مملكة بـــل تجـــرد تماماً عن أي ملك أو تملك أو ملكية وهذا هو المثل الأعلى للبطريرك ومؤسس الديانة والصـــادع ب دعوة جديدة من منظور النصارى.

هو الوجه الآخر من العملة، أو الجناح الآخر ل الطائر أو الساق الأخرى التي بـــدونها لا يستطيع الإنسان أن يسير سيراً طبيعياً.

تبتل عن النساء وعزوف عن الحكم مع مفاصلة للملكية أو التملك،

فإذا لم تتوافر هاتان الخاصيتان أو الصيغتان في الداعية فلا يستحق لقــب البطريــرك ولا يغــدو مؤسس ديانة.

وسوف نرى فيما بعد أنه مجرد هراء ومحض هرف وهذيان خالص.

وأن الذي يفند هذه المزاعم الفطيرة والادعاءات الفسيدة والدعاوي الباطلة هو إســطيرهم المقدس ذاته ــ التوراة التي ذيل النصارى بها أناجيلهم وألحقوها بها ثم قدسوهما معــاً، ف هــي التي قصت حكاية البطاركة الذين حازوا ملكاً كبيراً وجمعوا نسوة ب العشرات بل المئات.

فهم والحال كذلك في زناق فإما أن الشرطين اللازمين للبطريك الداعي مؤســس الديانــة صحيحاً فيلزم القول إن يوسف وداود وسلمان ليسوا بطاركة أو حتى أشباه بطاركة.

وإما أنها = (الشرطان) باطلان فينهار من أساسه ما حاولوا أن يأخذوه على «أجود الناس وأكرم الخلق = محمد».

إذن تبتل عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى ابن مريم وعزوفه عن الملك شــيا على أرض الواقع صورة البطريرك المثال أو النموذج وهذا مبعث فخرهم وتعاليمهم على اليهود.

ف إذا جاء «من جعلت قرة عينه في الصلاة = محمد» وفارق هذه الصورة «النمــوذج» من وجهة نظرهم وصرح عملاً وقولاً بأن من سننته الزواج بل وتبرأ من تباعه الــذين يرغبــون عنها وتأسيسه دولة في هاتين النقطتين إلى حد محدود للغاية بدأ أقرب إلى «الكُمّل» الذين ظهروا في بني إسرائيل.

نستأنف ونقول إذ فعله فقد صَتّ النصارى وحطم «المثال» الذي تخيلوه عن البطاركــة أو الكمل أو مؤسسي الديانات، ومن هنا بادروا إلى غمزة لاتخاذه العديد من البعلات ول إقامته دولة.

هذه هي أسانيدنا في أن هَلّ الآي الرابعة والخمسين من سورة

النساء قصد به الرد على ما فاه به واحد أو أكثر من متنفذي وفد نصارى نجران في هذا المجال.

ولو أنه لا يمنع من انضمام «علماء» بنى إسرائيل إليهم في هذه القالة الخسيسة ومعاضدتهم لهم فيها.

فقد رأينا في ما أسلفناه تعاونهم أو مشاركتهم في توجيه مثل هذه الأقوال الخائبة إليه.

* * *

أولاً: من كتب أسباب النزول:

لباب النقول:

(أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: قال أهل الكتاب: زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع، وله تسع نسوة وليس همه إلاّ النكاح فأي ملك أفضل من هذا؟ فأنزل الله الآية... وأخرج ابن سعد عن عمر مولى غفرة نحوه أبسط منه).[1]

جاء في الخبر أن «أهل الكتاب» هم الذين قالوا: زعم محمد.. الخ.

لم يقل اليهود، وكثيراً ما عبر «مأدبة الله/ القرآن» عن النصارى ب عبارة «أهل الكتاب»: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله).[2]

(وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً).[3]

وما ورد فيها «ليؤمنن به قبل موته» أي عبد الله عيسى ابن مريم كما هو مبين في الآيات التي سبقتها.

---

(١) (لباب النقول) ل السيوطي/ ص ٥٤/ مصدر سابق.
(٢) سورة النساء الآية ١٧١.
(٣) سورة النساء الآية ١٥٩.

(ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعـــام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون. قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضـــراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم. قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق... إلى آخر الآية.

سورة المائدة الآيات ٧٥ ــ ٧٦ ــ ٧٧.

إذن عبارة «قال أهل الكتاب» التي وردت في ال «لباب» تنصرف إلى النصارى، وهـــذا يضاف إلى الأسانيد التي طرحناها.

ثانيا: التفاسير:

١ ــ تنوير المقباس:

(«أم يحسدون» بل يحسدون، «الناس» يعني محمداً «على ما آتاهم الله من فضله» على ما أعطاه الله من الكتاب والنبوة وكثرة النساء وأعطينـــا «آل إبـــراهيم» وداود وســـليمان «الكتـــاب والحكمة» العلم والفهم والنبوة «وآتيناهم ملكاً عظيماً» أكرمناهم بالنبوة والإسلام وأعطيناهم ملـــك بني إسرائيل فكان ل داود مائة امرأة مهرية ولسليمان سبعمائة سرية وثلثمائة مهرية».[1]

في (العهد القديم) الشطر المجلى من «الكتاب المقدس» نجد أن الأمر على النقيض أي أن سليمان بن داود نكح سبعمائة مرة حرة وتسرى ب ثلثمائة جارية للمتعة وأنه اختـــارهن «بعـــلات وإماء» من سائر الجنسيات والملل والعقائد التي وجدت في عهده الميمـــون إمـــا علـــى الرقعـــة المحدودة التي حكمها وإما بجوارها مثل:

العموريين والكنعانيين والحيثيين واليبوسيين والعززين والحويين... الخ.

النصارى كما زبرنا يؤمنون بما جاء في التوراة وضموا أناجيلهم

(١) (تنوير المقباس) ــ ص ٥٨ ــ مصدر سابق.

إليها وأطلقوا على المجموع «الكتاب المقدس».

وسير البطاركة الأكابر المزبورة فيها «التوراة» حجة عليهم، إذ بها يصدقون ويؤمنـــون. ف ما دام ل داود ول سليمان هذه المئات من النسوان، وهي أضعاف أضعاف ما تزوجه «المـــانح المبتهل = محمد» فلم تجيزونه لهم وتعتبرونه في حقه عيباً أو نقيصة؟[1]

٢ ـــ تفسير الجلالين:

(أم) بل «يحسدون الناس» أي النبي ـــ ص ـــ «على ما آتاهم الله من فضله» من النبـــوة وكثرة النساء أي يتمنون زواله عنه ويقولون لو كان نبياً لانشغل عن النساء «فقد آتينا آل إبراهيم» حده كموسى وداود وسليمان «الكتاب والحكمة» والكتاب والنبوة «وآتيناهم ملكـــاً عظيمـــاً» فكـــان لداود تسع وتسعون امرأة ولسليمان ألف ما بين حرة وسرية.[2]

٣ ـــ تفسير مقاتل بن سليمان:

(يقول الله عز وجل «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة» يعني النبوة «وآتينـــاهم ملكـــاً عظيماً» وكان يوسف منهم على مصر وسليمان منهم وكان لداود تسعة وتســعون امـــرأة وكـــان لسليمان ثلاثمائة امرأة حرة وسبعمائة سرية، فكيف تذكرون محمداً في تسع نســوة ولا تـــذكرون داود وسليمان ـــ س ـــ فكان هؤلاء أكثر نساءً وملكاً من محمد ـــ ص ـــ ومحمد أيضـــاً مـــن آل إبراهيم).[3]

٤ ـــ الكشاف:

(وعن ابن عباس: الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان وقيل استكثروا نســـاءه فقيل لهم كيف استكثرتم له التسع وقد كان لداود مائة ولسليمان ثلاثمائة مهيرة وسبعمائة سرية).[4]

---

(١) العامة في مصر تقول عمن يعمل مثل الباطريرك سليمان: ما عتقش أو ما خلاش!!
(٢) (تفسير الجلالين) ص ٧٢/ مصدر سابق.
(٣) (تفسير مقاتل) ص ٢٤٤/ مصدر سابق.
(٤) (الكشاف) ـــ الأول ـــ ص ٥٣٤ ـــ مصدر سابق.

٥ ــ «مفاتيح الغيب ــ التفسير الكبير»

(قيل إنهم لما استكثروا نساءه قيل لهم كيف استكثرتم له التسع وقد كان لداود مائة ولسليمان ثلثمائة بالمهر وسبعمائة سرية).[١]

من كتب المحدثين في التفسير.

٦ ــ التفسير الوسيط

(أم يحسدون الناس على ما آتاهم من فضله...) الآية:

أي أنهم ليس لديهم دليل يستندون إليه وسبب يتمسكون به في تكذيبهم، بل هم يحسدون الناس ــ وهم النبي ــ ص ــ ومن معه من المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله وأنعم به عليهم، حيث أعطاهم النبوة والكتاب والحكمة.

ولا غرابة في هذا، ففضل الله واسع وقد آتى الله آل إبراهيم أي إبراهيم ومن معه الكتاب والحكمة والنبوة وآتاهم الله مع ذلك ملكاً عظيماً واسعاً.

ومن ذلك أعطى الله تعالى ليوسف ــ س ــ من السلطان في مصر.

وما أعطاه الله تعالى لداود وسليمان ــ س ــ من النبوة والملك العظيم فلا غرابة بعد هذا أن يؤتى الله محمداً ــ ص ــ وهو من أولاد إبراهيم مثلما أعطى إخوانه من الأنبياء).[٢]

تعمدنا أن ننقل الفقرة كاملة ونذكر القارئ بأن هذا التفسير:

أ ــ من تأليف لجنة من العلماء.

ب ــ بإشراف مجمع البحوث الإسلامية.

ج ــ التابع ب دوره ل الأزهر.

لأننا سوف نطرح ملاحظات عليها نوجزها في الآتي:

---

(١) (التفسير الكبير) ل الرازي ــ الخامس ــ ص ٤٥٣ ــ مصدر سابق.
(٢) (التفسير الوسيط) الحزب التاسع ــ ص ٨٣٠ ــ ٨٣١ ــ مرجع سابق.

١ ــ أن المشايخ العلماء أو العلماء المشايخ أسقطوا من تفسيرهم مسألة عيب النصارى أو اليهود أو هما معاً على حامل لواء الحمد/ محمد» اتخاذه تسع نسون، مع أن المفسرين الأكابر الذين ذكرناهم وغيرهم ممن ضاق المجال عنهم رقموها تفصيلاً ومعها الرد المفحم وهو اتخاذ داود وسليمان مئات البعلات والسريات.

المشايخ يظنون أنهم لو ضمنوها تفسيرهم لشكل قدحاً في «أول من يفيق من الصعقة»، وهذا غير صحيح، ف فضلاً عن أن أمانة العلم توجب عليهم إثباتها وعدم التغاضي عنها فإنهم لو فعلوا وقارنوا بين الزوجات التسع ل «من جعلت له الأرض مسجداً» وزوجات وسراري داود وسليمان لاستبان لكل ذى عينين الفرق الصادع ولقدموا دليلاً قاطعاً على فسولة الطعن الذي طرحه النصارى أو اليهود أو الاثنان معاً.

فضلاً عن أن العلماء مؤلفي التفسير لا نعتقد أنهم أتقى وأخشى لله من سلفهم الصالح الذي أثبت الطعن والحجج الدامغة على عطنه ولو أن في إحدهما أو كليهما أدنى خربشة لمقام (المشذب/ المشير = محمد) لما فعلوا.

٢ ــ فسروا «الناس» في «أم يحسدون الناس» ب (المجتبي/ الحبيب = محمد) ومن معه من المؤمنين على ما آتاهم... الخ.

وهو تفسير لم يسبقهم إليه أحد بل إن التفاسير مطبقة على أن المقصود ب «الناس» هو «ذؤابة قريش/ محمد» وحده وليرجعوا إليها ليتأكدوا.

ولا ندري كيف يجوز شرعاً وعقلاً أن الله تبارك وتعالى أعطى الصحابة النبوة والكتاب والحكمة!.

لو أن هذا التفسير زبره مفسر آخر ل طالب المجمع بمصادره كتابه.

٣ ــ أوضحوا أن المقصود ب آل إبراهيم أي (إبراهيم ومن معه)!!

ف هل يصح القول إن «من مع إبراهيم» تعني آله الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والملك العظيم؟ إن «من معه» تشمل نسوانه وجواريه وعبدانه وأصهاره وخدمه ومعاونيه.. الخ، فهل نفح الله جل شأنه هؤلاء الكتاب والحكمة والملك العظيم؟

أليس من الأحرى مراعاة الدقة البالغة من تفسير (مأدبة الله = القرآن)؟

٤ ــ واضح أن العالم الشيخ أو الشيخ العالم الذي أنيط به تفسير الآيات في حاجة ماسة إلى إغناء معجمه اللغوي، إذ إنه في الفقرة القصيرة كرر كلمات:

آتى ــ الملك العظيم ــ لا غرابة ــ أعطى ــ وهذه كررها عدة مرات.

ألا توجد مرادفات لها تحل محلها وبذلك تزيدها طلاوةً وتمنحها غنىً وترفدها رونقاً مع المحافظة البالغة على المعنى إذ لا تضارب بين الأمرين.

* * *

ثم عودة إلى سياقة التنقير والتنقيب:

أول المتنفذون في وفد نصارى نجران ــ بعد أن خسروا جولة الحجاج ب شأن ألوهية عبد الله عيسى ــ أن يلمزوا «الحجازي/ المكي = محمداً» ب أن له ملكاً وحكومة وسلطاناً وتحته تسع زوجات، والبطاركة ليسوا كذلك وفي ذهنهم أيأة (= هيأة وزنا ومعنى ا.هـ).

صاحبهم أو أخيهم ابن أمة الله ومملوكته مريم.

ظن المأفونون أنهم يضعونه في زناق ويرمونه ب ما لا يجد رداً عليه، وأنهم يحرجونه أمام تبيعه الذين من الحتم اللازم أنهم ما طفقوا يشهدون اللجاج العنيف.

بيد أن فألهم خاب وأملهم تبدد وقصدهم تبخر وحلمهم تحول إلى ضغث أو كابوس.

«إن المثاني/ العربي = القرآن» من الحتم اللازم أن يسعف «الصفوح = محمــداً» بــالرد الذي يصفعهم والحجة التي تَصُتُّهم والدليل الذي يصكهم والبرهان الذي يفحمهم.

أنتم تؤمنون ب التوراة وما حوته وتعتبرونها مع أنجيلكم أو أناجيلكم «الكتاب المقدس».

وفيها أن يوسف في فترة من تاريخ مصر غدا صاحب سلطان.

وداود وسليمان من الملوك أصحاب الحكم والهيمنة.

والأخيران تزوجا من الحرائر العشرات بل المئات «= سليمان» بخلاف ملك اليمين.

وجماعهم حسب اعتقادكم من البطاركة الكمّل.

ف لماذا تتكرونه على «العامل/ العلامة = محمد» مع أن ما حازه من الملــك والحكومــة والسلطان لا يقارن بذيّاك الذي تمتّع به يوسف وداود وسليمان؟

أما بعلاته فلا تبلغ عدتهن عشر اللائي نكحهن داود بخلاف سرياته ودعكم من موطوءات سليمان من المهريات والإماء فقد أكملن الألف.

ف لماذا لم تنتقدوا بطاركتكم وتقولوا من الأمثل والأوفق والأحكم لو تجردوا من الســلطة ول فارقوا نكاح النسون ول تعففوا عن المتعة الجنسية وتعالوا عن اللذة الجسدية وتفرغوا ل مهــام الدعوة وانصرفوا ل مشاغل الديانة ونشرها وإفشائها وإعلانها وإذاعتها؟

لماذا تكيلون بكيلين وتقيسون ب مقياسين وتعيّرون ب معيارين؟ خاصـــة أن صـــاحبكم أو أخاكم عبد الله ومملوكه وابن أمته ومملوكته عيسى لم يصنع صنيعكم الطفس ولم يــنهج مــنهجكم اللقس ولم يسلك هذا الدرب الوبيء ولم يسر في هذه المحجة المعوجة ولم يمش في هذا الطريــق المنحرف، إذ لم ينبس ب بنت شفة في حق الكمّل الذين

سبقوه ولم يعب عليهم الملك والسلطان ولم يندد بانصرافهم إلى مفاخذة الزوجات وإسـرافهم فـي مباطنة الجواري وانكبابهم على ركوب السراري ومغالاتهم في امتطاء ملك اليمين؟

* * *

أقبلت مثل النجم الثاقب صاحب النور الباهر والضوء اللامع آية «أم يحسدون الناس علـى ما آتاهم الله من فضله فقد أتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة والنبوة».(١)

فألقمت صناديد نصارى نجران حجراً ف عجزوا عن التعقيـب وحـاروا عـن التعليـق وارتبكوا عن التفنيد ف أصابهم البكم وركبهم العي وانتابتهم اللكْمة وشملتهم الحُبسـة وسـيطرت عليهم العُجمة وهيمنت عليهم الحُكْلة.

ف انتصر عليهم (فاتح الكنوز = محمد) نصراً قوياً وفلج فلجاً مبيناً وظفر ظفراً عزيـزاً ف انقلبوا مدحورين وآبوا أذلاء وعادوا خائبين ورجعوا منهزمين.

وهلل الصحاب لارتفاع راية قائدهم وتنكيس بيرق مناوئيه وسقوطه إلـى التـراب مهينـاً ونفحت واحداً من البراهين على أن «القصص/ المرفوع = القرآن» معـه ومعهـم وفـي سـائر الظروف لا يفارقهم أو ينأى عنهم وعلى العلاقة التبادلية الحميمة بين الواقع والنص:

تنبت مشكلة أو تقب معضلة أو ترتفع أزمة على الأرض وفي صميم مجتمع المخـاطبين «ب فتح الطاء» تتطلب حلاً أو رداً أو جواباً.. إلخ ف يهرع النص ل ملاقاتها مستجيباً ل نـدائها وملبياً ل طلبتها ومحققاً لرغبتها.

إذن الأزمة وحلها أو الاستبيان والرد عليه، ب الإضافة إلى الوشيجة الوثقى التي تلبكهمـا يشكّلان معاً واقعة تاريخية يتعين ل

---

(١) النساء/ ٥٤.

فهم النص أو تفسيره أو توضيحه وضعها في الحسبان، إن تجاهل الكينونـــة التاريخيـــة ل الــنص يقطع الطريق على الاستيعاب الأمثل والنقاهة الصحيحة والإدراك السديد.

وب المقابل فالقول بالتجريد والنداء ب التعميم والادعاء ب اللاتعيين يؤدي إلى التضـــبيب ويوصل إلى الغبش وينتهي ب التعتيم وربما جماعه هو ما يهدف إليه أصـــحاب الشـــعار ولـــولا حكمة التنجيم لما أتيح ل هذه الفوائد الجليلة الجمة أن تؤتي ثمارها الناضجة.

ونكتفي بِ هذه الأمثلة الثلاثة من حجاج أصحاب الثالوث وعساها تضحى ذات غُنية.



[Blank Page]

[١]

تاريخية النص المؤسِّس لا تجد قبولاً من الدوجماطيقيين، بل إنها تثير حفيظتهم ويعتبرونها بدعة ضالة مضلة.

يرفعون أمامها مقولة «العبرة ب عموم اللفظ لا ب خصوص السبب» وهذه ليست آية كريمة ولا حديثاً محمدياً شريفاً ولم يفه بها واحد من الصحاب.

على أحسن الفروض أطلقها تابعيّ.

أبو حنيفة النعمان شيخ مذاهب الأحناف ــ أكبر المذاهب لدى أهل السنة والجماعة ــ حدد الموقف من آرائهم بقوله:

(فإذا جئنا إلى التابعين ف هم رجال ونحن رجال).

أي لا قداسة ل طروحاتهم لأنها اجتهاد بشري فلنا أن نقبلها إن اقتنعنا بها أو نرفضها إذا افتقرت إلى الحجة وأعوزها البرهان واحتاجت إلى الدليل.

تقديس تركة السلف أحد روافد جمود الفكر الإسلامي بل بدون مغالاة أهمها على الإطلاق ولو أنه يوسع المحجة لغيره من التحاضيض.

«العبرة ب عموم اللفظ لا ب خصوص السبب» عبارة فضفاضة ب الإضافة إلى اتسامها ب اللامنطقية.

ف اللفظ الذي غطاها أو عبّر عنها ليس فيه عمومية ب المعنى الذي تُوهم به القاعدة.

كما أن إلغاء السبب مصادرة على المطلوب إذ إنه وحده السبيل الفرد ل فهم اللفظ الذي وصفته المقولة ــ دون وجه حق ب العمومية.

ف مثلاً تحلة الأيمان في «قد فرض الله تحلة أيمانكم» من العسير استيعابها دون معرفة الواقعة التي سبقتها وبمعنى أدق التي تسببت في هَلّها أو إشراقها وهي حكاية مسّ «سعد الخلائق = محمد» ل جاريته القبطية على فراش العدوية بنت العدوي نعني حفصة بنت عمر وعودتها الفجائية أو غير المتوقعة ورؤيتها فثورتها الغضوب ثم حلفه لها ب عدم الاقتراب من الأمة المصرية الجميلة البيضاء.. فقدوم الآية بِ فكّ الأزمة ب تحويلها العهد الذي

صدر منه إلى مجرد يمين من اليسير التكفير عنها ك أي يمين غيرها.

إذن بدون معرفة هذه الخلفية من المستحيل نقاهة التَحلّة التي تضمنتها الآية ف هـي «= الآية» لا تنضوي على لفظ عام أو ب معنى أدق حكم عام، ولكن أرقل الفقه بعد حين قصـير أو طويل وَسَحَبها على الأيمان الأخريات وسوّى بينها في الحكم أي التحلل من القسم.

نخلص إلى أن تعميم اللفظ ليس له وجود وقت أن تلا «المترحم = محمـد» الآيـة علـى تُباعه وقبل أن يكفّر عن قسمه أو يمينه أو عهده كيما يعود إلى ملامسة مارية القبطيـة الحسـينة. إنما جاءت العمومية والتعميم أو بمعنى أدق القول بهما بعدها بزمان.

ونحن نؤيد هذا المنحى الذي سار فيه الفقهاء سواء من علماء الصحابة أو من الفقهاء قبل نشوء المذاهب أو من أئمتها ومؤسسي مدارسها.

لماذا؟

لأن هذا العمل يتسق مع ما نادينا به منذ نحو عشرين عاماً وما زلنا: استخلاص المعنـى أو القيمة أو المغزى من النص دون التقيد ب حروفه.

أي لم يشترط الفقهاء حدوث واقعة مماثلة ل قصة مارية القبطية.

بل أخذوا الدلالة منها وطبقوها على النوازل التي استجدت في عصرهم.

إنما الاعتراض على المقولة أو القاعدة التي وضعت خصيصاً ل نفي قاعدة التاريخية التي يبغضها السدنة والمرازبة والدهاقون.

لماذا؟

لأنهم يعيشون بل يتعيشون على تجريد النص المؤَسِّس وتحويله إلى نماذج متعالية وأمثلـة مفارقة وترميزات مباينة لا علاقة لها بِ واقع الناس ولا وشيجة لها بِ هموم حياتهم ولا صلة لها ب مشاغل معاشهم.

[٢]

بيد أن سلوك الفقهاء يؤيد من جانب آخر تاريخية النص المؤسس التي رفعنا شعارها منـذ سنوات طوال.

لعل العبارة في حاجة إلى مزيد من الإضاءة.

إصرار الفقهاء على استخلاص المغزى أو المعنى أو القيمة هو اعتــراف ضــمني بــل صريح ب أن الآية التي استخرجوا منها الحكم ارتبطت ب نازلة معينة تشيأت على أرض الواقــع في زمن محدد وأبطالها هم «دعوة إبراهيم» وسريته القبطية وبعلته العدوية وفي مكان معلوم هــو حجرة الزوجة المهرية وعلى فراشها ف هو ــ أي المكان ــ إذن لعب دوراً بارزاً لا يقلّ أهميــة عن بقية العناصر التي تتشكل فيها الحكاية، فلولا أنه خاص ب ابنة الخطاب وأن بــاب الحجــرة غير محكم ومساحتها محدودة لما تسنى ل حفصة اكتشاف وطء «المعظم المعطــى = محمــد» ل أمته المصرية الحسناء الفاتنة على فراشها وسريرها، ب الإضافة إلى البلد الذي حدثت فيه وهــو (أثرب) بخلاف إبّان وقوعها، إذن تاريخية الآية أمر ملموس ب الحداس قبل أن يدركه العقــل أو حتى يمكن التوصل إليه ب الحدس أو الانتهاء إليه ب التخمين أو التعرف عليه ب الفراسة.

ولكن ما هي الحكمة في التأكيد على التاريخية؟

هناك عدة حكم «جمع حكمة» لا حكمة مفردة.

أولاها أن نفيها من جانب الدجماطيقيين إنكار لما هو معلوم بعدة طرق من وسائل الإدراك وهذا ب لا مشاحة أمر ينافي الموضوعية.

وثانيتهما: أنه ب مثابة هدم ل العماد الذي ترسخ عليه النص المؤسس.

وثالثتهما: يؤدي إنكارها بطريق الحتم واللزوم إلى سوء فهم النصوص المؤسســية، ممــا يوصل إلى تفسيرات شاحبة وتأويلات ضامرة وتوضيحات هزيلة.

ورابعتها: أن بترها من سياقها التاريخي سوف يسلم في نهاية الشوط إلى التعتيم وفي آخر المطاف إلى التضبيب، وفي ختام المضمار إلى الغبشة (= ظلمة آخر الليل) وبدوره سيجر إلى:

الخامسة والأخيرة: تضارب التفسيرات وتناقض التأويلات واختلاط الشــروحات ومــرج الإيضاحات واضطراب الاستخلاصات.

لماذا؟

لأن تاريخية النص المؤسس ب مثابة البوصلة التي تحدد ل السفينة ـــ في وسط المحـــيط ـــ خط سيرها الصحيح.

[٣]

التمسك ب تاريخية النص المؤسس يعيد إلى الأذهان حقيقة غدت ملقاة في مربع النســيان ل أسباب عديدة وهي أن القرآن المجيد بدأ شفاهياً وحفظ في الصدور مدة طويلة إبّانهـــا اتســـم ب الطزاجة والعطاء والبكورة والتفتح حتى زمل (= أسرع) الأموي عثمان بن عفان وسيّجه وأغلـــق عليه بين دفتين.(١) وتحول من القرآن إلى مصحف وهو لفظ لم يرد فـــي (المرفـــوع/ المطهـــر = القرآن) وإن وردت به كلمة صحف، والمتفق عليه أن كلمة مصحف حبشية والأشد غرابـــة أنـــه أصبح يدعى «مصحف عثمان» رغم أنه «المصحف الإمام» ونمتنع عن الخوض فـــي المعركـــة التي خاضها الأموي عثمان مع عدد من الصحابة الذين تملكـــوا مصـــاحف خاصـــة بهـــم ولا ب الاختلافات في هذا الشأن ف من أراد الاطلاع عليها ف عليه ب كتاب المصاحف ل السجســـتاني وغيره.(٢)

إنما الذي يهمنا أن تسمية القرآن العظيم ب «مصحف عثمان» تكرّست في عهـــد الأســـرة المالكة الأموية بديا ب معاوية بن أبي سفيان وذلك لأهداف سياسية أقلهـــا تثبيـــت مكانتهـــا لـــدى «الرعية!!!»، وفي مواجهة بني هاشم أصحاب الحق في منصب الإمامة العظمى الذي اغتصـــبوه منهم ب طرق نعفّ عن تسطيرها.

---

(١) الدفة من كل شيء جنبه أو صفحته. من «المعجم الوجيز»

(٢) (كتاب المصاحف) تأليف أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ـــ «باب المصـــاحف العثمانية» وكذلك كتاب «فضائل القرآن» ل ابن كثير ـــ ٧٠٠ ـــ ٧٧٤هـ.

طبعة ١٩٧٩ ـــ الناشر علي رحمي ـــ مصر ـــ من ص ٤١ حتى ص ٥٩ ـــ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ولعلها سخرية من القدر أن يُنسب القرآن الكريم إلى فرد من البطن أو الفخذ الذي وقف ب المرصاد ل «عين العز/ محمد» وهو ينشر دعوته ويؤسس دولة جده قصي فيقال «مصحف عثمان» لا «مصحف الحبيب المجتبي/ محمد» حتى إن أحد الباحثين المخضرمين لم ير غضاضة في أن يزبر «وبذلك تمت موافقة الأمة كلها على مصحف عثمان».[1]

بعد أن سَكّ شيخ بني أمية القرآن بين اللوحين تحول من نص شفاهي طازج منفتح إلى كتاب تعلوه القداسة وتحف به المهابة وتحوط به الجلالة، وبِ مضى الوقت وكرور الأيام تحلقت حوله كوكبة من السدنة وطائفة من المرازبة ومجموعة من الحجّاب يمنعون الاقتراب منه إلاّ بإذنهم ويحظرون تفسيره إلاّ إذا مُهر بخاتمهم ويحجرون تأويله إلاّ على من حاز صفات أو مؤهلات أو مُكْنات ينفردون هم ب تحديدها.

ومن الطريف، وكم في مجال الإسلاميات وإن شئت قلت في الدينيات عموماً من طرائف وعجائب ومدهشات يحار الفطن ذو اللب والحجى والنهي في تعليلها أو عقلنتها أو منطقتها «جعلها منطقية» ف يعجز ف يقال له: لا تتعب نفسك ف هي كذلك.[2]

ف إما أن تتقبلها على علاتها وإما حد الردّة وما أدراك ما حد الردة!!!. نعود ف نقول إن تلك المواصفات المستحيلة غير متوافرة فيهم هم «= السدنة ــ المرازبة ــ الحجاب».

إن حياطة النص المقدس بسور يقف عليه الحراس ولا يفارقه الحُلاس ولا يغادره المتحرزون ليست خاصة ب ديانة الإسلام بل سبقته فيها اليهودية فالنصرانية «المسيحية».

هؤلاء الذين يتولّونها أو يباشرونها من الطبيعي أن يعادوا «تاريخية النصوص المؤسسة» لأن مصلحتهم المادية والأدبية تتركز في إفهام عامة المؤمنين أنها «= النصوص» مُفارقة ومُفاصلة ولا صلة لها ب واقع الناس بل لها

---

(١) (تاريخ القرآن) ل د. عبد الصبور شاهين ص ١٨٩ ــ طبعة ثانية.
(٢) العامة في مصر تقول: هي كده.

آفاقها العالية المرموقة ومجالاتها المثالية السامية وفضاءاتها النموذجية الباذخة.

وكنتيجة مباشرة يمكنهم تطويعها وفي استطاعتهم تشكيلها وب مقدرتهم تلوينها ب الصورة التي يريدونها.

وفريق آخر يشن حرباً لا هوادة فيها على التاريخية وأصحابها، نعني بهم أولئك الذين يستخدمون «النصوص» ل مآربهم السياسية ك أيديولوجية تفتح أمهامهم طريق السلطة.

في هذه الحالة ف إن بقاء «نص التأسيس» في برج عاجي يتيح لهم اتخاذه «= النص» أداة فعالة ل تبييض وجه شعاراتهم وبرقشة لافتاتهم وتجميل ادعاءاتهم.

ف كلما بقي «= النص» مجرداً ومفاصلاً وبعيد المنال صار أصلح ل الاستخدام وأسهل ل الاستعمال وأيسر ل التوظيف خاصة أن كل ما يمت إلى الدين ب صلة ليس ثم ما يدانيه في التأثير على القاعدة الشعبية العريضة.(١)

وسيظل الأمر على منواله إلى أن تتغير أحوالها المادية أولاً ثم الثقافية والمعرفية.

إذن ربط «النص المؤسس» بتاريخ هلّه أو إشراقه أو انبثاقه سيقطع الطريق أمام مساعي أصحاب هذا الفريق لأنه سوف يعري شعاراتهم الزُيوف حتى من ورقة التوت التي حاول أبوهم آدم وأمهم حواء أن يستترا بها من عيني الرب كما حكته القصة التوراتية المعجبة، وآخرون غير هاتين الجوقتين ينظرون إلى التاريخية شزراً ل أسباب تيولوجية، بيد أن حلاس النص المكتوب الذي أغلق بين اللوحين أو الدفتين، والمهجيين والديماجوجيين الساعين ل السلطة بارتداء الإزار الديني هم الفرقتان الأشد عداوة والألد خصومه والأحمى نزاعاً لها.

---

(١) الأدبيات الإسلامية تسميها الرعية وهي ذات اللفظة التي تطلقها على الماشية.

[٤]

القرآن الكريم الذي حفظه الصحاب في صدورهم يسميه باحث «الصورة الصوتية».[١]

ويرسم لوحة فنية رائعة لها «أما الصورة الصوتية فتتجلى في تلقي القرآن بالمشافهة من صاحب الوحي، إذ كان النبي يقرأ ما ينزل عليه والصحابة حوله يسمعون بآذانهم ما يقرؤه النبي فيعرفون عن طريق السماع حقيقة النظم القرآني ويقفون على أسلوب أدائه، وينبغي أن نذكر أن هذا الضرب من التلقى لم يقع مرة واحدة بل تكررت القراءة وتكرر التلقي عن النبي، فالرسول الكريم كان يحفظ القرآن والصحابة الآخذون عنه كانوا يحفظونه كذلك، ثم يعود هذا المحفوظ خلال الصلوات، فكان الرسول يقرأ وهو يؤم الصحابة والمصلون من ورائه يسمعون وهكذا حفظ القرآن في صدر النبي وصدور الصحابة».[٢]

ويؤكد الزركشي في «برهانه» أنه (في زمن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ تُرك جمعه في مصحف واحد).[٣]

ويفرّق السيوطي بين الكتابة والجمع فيؤكد أن «القرآن كتب كله في عهد رسول الله ــ ص ــ ولكنه لم يجمع في موضع واحد ولم ترتب سوره».[٤]

بيد أن الأمر الثابت أن الاعتماد كلياً على الحفاظ في الذاكرة والجمع في الصدور استمرا دون غيرهما حتى منتصف خلافة التيميّ: أبي بكر

---

(١) (المصحف الشريف ــ دراسة تاريخية وفنية) د. محمد عبد العزيز مرزوق ص ١٢ من سلسلة «قضايا إسلامية» طبعة ١٩٨٥م ــ الهيئة المصرية العامة ل الكتاب.
(٢) ذات المرجع والصفحة.
(٣) (البرهان في علوم القرآن) ــ بدر الدين الزركشي ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ الجزء الأول ص ٢٣٥ ــ الطبعة الثانية ــ ١٣٩١هـ/ ١٩٧٣م ــ عيسى البابي الحلبي وشركاه ــ ب مصر.
(٤) (الاتقان) ص ٥٧ نقلاً عن «مصحف عثمان» ل سحر سالم ص ٦ سابق.

أي منذ واقعة غار حرى حتى سنة ١٢هـ أي ما يقرب من ٢٥ عاماً.

والحُجّة على ذلك أنه عندما شرع زيد بن ثابت في جمعه تمهيداً ل كتابتـه توكـأ علـى محفوظات الرجال، بل إن عدداً من الآيات لم يجدها مكتوبة علـى اللّخـاف والرقـاع والعُسـب والأكتاف، بل عثر عليها عند بعض الصحاب مثل حزيمة بن ثابت وأبيّ بن كعب.

وإبّان ذاك طفق العدوي ابن الخطاب ــ صاحب فكرة الجمع ــ ينادي بصوته الجهـوري في الناس (من كان تلقى عن رسول الله ــ ص ــ شيئاً من القرآن فليأتنا به).[١]

ول نلاحظ أنه لم يقل «من كتب شيئاً من القرآن فليأتنا به».

* * *

مع صعوبة تصور كتابة القرآن العظيم كله على الأدوات الكتابية البدائيـة إياهـا.. الـخ، فضلاً عن أن ذيّاك المجتمع المعجب شبه المتبدّى وثقافته الشفاهية فهو يعتمد في تجميـع وتـراكم معارفه على الأذن قبل العين ومن ثم فإن وعاءها «= المعارف» الذاكرة والصدر لا المجرة والقلم والورقة.

والدليل عليه أنه على الرغم من آلاف القصائد والمقطّعات الشعرية التي قيلت أو أنشـدت قبل الإسلام فـَ لم يكتب إلاّ المعلّقات والقليل غيرها وجماعها نقل من جيـل ل الـذي يخلفـه ب طريق الشفه.

ومن ثم فليس من باب المصادفة أن القرآن المجيد ضـم المئـات مـن لفظـة «سـمع» ومشتقاتها.

وقدّم السمع على البصر (وهو الذي أنشأ لكم والأبصار...).[٢]

و(جعل لكم السمع والأبصار).[٣]

---

(١) (كتاب المصاحف) ل السجستاني ــ ص ص ١٤ ــ ١٥ ــ ١٦ ــ ١٧ ــ مصدر سابق.
(٢) الآية ٧٨ من سورة «المؤمنون».
(٣) الآية ٧٨ من سورة النحل.

بل خطا خطوة أوسع وفي ذات الوقت أعمق دلالة وأبين حجّة أبلغ برهاناً إذ قدّمه على العقل «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل».[١]

وتعليله فيما نرى أنه «= الأحسن/ العظيم = القرآن» خاطب أفراد المجتمع، وبالتالي ف من البديهي أن يأتي متوافقاً مع حالتهم، ملائماً ل ظروفهم، موائماً ل أعرافهم وهذا أحد أدلة إعجازه الذي لم يُلتفت إليه من قبل، إذ إنه لو قدم البصر أو النظر على السمع ل جاء مفارقاً ل الفهم، مبايناً ل عادتهم مفاصلاً لأحوالهم ول استغربوا منحاه ولتعجبوا من منهجه ول استنكروا طريقته.

إن ما نذهب إليه يستند إلى حُجّة بالغة وردت في الآية الكريمة «وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم».[٢]

وسبق أن زبرنا أن اللسان لا يعني لغة الخطاب فحسب، بل يشمل المحصول المعرفي ل «القوم» ودرجتهم الحضارية ومخزونهم الثقافي وما تعارفوا عليه في سوق الكلام ونقاهته وإدراك ما يضمه من شفرات وما يحتويه عليه من رموز وما يحمله من مضامين، ف لو خاطبهم الكُمّل أو البطاركة بخلاف ما درجوا عليه وعلى نقيض ما استقروا عليه وبعكس ما ربوا عليه لما استمعوا ل قولهم ولما قبلوا ما يطلبونه منهم ولما آمنوا بما يدعونهم إليه.

فإذا عدنا إلى سياقه التنقير:

ل استبان لنا أن «الصورة الصوتية» للقرآن الحميد حسب تعبير الباحث المذكور هي الأصل أو الأسّ أو العماد، ومن رجا آخر هي المتسقة تماماً مع أحوالهم وظروفهم وما شبوا عليه وشابوا.

* * *

إن هذه الصورة الصوتية أو القرآن المحفوظ في الصدور والمنقوش

---

(١) الآية ١٠ من سورة الملك.
(٢) الآية السابعة من سورة إبراهيم.

في الذاكرة والذي استمر أكثر من ربع قرن بل إنه امتد حتى سنة ٣٠ هجرية وهي التي يرجح باحث رصين أنها سنة كتابة المصحف.[١]

أي هو المعوّل عليه لما يقرب من خمسة وأربعين عاماً وهي ليست سنوات عادية بل هي التي شهدت الانبثاق وعاينت التكوين وحايثت التأسيس.

نستأنف فـَ نقول إنه هو الذي أفسح المجال لكافة الصور التي ذكرنا أمثلة منها فحسب والتي تضمّخت النصوص التي هلت بشأنها وبزغت بسببها وأشرقت متصلة بها بروائحها وهي التي شكلت العلاقة الجدلية البالغة الروعة بينها وبين الواقع المعاش بكل تجلياته وفي سائر مناحيه وبمعية تعرجاته.

ونزيد الأمر إيضاحاً:

لو أن «مأدبة الله = القرآن» أشرق دفعة واحدة كـَ نص «مجموعة» أو «مدونة» أو كما يقول المشتغلون مثلي بالقانون «كود» كـَ توراة موسى التي زَبَرَها «رقمها» ربه بأصبعيه القدسانيين[٢] لما أتيح للمشاكل والأزمات والنوائب.. الخ أن تجد لها حلاً أو فكاكاً أو فرجاً... الخ ولك أن تتخيل حال ذَيّاك المجتمع المعجب والفاعلين فيه إذا لم تسعف الآيات الكريمة ب الحلول النواجع والأدوية الشافية والتوجيهات السامية والإرشادات الفعالة.

[٥]

إن (الكتاب المبين = القرآن) ضم شطراً كبيراً منه تناول قصص الخلق والتكوين وآدم وحواء والشيطان وهابيل وقابيل ونوح وطوفانه المدمر ثم حكايا بقية البطاركة وهذه كلها وردت نظائرها في الكتاب

---

(١) (القرآن وعلومه في مصر: ٢٠هـ/ ٣٥٨هـ) ل د. عبد الله خورشيد البري ص ٤٥ الطبعة الأولى ١٩٧٠م ــ دار المعارف ب مصر.

(٢) من الطريف أن ذلك الإله المدهش الذي يسميه بنو إسرائيل «يهوه» لم يعرف عُمالة «بضم العين» السكرتير التي اهتدى إليه مخلوقاته فيما بعد. ا.هـ.

المقدس خاصة العهد القديم.

كما قصّ حكايا عاد وأخيهم هود وثمود وأخيهم صالح والناقة المدهشة التي خُصص لها يوم تشرب فيه ب مفردها والقرية ب أكملها بشراً وحيوانات لهم يوم وذلك امتحان «فتنة» لهم هل يصبرون أم يكفرون.

هذه الحكايا عُرفت منذ قرون في جزيرة العرب وتناقلتها أجيال وراء أجيال.

والنوعان كلاهما = قصص العهد القديم وحكايا الجزيرة المباركة لا حاجة لهما بالتنجيم أو التبعيض أو التجزيء.

وذهب بعض المفسرين أنها أشرقت للعظة والعبرة، وفريق آخر زبر = أي كتب أن القصد عن «البدر/ البرهان = محمد» وتسليته وتخفيف بعض ما يعانيه، أما الفريق الثالث فيؤكد أن غرض شطر منها هو مقارنة حالته ب أحوال الكمّل السابقين مثل نوح، إبراهيم، موسى، وهود، وصالح... الخ.(١)

ومن ثم فقد هلّت السور الخاصة ب هذه القصص والحكايا دفعة واحدة تقريباً في نصوص متكاملة، بخلاف السور والآيات التي جعلناها موضوع كتابنا هذا فقد بزغت كالبدور الطوالع مجزأة مفرقة أي نجوماً وأبعاضاً حسب الحاجة ووفق الحالة كما أوضحنا تفصيلاً.

وهذا ملحظ شديد الأهمية بالغة الثمانة كبير القيمة ولسنا نغالي إذا قلنا إن أحداً من الباحثين لم يلتفت إليه من قبل:

لقد قسموا الفرقان العظيم إلى:

مكي ومدني، نهاري وليلي، حضري وسفري، فراشي ونومي، صيفي وشتائي، أرضي وسمائي..

---

(١) لمزيد من التفصيلات ارجع في هذه الخصوصية إلى كتاب «القصص الفني في القرآن الكريم» للدكتور محمد أحمد خلف الله مع شرح وتعليق ل خليل عبد الكريم ــ الطبعة الرابعة ١٩٩٩م ــ سينا للنشر ب مصر والانتشار العربي ــ ب بيروت.

الخ.

لكن قط لم تتم التفرقة بين القصصي والمعاشي أو الحكائي والواقعي أو الروائي والحياتي وإذا وجدت ثمة مشابهة (ولا نقول مماثلة أو مطابقة ونأمل أن يغدو هذا واضحاً وضوحاً تاماً منعاً لأي لبس.. ا.هـ). بين النوع الأول «القصصي/ الحكائي/ الروائي» وبين ما جاء في الكتاب المقدس خاصة العهد القديم وبين الشائع على ألسنة العرب فيما يتعلق ب بطاركة الجزيرة المبروكة.

فهناك مفاصلة تامة ومباينة كاملة واختلاف شديد بين (الذكر الحكيم/ القرآن) وبين الكتب السوابق عليه في التاريخ لا في الرتبة أو المقام فيما يتصل بالنوع الآخر، وهذا من أهم السمات التي نفحته التفوق عليها وخلدت فيه النضارة والبكارة والفتاء.

تحريراً في: ٢٢ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ

١١ سبتمبر ٢٠٠١م

خليل عبد الكريم

المصادر والمراجع

[Blank Page]

أ ــ فوق المصادر والمراجع:

القرآن العظيم

ب ــ المصادر والمراجع والهوامش حسب ورودها في المتن (صلب الكتب):

١ ــ (تفسير ابن جريج) جمع وتحقيق علي حسن عبد الغني ــ الطبعة الأولى ــ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م ــ مكتبة التراث الإسلامي ــ القاهرة.

٢ ــ (لطائف الإشارات لِ فنون القراءات) لِ شهاب الدين القسطلاني «٨٥١ ــ ٩٢٣» تحقيق وتعليق عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين ــ الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ولجنة إحياء التراث الإسلامي ــ المجلس الأعلى لِ الشئون الإسلامية ــ القاهرة.

٣ ــ (أسباب النزول) لِ الواحدي ــ طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م. مؤسسة الحلبي ــ مصر.

٤ ــ (المواهب اللدنية بِ المنح المحمدية) لِ القسطلاني ــ ١٤٢١هـ/٢٠٠١م ــ دار الغد العربي ــ مصر.

٥ ــ (بنو إسرائيل في القرآن والسنة) لِ محمد سيد طنطاوي ــ نوفمبر ١٩٩٧م ــ دار الشروق مدينة نصر ــ القاهرة.

٦ ــ (المقبول من أسباب النزول) لِ أبي عمر نادي بن محمود الأزهري.

٧ ــ (لباب النقول في أسباب النزول) لِ السيوطي ــ كتاب التحرير ــ دار الشعب بِ مصر.

٨ ــ (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) لِ أبي قاسم جار الله الزمخشري «٤٦٧ ــ ٥٣٨هـ» طبعة دار المعرفة ــ بيروت.

٩ ــ (كتاب التسهيل لِ علوم التنزيل) لِ محمد بن جزيّ الكلبي ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت.

١٠ ــ (تفسير القرآن الكريم) لِ عبد الله محمود شحاتة ــ الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ــ دار غريب ــ مصر.

١١ ــ (الإصابة في تمييز الصحابة) لِ ابن حجر العسقلاني «٧٧٢ ــ ٨٥٨هـ» تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ــ د. ت. ن ــ دار الغد العربي ــ بِ مصر.

١٢ ــ (السيرة النبوية) لِ ابن إسحق تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وبدوي طه بدوي ــ

الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ــ القطاع الثقافي بِ دار أخبار اليوم ــ القاهرة.

١٣ ــ (ال مُحَبّر) لِ أبي جعفر بن حبيب ــ تحقيق سيد كسروي ص ١٠٨ ــ ط ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ــ دار الغد العربي ــ مصر.

١٤ ــ (صحيح البخاري) نشرة دار الشعب بِ مصر.

١٥ ــ (تاريخ الطبري) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ الطبعة السادسة ــ ١٩٩٠م ــ دار المعارف بِ مصر.

١٦ ــ (أنوار التنزيل وأسرار التأويل ــ المسمّى ــ تفسير البيضاوي) لِ ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ــ د. ت. ن ــ دار الفكر ــ دون ذكر المدينة.

١٧ ــ (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير) لِ فخر الدين محمد بن عمر الرازي ٥٥٤ ــ ٦٠٦هـ/الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ــ دار الغد العربي ــ بِ مصر.

١٨ ــ (الجامع لِ أحكام القرآن ــ المعروف بِ تفسير القرطبي) لِ أبي عبد الله بن أحمد الأنصاري القرطبي ــ د. ت. ن ــ كتاب الشعب بِ مصر.

١٩ ــ (التفسير والمفسرون) لِ محمد حسين الذهبي ــ الطبعة الثالثة ــ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م مكتبة وهبة ــ بِ مصر.

٢٠ ــ (حياة محمد) لِ محمد حسين هيكل ــ الطبعة الحادية عشرة ــ دار المعارف ــ مصر.

٢١ ــ (نساء النبي) لِ بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن ــ د. ت. ن ــ دار الهلال ــ بِ مصر.

٢٢ ــ (المغازي) لِ محمد بن عمر واقد المعروف بِ الواقدي ــ ت ٢٠٧هـ ــ تحقيق مارسدن جونز ــ د. ت. ن ــ مؤسسة الأعلمي ــ بيروت.

٢٣ ــ (الخصائص الكبرى) لِ السيوطي ــ تحقيق حمزة النشرتي وآخرين ــ الطبعة الأولى ١٩٩٦م ــ الناشر: حمزة النشرتي ــ بِ مصر.

٢٤ ــ (التيسير خلاصة تفسير ابن كثير) ت ٧٧٤هـ ــ بقلم محمود محمد سالم ــ طبعة دار الشعب بِ مصر.

٢٥ ــ (دلائل إعجاز القرآن) لِ عبد القاهر الجرجاني ــ قراءة وتعليق أبي فهر محمود

شاكر ــ طبعة ٢٠٠٠م ــ الأعمال الدينية ــ مكتبة الأسرة ــ الهيئة المصرية العامة ــ لِ الكتاب.

٢٦ ــ (السيرة النبوية) لِ ابن هشام ــ تحقيق محمد فهمي السرجاني ــ ط ١٩٧٨م ــ المكتبة التوفيقية ــ بِ مصر.

٢٧ ــ (إمتاع الأسماع) لِ المقريزي ت ٨٤٥هـ ــ تحقيق محمد النميسي ــ مراجعة محمد جميل غازي ــ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ــ دار الأنصار ــ القاهرة.

٢٨ ــ (سيرة المصطفى ــ نظرة جديدة) تأليف هاشم معروف الحسيني ــ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م دار التعارف لِ المطبوعات ــ بيروت.

٢٩ ــ (السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين) تأليف محب الدين الطبري ت ٦٩٤هـ ــ تحقيق حمزة النشرتي وآخرين ــ الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ/ ١٩٩٦م ــ الناشر: حمزة النشرتي ــ بِ مصر.

٣٠ ــ (المختصر في تفسير القرآن ــ مختصر من تفسير الطبري) لِ ابن صمادح التُجيبي تنقيح وتحقيق عدنان دروزة ــ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

٣١ ــ (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) المعروف بِ (السيرة الشامية) لِ محمد بن يوسف الصالحي ت ٩٤٢هـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ــ الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ــ لجنة إحياء التراث الإسلامي ــ المجلس الأعلى لِ الشئون الإسلامية ــ بِ مصر.

٣٢ ــ (مصحف الأزهر وبِ هامشه التفسير المُيسّر) لِ محمد سيد طنطاوي ــ شيخ الأزهر ــ الطبعة الثانية ــ ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م ــ مجمع البحوث الإسلامية ــ مطبعة المصحف الشريف ــ الأزهر.

٣٣ ــ (محمد واليهود ــ نظرة جديدة) تأليف بركات أحمد ــ ترجمة محمود علي مراد ــ الأعمال الدينية الطبعة الأولى ١٩٩٨م ــ مهرجان القراءة لِ الجميع ــ مكتبة الأسرة الهيئة المصرية العامة لِ الكتاب.

٣٤ ــ (تفسير النسفي) لِ أبي البركات عبد الله النسفي ــ د. ت. ن ــ دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي ــ بِ مصر.

٣٥ ــ (تفسير سورة الحشر) لـ حسن فريد الكلبايكاني ــ الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ طهران.

٣٦ ــ (أم سلمة أم المؤمنين) إعداد أمينة أمزيان الحسني ــ الطبعة الأولى ــ ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م ــ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ــ المملكة المغربية.

٣٧ ــ (صحيح مسلم) طبعة دار الشعب ــ مصر.

٣٨ ــ (المسند) لِ أحمد بن حنبل.

٣٩ ــ (مرويات غزوة بدر) جمع ودراسة وتحقيق أحمد محمد العليمي باوزير ــ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ــ مكتبة طيبة ــ المدينة المنورة ــ المملكة العربية السعودية.

٤٠ ــ (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ــ المعروف بِ ــ تفسير الألوسي) لِ أبي الفضل شهاب الدين محمد الألوسي ــ تحقيق محمود الشرقاوي ــ طبعة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ــ كتاب الشعب الديني ــ دار الشعب ــ بِ مصر.

٤١ ــ (التفسير الوسيط لِ القرآن الكريم) تأليف لجنة من العلماء ــ تحت إشراف مجمع البحوث الإسلامية ــ الأزهر ــ الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م من إصدارات المجمع الأزهر ــ مصر.

٤٢ ــ (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لِ أبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناتي «٤٨١ ــ ٥٤١هـ» تحقيق وتعليق أحمد صادق الملاح ــ الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م ــ لجنة القرآن والسنة بِ المجلس الأعلى لِ الشئون الإسلامية ــ بِ مصر.

٤٣ ــ (نظام الغريب في اللغة) تأليف عيسى الربعي الوحاظي الحميري ــ تحقيق محمد بن علي الأكوع ــ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. دار المأمون لِ التراث ــ دمشق ــ بيروت.

٤٤ ــ (أحكام القرآن) لِ أبي بكر محمد عبد الله المعروف بِ ابن العربي ــ ٤٦٨ ــ ٥٤٣هـ ــ تحقيق علي محمد البجاوي ــ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧ ــ دار المعرفة ودار الجيل ــ بيروت ــ لبنان.

٤٥ ــ (أحكام القرآن) لِ عماد الدين محمد الطبري المعروف بِ الكيا هراسي ت

٥٠٤هـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت لبنان.

٤٦ ــ (أحكام القرآن) تأليف أبي بكر أحمد الرازي الجصّاص الحنفي ــ ت ٣٧٠هـ ــ د. ت. ن دار الفكر للطباعة والنشر ــ دون تحديد المدينة.

٤٧ ــ (المفردات في غريب القرآن) لِ الراغب الأصفهاني ــ ت ٥٠٢هـ ــ تحقيق محمد سيد كيلاني ــ طبعة ١٣٨١هـ/ ١٩٨١م ــ مكتبة البابي الحلبي ــ بِ مصر.

٤٨ ــ (تصحيح الفصيح وشرحه) لِ ابن دستويه ــ تحقيق محمد بدوي ــ مراجعة رمضان عبد التواب ــ الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ــ المجلس الأعلى لِ الشئون الإسلامية بِ مصر.

٤٩ ــ (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) لِ الفيروز آبادي ــ ت ٨١٧هـ الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م ــ مكتبة مصطفى البابي الحلبي بِ مصر.

٥٠ ــ (تفسير الجلالين) وهما جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ــ د. ت. ن مكتبة الجمهورية العربية المتحدة ــ مصر.

٥١ ــ (الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية) لِ خليل عبد الكريم دار سينا بِ مصر ومؤسسة الانتشار العربي ــ بيروت وقد طبع مرتين.

٥٢ ــ (نهاية السول فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول) لِ أبي عمر نادي الأزهري ــ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ــ دار الصحابة ــ بِ طنطا ــ مصر.

٥٣ ــ (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) تأليف نظام الدين الحسن بن محمد القميّ النيسابوري ــ ت ٧٣٨هـ ــ تحقيق وتعليق حمزة النشرتي وآخرين ــ الطبعة الأولى ــ د. ت. ن ــ القاهرة.

٥٤ ــ (تفسير غريب القرآن) لِ أبي محمد عبد الله مسلم بن قُتيبة ــ ٢١٣ ــ ٢٧٦هـ ــ تحقيق ــ السيد أحمد صقر ــ ط ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان.

٥٥ ــ (سيرة ابن إسحق المسماة بِ كتاب السيّر والمغازي) ــ تأليف محمد بن إسحق بن يسار «٨٥ ــ ١٥١هـ» تحقيق سهيل زكار ــ الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ــ دار الفكر «غالباً» بيروت ــ لبنان.

٥٦ ــ (درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيــز) لِ الخطيــب الإسكافي ــ بِ رواية ابن أبي فرج الأردستاني ــ الطبعة الثانيــة ١٩٧٧م ــ دار الآفــاق الجديدة ــ بيروت.

٥٧ ــ (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) لِ أبي منصــور عبــد الملــك الثعــالبي «٣٥٠ ــ ٤٢٩هـ» تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ سلسلة ذخائر العرب رقم ٥٧ ــ طبعة ١٩٥٨م ــ دار المعارف بِ مصر.

٥٨ ــ (الفكر المصري في العصر المسيحي) لِ رأفت عبد الحميد ــ مكتبــة الأســرة مهرجــان القرآن ٢٠٠٠م الهيئة المصرية العامة لِ الكتاب ــ القاهرة.

٥٩ ــ (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) لِ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البــر النمــري ٣٦٨ ــ ٤٦٣هـ ــ توثيق وتحقيق طه عبد الرؤوف سعد ــ د. ت. ن ــ دار الغد العربــي ــ العباسية ــ مصر.

٦٠ ــ (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لِ عز الدين بن الأثير الجزري «٥٥٥ ــ ٦٣٠هـ» تحقيق محمد إبراهيم البناء وآخر ــ د. ت. ن ــ دار الشعب بِ مصر.

٦١ ــ (المعجم الموضوعي لِ القرآن الكريم) تحقيق حمزة النشرتي وآخرين ــ الطبعــة الأولــى ١٩٩٩م ــ الناشر هو المحقق الأول ــ القاهرة.

٦٢ ــ (مجتمع يثرب ــ العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخليفي) لِ خليل عبــد الكريم ــ طُبع مرتين ــ دار سينا بِ مصر ومؤسسة الانتشار العربي ــ بيروت ــ لبنان.

٦٣ ــ (القاموس المحيط) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي «٧٢٩ ــ ٨١٧هـ» الطبعــة الأولى ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٦٤ ــ (التحبير في علوم التفسير) لِ السيوطي ت ٩١١هـ ــ تحقيق وتقديم فتحي عبد القادر فريــد ــ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م دار المنار ــ القاهرة.

٦٥ ــ (البرهان في علوم القرآن) لِ بدر الدين محمد الزركشي ــ تحقيــق محمــد أبــو الفضــل إبراهيم ــ الطبعة الثانية ١٣٩١هـ/١٩٧٢م ــ الناشر ــ عيسى البابي الحلبي ــ بِ مصر.

٦٦ ــ (الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم) لِ أبي بكر بن العربي ــ تحقيق عبد الكبير

العلوي ــ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ــ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ــ المملكة المغربية.

٦٧ ــ (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام) لِ علي سامي النشار ــ الطبعة الثامنة ــ ١٩٧٧م دار المعارف بِ مصر.

٦٨ ــ (شجر الدُرّ) صنعة أبي الطيب عبد الواحد اللغوي ــ ت ٣٥١هـ ــ تحقيق حجر عبد الجواد ــ الطبعة الثالثة ١٩٨٥م ــ دار المعارف بِ مصر.

٦٩ ــ (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لِ الرافعي) تأليف أحمد المقري الفيومي ت ٧٧٠هـ ــ تحقيق عبد العظيم الشناوي ــ الطبعة الثانية ١٩٩٤م ــ دار المعارف بِ مصر.

٧٠ ــ (جامع البيان عن تأويل القرآن المعروف بِ تفسير الطبري) لِ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ــ ٢٢٤ ــ ٣١٠هـ ــ تحقيق محمود محمد شاكر ــ مراجعة أحمد محمد شاكر ــ الطبعة الثانية ١٩٧١ ــ دار المعارف بِ مصر.

٧١ ــ (أساس اللغة) تأليف جار الله الزمخشري ــ الطبعة الثالثة ١٩٨٥م ــ مركز تحقيق التراث ــ الهيئة المصرية العامة لِ الكتاب ــ القاهرة.

٧٢ ــ (المختار من صحاح اللغة) تأليف محمد محي الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف السبكي ــ الطبعة الثانية ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م ــ المكتبة التجارية الكبرى ــ مصطفى محمد ــ القاهرة.

٧٣ ــ (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) لِ الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ــ ٥٦٠ ــ ١٣٨هـ الجزء الأول ــ ص ٦٤ ــ تحقيق محمد مرس الخولي ــ الطبعة الأولى ١٩٧٢م ــ دار الكتاب الجديد ــ القاهرة.

٧٤ ــ (صفة الصفوة) لِ ابن الجوزي ٥٠٨ ــ ٥٩٧هـ ــ ص ١٦٤ ــ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ــ الطبعة الأولى ٢٠٠١م ــ دار الغد العربي ــ القاهرة.

٧٥ ــ (كتاب المغازي) لِ الواقدي ــ تحقيق ــ مارسدن جونز ــ ص ٧٦٤ ــ الطبعة الأولى ١٩٦٥م ــ منشورات مؤسسة الأعلمي ــ بيروت ــ لبنان.

٧٦ ــ (المعجم المبتكر في بيان ما يتعلق بِ المؤنث والمذكر) صنفه أبو الحسن ذو الفقار أحمد التقوي ــ ص ٨٤ ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٩٨م ــ مؤسسة الانتشار

العربي ـــ بيروت.

٧٧ ـــ (في ظلال القرآن) سيد قطب ـــ المجلد الأول ـــ الجزء الرابع ص ٤٩٧ ـــ الطبعة الشرعية الحادية عشرة ـــ ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ـــ دار الشروق بـِ مصر.

٧٨ ـــ (الطبقات الكبرى) لـ ابن سعد ـــ الجزء الثاني ـــ ص ٢٠٠ ـــ سلسلة التاريخ الإسلامي ـــ لجنة نشر الثقافة الإسلامية ـــ مصر.

٧٩ ـــ (فقه السيرة) لـِ محمد الغزالي ص ٤٠٩ الطبعة الثامنة ـــ ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م دار الكتب الإسلامية ـــ بـِ مصر.

٨٠ ـــ (البيان في تفسير القرآن) لـِ الإمام أبي القاسم الموسوي الخُوئي ـــ طبعة ١٩٧٤م ـــ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـــ بيروت ـــ نقلاً عن:

٨١ ـــ (جدل التنزيل) لـ د. رشيد الخيون ـــ الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ـــ منشورات الجمل ـــ كولونيا ـــ ألمانيا.

٨٢ ـــ (سير أعلام النبلاء) لـِ شمس الدين الذهبي ـــ الخامس ١٩٨٢م ـــ مؤسسة الرسالة ـــ بيروت.

٨٣ ـــ (طبقات النحويين) لـِ محمد بن الحسن الزبيدي ـــ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ـــ الطبعة الثانية ـــ ١٩٨٤م ـــ دار المعارف بـِ مصر.

٨٤ ـــ (فترة التكوين في حياة الصادق الأمين) لـِ خليل عبد الكريم ـــ الطبعة الأولى ٢٠٠١م ـــ دار مريت القاهرة ـــ وقد طبع مرتين خلال ستة أشهر.

٨٥ ـــ (شدو الربابة في أحوال مجتمع الصحابة) لـِ خليل عبد الكريم ـــ ٣ أسفار ـــ الطبعة الأولى ١٩٩٧م ـــ دار سينا ـــ القاهرة ومؤسسة الانتشار العربي ـــ بيروت.

٨٦ ـــ (المعجم الوجيز) مجمع اللغة العربية ـــ مصر.

٨٧ ـــ (المعجم الوسيط).

٨٨ ـــ (جوامع الكلم من أحاديث سيد العرب والعجم) تجميع صلاح الدين التجاني ـــ مهرجان القراءة ٢٠٠٠م للهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨٩ ـــ (دفاع السنة) لـِ محمد أبو شهبة ـــ الكتاب الثاني من سلسلة البحوث الإسلامية ـــ ١٤١٢هـ/١٩٩٩م ـــ السنة الثلاثون ـــ مجمع البحوث الإسلامية ـــ الأزهر ـــ القاهرة.

٩٠ ــ (جلال الدين السيوطي ــ سيرته العلمية ومباحثه اللغوية) لِ مصطفى الشكعة ــ الطبعة الأولى ــ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٥م. الدار المصرية اللبنانية ــ القاهرة.

٩١ ــ (بحار الأنوار الجامعة بِ دور أخبار الأيمة الأطهار) لِ محمد باقر المجلسي ــ طبعة ١٩٨٣م دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ مصدر غير مباشر.

٩٢ ــ (التبيان في إعراب القرآن) لِ أبي البقاء عبد الله العكبري ٥٣٨ ــ ٦١٦هـ الجزء الأول ــ الطبعة الأولى ١٩٨٨م ــ المكتبة التوفيقية ــ مصر.

٩٣ ــ (تفسير القرآن الكريم) لِ الشيخ محمود شلتوت ــ الأجزاء العشرة الأولى ــ دار القلم بِ مصر.

٩٤ ــ (الكتاب المقدس) يشوع.

٩٥ ــ (الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء) لِ الكلاعي «٥٦٥ ــ ٦٣٤هـ» تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ــ الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م ــ مكتبة الخانجي ــ مصر.

٩٦ ــ (سنن ابن ماجة) لِ الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ــ ابن ماجة «٢٠٧ ــ ٢٧٥هـ» تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ــ طبعة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ــ دار إحياء التراث العربي ــ دون ذكر المدينة.

٩٧ ــ (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ البخاري ومسلم) تجميع محمد فؤاد عبد الباقي ــ مراجعة عبد الستار أبو غدة ــ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ــ نشرته الجمعية الإسلامية الصينية ــ بكين ــ الصين.

٩٨ ــ (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ــ الشهير بِ السيرة الحلبية) تأليف علي بن برهان الدين الحلبي ــ ٩٧٥ ــ ١٠٤٤هـ ــ الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ــ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بِ مصر.

٩٩ ــ (الإجابة لِ إيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) لِ بدر الدين الزركشي «٧٤٥ ــ ٧٩٤هـ» تحقيق رفعت فوزي عبد المطلب ــ الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م ــ مكتبة الخانجي ــ بِ مصر.

١٠٠ ــ (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لِ ابن حجر العسقلاني ــ ت ٨٥٢هـ ــ تحقيق محمد سيد جاد الحق ــ د. ت. ن ــ دار الكتب الحديثة ــ مصر.

١٠١ ــ (تفسير مقاتل بن سليمان) «٨٠ ــ ١٥٠هـ» تحقيق عبد الله شحاته ــ ساعد المجمع العلمي العراقي في نشره ــ دار الشروق بمصر.

١٠٢ ــ (تاريخ السنة النبوية ــ ثلاثون عاماً بعد الرسول) لِ صائب عبد الحميد ــ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ــ الغدير لِ الطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ لبنان.

١٠٣ ــ (تفسير سور المفصل من القرآن الكريم) لِ عبد الله كنون ــ ص ١٣ ــ ١٤ ــ الطبعة الأولى ــ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ــ دار الثقافة ــ الدار البيضاء.

١٠٤ ــ (نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر) لِ ابن حجر العسقلاني «٧٧٣ ــ ٨٥٢هـ» تحقيق محمود حمودة ــ الطعبة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ــ مكتبة الآداب بِ مصر.

١٠٥ ــ (تفسير سورة آل عمران) لِ عبد الحليم محمود ــ (تربع على كرسي رئاسة شئون التقديس المهابة) الطبعة الأولى ١٩٧٨ ــ الدار المصرية لِ الطباعة والنشر والتوزيع ــ القاهرة.

١٠٦ ــ (القاموس الموجز لِ الكتاب المقدس) طبعة ثانية ١٩٩٢م ــ الناشر ــ مكتبة كنيسة الإخوة ــ شبرا ــ مصر.

١٠٧ ــ (قاموس وبستر العالم الجديد) الطبعة الثانية.

١٠٨ ــ (القاموس الجديد لِ التيولوجيا) طبعة المملكة المتحدة «إنجلترا» والولايات المتحدة.

١٠٩ ــ (موسوعة الأديان في العالم) «مجلد الديانات القديمة» الطبعة الأصلية ١٠٠٠ ــ إصدار اديتوكريس ــ بيروت ــ لبنان.

١١٠ ــ (الفلكلور في العهد القديم) لِ جيمس فرمرز ــ ترجمة د. نبيلة إبراهيم.

١١١ ــ (الموسوعة النقدية لِ الفلسفة اليهودية) لِ عبد المنعم حنفي ــ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ــ دار المسيرة ــ بيروت.

١١٢ ــ (قاموس علم الاجتماع) لِ عاطف محمد غيث ــ الطبعة الأولى ــ دار المعرفة الاجتماعية ــ الإسكندرية.

١١٣ ــ (معجم علم الاجتماع) ــ تحرير دنكن ميتشيل ــ ترجمة ومراجعة إحسان محمد الحسن ــ الطبعة الثانية ١٩٨٦م ــ دار الطليعة ــ بيروت.

١١٤ ــ (موسوعة علم الإنسان) لِ شارلون سمور سمث ــ ترجمة مجموعة مــن أســاتذة علــم الاجتماع بإشراف محمد الجوهري ــ الطبعة الأولى ١٩٩٨م ــ العدد ٦١ مــن المشــروع القومي لِ الترجمة ــ المجلس الأعلى للثقافة ــ القاهرة.

١١٥ ــ (دولة يثرب لـ بصائر في عام الوفود وفي أخباره) لِ خليل عبد الكريم ــ الطبعة الأولى ١٩٩٩م ــ دار سينا للنشر ــ مصر ــ ومؤسسة الانتشار ــ العربي.

١١٦ ــ (كتاب المصاحف) لِ أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشــعث السجســتاني ــ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م دار الكتاب العلمية ــ بيروت.

١١٧ ــ (فضائل القرآن) لِ ابن كثير ــ ٧٠٠ ــ ٧٧٤هـ ــ الطبعة الأولــى ١٩٧٩م ــ الناشــر علي رحمي ــ بِ مصر.

١١٨ ــ (تاريخ القرآن) لِ عبد الصبور شاهين ــ الطبعة الثانية ــ الناشر هو المؤلف.

١١٩ ــ (المصحف الشريف ــ دراسة تاريخية وفنية) محمد عبــد العزيــز مــرزوق ــ طبعــة ١٩٨٥م ــ سلسلة «قضايا إسلامية» الهيئة المصرية العامة لِ الكتاب ــ القاهرة.

١٢٠ ــ (الاتقان في علوم القرآن) لِ السيوطي ت ٩٩١هـ الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بِ مصر.

١٢١ ــ (أضواء على مصحف عثمان بن عفان ورحلته شرقاً وغرباً) لِ سَحر السيد عبد العزيــز سالم ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٩١م ــ الناشر: مؤسسة شباب الجامعة ــ الإسكندرية.

١٢٢ ــ (القرآن وعلومه في مصر) لِ عبد الله خورشيد البري ــ الطبعة الأولــى ١٩٧٠م ــ دار المعارف بِ مصر.

١٢٣ ــ (القصص الفني في القرآن الكريم) تأليف د. محمد أحمد خلف مع شرح وتعليــق خليــل عبد الكريم ــ الطبعة الرابعة ١٩٩٩م ــ دار سينا لِ النشر بِ مصر ومؤسســة الانتشــار العربي ــ بيروت ــ لبنان.

السفر الثاني

الباب الأول
آيات التربية

الباب الثاني
آيات الحجاج مع اليهود

* * *